جمهورية مصر العربية
الهيئة العامة للاستعلامات
كتب مترجمة رقم (٧٤٣)

MOLLY IZZARD

الخليج

THE GULF

الخليج

ARABIA'S WESTERN APPROACHES

الخليج

محاولات الغرب للتقرب إلى شبه الجزيرة العربية

تأليف: مولى ايزارد

جمهورية مصر العربية
الهيئة العامة للاستعلامات
كتب مترجمة رقم (٧٤٣)

الخليج

محاولات الغرب للتقرب إلى شبه الجزيرة العربية

تأليف: مولى ايزارد

الفصل الأول

شبه الجزيرة العربية ــ جغرافيتها ــ دول الخليج ــ مواردها ــ شعوبها ــ ما تمتلكه ومالا تمتلكه ــ تكوين ثرواتها ــ الجالية الأجنبية ــ وضعها ــ دورها.

* * *

كان من المألوف سابقاً أن يطلق عليه اسم الخليج الفارسي ، أما الآن فقد أصبح معروفاً باسم الخليج العربي : وذلك هو التعريف الذى تصر عليه سلطات البريد فى الدول العربية ، مهددة بعدم قيامها بتسليم الرسائل إذا لم تحمل كلمة « العربى » . ولم يعد هناك سوى الإيرانيين فحسب الذين يطلقون على الخليج الاسم القديم ، ويقومون بطبع ذلك الاسم القديم على خرائطهم ، بيد أن ذلك كله ما هو إلا نوع من الدعاية وليس تعبيرا عن الحقيقة . فالخليج يعد فى الوقت الراهن جزءاً من ميراث العالم العربى ، الذى فرض وجهة النظر هذه على البقية الباقية منا وهى أن الساحل الشرقى للخليج والذى يمثل الساحل الجنوبى لإيران الحديثة لا يشكل أية أهمية بالنسبة لوضعه الحالى ومن ثم فقد تجاهلوه .

وقد طرأ ذلك التغير على هوية الخليج فى فترة السنوات العشر الماضية فحسب ، وقبل ذلك ، كان من المعروف أن الخليج الفارسى امتداد للبحر العربى الذى يعد فى حد ذاته جزءاً من المحيط الهندى الذى يحيط بالأطراف الساحلية الجنوبية لشبه الجزيرة العربية تلك المساحة من الأرض التى تأخذ شكل المستطيل وتمتد فيما بين قارتى أفريقيا وآسيا ويحيط بها البحر من ثلاث جهات وتقع أطول سواحلها على البحر الأحمر .

ومن المؤكد أن ذلك الجزء من الأرض – ألا وهو برزخ السويس الذى يفصل ما بين أقصى امتداد للبحر الأحمر وبين البحر الأبيض لم تكن فى وقت ما برزخا بل كان مضيقاً . وخلال فترة جيولوجية متأخرة نسبياً كان البحر المتوسط لا يزال يتصل بالبحر الأحمر عن طريق قناة ضحلة كان من شأنها الربط بين سلسلة من البحيرات . ثم قام البحران تدريجيا بشق طريقهما فى الأرض جنوباً وشمالا إلى أن فصلت بينهما قطعة أرض ضيقة ، وهكذا تمت عملية الفصل المادية بينهما ، ولم يتم التغلب على ذلك إلا من خلال الجهود الملاحقة من جانب أولئك الذين يشقون القناة .

والخط الساحلى للخليج أقصر ، وهو يمتد شمالا على شكل منحنى من رأس موسندام حتى شط العرب . وعند هذه النقطة تفصل المنطقة الصحراوية التى تمتد بضعة آلاف من الأميال بين الشواطىء الشمالية للخليج وبين ساحل البحر الأبيض المتوسط ، وذلك على النقيض من المنطقة التى تبلغ مساحتها بضع مئات من الأميال تفصل بين السويس على البحر الأحمر وبين بورسعيد على البحر الأبيض . وقد كان لتلك الحقيقة الجغرافية الملموسة أثر بالغ على تاريخ التجارة فى المنطقتين .

ويمتد الخليج من شاطىء ساحلى رملى ضحل ، واقع على الشاطىء العربى فى المرسى العميق الواقع على الجانب الفارسى . وحتى يتم الوصول إلى المرسى يتعين على السفن المرور من خلال الممر الضيق الذى يبدأ من خليج عمان الذى يحيط برأس موسندام بما فيه من قوة مد وجزر ورياح متقلبة غير ثابتة الاتجاه . وهنا تتغلغل جبال عمان فى مضيق هرموز ، الذى تشكل سلسلة الجزر المحيطة به وسواحله الصخرية ممرا محفوفاً بالمخاطر يؤدى إلى ما وراء الخليج .

وعلى نحو مشابه ، نلاحظ على الجانب الآخر لشبه الجزيرة ، أن اتساع البحر الأحمر يضيق حتى يصبح اتساعه مشابهاً لتلك القناة البريطانية بين كاليه ودوفر ، وهكذا يعد باب المندب – « باب الدموع » – بمثابة مدخل للوصول شمالا إلى البحر الأبيض المتوسط وأوروبا .

إن شبه الجزيرة العربية التى تعد كجسراً من الأرض بين بحر قزوين والبحر الأبيض المتوسط تمتد جنوباً على عالم المحيط الهندى وتمثل جزءاً منه . وتبدو جيولوجيتها غير سوية ومضطربة . وقد حدثت تقلبات ضخمة فيما مضى تولدت عنها صخور شاهقة الارتفاع ظهرت على جانبها الغربى وأدت إلى انحدار الأرض تدريجيا . نحو شواطىء الخليج . وهناك عدد أكبر من الجبال التى تشرف على الشواطىء الغربية وتعلوها قمم مدببة الشكل تحتفظ بين صخور مختلف جوانبها بمياه الأمطار الموسمية القادمة عبر المحيط الهندى وتدفعها إلى أسفل عبر الضاب والتشققات إلى الوادى الساحلى الضيق الممتد أسفله . وخلف هذه الجبال تقع صحراء الربع الخالى الشاسعة وتشكل حاجزاً فعالا – شأنها فى ذلك شأن أى سلسلة جبلية – وتمتد من اليمن الشمالية إلى دول الخليج الحديثة .

ويكمن قلب العالم العربى فيما وراء تلك الموانع الهائلة ويتمثل فى المملكة العربية السعودية الحديثة . وهى عبارة عن سهل مرتفع محاط بالجبال ويطل شمالا على سهل ضحل وصحراء تحميه من سهولة الوصول إليه عن طريق الساحل السورى وحتى القرن التاسع عشر لم تطأ أقدام الأوروبيين المنطقة الداخلية – التى تبعد عن الساحل . وقد قام عدد قليل من الغربيين برحلات تجريبية عن طريق بعض الأراضى الساحلية ، ولاسيما تلك الأراضى المحيطة بالبحر الأحمر وقد تردد الكثير من المسلمين الذين ينتمون إلى قوميات وطوائف مختلفة على أرض الحجاز التى تضم المدينتين المقدستين وهما مكة والمدينة ، بيد أن الأجزاء الداخلية ظلت دون أن تكتشف حتى وقت لاحق ، كما ظل من الصعب الوصول إليها . وعلى الرغم من أن البلد أصبحت الآن وفى نهاية القرن العشرين تتبع أساليب الحياة الحديثة ، إلا أنه لم يتم بعد إجراء مسح شامل ودقيق لها ، فضلا عن أنها لا تزال مغلقة أمام الرحالة الباحثين الذين يقومون برحلاتهم ، لا لسبب سوى إشباع غريزة حب الاستطلاع لديهم .

وينقسم ذلك الجزء الداخلى المنعزل والذى يقع على طول أكثر من عشر

درجات من خط العرض إلى ثلاثة أجزاء . فهناك صحراء الرمال الحمراء الجنوبية وصحراء الربع الخالى ، التى كان من المتعذر فيما مضى اجتيازها ، والتى يجرى بشأنها الجيولوجيون التابعين لشركة أرامكو بحوثاً على نطاق واسع فى الوقت الراهن . ثم يأتى بعد ذلك السهل الرئيسى وهو عبارة عن هضبة جبلية مرتفعة ذات عمق يقدر بسبعمائة ميل وتعرف باسم نجد . وهى تعد منطقة خصبة نسبياً ولاسيما منطقة قازيم ، ثم منطقة جبل شمار وهى منطقة جبلية تقع فى الشمال وتعد بمثابة حد جنوبى لمنطقة رملية قاحلة واسعة النطاق . أما صحراء « نفود » الشمالية التى تشبه تلك الممتدة جنوب نجد فهى منطقة تتسم بكثبانها الرملية المرتفعة ، التى تتراوح ارتفاعاتها ما بين ١٥٠ قدما و ٦٠٠ قدم كلما اتجهنا جهة الجنوب الغربى . وتقع شرق هذه الكثبان الرملية بلدة « داهار » تلك الصحراء الصخرية الموازية لخط الخليج . وتشكل همزة وصل مع صحراء الربع الخالى الجنوبية كما تشكل عائقاً يحول دون الوصول – من جهة الشرق – إلى الهضبة المرتفعة الرئيسية .

وهكذا تتمتع « نجد » بالحماية فى ظل تلك الموانع الطبيعية التى تنطوى على قدر هائل من المنعة والتعقيد والتى تفرض على هؤلاء الذين يحاولون اختراقها أن يكونوا على درجة متقدمة جداً من الفهم والحنكة لوسائل النقل والإيواء . ومن ثم تلعب الجبال والصحارى والأحواض البحرية المرجانية ، والبحار ذات المياه الضحلة دورها فى تأكيد عزلة تلك الهضبة المرتفعة ، وإذا كان للجغرافيا الطبيعية أى علاقة بتكوين طابع السكان فى منطقة ما من المناطق ، فيمكن القول بأن ذلك الجزء الرئيسى من الجزيرة العربية يشكل الدرع الهائل الذى يتسم بالقسوة والصرامة والتطرف ولا يشجع أحداً على الدخول فيه ، ومع ذلك يضم مناطق تتمتع بقدر هائل من جمال الطبيعة .

والوصول إلى ذلك العالم المنعزل قبل ظهور الطائرات والعربات لم يكن بالأمر الهين أو اليسير ، لأن ذلك كان يتطلب القيام برحلات شاقة تستغرق عدة أسابيع . ويمكن الوصول إليه غرباً من البحر الأحمر عن طريق تسلق

السهل الساحلى ، أو من البحر الأبيض المتوسط بشق طريق عبر جبال فلسطين والأردن يصل إلى وادى سرحان وهو منخفض يبلغ طوله ٢٠٠ ميل مزود بالمياه الوفيرة ويقع إلى الشمال من صحراء « نفود » وعند وادى سرحان حتى يصل إلى واحة جوف – سكاكا التى تعد بمثابة مفترق طرق لحركة المرور القادمة جنوباً من بغداد ومن رأس الخليج ومتجهة إلى المدن الداخلية مثل تايمه أو المدينة .

وهناك وراء « نجد » إذا اتجهنا جهة الشمال الشرق صحراء أخرى وهى الصحراء السورية وهى التى تعد من الناحية الجيولوجية بمثابة امتداد للهضبة العربية . وترتفع عن مستوى البحر بما يقرب من ألفين إلى ثلاثة آلاف قدم .

وتنتهى الهضبة العربية عند خط ٣٠ الموازى ، وهو خط يبدأ من رأس خليج العقبة ، مارا بجوف حتى رأس الخليج الذى تعلوه سوريا وبلاد الرافدين القديمة ، كما يقع أيضاً ذلك الهلال الخصيب الذى يمتد من شاطئ البحر المتوسط وحتى العراق الحديثة ماراً بحلب .

وتنحدر تلك الهضبة الصحراوية السورية برفق تجاه وادى الفرات ويأخذ ارتفاعها فى الانخفاض حتى يصبح ارتفاعها مساوياً لارتفاع مستوى البحر تقريباً وذلك بالقرب من البصرة . وعند الطرف الشمالى للخليج ، ينحنى الخط الساحلى للشاطئ العربى جنوباً لينغمس فى الساحل المتبعج للإمارات المتهادنة سابقاً والتى تعرف الآن باسم الإمارات العربية المتحدة الحديثة . ويبدأ الخط الساحلى من خليج الكويت العظيم الذى يعد بمثابة أكبر مرفأ طبيعى على الساحل ، ثم يتجه جنوباً حتى جزر البحرين ثم ينثنى فيما بين البحرين ونتوء قطر ، ثم يبرز بعد ذلك من ساحل هسا المتبعج على نحو مشابه للإبهام الكبير . ثم ينحنى إلى أعلى محيطاً بذلك الساحل المتبعج حتى يصل إلى قمة موسندام المدببة لينفتح على مضيق هرموز .

وهذا الساحل معروف بأنه ساحل جدب ومهجور ، واجتيازه أو الإبحار فيه ليس بالأمر السهل ، ولم يكن من الممكن الإبقاء على صلاحية الموانىء

الواقعة على ذلك الساحل فى الوقت الراهن إلا عن طريق القيام بعمليات تطهير دائمة للساحل . فى فصل الشتاء تهب الرياح « الشمالية » دون إنذار مبكر ومن ثم ينتاب البحر حالة من الهياج تجعل الوصول إلى شواطئه محفوفاً بالهلاك والموت . وتحدث انكسارات هائلة ولاسيما فى الصباح المبكر يترتب عليها ظهور آفاق مضللة من شأنها تصعيب مهمة رؤية وتحديد اليابس وتؤدى إلى تحويل الكثبان الرملية لتلال شامخة . ولو نظر المرء إلى البحر من الجو فسوف يرى مياه البحر فى لون متألق على نحو رائع ، حيث تؤدى المستويات المختلفة لقطاع البحر إلى تباين درجات ألوان مياه البحر الضحلة . وبعد ذلك الشريط الساحلى المتألق الذى يمتد إلى أسفل حتى يصل إلى طرف عمان الصخرى أجمل منطقة فى الخليج .

ومن بين إحدى عشرة دولة عربية مستقلة تطل على الخليج هناك أربع دول فقط تتمتع بثراء حقيقى . والسبب فى ذلك يرجع إلى أن الثروة البترولية لم يتم بأى حال من الأحوال توزيعها على نحو عادل ، وعلى الرغم من تجاور الدول الغنية فى شبه الجزيرة العربية إلا أن هناك افتقار للعلاقات الطيبة فيما بينها .

والمملكة العربية السعودية هى أكبر وأغنى دولة بين هذه الدول الأربع ، لأن إنتاجها اليومى من البترول يقدر بـ٩ مليون برميل وهكذا يتجاوز إنتاجها إنتاج أى دولة أخرى بمفردها بل أنه يتجاوز إنتاج الدول الأربع مجتمعة .

وتأتى بعد ذلك الكويت ، وهى دولة صغيرة تقدر مساحتها بستة آلاف ميل مربع ويقدر إنتاجها اليومى من البترول بـ ١٫٥ مليون برميل .

وتأتى أبو ظبى فى المرتبة الثالثة ، وتقدر مساحتها بنحو ٢٥ ألف ميل مربع ويبلغ طول شواطئها على الخليج ٢٥٠ ميل . وتعد أبو ظبى من الناحية المادية أكبر دولة فى دول الخليج ، ويعيش على أرضها الصحراوية الداخلية

عدد من البدو المهاجرين ، ولم يكن معظمهم يعيش فى هذه الدولة . ويقدر إنتاج « أبو ظبى » من البترول بمليون برميل يومياً .

وفى النهاية ، تأتى قطر التى يقدر إنتاجها بنصف مليون برميل يومياً وتضم قطر الأغنياء كما تضم الفقراء . وتبلغ مساحة شبه جزيرة قطر نحو ٤٠٠٠ ميل مربع ، وتقع على الخليج فيما بين مدخل مضيق هرموز ونهايته عند بداية شط العرب .

وتمتلك بعض الدول الصغيرة الأخرى مثل البحرين ودبى وسلطنة عمان ومسقط قدراً من البترول ولكنه بكميات صغيرة نسبياً ، حيث يقدر إنتاج دبى ومسقط بنحو ١٢٠ ألف برميل يومياً . وتنتج دبى ١٠ هو أقل من ذلك . وعلى الرغم من ذلك فإن دخلهم من البترول مفيد بالنسبة لاقتصادهم المحلى ، أما فيما يتعلق بالدخل المتاح فلا يمكن مقارنته بالعائدات الضخمة التى تتلقاها الدول الأربع السالفة الذكر والتى تنفقها ببذخ مبالغ فيه فى الداخل وفى الخارج . وقطر هى الدولة الوحيدة التى تستغل ثروتها بحكمة وتعقل لأنها لا تنفق قط أكثر من ٣٥٪ من دخلها السنوى ، ويتم إضافة باقى الدخل إلى الاحتياطى وثمة تساؤل قد يتبادر إلى الذهن عن كمية هذا الاحتياطى وأين وكيف تودعه . وهو أمر محاط بالسرية ، ولكن عندما انفجر مصنع الغاز الطبيعى فى أم سعد عام ١٩٧٧ لم تشعر الدولة بأى قلق تجاه المبالغ اللازمة لإعادة بناء المصنع ، وذلك على النقيض من مشاعر القلق التى ساورتها بشأن الاستمرار فى تحقيق مزيد من التطور خلال الفترة اللازمة لإعادة البناء .

وقد اكتشفت أن أصعب شيء بالنسبة لأى مشروع هو تحرير الذهن من أى توقعات وإعداد النفس للإذعان لما قد يكتشفه المرء دون أى استجابة مسبقة .

وأنا أنتمى إلى جيل نشأ فى ظل الإمبراطورية البريطانية القديمة ، ولازالت طفولتى تعكس بريق الإمبريالية . وقد كنا ونحن أطفال فى المدارس الداخلية نشعر منذ طفولتنا بالألفة تجاه تلك الأراضى التى أصبحت الآن

محط أنظار السياح ، وتشعر تجاه الهند وماليزيا ومصر وأفريقيا بقدر من الألفة كما لو كانت وطناً لنا ، إلى أحد أنه حتى إذا لم نكن على علم بمكان محدد ، فهناك من يبلغنا عن ذلك ، فهناك دون شك أحد المعارف أو الأقارب كأب أو جد أو خال أو عم أو ابن خال أو ابن عم أو حتى زميل دراسة قد تواجد فى وقت ما فى تلك الأماكن .

أما بالنسبة لجزيرة العربية فالأمر يختلف . . لقد انتمت تلك المنطقة إلى إمبراطورية مختلفة تمام الاختلاف ، ألا وهى الإمبراطورية العثمانية ، تلك التى تلاشت من الوجود فى وقت مولدنا ولم نعرف عنها شيئاً من خلال دراستنا . وقد اعتدت أن أنظر إلى خريطة العالم أثناء حصص الجغرافيا وأتحسر لعدم وجود الكثير مما يمكن أن يقرأ بشأن تلك المنطقة . ولم يكن ذلك بدافع من تأكيد الذات السياسية ولكن لمجرد الاهتمام بالتجانس التكوينى .

لقد كان تى .أى . لورانس بالنسبة لى وبالنسبة للجيل الذى أنتمى إليه بمثابة القناة التى تم التوصل من خلالها إلى تطوير مسألة الاهتمام بالعرب . وقد اعتبر – بلامنازع – كتاب « دعائم الحكمة » السبع » الذى وضعه بمثابة إنجاز بطولى ، وقد دعمت رسومات أريك كينجتون الخاصة بالشخصيات العربية التى شاركت فى الثورة العربية ذلك الأمر . لقد ارتبط لورانس والعرب معاً فى أذهاننا ، وارتبط أحدهما بالآخر ارتباطاً وثيقاً . وعندما قادتنا المزيد من القراءات إلى بيرتون جرترود بل وفرياستارك وبرترام توماس فيلبى وزسيجر ، أدركنا أن ارتباط العرب بشعبنا هيأ لهم اكتساب شخصيتهم وترك الانطباع بأن منطقة شبه الجزيرة العربية هى منطقة من اختراعنا ، وأنه أصبح لهذه المنطقة وجود من خلال القصص التى رواها الرحالة التابعون لنا وكذا من رعاية الجمعية الجغرافية الملكية لها .

ولقد كانت مفاجأة بالنسبة لى أن أدرك فى وقت لاحق أن هناك أوروبيين آخرين – ناهيك عن الإنجليز – قاموا باختراق منطقة شبه الجزيرة العربية وأن الإيطاليين والسويسريين والدانماركيين ، والألمان والبرتغاليين جميعاً

أسهموا فى اكتشاف منطقة شبه الجزيرة والتحرى عنها شيئاً فشيئاً ، والوصول إلى تلك المعلومات التى كانت فى حوزة الجغرافيين ودارسى علم تاريخ العالم الطبيعى فى ذلك الوقت .

ومن المؤكد أن هذه المعلومات كانت محدودة إلى حد كبير . ولذا قامت الجامعات الأوروبية بدراسات علمية فى ذلك الشأن ، وقام العلماء الألمان والهولنديون بفحص بنية اللغة السامية والتعليق على النظرية الاسلامية . أما عملية مسح الأراضى ورسم الخرائط لسواحل المنطقة العربية فقد كانت من اختصاص البحرية الملكية والسفن الهندية . وقد تم ذلك أيضاً فى القرن الماضى . وقد بدأ القرن العشرين وهناك وجود بحرى بريطانى فى البحار المجاورة ، وعدد من العملاء السياسيين – ممن تقوم الحكومة الهندية بسد حاجتهم – وهم متناثرون على طول شواطىء الخليج الفارسى والطرف الجنوبى الشرقى لشبه الجزيرة العربية . وقد أمكن الاستحواذ على عدن عام ١٨٣٩ بوصفها محطة لتزويد الأسطول – الذى أصبح يعمل حديثاً بالبخار – بالفحم ، حيث أقيم فيها حامية عسكرية ، وقد تم فيما بعد توسيع رقعة هذه الحامية تحت ستار فرض الحماية على طول ساحل حضرموت . ولم يتوجه إلى ذلك المكان أى شخص له أهميته ، إلى أن دعا لورد جوردون فى عام ١٩٠٣ بوصفه نائبا عن الهند إلى عقد اجتماع لزعماء الامارات المتهادنة وأشار إلى مدى اعتمادهم على النوايا الطيبة للحكومة الهندية . فالساحل العربى كان محطة سيئة ، يسوده مناخ حار غير صحى وكان من شأنه والحال هذه أن يلقى المندوبون السياسيون ، وضباط البحرية ومساحوا الأراضى والبحارة حتفهم بصورة منتظمة مروعة . وفيما يتعلق بالسياسات الهندية ، وخاصة بالنسبة لأولئك الذين يتبوأون المرتبة الثانية فى الحكومة أو الجيش الهندى فلم تكن تلك المنطقة تمثل بالنسبة لهم مجالا للطموح ولم يكن أحد يسعى لشغل وظيفة قنصل فى هذه المنطقة ، وهكذا كان يتعين فى نهاية الأمر شغل هذه الوظائف عن طريق لندن رأساً وليس عن طريق سيملا .

ولم يكن لأدب الرحلات العربية من تأليف روتى وبوجراف وبلانتس قاعدة عريضة من القراء ، وغالباً ما كان يقرؤه المغامرون من ضباط الجيش

الهندى الذين يسعون من أجل الحصول على معلومات بشأن الطريق البرى الذى يصل إلى وطنهم ماراً عبر الصحراء الممتدة من البصرة أو الكويت . وسرعان ما أدى التطور ، الذى أسفر عن اختراع قوارب سريعة للبريد تبحر فى مياه البحر الأحمر حتى عدن ثم عبر المحيط الهندى إلى بومباى ، إلى التخلص من الأساس الذى تعتمد عليه مثل تلك المغامرات ، وبعد انقضاء خمسين عاماً وفى بداية العشرينات بينما كنت لا أزال فى طفولتى أصبحت السفن الفرنسية الصنع – وهى سفن ذات طراز غريب وجديد – هى النمط المقبول للسفر ، كما أصبح أسلوب الحياة على ظهر السفن بمثابة جزء لا يتجزأ من التجارب والخبرات التى ترثها بعض العائلات مثل العائلة التى أنتمى إليها . ولم تكن شبه الجزيرة جزءاً من تلك التجربة أو الخبرة ، ومما لاشك فيه أن المسافر إلى الخليج كان يتحتم عليه الذهاب أولا إلى بومباى ليستقل بعد ذلك أحد الزوارق التى تقوم برحلات منتظمة للبصرة ثم يتركه هناك ليواجه مصيره . ولم يكن هناك فى ذلك الحين أرض فى محاذاة رصيف الميناء وهكذا كان يتعين على الزورق أن يرسو على بعد ميلين أو أكثر من الشاطىء على أن يتم بعد ذلك نقل المسافرين والبضائع إلى قوارب التموين أو إلى المراكب المسطحة القاع التى تستخدم فى تفريغ أو تحميل السفن ، وهكذا كانت العملية مزعجة وتنطوى على قدر كبير من الإثارة والإجهاد النفسى ، وبمجرد أن يصل المسافرون يتعين عليهم أن يحتشدوا فى ممر ليستطلعوا أخبار الجمارك ، ثم يلقى بالمسافر بعد ذلك بين أيادى الجموع المحتشدة التى تلوح للقادمين وتتوق إلى الالتقاء بهم .

لقد بدأت أعيش فى العالم العربى فى عام ١٩٥٠ ، بالإقامة فى القاهرة . والعالم الإسلامى هو عالم مألوف بالنسبة لى منذ طفولتى ولكن تلك كانت المرة الأولى التى أعيش فيها وسط شعب يتحدث باللغة العربية . وكنت أعتقد فى البداية أن هناك نزاع دائم يدور بشأنى ، والسبب فى ذلك هو زيادة تغير نبرتى فى نطق اللغة العربية وسرعة غضب المواطنين واستيائهم . وبعد مصر عشت فى قبرص التركية ، وهو مجتمع إسلامى آخر ، مجتمع سنى لم تزعجه

حتى ذلك الحين الأفكار الحديثة المتعلقة بالإصلاح السياسى . وعلى الرغم من الفقر والجمود اللذين يخيمان على حياة جيرانى ، إلا أن السكان كانوا يتسمون بكبرياء شامخ وذوق وبراعة وعطف ورقة ، وتنبثق تلك الصفات من ماضيهم العثمانى أى قبل خضوعهم للحكم البريطانى .

ثم عشت بعد ذلك فى لبنان وسوريا والأردن .. ويمكن القول بأنى لم أر عربا حقيقيين حتى عام ١٩٦٦ عندما فرض عمل زوجى علينا الذهاب إلى منطقة الخليج . ويحتفظ العرب الذين يعيشون فى الشمال بكافة سمات الفترة العثمانية التى انتهت عام ١٩١٩ ، فالأجيال المسنة لازالت تعكس الأسلوب والسلوك العثمانى ، وفى الوقت نفسه تفتحت أذهانهم على الأفكار والاختراعات الغربية ، داخل المدارس التى أقامتها البعثات الفرنسية والأمريكية منذ مائة عام أو ربما أكثر من ذلك عندما أقدمت تركيا على اتخاذ خطوة حاسمة نحو معايشة العصر الحديث .

أما عرب الخليج فقد كانوا مختلفين تماماً ، حتى فى تكوينهم الجسمانى الذى يتصف بنحالة القامة ، فالبدو صغار الحجم ، قصار القامة ذوو لحى ويميل لون بشرتهم إلى اللون البنى الغامق . أما عرب الشمال فهم أقوياء البنية يتسمون بالجد والثبات . وقد يكون بوسعك ملاحظة الفرق على الفور عندما يتقدم حمال الحقائب ليحمل لك متاعك فى مطار بيروت . فهناك نضرة خاصة تميز بشرته ، ويرجع ذلك إلى نشأتهم بين المرتفعات والجبال التى يكسوها الشتاء بالجليد ، وهم يتميزون بقوة العضلات ويرجع ذلك إلى وفرة الطعام نظراً لخصوبة الأراضى .

ويطل عرب الخليج على المحيط الهندى ، ومن ثم فهم ينتمون إلى الجنس الجنوبى . وتبدو مظاهر الشبه بينهم فى خطاهم المتمهلة وهم يرتدون الجلباب الأبيض النظيف غير المزخرف على نحو يتسم بالكبرياء ، كما تبدو فى نظرات عيونهم الداكنة السوداء . ويبدو ذلك الشبه أيضاً فى مجوهرات نسائهم وفى أنواع الطعام الذى يأكلونه وفى أطباق الأرز بالتوابل وفى أنواع الحلوى وبسكوت القرفة الذى يفضلونه ، حتى الآلات الموسيقية التى يستخدمونها ، كل ذلك يوضح مدى تأثير شبه القارة الهندية على تلك المنطقة . وحتى هذه

المراكب الشراعية المثلثة – المعروف باسم المراكب الشراعية اللاتينية – التى أدخلها العرب على مياه البحر المتوسط ، والتى يعتبرها الشخص العادى بمثابة نمط مميز للوجود البحرى العربى ، ويبدو أنها ظهرت فى بادىء الأمر فى الساحل الغربى للهند ثم قام العرب بعد ذلك بتطويرها . بحيث أصبحت مراكب طولانية على شكل شبه منحرف ذات قاعدة صغيرة جدا تجعلها تبدو على شكل مثلث ، وكان ذلك من شأنه تمكين السفن من مسايرة الريح مما جعلها أسرع من أى سفينة أخرى ذات شراع مربع الشكل . وقد استغل البحارة فى دول الخليج تلك القدرة التى تتمتع بها سفنهم فى القرصنة وتجارة الرقيق فى القرن التاسع عشر .

وتتميز طبقات المجتمع العليا الغنية ببشرة ذات لون أصفر شاحب وفى بعض الأحيان بشرة أكثر شحوباً وعيون خضراء أو رمادية اللون . وهذا يؤكد سريان الدماء الفارسية أو العراقية فيهم أما النساء من ينتمين إلى طبقات المجتمع العليا فهن غالباً ما يتمتعن ببشرة ناضرة وردية غامقة اللون . أما الطبقة الفقيرة فهى تلك التى تنتمى إلى المذهب الشيعى وهم السكان الأصليون الذين ينتمون إلى خليط من الأسلاف وينتمون إلى شواطىء الخليج والعرب وفارس . بيد أنهم فى الأصل عرب . وقد أسفرت تلك العادة القديمة التى كان يتبعها أتباع المذهب الشيعى – وهى تزويج بناتهم للأغراب زواجاً مؤقتاً – الأمر الذى يعد بمثابة عملية تهجين لقيت تشجيعاً من جانب البرتغاليين خلال فترة إمبراطوريتهم ، أسفرت تلك العادة عن وجود اختلاف ملحوظ فى الشكل الجسمانى ، وقد أصبحت تلك الحقيقة نقطة يتميز بها هؤلاء المسلمون السنيون ، الذين ينتمون إلى نسب واحد غير مختلط ، جعلتهم يتفاخرون بها على الشيعة .

وينتشر السود فى كل مكان ، وهو ما يدلل على الانتماء إلى أصول زنجية وذلك ليس بالأمر الذى تغلب رؤيته فى الشمال . والسبب فى ذلك هو أن شبه الجزيرة العربية مجتمع من المجتمعات التى كانت تمتلك عبيداً وكانوا يجلبون هؤلاء العبيد من أفريقيا . وقد أصبح هؤلاء العبيد يشكلون

فى الوقت الراهن أحد عناصر السكان المحليين ولا يمكن التمييز بينهم وبين باقى أفراد المجتمع سواء من ناحية الملبس أو اللغة .

وقد قمت برحلتى هذه فى فبراير عام ١٩٧٧ بدافع من حب الاستطلاع . حيث أردت أن أرى أكثر من مجرد جزء واحد من المنطقة التى تحولت بفضل العيد من التقلبات والأدوار المتناقضة الغريبة إلى موطن أسطورى للثروة (الدورادو) لأجناس وأنماط مختلفة تدفقوا على تلك المنطقة سعياً وراء تحقيق ثروة سواء كانت متواضعة أو غير متواضعة وفقاً لمطامحهم وقدراتهم وطاقاتهم .

إن دافع حب الاستطلاع هو فى حد ذاته دافع من الصعب شرحه أو تفسيره على نحو مرض ومقنع لهؤلاء الذين لا يهتمون بصورة كبيرة بأى مجتمع آخر خارج مجتمعهم ، اللهم إلا إذا أمكن تحقيق استفادة فعلية منها . وعرب شبه الجزيرة – بغض النظر عن البحارة منهم – لم يقيموا علاقات مباشرة بينهم وبين الغرب سوى فى الجيل الماضى فحسب : ففى الجيل الماضى وقبل الحرب العالمية الثانية كانت شواطئهم خاضعة لحماية الاستعمار البريطانى فضلا عن تعصبهم الدينى المفرط ، الأمر الذى جعل وصول الأجانب إلى المناطق الداخلية يتسم بالصعوبة . وهكذا فإن مجئ رجال البترول الأمريكيين ، ونمو وازدهار صناعة البترول كان من شأنه تحرير سكان تلك المناطق الداخلية من أوهام العصور الوسطى التى كانوا يعيشون فى ظلها ليجدوا العالم الحديث تحت أقدامهم . وباستثناء تلك المنطقة التى تتمتع بالمساعدات والأساليب الحديثة – التى يتوقون إليها بشدة – لم يبد أن سكان المناطق الداخلية يشعرون بأن الغرب لديه الكثير ليقدمه لشعب يتبوأ هذه المكانة الخاصة التى يتبوأونها هم . كما أن دينهم – الذى لا يزال يتمتع بنفوذ قوى عليهم – يشجع فيهم روح الانعزالية ويعتقد الشباب الذين يدينون بالدين الإسلامى أن الإسلام هو خلاصة تجارب التوحيد السابقة ويدفعون بأن الدين الإسلامى يفسر كل شىء ويضع التشريعات الخاصة بكافة جوانب الحياة فالإسلام يضع الأسس الكاملة للحياة ، والمسلم الحقيقى لا يمكن أن يشعر

قط بالحيرة أو الشك ، فالقرآن ليس به ولو منفذ واحد يسمح بارتكاب شيء
مجحف أو ينطوى على ظلم . وهم يصرون على تنشئة أولادهم وتلقينهم
للغة العربية والمعتقدات الإسلامية ، وذلك من خلال تعليمهم التعاليم الدينية
والتقاليد الموروثة عن النبى محمد قبل وقوعهم تحت وطأة نفوذ الغرب
العلمانى . وشعب الجزيرة العربية يتسم بالواقعية ، وهو سريع الفهم والتعلم
ولذا فهو لا يتسم بالخيال . وعندما واجه عرب شبه الجزيرة العالم الحديث
بأساليبه الجديدة نظروا إلى الوراء إلى ماضيهم ليتخذوا منه مرشداً ليرشدهم ،
كما لجأوا إلى الحلول التى تعتمد أساساً على مواقفهم ووجهات نظرهم التقليدية ،
وربما يرجع ذلك إلى افتقارهم للشجاعة التى تنزع إلى الخيال التى تدفعهم
إلى خوض تجارب جديدة . وربما لا يجد المرء – سوى فيما بين أهل الفكر
ذوى الاتجاهات والميول الغربية – أية علامات تنم عن الافتتان بالغرب أو
الرغبة فى معرفة المزيد عنه ، وحتى هؤلاء عادة ما يهدفون إلى المنفعة وهم
مولعون بالاكتساب .

والعرب فى الخارج يعيشون حياة هادئة ليس لها صلة بالمغامرات وعادة
ما يحصرون أنفسهم داخل نطاق أعمالهم المألوفة ، ويشعرون بثورة عصبية
تجاه فساد الأخلاق فى مجتمع يتجاهل أو لا يهتم بقيودهم الاجتماعية ، أو تلك
القيود المفروضة على مأكلهم ومشربهم . وليس هناك ثرى بريطانى يعيش
فى أحد البيوت الفاخرة فى إيطاليا أو جنوب فرنسا يفوق فى عزلته أو تحفظه
هؤلاء العرب الأثرياء الذين يتوجهون إلى أوروبا فى فصل الصيف ليستفيدوا
مثل الغربيين من سبل الراحة المتوفرة فى البلد المضياف كالتمتع بالمناخ
والاستجمام وشراء ممتلكات بسعر ملائم . ولكنهم لا ينغمسون سوى بقدر
ضئيل فى حياة السكان المحيطين بهم .

وقد يرجع ذلك جزئياً إلى شعورهم بالجبن ، وهذا الجبن هو وليد
الشعور بالخجل الذى يحول دون قيام الشخص بمخاطرة خشية وقوعه
فى خطأ يجعل زملائه العرب الآخرين ينتقدونه على نحو لاذع . أما الشخص
الأكثر مغامرة فإنه يشجب بشدة هذا الموقف وما ينطوى عليه من سلبية

أو انغماس ذاتى ومن ثم يغامر لاستكشاف مراكز أقليمية أو مدن ريفية
متواضعة على الرغم من أن متطلبات التعليم الخاصة بأطفالهم غالباً ما تحمله
على هذه المغامرة وليست الرغبة فى معرفة المزيد عن علم الإنسان . أما هؤلاء
الذين ينتمون إلى الطبقة المتوسطة المزدهرة فإنهم يفرضون بقوة وبدون
هوادة الانفصال عن أبنائهم الأمر الذى يتيح للأبناء فرصة تعلم اللغة بطلاقة ،
ويرسلون أبنائهم وبناتهم إلى بيئة مغايرة وهم على ثقة من أن ذلك سوف
يصقل شخصيتهم فى نهاية الأمر . إن الشغل الشاغل بالنسبة لهؤلاء الذين
يمتلكون البترول هو الوصول إلى أفضل وسيلة لإنفاق ثرواتهم . ففى البحرين
وهى الدولة التى شهدت بداية عصر البترول فى المنطقة العربية ، سارت هذه
الظاهرة فى مجراها الطبيعى فالدخل الذى تحصل عليه الدولة فى الوقت الراهن
من صناعة البترول يعتمد أساساً على عمليات تكرير بترول المملكة العربية
السعودية عن طريق شاطئ الحسا القريب والاستفادة من الغاز فى تطوير
صناعات إضافية وفى دول مثل المملكة العربية السعودية والكويت توزع الثروة
على الصفوة الحاكمة حيث يشكل الجيل الثانى – الذى لم يعان قط مما عانى منه
آباؤه من فقر – نواة لأهل الفكر المثقفين من ذوى الاتجاهات الغربية .
وينتمى هؤلاء المثقفون فى معظم الأحيان إلى الأسر الحاكمة ذاتها ومعظمهم من
الشباب الأذكياء القادرين الذين ينتمون إلى عائلات ثرية استفادوا من تعليمهم
فى الخارج ، الأمر الذى كبد أهاليهم مبالغ باهظة – وتتوافر هذه العناصر فى
كافة دول المنطقة وبدأ ينضم إليها الجيل الأول ممن تلقوا تعليمهم داخل البلاد ،
ذلك الجيل الذى ينتمى إلى عائلات أقل ثراء أو أقل تمتعاً بالامتيازات .
ولايزال هؤلاء المثقفين فى سن الشباب لأنهم فى بداية الثلاثينيات وهم أبناء
صمموا على تعليمهم بهدف قيامهم بعد ذلك بمهمة تطوير وتغيير مجتمعهم . وبوسع
النساء والرجال على حد سواء الانتماء إلى هذه الجماعة وبوسعهم المشاركة فى
الرأى داخل نطاق هذه الجماعة ، إلا أن حجم هذه الجماعة صغير جداً ومحدود
النطاق من الناحية الاجتماعية بحيث لا يمكن أن يكون لها تأثير مباشر على الحياة
العملية على الرغم من أنه يمكن من خلال تطوير أفكارها وآرائها ، وأن تصبح
بمثابة عامل مساعد للأعضاء الجدد الذين ينشأون نشأة تعليمية .

وتمتلك الأسرة الحاكمة فى دول شبه الجزيرة كل ثروات البلاد وماتنطوى عليه من قوة . وتتقاسم الدول الغنية ثرواتها مع الدول المجاورة الأقل حظاً منها ، وبوسعها تحمل هذه المشاركة ولاسيما بعد أن وصل سعر البترول فى عام ١٩٧٣ إلى أربعة أضعاف ماكان عليه . وهكذا حصلت كل الدول المنتجة للبترول فى خريف عام ١٩٧٤ على أربعة أضعاف ما كانت تحصل عليه من قبل ، والمشاركة فى مثل تلك الظروف ليس بالأمر الصعب ، لأنها تمثل جانباً من جوانب حياة العرب التى تعتمد كثيرا على مبادىء الدين الإسلامى بقدر ما تعتمد أية سياسة وقائية على مواجهة أى تحد سياسى . وأن امتناع رجل غنى عن المشاركة بشكل معين يعد بمثابة تحد لمجتمعه وتحد لأسلوب تفكيرهم ومفهومهم الخاص بأسلوب الحياة السليم ، ولو انطبق ذلك على مجال المساعدات بين الحكومات فيمكن أن يترتب عليه تقديم بعض المساعدات والمشاركات التى لها قيمتها . فعلى سبيل المثال هناك الهبة التى قدمتها المملكة العربية السعودية للبحرين والمتمثلة فى محطة تليفزيون بكامل معداتها وحصولها أيضا على محطة إذاعة كاملة من الكويت .

وتمد ، أبوظبى ، وهى أغنى دولة بين الدول الأعضاء فى دولة الإمارات المتحدة تمد الحكومة الفيدرالية لدولة الإمارات بكافة الأموال اللازمة على الرغم من أن هناك اتفاقاً من حيث المبدأ على أنه يتعين على جميع الدول الأعضاء المشاركة بالتساوى فى ميزانية هذه الحكومة . ويعتبر الشيخ زايد حاكم إمارة (أبوظبى) الذى يعرف بتعاطفه مع أى نداء يطلب مساعدة مالية يعتبر الشيخ زايد فى نظر الكثيرين تجسيداً للصفات الرئيسية التى يتحلى بها أى زعيم عربى نبيل .

وتكمن أكبر وحدة اقتصادية فى أية دولة من دول الخليج فى يد الأسرة الحاكمة التى يخرج من بين صفوفها الحكام بصورة متعاقبة على نحو مشابه للأسلوب الذى يتبعه الحزب المحافظ البريطانى فى اختياره لزعيم . ومسألة اختيار الحاكم مثلها فى ذلك مثل العديد من الأمور فى العالم العربى يتم بناء على إجماع فى الاختيار وليس نتيجة لفرض قرار معين ، ولكن بمجرد

أن يمسك ذلك الحاكم بزمام السلطة يصبح بوسعه أن يقول : « أنا الدولة والدولة أنا » . وتمارس الحكومة مهامها فى ضوء قراراته الشخصية وعليه تعتمد الدولة فى الإنفاق . ومهما بلغ ثراء أى مواطن فلن يكون بوسعه منافسة الحاكم الذى يسيطر على معظم ثروة البلاد والبنية الأساسية شبه الصناعية التى تواكب هذه الثروة .

وفى كل دولة من دول الخليج ، يعمل من ٧٥٪ إلى ٨٠٪ من القوة العاملة فى القطاع العام . فالحكومة هى التى تباشر العمل الجارى تنفيذه فى الموانى والمطارات والعمل الخاص بالطرق وإنشاء مدن جديدة . ومن ثم فهى التى تقوم بإبرام العقود الخاصة بمثل تلك المشروعات دولياً . ويتجاوز حجم الإنفاق أى حجم تصوره الغرب منذ سنوات قليلة . فى نهاية عام ١٩٧٦ أبرمت شركة هوندى للإنشاء والهندسة بكورية الجنوبية عقوداً تقدر قيمتها بأكثر من مليونين من الدولارات الأمريكية لتنفيذ مشروعات فى الدول المحيطة بالخليج . وفى الشهور الثلاثة الأولى من عام ١٩٧٧ أبرمت هذه الشركة مع السعودية بمفردها مزيداً من العقود بلغت قيمتها ٥٠٤ ملايين من الدولارات ، واتفقت الشركة على المساهمة بـ٤٠٪ من قيمة العقد الذى تقدر قيمته بـ٣,٥ بليون دولار أمريكى والخاص ببناء أكبر مصنع لإذابة ملوحة المياه فى السعودية .

ويتشاور حكام المنطقة بعضهم مع البعض الآخر بصفة مستمرة وتقوم الدول الغنية بتمويل مشروعات التنمية التى تقوم بها الدول الأقل ثراء . أما طبقة التجار وهى طبقة لها ممتلكاتها فقد كانت تعتبر منذ جيل واحد فقط المصدر الرئيسى الوحيد تقريباً الذى يعتمد عليه الحاكم فى الحصول على الأموال النقدية السائلة ، أما الآن فقد تضاءل نفوذها السياسى واقتصرت مناوراتها المالية على نشاطها المصرفى وعلى تطوير بعض الصناعات الخفيفة الملحقة بالمشروعات الصناعية الحكومية التى تتطلب رءوس أموال ضخمة . وفى هذا المجال ــ مجال الصناعات الخفيفة ــ وفى مجال الخدمات الصناعية وتطوير الملكية أطلق لهذه الطبقة العنان ، حيث لا تتدخل الحكومة سوى فى المسائل

المتعلقة بالإيجارات ودعم المواد الغذائية ، وذلك عندما يترتب على حرية
العمل فى السوق آثار عكسية بالنسبة للمواطنين الفقراء . ولايندرج المهاجرون
أو المغتربون ضمن هذه الطبقة . ويسمح للأجنبى بالتواجد فى شبه الجزيرة
العربية ولكن على مضض إذ يتم الترحيب به فى ضوء ما سيقدمه من مهارات
أو خبرات وقدرات تعمل على تحقيق الثروة أو إدارتها . وعلى أدنى مستوى
يزود الأجنبى فى هذه المنطقة بالطاقة البشرية ، ومما يجذب الانتباه تلك
التى تردد وتفيد بأن الكثير من المهاجرين الشرعيين عرضة لخطر الإطاحة
بهم نظراً لفيض المهاجرين غير الشرعيين الذين يتدفقون على البلاد على
نحو لا يمكن السيطرة عليه . حيث يستغل فى كل عام قباطنة البحر الخليين
المجردين من المبادئ الأخلاقية تعطش الأسيويين الذين نفد صبرهم للعمل .
فيصحبونهم معهم وعند وصولهم إلى الشاطىء العربى يلقون بهم على الشواطىء
الرملية البعيدة ويتركونهم فريسة للمد والجزر وللرمال اللينة التى تغوص
فيها الأقدام وعيون رجال قوات خفر السواحل التى تقوم بحراسة الشواطئ
والتى تدعمها كل دولة من دول المنطقة ، يتركونهم بنفس القسوة التى
كان يتخلص بها أسلافهم ممن كانوا يتاجرون فى العبيد ضمن ما كانت
تحمله سفنهم من بضائع . ويلقى العديد منهم مصرعه على أثر غرقهم ، وقد
تزايد عدد الضحايا بدرجة كبيرة الأمر الذى استلزم المزيد من التشدد فى
النظم والقوانين المتبعة لدخول البلاد .

فبالنسبة للشخص الذى يعتزم التوجه إلى تلك المنطقة لم يعد يكفى مجرد
الحصول على تذكرة الطائرة أوفى الحصول على تصريح بالدخول بوصفه
سائحاً . فهناك أمور أخرى مطلوبة . كأن يكون هناك مواطن من أهل البلد
أو من سكانها على استعداد لأن يكفله وأن يتحمل مسئوليته طوال فترة
إقامته . وفى بعض الدول يمكن الحصول على تأشيرة دخول لمدة ٤٨ ساعة —
وهى تلك التى تمنح لرجال الأعمال — لدى وصولهم إلى البلاد أما الحصول
على تأشيرة للبقاء لفترة أطول فهذا أمر يتطلب وجود شخص على استعداد
لأن يكفله .

ولم يكن من السهل قط دخول شبه الجزيرة العربية ، سيما وأن أدب
الرحلات والاستكشافات غنى بتسجيله لمظاهر الجمود والإحباط لأساليب
التباطؤ هناك وحتى فى هذا القرن نجد أن كثيرا من المسافرين شعروا
بخيبة الأمل ، وحتى ظهور عصر البترول لم يكن بالإمكان رسم خرائط
للمناطق الداخلية إلا بعزيمة وإصرار ومثابرة مثل فيلبى وبرترام توماس
فى مواجهة ردود الرفض المتعنت والإصرار على عدم منحهم إذن بالسفر
وفى بعض الأحيان الأخرى تصدمهم لما يواجهونه من تذمر من جانب
مرافقيهم .

وعندما تمكن هؤلاء الرحالة الأوائل من اختراق شبه الجزيرة إلى المناطق
الداخلية واجهوا الكثير من الصعاب ، والعديد من الأمور المجهولة التى تحوم
من حولها الشكوك ، وكانوا بمثابة هدف للشكوك والمخاوف وقوبلوا بروح
لا تتسم بالود أو الصداقة وغالباً ما كانوا يتعرضون لخطر من جراء الظروف
الاجتماعية التى تتسم بالفوضى والتى تخيم على ذلك المجتمع فى العصر الحديث .
ويبدو أن آل بلنت وحدهم — ولفريد سكاوين بلنت وزوجته ليدى آن
حفيدة اللورد بيرون — هم فحسب الذين قاموا برحلة لم تكتنفها المتاعب
نسبياً . وقد قدموا عن طريق الصحراء السورية فى شتاء عام ١٨٧٧ — ١٨٧٨
حتى وصلوا إلى هيكل تلك المدينة التى تقع فى مفترق الطرق بين قبائل
شامار المتمركزة شمال نجد فى الفترة التى كان لأسرة سعود فيها شأن عظيم .
فى حين كانت نجد تخضع من الناحية الإسمية فحسب لحكم الأتراك .

وتساورنى الشكوك إزاء إمكانية القيام بمثل تلك الرحلة فى الوقت الراهن ،
فقد كان هذان الزوجان فى سن الشباب ويتمتعان بالثراء وحسن المظهر
وقاما بهذه الرحلة كما لو كانا من الأمراء مصطحبين معهم طاقما من الحاشية
والخدم كما استأجروا أيضاً عدداً من المرافقين ممن ينتمون إلى اتحاد القبائل
الفيدرالى وحملوا معهم خطابات توصية لزعماء القبائل بوصفهم شخصيات
لها أهميتها ويتعين معاملتهم ، على خير وجه . وقد أكسبتهم أموالهم واهتماماتهم
الأرستقراطية بالخيل وكلاب الصيد وبالحياة القبلية المولعة بالقتال وأنواع

الرياضة التى يمارسها مرافقيهم من العرب ، أكسبتهم ذلك كله تأييداً على المستوى المدنى لا يحظى به الرحالة الآخرون المعاصرون لهم ممن لاتبدو عليهم نفس هذه المظاهر الفاخرة ومعظمهم من الرحالة المثقفين ذوى الموارد المحدودة ومنهم من لا يمتلكون شيئاً سوى إلمامهم باللغة العربية ووجود بعض الإمدادات الطبية فى حوزتهم .

وقد توجه هؤلاء الأوروبيون الفضوليون محبو البحث والتحقيق إلى الحجاز فى موسم الحج السنوى ، حيث تتوافد عشرات الألوف من المسلمين من شتى أرجاء العالم الإسلامى على المدينتين المقدستين مكة والمدينة . وبعض هؤلاء الأوروبيون مثل آل بلنت ، قاموا بشراء الخيول ومروا بوصفهم تجار مواشى وهو تفسير مقبول لأناس يعتبرون الجمال والمواشى عماداً رئيسياً لاقتصادهم ، فهم يقومون بتربية هذه المواشى لنقل الحجاج من جانب وتزويدهم بالطعام من جانب آخر ، أضف إلى ذلك تزايد الطلب على الخيول العربية عبر آسيا .

وكان الدين يمثل عملا تجارياً له شأنه بالنسبة لسكان الحجاز ، الذين تقع فى أراضيهم ، ليس فقط المدينتان المقدستان ، ولكن أيضا ميناء جدة التى تعد نقطة التجمع لحجاج القادمين عبر البحر من شرق الهند ومن أفريقيا . وفى هذه الفترة كانت بعض الشركات الكبرى التى تتولى مهمة نقل الحجاج تسير فى الطرق المعروفة عبر الصحراء ويقوم بتوجيههم أفراد ممن ينتمون إلى القبائل يصحبهم فى هذه المرحلة سوق متحركة تضم عددا من التجار . أما الحجاج فى الوقت الراهن ، فتقوم الدولة بوضع الترتيبات الخاصة برحلاتهم وقد يسافر الحاج عن طريق الجو أو البحر أو ربما بالسيارات ، ومن ثم لا ينتابهم شعور بقلق بالغ فضلا عن وجود توجيه على المستوى الرسمى من شأنه توعيتهم بكافة الأمور التى يجهلونها . وهناك فيلم وثائقى قامت الحكومة السعودية بتسجيله ووافقت على عرضه فى الدول الإسلامية ، ويصور ذلك الفيلم كافة مراحل الحج والطقوس والشعائر التقليدية التى يؤديها

الحاج ويقدم هذا الفيلم صورة رائعة لمدى قوة الدين الإسلامى ومدى مشاعر الحماس تجاهه .

« لقد تعلمنا الكثير من البريطانيين » ذلك ما ذكره لى أحد كبار رجال الأعمال العرب راجعاً بذاكرته ثلاثين عاماً إلى الوراء عندما كان يشغل منصب كاتب حسابات فى شركة الملاحة التى كانت ملكاً لعائلته : فالخلاف فى الرأى لم يعد يعنى حدوث شجار . لأن بوسعنا مناقشة الأمور على نحو هادئ وأخيراً نصل إلى حل .. » .

واستخدام زمن الماضى كان له دلالاته .. فلم يعد العربى فى العصر الحديث يشعر بأن هناك شيئاً يمكنه أن يتعلمه من الغرب بشأن كيفية توجيه حياته . إن ثقته بتفوق ثقافته قد عززتها فى كل وقت ثروته وما يمكن أن تحققه هذه الثروة بشكل واضح ، فضلا عن تطلع الغربيين بشغف لمشاركته فى أى مشروعات وأعمال تجارية .

ولم أستطع أن أمنع نفسى ، بينما كنت أجلس فى هدوء فى ذلك المكتب الذى لم يكن به أحد فى أعلى طابق بالمبنى ، عن التفكير فى الاختلاف القائم بين الصورة المبسطة المأخوذة عن ملوك المال العرب وبين الواقع . لقد بدا هذا الرجل فى هدوئه ولطفه وذوقه الذى ينم أنه متوسط الثقافة حينما يقول : « أنا أذهب إلى السينما كل مساء ، إذا كان ذلك فى استطاعتى ، عندما أكون فى لندن أو نيويورك وإننى أفضل الأفلام الكوميدية الهزلية ، وأمقت الذهاب إلى المسرح .. حقيقة إننى لا أفضل المسرح .. بدا هذا الرجل وكأنه يختلف اختلافاً طفيفاً من حيث الجوهر عن أى رجل أعمال دولى مستغرق دائماً وأبداً فى عمله مكرساً حياته لمصالحه التجارية ، وينظر إلى العالم من وجهة نظر أعماله ومصالحه ويحقق أكبر قدر من الارتياح من خلال نجاحه فى تنفيذ سياساته . وليس ثمة شك فى أن رجل الأعمال لا يحظى بالاحترام ، بيد أن الإحساس بأن أى شىء ليس له صلة بأعمال تجارية ، يكون بمنأى عن هذا المجتمع هو الإحساس السائد حيث لم تظهر بعد غرابة الأطوار التى تلازم عادة الثراء الفاحش .

والمغترب الذى قد يعمل فى شركة من ذلك النوع يعيش فى نفس المستوى الذى يعيش فيه أى موظف يعمل فى شركة دولية . ويتم تدريبه على نحو دقيق بمعرفة قدامى الموظفين فى الشركة . والمغتربون المتقاعدون يظلون على صلة بالمكتب الرئيسى فى لندن . ويبرم المتعاقد عقد عمل يضم شروط وظيفته ويحصل على أجره فى مواعيد دقيقة ، ويحصل الموظف على إجازة منتظمة كما يحصل لدى تقاعده على معاش ملائم . وإذا خانه الحظ سيلمس مدى وكرم وسخاء رب العمل تجاهه ومدى إنسانيته وتعاطفه معه فى المشاكل التى تواجهه . وعادة ما يجازى مقابل إخلاصه فى العمل وولائه لفترة طويلة . إذ تظهر العائلات الغنية وعياً متحفظاً بشأن أهمية استقامة وأمانة العاملين فى إدارة مشروعاتهم وأعمالهم .

والأمر يختلف بالنسبة للعالم الانتهازى الذى يعيش فيه المغامر التجارى وذلك العالم الذى يمتد فى شتى أرجاء الخليج كرد فعل للضغوط التى يواجهها الغرب نتيجة للانكماش والركود الاقتصادى . ويسارع أصحاب العمل المحليون إلى التقاط الأجانب لدى انتهاء عقود العمل الخاصة بهم ممن هم على استعداد للعمل من أجل الحصول على مزيد من المال فى ظل جو أقل حماية من تلك التى قد يحظون بها إذا تعاقدوا مع شركة دولية كبرى . ومفهوم الولاء والإخلاص للشركة أصبح مفهوماً بالياً . ولم يعد يؤخذ مأخذ الجد ولذا قد يبيع أى شاب طموح نفسه لمن يعرض ثمناً أعلى دون النظر إلى أى اعتبارات أخرى باستثناء مصلحته الشخصية .

وليس لكل هذه المغامرات نهايات سعيدة ، ففى أكثر العمليات الجدية قد يجد الأجنبى الذى يفتقر إلى التجربة والتمرس نفسه يعمل من أجل الوفاء ببعض المهام المحلية المحددة فى ظل ظروف غير مواتية . وما ينطوى على قدر أكبر من المخاطرة هو تلك الوظيفة التى يتم الحصول عليها عن طريق إعلان يتم نشره فى إحدى الصحف أو عن طريق البعثات التى توفد إلى الخارج للتعاقد ، حيث تتعاقد هذه اللجان مع أشخاص لا يعرفون شيئا عن ظروفهم ومواقعهم الحقيقية ويتم إرسالهم إلى رب العمل الذى ربما تكون تلك هى

هى المرة الأولى التى يستخدم فيها المهارات الأوروبية . ومن أجل هذا فإن احتفاظ رب العمل بجوازات سفرهم ، وهو أمر شائع بالنسبة للعامل الأسيوى خشية أن يقوم صاحب عمل منافس بالاستيلاء عليهم بعد بمثابة صدمة مزعجة تدعم الإحساس بعدم القدرة على التصرف فى مواجهة مطالب وظروف الحياة التى لم يستعدوا لها من خلال تجاربهم السابقة .

وعلى مسافة بعيدة وبالقرب من حدود سلطنة عمان ، حيث لم تحل بعد الطرق الحديثة — الجارى العمل بشأنها — محل الطرق المتربة القديمة وقع بصرى على سيارة شحن كبيرة من طراز (مرسيدس) تابعة لإحدى شركات النقل المحلية وهى تميل على نحو له خطورته على حافتها . وبينما مررنا بها فإذا بعينان زرقاوان غاضبتان — كما لو كانا عينا ثور هائج — تحملقان فى من وجه تبدو على قسماته الألم من جراء الجهد الذى يبذله لرفع عجلات العربة الضخمة .

وقال أحد المهندسين الذين يعملون فى الطريق رداً على نظرة التساؤل التى تشوبها الدهشة والتى بدت على وجهى « ذلك هو فريد القذر » . « إن أحداً لا يعلم الكثير عنه ، ربما يكون من اسكتلندا ، وربما يكون من جورجيا فالله وحده يعلم كيف حضر إلى هنا ، بيد أننا نراه فى كل مكان ، ونحن نطلق عليه لفظ « القذر » نظراً للغته ومظهره على حد سواء ، ولكنى لا أعلم ما إذا كان ذلك وضع طبيعى بالنسبة له أم أنه يرجع إلى ذلك النوع الردئ من العمل الذى منحه إياه رب العمل . .

وكان فريد — الذى يرتدى بنطلوناً ينضح زيتاً ، وحذاء برقبة خاص بالصحراء — ينظر بكبرياء شامخ — مثله فى ذلك مثل فيل أبرهة — إلى العرب الضعفاء الذين يرقبونه ولاحول لهم ولا قوة . وكانت آثار أشعة الشمس وهو يتصبب عرقاً وملطخاً بما ألحقته به العرب من شحم وغبار بادية عليه . وبينما يحاول جاهداً رفع العجلة كان هناك واحد من العرب يقدم له المساعدة ولكن على نحو غير فعال وغير مؤثر . والعمانيون الذين يرتدون الزى الخاص

بالمناطق الحارة ، الذى يستر عورتهم يلتفون من حوله ويبدو عليهم القلق بينما تتناثر البضاعة التى كانت تحملها السيارة الجانحة على جانب الطريق ، وقد تمكن فى نهاية الأمر من إعادة العربة الجانحة إلى الطريق مرة أخرى ، تلك هى وظيفته . بيد أن التأثير المادى لوجوده فى ذلك المكان البعيد الجميل فى مناظره كان تأثيرا غريبا .

لقد دفعنى إلى التفكير فى إله سيلنى بلونه الذى يميل للحمرة . ومظهره الضخم وبشعر رأسه الأشعث وعيناه المتفختان .. شارد بين هؤلاء الرجال السمر إلى حد أنه أصبح مثار الدهشة والتعجب التى تبدو فى عيونهم وفى عيونى على حد سواء .

إن هذه المنطقة الموغلة فى القدم والتى لا يعرف عنها الكثير هى التى تزودنا بمعظم قصص الاستغلال التى يتم ترديدها فيما بين المغتربين الذين قدموا ليجربوا حظهم فى سوق العمل المتقلب الذى يتسم بقسوة غير خاضعة لقواعد أو نظم . هذا وعادة ما يقع الاختيار على الرجال غير المتزوجين لعدم وجود نص ، ضمن بنود العقد يجيز اصطحاب العامل لأسرته فى حالة ما إذا كانت له أسرة . ويقوم رب العمل بتزويد المتعاقد بمسكن ويمنحه أجازة يعود خلالها إلى موطنه الأصلى ليقيم مع أسرته . ويجد القادم الجديد نفسه وسط عالم فظ يتسم فى بعض الأحيان بالوحشية فلا يتمتع بحماية النقابة العمالية بل يعتمد من أجل البقاء اعتماداً كلياً على ما يتسم به من دهاء وسعة حيلة . وفى بعض الأحيان لم تتغير كثيرا طبائع أصحاب العمل أنفسهم عن طبائع الجيل السابق لهم مباشرة ومن ثم يتسمون بالقسوة التى كان يتسم بها راعى الماشية أو تاجرها تجاه العاملين التابعين لهم . وقد يرجع ذلك ببساطة إلى جهلهم بأى أسلوب آخر للحياة .

إن ما تحققه التكنولوجيا من معجزات فى الخليج ممثلة فى الطرقات الفاخرة والموانى العظيمة وأحواض السفن الضخمة والإنشاءات الجديدة المذهلة ، إنما يجرى فى ظروف عمل تذكرنا بالقرن التاسع عشر أكثر من كونها

تذكرنا بالقرن العشرين . إنها تذكرنا بجماعات العمال غير الماهرين من البريطانيين والإيرلنديين الذين جابوا شتى أنحاء العالم لمد خطوط السكك الحديدية ، بيد أن القوة العاملة فى هذه الحالة هى قوة آسيوية . وبدلا من جماعات العمال البريطانيين الذين يتمتعون ببنية قوية هناك الآن الميكانيكى الماهر وسائق الونش الذى يقود ونشه على أنغام التانجو ، والكهربائى والبائع وجميعهم يتخلون عن الحماية التى يتمتعون بها داخل وطنهم ويتاجرون بمهاراتهم مقابل حصولهم على أكبر قدر من المال يمكنهم الحصول عليه .

وبالنسبة للشباب من محبى المغامرات التجارية ، ربما يعد ذلك أفضل من العمل داخل حدود بلادهم ، وقد يخرجون من التجربة بمزيد من الفهم المتعقل للقيم ، وغالباً ما تبدو الخسائر ساذجة على نحو يدعو إلى الدهشة . إذ يخيم عليهم نوع من الانفعال والنشاط يجعلهم لا يتقبلون أية نصيحة ، ومن ثم يوافقون بشغف شديد على خواض مغامرة لا يعرفون عنها سوى القليل أو ربما لا يعرفون عنها شيئاً على الإطلاق فضلا عن جهلهم بالظروف التى ستحيط بهم فيما بعد . ومعظمهم أفراد يعيشون فى ظل ظروف غير ملائمة أو يحاولون الهروب من أعباء محلية يتعذر عليهم القيام بها بمفردهم ، وهم جميعاً على ثقة من أن المال سوف يجد حلولا لكافة مشاكلهم . وليس بوسعهم تصور وجود مجتمع يختلف تماماً عن المجتمع الذى اعتادوا عليه .

ويبدو واضحاً أن ثمة تغير طرأ على وضع الأجنبى فى شتى أرجاء الخليج، حيث بدأ يظهر فى سوق العمل المزيد من الأوروبيين من كلا الجنسين ممن ينتمون إلى طبقات اجتماعية متباينة . ولم يعد من السهل تجاهل فكرة تحديد قيمة معينة للوظيفة ، أما ذلك التفاوت الكبير السابق بالنسبة لمرتبات الموظفين المغتربين وهؤلاء المحليين ، الأسيويين والعرب على حد سواء ، فقد انمحى وأصبح هناك مساواة إلى حد كبير . ومن الصعب بالنسبة لبعض الجهات الأجنبية — مثل بنك — أن يحتفظ بهيئة للعاملين المحليين بنفس الشروط القديمة ،

فهناك العديد من مجالات الخيار المتاحة فى المنطقة أمام الرجل المدرب لتطوير شخصيته على نحو سريع ويزيد من حدة التنافس عليه بين المجتمعات العرضية .

« سفاحون هم العالم الثالث » .. تلك عبارة استمعت إليها من جانب مجموعة من مواطنى استراليا ممن ينافسون فى السوق المفتوحة . إن استخدام تلك العبارة التى تنم عن مشاعر الازدراء تتفق على نحو كئيب فى ذهنى مع القائمة الطويلة التى تضم الصفات والألقاب الأخرى التى تم – وفقاً لها – تحالف سيطرة الأنجو – ساكسون الآخذة فى الضعف مع ضحايا الظلم والاضطهاد .

وتنظر الحكومات العربية التى تقوم بتنفيذ مشروعات تنمية ضخمة بعين يعوزها الحماس والرضى إلى المدير الإدارى الذى يحصل على أجر مرتفع وتضاف نفقات معيشته الباهظة إلى التزامات الشركة . ولقد أدت المحاولات الأمريكية الرامية إلى وضع نظام ضريبى جديد خاص بأجورهم إلى استبدال الخبرة الأمريكية بخبرات أقل تكلفة سواء كانت خبرة أوروبية أو خبرة تنتمى إلى الشرق الأقصى .

ومهما يمكن أن يقدمه الغرب لسد الحاجة من العمالة فقد تردد مراراً أن بوسع اليابان وكوريا أيضا تقديم ما يسد الحاجة منها بقدر مساوى وبتكاليف أقل بكثير . ويصل الكوريون فى وحدات عمل كما لو كانوا سيقومون بعملية عسكرية ويقومون ببناء مهاجع خاصة بهم فى مواقع العمل ويستخدمون أدوات ولوازم كانوا قد أحضروها معهم . ويتم سد كافة احتياجاتهم بنفس الأسلوب . ويعسكر كبار المسئولين منهم فى مكاتبهم ، ويبدو واضحاً خلال تنفيذ العملية أنهم لا يعتمدون قط على أية إمدادات محلية من أى نوع ، فضلا عن أنه ليس هناك ما يدلل على وجود أية وسائل للراحة كتلك التى يعتبرها المغترب ضرورة ملحة .

ويرى المغتربون الآخرون أن أسلوب حياتهم من شأنه إعادة تشغيل الأموال التى يحصلون عليها فى الاقتصاد المحلى وذلك من خلال الإيجارات والأجور والمشتريات المحلية ، فى حين أن منافسيهم الأسيويين لا يسهمون

سوى بقدر ضئيل أو لا يسهمون على الإطلاق فى هذا الاقتصاد ، ولا يبدون شيئاً من الجليد فى دول يسيطر فيها الإيرانيون والهنود إلى حد كبير على تجارة التجزئة وحيث لا يقوم بالأعمال المحلية سوى أفقر المهاجرين القادمين من مسقط أو الأسيويين القادمين إلى تلك المناطق للمرة الأولى . والعرب أنفسهم لا يعنيهم شيئاً من هذا القبيل لأنهم لا يهتمون سوى بتطوير ممتلكاتهم والقيام باستثمارات ومشروعات أجنبية أما أبناؤهم فقد بدأوا يتحولون إلى الأعمال المهنية ويشغلون الوظائف الحكومية . وهكذا بدأوا يشكلون طبقة مهنية عربية ميسرة الحال لا تعتمد على الأجنبى فى ثرائها .

ويبدو أن البريطانى هو أكثر الأجانب عرضة لأن يطرأ على وضعه تغيير ولاسيما إذا كان فى سن يسمح له بخوض تجربة العيش فى الخارج قبل وصوله إلى الخليج . ويشعر البريطانى بحساسية إزاء تشويه سمعة الأداء البريطانى فى سنوات ما بعد الحرب ، وهو معتاد على سبل توجيه الأموال وكذا على جو المنافسة الذى وجد نفسه فيه . إن الانتماء إلى دولة لها خلفية استعمارية قد يكون له مساوئه ، أما المواطنون الآخرون الذين ينتمون إلى دول أوروبية صغيرة فهم يذعنون للتغيير الذى طرأ على وضعهم بقدر أكبر من الاتزان وضبط النفس . والسبب فى ذلك يرجع إلى أنهم لم يتمتعوا قط بوضع آخر .

ومنذ نحو عشر سنوات كانت رؤية شخص بدأ الشيب يدب فى رأسه أمر غير مألوف فى منطقة الخليج ، والآن فى ظل التعاقدات أصبح هناك وفرة من كبار المديرين الإداريين فهناك عدد متزايد ممن يشغلون وظائف إدارية قصيرة الأجل فى المشروعات العربية وهم يتوقون عادة إلى تطبيق أساليب العمل الحديثة بيد أنهم ليسوا على ثقة من كيفية أداء دورهم الجديد . إذ يعد ذلك بالنسبة للكثيرين منهم بمثابة صحوة فظة ، ذلك أنهم معرضون لاعتبارات جديدة متعلقة بقدراتهم ومدى الاستفادة منهم وهم بين أصحاب الأعمال الذين يجهلون تماماً أولا يهتمون بمكانتهم فى موطنهم الأصلى . وعادة ما يكون السبب وراء إقناع مثل هؤلاء بقبول الوظيفة هو ارتفاع

نفقات المعيشة فى بلاده ، دون الرغبة فى زيادة الدخل أو إلحاق الصغار بالمدارس العامة أو بالجامعة أو بمعاهد التدريب المهنى .

والزوجات اللاتى فى منتصف العمر ممن يرافقن أزواجهن فى معظم الأحيان بائسات وذلك نظراً لحرمانهن من عائلاتهن ومن أصدقائهن وعدم تمتعهن بأية مساعدة . وهن فى سن يتطلعن فيه إلى العيش فى هدوء وراحة . بينما هن ينغلقن على أنفسهن داخل شقق حديثة محاطة بالضوضاء وقام مستخدم أزواجهن بتأثيثها ربما على نحو لا يجعلهن يشعرن بالمتعة أو الراحة وقد تعانى تلك الزوجات من الوحدة ، والسبب فى شعورهن بذلك هو أنهن أصبحن عديمات الجدوى بعد أن انتهى دورهن كأمهات أو كربات بيوت ولم يعد هناك ما يحل محل ذلك .

وقد علقت إحدى الزوجات قائلة : « لقد نسيت كم افتقدت المناقشة على مستوى عام بعد أن أمضينا صباحاً ممتعاً قضيناه فى التحدث عن طفولتنا فى الهند » . وهذا هو نفس الشعور الذى عبرت عنه بعض النساء الأخريات اللاتى يعشن وسط مجتمع شاب تشكل فيه المحلات التجارية والحفلات العنصر الرئيسى لأى حديث وتعتبر لعبة البريدج بمثابة المجال الوحيد للممارسة العقلية .

ووسط تلك الأعداد الهائلة من الأجانب هناك شعور بوجود كيان مشترك يحتفظ المرء فى إطاره بتقديره واحترامه لنفسه . ولكن أكثرهم للوقوع تحت التأثير هو المستشار الذى تم استئجاره لتجسيد مطامح وتطلعات الوزراء ورؤساء المصالح ممن يستمدون مؤهلاتهم لشغل هذه المناصب من الروابط العائلية أو العلاقات العامة . ومثل هؤلاء الخبراء الذين يتقاضون مرتبات مرتفعة جدا وفقاً لمستواهم الوظيفى يقعون فى شرك الأوضاع الضريبية الأمر الذى يرغمهم على البقاء فى الخارج أو يرغمهم على قبول بعض الوظائف التى قد لا تتفق فى واقعها بأى حال من الأحوال مع تطلعاتهم أو توقعاتهم .

إن ذلك الإحباط واليأس الذى يتسم بالسخرية هو الذى يخيم كما لو كان حجاباً قاتماً على ما يبدو من الوهلة الأولى وأنه فرص للحث على القيام بعمل مهنى وإشباع الرغبة فى القيام بمثل هذا العمل وقد تذكرت منظر هؤلاء الذين يتسمون بالذكاء ويتمتعون بقدرات هائلة تجعلهم موضع تمييز على الصعيد الدولى فى مجالات تخصصهم وهم يجلسون فى مكاتبهم والكآبة تخيم على وجوههم لا يعملون شيئا سوى انتظار المكالمة التليفونية التى ستبلغهم بما إذا كانت الحلول الدقيقة التى قاموا بتقديمها قد حظيت بالموافقة والقبول أم أنها أرجئت لمزيد من البحث والدراسة . وفى نطاق الدول يتم توجيه الحكومة داخل إطار محدد يرتكز على الأقارب والأصدقاء من ذوى النفوذ ممن يقومون بمناورات مستمرة على الحاكم لاتخاذ قرارات لصالح المشروعات المفضلة لديهم . وربما يحقق كبار المستشارين الدوليين أعلى مستوى من الثقة والأمانة المتبادلة بينهم وبين أصحاب المؤسسات تلك العلاقة التى لا تتوفر إلا لمن هو غير عربى ، بيد أنهم أيضاً عرضة للوقوع تحت تأثير دائرة المستشارين المقربين لديهم . ومثلهم فى ذلك مثل كل المقربين فإنه يتعين عليهم أن يأخذوا فى الاعتبار ما تتعرض له المصالح من مد وجزر ، وتقلبات فى المزاج الشخصى وما للموضة من تأثير .

وقد وجهت مرة سؤالا لأحد المهندسين المصريين المعماريين على النحو التالى : إلى أى مدى تسير مشروعاته الخاصة بالمبنى الذى يشيده للأسرة الحاكمة قدما ؟ فأجاب قائلا : « تسير على نحو مروع ، لأن أحداً منهم ليست لديه أية فكرة ، ومع ذلك لديهم جميعاً آراء يصرون عليها ويقوم كل منهم بدوره بتقديمها لى » .

ويشق المستشار طريقه بحذر شديد عبر الردود المحتملة . . ويتعلم على وجه السرعة اللباقة والبراعة وإلا فلن يكون بإمكانه الاستمرار فى عمله . والدقة أمر مطلوب إذا كان يرغب فى أن تسير توصياته قدما : والافتقار إلى ذلك ، يعنى تعرضه إلى عملية استنزاف ، ويتم رفض مشروعاته على نحو يشوبه الغموض ، أو تطرح مقترحاته وآراؤه جانبا لمصالح بعض الحلول

المنافسة الأخرى أو قد يجد أنه تم توسيع نطاق مشروعاته على نحو تعسفى ، وزاد نطاقها إلى الحجم الذى يبدو أنه غير عملى وذلك إذعانا لأفكار وآراء ليست خاصة به فضلا عن أنه لم يتم التشاور معه بشأن إمكانية تنفيذ ذلك من الناحية الاقتصادية . إن أحدا من المتنبئين مهما علت مكانته فى العالم الخارجى ، ليس فى مأمن ، حيث يبدو أنه تجرى داخل هذا العالم الداخلى الخاص باتخاذ القرارات عملية – تتم فى سرية ولا يعلم عنها قصر الحاكم شيئاً – وهى وليدة الكثير من المناقشات والآراء العشوائية .

* * *

الفصل الثانى

المملكة العربية السعودية – العقيدة الوهابية – علاقتها باسرة سعود – السعودية قبل الاسلام – مفهوم الاسلام – التفسير الوهابى واول توسع للنفوذ الوهابى – صدر الاسلام – حروب الغزوات – الانقسام الى سنى وشيعى – مسرحية محرم العاطفية فى البحرين الحديثة – القرصنة الوهابية – التدخل فى شئون شركة ملاحة الهند الشرقية – التدخل العسكرى والبحرى البريطانى – الامارات العربية – الاحتلال العثمانى لشبه الجزيرة العربية – افول نجم اسرة سعود – اعادة تاسيسها – الملك بن سعود – مغامراته الاولى – انهيار الامبراطورية العثمانية فى عام ١٩١٨

* * *

أن يكتب المرء عن شبه الجزيرة العربية دون الإشارة إلى المملكة العربية السعودية هو أمر مشابه تماماً لأداء مسرحية هامليت بدون أمير الدانمارك ، لأن شبه الجزيرة تشكل الأهمية الرئيسية فى المنطقة بحيث تؤثر مواقفها ووجهات نظرها فى مواقف ووجهات نظر كافة الدول الأخرى فى شبه الجزيرة ، مهما كانت الأدوار التى توزعها هذه الدول الثانوية على نفسها ، أو يتم توزيعها عليها من جانب آخرين ممن يهتمون بتأكيد مفهوم العرب عن أنفسهم بأنهم وحدة واحدة .

ويبرهن ذلك الوجود المبهم عن نفسه بصورة غير مباشرة . فالمملكة العربية السعودية هى التى تغدق المال على الآخرين من الدول الأقل ثراء . كما أنها هى التى تقدم فرص عمل للعرب الآخرين وتمتلك أقوى أسلحة قتالية رادعة فى منطقة شبه الجزيرة ، وتضم أكبر تجمع اجتماعى عربى فى المنطقة . وترعب الدول العربية المستهترة أخلاقياً بما تطبقه من عقوبات دينية رادعة . كما أن التزام مواطنيها بمبادىء المذهب الوهابى المتزمت يكفل

اتباع السلوك المستقيم المعتدل الذى تخيم عليه الكآبة ، وهو أسلوب قاسى بصفة خاصة على الأجانب الذين يشعرون بأنهم مرغمون على الاهتمام بسلوكهم وتصرفاتهم ويشعرون بمدى تعرضهم ووقوعهم تحت التأثير فى حالة امتداد النفوذ السعودى إلى المجتمعات الأكثر تساهلا .

وهناك أساس لمثل تلك المخاوف والمشاعر التى تنم عن القلق حيث تتردد من حين إلى آخر فى منطقة الخليج القصص الخاصة بالأجانب الذين زج بهم فى سجون الأقاليم ، ويتم ذلك عادة نتيجة لاحتسائهم الخمر أو نتيجة لحوادث الطرق حيث يتم – احتجازهم لمدد طويلة دون أن يعلم بأمرهم القناصل المعتمدون لبلادهم . وهكذا يسيطر على الأجنبى شعور بالقلق إزاء مدى الحاجة إلى الابتعاد عن المشاكل بأى ثمن ، الأمر الذى يجعله يقصر حياته على الفندق الذى ينزل فيه ولا يختلط إلا بمجتمع من هم مثله أسرى ذلك المفهوم المرن للوقت الذى اعتاد عليه العرب ممن هم فى مركز سلطة أوقوة. فقد تنقضى أيام قبل أن يتم عقد اجتماع حيث أنه من الصعب الاجتماع بأى وزير أو مسئول أو التحدث معه فحتى يمكن الوصول إليه يتعين المرور على العديد من المكاتب والسكرتيرين . وقد يحول أيضاً دون الاجتماع به أو التحدث إليه إصابته بمرض أو انشغاله بالواجبات العائلية أو قيامه برحلات خارج البلاد . ويزداد حجم الصعوبات وفترات الملل والنفقات الباهظة وكافة العناصر السلبية الأخرى المألوفة بالنسبة لمعدل التنمية الراهنة فى المملكة العربية السعودية عنها فى دول شبه الجزيرة الأخرى وذلك نظراً لكبر حجمها. ولما يتسم به سكانها أنفسهم من عناد وقسوة وخشونة .

وقد أقرت أبنة مليونير وهى فتاة جميلة متحضرة أنها لم تسمع على الإطلاق طوال حياتها كلاماً فظاً . لقد كنت فى زيارة لبعض الأصدقاء فى الرياض وكنت قادمة من البحرين ولم يخطر ببالى فكرة ارتداء عباءة ، وقد اعتقدت أنها هى السبب فى هذه القسوة التى عوملت بها وهو كونى فتاة عربية غير محجبة . إن الأسلوب الذى اتبعه رجل الجوازات فى التحدث معى هو أسلوب لم أصادف مثله قط فى حياتى لأنه وبخنى بصورة عدوانية

لم أشهدها من قبل » . وقد أبلغنى أحد المهندسين الإنشائيين القادمين من يوركشير قائلا : « إنى أمقت الذهاب إلى هناك » إننى لم أشعر قط بارتياح تجاه وظيفتى طوال فترة وجودى هناك . أى شئ يمكن وأن يسير على نحو خاطىء ، وهؤلاء المحافظون الإقليميون الذين يحكمون تلك المناطق النائية التى قد نعمل فيها يتمتعون بقدر هائل من القوة ولهم سلطات واسعة . وبوسعهم وضع أى من مواطنى بلادك فى السجن ولن يكون بوسع أحد إخراجه من ذلك السجن .. »

وقال السائق اليمنى وهو مبتهج .. « ليس من المصلحة أن يخوض أى منا فى نزاع مع سائق آخر فى المملكة العربية السعودية » فى حالة ما إذا تعرض المرء لحادث مفاجىء فإن رجل البوليس لن يأخذ قط بأية شهادة ضد السعودى وليس هناك أدنى فرصة لحدوث ذلك . فهناك قانون ينطبق عليهم فى حين أن هناك قانوناً آخر ينطبق علينا جميعاً . .

ما الذى جعل المملكة العربية السعودية تتمتع بهذه السمعة التى لا تحسد عليها وهى الخشونة والتنمر بهؤلاء الذين يمرون بمكاتب الهجرة والجوازات ؟ قليل من الغربيين يوافقون طواعية وبمحض رغبتهم على معايشة ذلك الجو الخاص بالمملكة العربية السعودية لأكثر من مرة ، وقد يبذل البعض قصارى جهدهم لمغادرة هذه البلد فى أقرب فرصة ممكنة ، كما فعل طاقم العاملين فى صناعة الأفلام السينمائية الذين شحنوا أنفسهم فى قارب شراعى متجهين إلى البحرين بمجرد الانتهاء من المهمة التى قدموا من أجلها بدلا من الانتظار حتى يحين دورهم فى قائمة الانتظار لدى شركة طيران الخليج ليستقلوا طائرة تنقلهم إلى هناك .

يبدو أن الرد على هذا السؤال يكمن فى أن سكان المملكة العربية السعودية يتبعون المذهب الوهابى ، وهو تفسير متعصب للإسلام يتميز بتشدده وتزمته وقد انتشر المذهب الوهابى ، بوصفه قوة اجتماعية ، فى نهاية القرن الثامن عشر فى الفترة التى كانت تناضل فيها كل من بريطانيا وفرنسا لبسط سيطرتهما

على تجارة المحيط الهندى ، وفى الفترة التى أصبحت فيها بريطانيا على وشك أن تكون القوة المسيطرة فى شبه القارة الهندية :

وقد ارتبطت الحركة الوهابية منذ نشأتها بأسرة آل سعود . وكان مؤسس هذه الحركة هو محمد عبد الوهاب (١٧٠٣ – ٩١) الذى صاهر الأمير محمد بن سعود أمير داريا (وهى الرياض فى العصر الحديث) وكان الأمير محمد هو أول من آمن بدعوته وتزوج من ابنته . وتتسم أسرة سعود بالجرأة وقوة الاحتمال . وتنتمى إلى المنطقة الهضبية . وتعد المحور الرئيسى للشعب العربى والمزارعين الذين يقومون بمساعدة العبيد بزراعة نخيل البلح والخضروات – التى يتم فيها بعد بيعها بالأسواق – فى أرض وادى حنيفا وفى الأرض المستوية الممتدة على طول جانبى مجرى المياه . وكان أعضاء هذه الأسرة يتمتعون بالقوة ، والثراء ويعيشون فى عزلة بالهضبة الممتدة لمسافة ٧٠٠ ميل فيما بين الصحراء الشمالية والجنوبية فى المملكة العربية . وهم سكان مستقرون وليسوا من البدو الرحل ويتسمون بحدة المزاج :

ويميل الإسلام دائما وأبداً إلى حركات الإصلاح التى تدعو إلى العودة للفطرة وطهارة معتقداته الأصيلة . ولم يكن عرب ما قبل الإسلام يتسمون بالورع والتقوى بطبيعتهم إذ كانوا قريبى الشبه بأسلافهم من البدو إلى أن ألهبتهم العقيدة الوهابية . إذ كانوا يحيطون القوى الطبيعية التى تسيطر على نشاطهم وفاعليتهم بالاحترام . وكانوا يصنعون من الأحجار الآلهة ليعبدوها بصورة متقطعة غير منتظمة . وتعد الكعبة بمكة ، ذلك المبنى الضخم بلونه الأسود الذى كان يكن له هؤلاء الوثنيون القدامى كل الاحترام والتبجيل ، أثراً مقدساً قديماً جدده النبى محمد فى الدين الإسلامى الجديد . وكانت عبقرية ونبوغ محمد موجهة أساساً نحو الإصلاح وقد سعى من أجل تغيير أسلوب الحياة التى كان يحياها أهله ، من حياة مادية محضة تتسم بالطيش بكل ما فيها من مادية وافتقار للروحانية إلى حياة تعتمد أساساً على التوحيد والإيمان بإله واحد والتصديق بالحياة الآخرة قد لخص ذلك كله فى الخضوع لإرادة الله . وكلمة إسلام هى اسم مشتق من فعل مشتق من كلمة « أسلم »

أى الاستسلام بالمفهوم الدينى تعنى استسلام المرء لإرادة الله . وهكذا فإن المرء الذى يستسلم للإسلام يطلق عليه اسم مسلم .

وعلى الرغم مما يقوله شعراؤهم وقصاصيهم المتجولون الذين يفكرون ملياً فى اللغة القديمة المفقودة تلك التى تم العثور عليها محفورة على صخور فى الوديان المهجورة أو يتأملون رماد نيران المعسكرات المهجورة فإنه يمكن القول بصفة عامة أن الحياة الاجتماعية لهؤلاء العرب الوثنيين كانت تسودها الغارات القبلية والعداء الدموى ، وكان ذلك العداء الدموى التزاماً وضرورة حتى عندما تم الدعوة إلى عقد اجتماع للتحكيم والمصالحة ولتهدئة الأوضاع والتفاوض من أجل الحيلولة دون إراقة مزيد من الدماء . وقد كان عاملا معترفاً به كجزء لا يتجزأ من تنظيمهم الاجتماعى . والقتيل الذى لا يثأر له يعد عبئاً ثقيلا وغير محتمل بالنسبة للعرب الوثنيين لأنه من المعتقد أن روح القتيل تظل تحوم حول مقبرته فى شكل بومة تنعق طالبة إطفاء ظمئها . وكل الفضائل المكونة لمفهوم العرب الخاص بالشرف لا ينظر إليها بوصفها خصائص شخصية أو سمات إنسانية أو شىء خاص بالمرء ذاته ، ولكن ينظر إليها على أنها ممتلكات موروثة عن الأجداد . تظل على ما هى عليه دون المساس بها حتى تؤول إلى الأجيال التالية . وشرف الأسرة يجب أن يتوارثه الجيل التالى دون أن يلطخه شىء . وهو التزام يعد بمثابة حافز لإظهار مدى الإسراف والتبذل والعناد والإصرار عليه . وهذا ما زلنا نراه فى المملكة العربية السعودية الحديثة .

ومما يؤكد صحة ذلك ، الحكم الذى تم تنفيذه ، علانية فى وقت لاحق على اثنين من العاشقين المذنبين . وهو حكم أصر عليه رجال العائلة التى تنتمى إليها الفتاة .

إن ما حققه الرسول محمد هو نقل السلطة من القبيلة إلى المجتمع ككل ، واحلال فكرة الأخوة فى الإسلام ، تلك الفكرة التى حظيت بالقبول ، محل الفوضى المدمرة التى كانت سائدة والعداء الدموى الذى كان مستشرياً

آنذاك . ولقد كانت تلك المهمة شاقة لاسيما إذا علمنا أن غالبية من بادر إلى اعتناق الدين الإسلامى هم من الفقراء والعبيد الضعفاء .

لقد وجد البدو أنه من الصعب عليهم هضم المبادىء المميزة للحياة الاجتماعية الجديدة لأنها تتناقض مع معتقداتهم حيث أن ذلك الرباط الدينى ، من الناحية النظرية ، ألغى كافة الفروق الطبقية ، كما ألغى التباهى بالأنساب ، وقضى على العداء بين القبائل كما قضى على القتال من أجل الشرف والتفاخر بالأجناس . إن ما أقنعهم بإعلان إيمانهم وولائهم للدين الجديد هو تلك الغزوات التى خاضها محمد بعد أن وحد شبه الجزيرة العربية . وبعد مرور اثنى عشر عاماً على وفاته فى سنة ٦٣٢ بعد الميلاد تضاءل حجم الإمبراطورية الفارسية إلى حد أنها أصبحت إقليما تابعاً للخلافة العربية ، وانشقت مصر وسوريا عن الحكم البيزنطى المسيحى .

ولم يكن تحول الآلاف من أتباع المسيح وأتباع زوروستير إلى الإسلام بالضرورة ، بدافع من الإيمان الروحى ، ولكن كان بدافع من الحوافز المتعلقة ، التى تعقب أى غزو .

وقد برهن اليهود على أنهم يواجهون صعوبة أكبر من تلك التى يواجهها البدو فى استيعاب الدين الجديد . وكانوا مخيبين لظنون محمد الذى نبذهم بوصفهم جنساً متكبراً وعنيداً وكانت تعاليم الدين الإسلامى الجديد التى صحبها معه الرسول فى رحلته إلى المدينة فى سنة ٦٢٢ بعد الميلاد .. تلك المدينة التى كانت مكتظة حينذاك بالسكان اليهود ، هى تعاليم استمدت معظم تقاليدها الشفهية من المسيحية واليهودية ولكن الآن وبعد أن صده اليهود أمر محمد أتباعه بعدم الاتجاه فى الصلاة نحو المسجد الأقصى بالقدس كما كانوا معتادين من قبل ، ولكن أن يتجهوا إلى الكعبة فى مكة وبعد عام أو عامين أدمج محمد فى الإسلام تلك الطقوس الخاصة بالحج وهى التى كان يمارسها من قبل العرب الوثنيون ، وكانوا ينسبون تلك الطقوس إلى إبراهيم المؤسس الأسطورى للكعبة ، الذى يعتقد محمد أنه بعث ليحيي دين إبراهيم القديم .

وقد اشتقت أفكار محمد عبد الوهاب من أحد المخطوطات الخاصة بأعمال أحد المصلحين الدينيين فى القرن الثالث عشر — ألا وهو تقى الدين ابن تيمية والتى كانت فى حوزة عبد الوهاب . وقد تطلع عبد الوهاب مثله فى هذا مثل تقى الدين إلى إحياء الدعوة الفطرية للتوحيد بالله على النحو الذى دعا إليه الرسول وتطهير الإسلام من الفساد والبدع والخرافات . وقد هاجم الاعجاب ، الذى قد يصل إلى حد العبادة ، بالرسول محمد وبمختلف الأولياء ذلك الإعجاب الذى انغمس فيه معظم الناس . وهاجم أيضا الخرافات التى ابتدعها الوثنيون المتمثلة فى خلق مجتمعات كبيرة من العبيد والرجال المحررين من أصل أفريقى .

وليس هناك مبدأ واحد جديد فى الدعوة الوهابية : والفرق الوحيد بين أتباع المذهب الوهابى وأتباع المذهب السنى المتزمت هو أن الوهابيين يتبعون على نحو صارم نفس القوانين التقليدية التى وردت فى القرآن على حين أهملها الآخرون أو توقفوا تماماً عن اتباعها . فهم ينادون بأن كافة الناس متساوون أمام الله ، وأنه ليس بوسع أكبرهم تقوى وورعاً أن يطلب لأحد الشفاعة من الله ومن ثم فإن التضرع إلى الأولياء أو عبادة شىء من آثارهم يعد خطيئة .

إن ما يميز الحركة الوهابية عن باقى حركات الإصلاح فى التاريخ الإسلامى هو تحالف هذه الحركة مع غزو إقليمى ناجح مرتبط بعائلة واحدة معينة ترتب عليه ظهور المملكة العربية السعودية الحديثة . ولم يحقق عبد الوهاب نجاحاً فى بداية حياته لأن أحداً فى البصرة أو الكوفة أو فى تلك المدن الصغيرة الواقعة على ساحل الحسا لم يرغب فى الاستماع إلى رسالته بل تم استبعاده من العديد من المناطق حيث أثارت تعاليمه غضب السكان من الشيعة . ولذا عاد إلى موطنه الأصلى جنوب نجد حيث ولد وحيث أتاح له ارتباطه بأسرة سعود عن طريق زوجة الأمير محمد بن سعود فرصة لإقامة مركز فى مدينة داريا (الرياض) لنشر أفكاره . وقد رسخت هذه الأفكار على نحو مريع ووجدت تعاليمه — التى تعتبر قتل الملحد أو الوثنى عملا يستحق المكافأة —

وجدت لدى كل من الشيعة من المسلمين واليهود والمسيحيين الذين يشكلون جاليات ضخمة داخل الجزيرة العربية هدفاً سهل التحقيق .

وبحماس يصل إلى حد التعصب بدأ عبد الوهاب فى نشر دعوته ، وبدافع من فكرة الجهاد أو « الحرب المقدسة » تلك التى تسببت فى إثارة المشاكل فى وجه الإمبرياليين البريطانيين فى وقت لاحق ، بدأت أسرة سعود فى توسيع نطاق سيطرتها . ففى عام ١٧٧٥ استقروا فى الرياض بعد أن غزوها واستولوا عليها وهكذا أصبحت نجد برمتها شمالها وجنوبها ملكاً لهم .. وقد تمكن أميرهم من إشراك ٥٠ ألف رجل يمتطون الجمال فى المعركة .

وبعد نجد جاء دور عمان . وكان سكانها الزيديون المنشقون بمثابة سبب لإثارة غضب الوهابيين . فضلا عن أن ذلك الخط الساحلى الطويل المواجه للمحيط الهندى كان واحداً من أهم الأهداف التوسعية . وقد تلاشى الهجوم وأصبح مجرد مواجهة غير حاسمة فى واحة البوريمى الواقعة على الحدود الحديثة التى تفصل ما بين أبو ظبى وعمان والتى تعد مفتاح طرق القوافل التى تشق طريقها عبر الجبال من أجل الوصول إلى ساحل باتينه على خليج عمان . وقد أسفر ذلك عن بسط السيطرة الوهابية على جزء من الواحة حيث قاموا ببناء حصن يمكنهم عن طريقه السيطرة على الطريق المؤدى إلى المنطقة الداخلية . وإعاقة عمليات نقل البضائع فيما بين الخليج وعمان ، الأمر الذى كان يحقق أرباحاً هائلة بالنسبة للتجارة المحلية . ولم يتمكن قط الوهابيون من إيجاد منفذ دائم لهم على المحيط الهندى على الرغم من أنهم تمكنوا فى بعض المناسبات من بسط سيطرتهم على أجزاء من ساحل باتينه وعملوا قصارى جهدهم لدعم وتعزيز هذه الأجزاء .

وقد وجد شيوخ الحوازى فيما عرف فيما بعد باسم « ساحل الإمارات المتحدة » أنفسهم مرغمين على تأييد العقيدة الجديدة ودفع الإتاوة للوهابيين . حيث كان ثراؤهم يعتمد على صيد اللؤلؤ ونقل البضائع إلى الداخل عن طريق موانيهم ، بيد أن الهجمات المستمرة التى كان يشنها الوهابيون على الأراضى الواقعة على حدود عمان وعلى المستوطنات الداخلية ومشاعر الخوف التى بثها

الوهابيون أدت إلى توقف حركة المرور . وقد أدى ذلك إلى ظهور عمليات القرصنة على الساحل ، حيث شجع الوهابيون السكان — أن لم يكن قد أرغموهم فى حقيقة الأمر — على مهاجمة السفن المارة بالخليج كوسيلة تعوضهم عن فقد تجارتهم الداخلية .

وعلى نحو تدريجى أصبح كل الساحل العربى الممتد على طول الخليج خاضعاً لسيطرة الوهابيين ، وقد أرغم الحكام المسلمون السنيون فى كل من الكويت والبحرين على اضطهاد مواطنيهم ممن يدينون بالولاء — للمذهب الشيعى والمشاركة فى مهاجمة السفن . وكان الحكام السعوديون يحصلون على ⅕ الغنيمة . بينما يتم توزيع الباقى على بقية الأطراف المشتركة . وهكذا كان هناك أساس عمل وروحى لذلك الأسلوب الإرهابى الذى تم تنفيذه على خير وجه . وكان العمانيون على رأس قائمة الذين يعانون من هذه القرصنة حيث أنهم كانوا يمتلكون أكبر أسطول تجارى فى المنطقة . وكانوا يتاجرون فى الهند وأفريقيا وقد وصلت تجارتهم إلى البصرة عبر الخليج . وفى نهاية الأمر ، بدأ القراصنة — الذين زادت جرأتهم نظرا لما حققوه من نجاح — بدأوا فى مهاجمة التجار الهنود والسفن التابعة لشركة الهند الشرقية التى تقوم بنقل البضائع إلى الموانى الفارسية والموانى العمانية الواقعة على الخليج .

وبعد وفاة الرسول سرعان ما تلاشت المبادىء التى دعا إليها الإسلام فى البداية والمتمثلة فى البساطة والمساواة بين البشر ، حيث أضعفت مظاهر الحضارة المتسمة بالترف فى الممالك التى تم الاستيلاء عليها أضعفت من القيم الروحية عند المسلم ، ودعمت من القيم المادية وحب اللهو مما تمثل العامل القوى فى حياة الوثنيين العرب . وقد تمزق الإسلام ذاته نتيجة لذلك النزاع المرير الذى دار حول الخلافة التى يجمع فيها الخليفة بين القوة الروحية والدنيوية . وقد حدث ذلك النزاع فيما بين هؤلاء الذين يتمسكون بالمبدأ القبلى المتمثل فى السلطة المنتخبة التى يدان لها بالولاء والطاعة طالما أنها لم تسىء استخدام سلطتها أو لم تتجاوز السلطة التى منحت لها ، وبين أولئك

الذين يتمسكون بأنه يجب أن يتم اختيار السلطة من بين أفراد عائلة الرسول فحسب . وكان النزاع فى بدايته نزاعاً سياسياً ، متمثلا فى محاولة استقطاب الخلافات القائمة بين عرب الشمال وعرب الجنوب ، تلك الخلافات التى تبدو أكثر وضوحاً فى وقتنا هذا . وكانت دمشق الواقعة فى هضبة سوريا عاصمة الدولة الأموية تتطلع غرباً إلى عالم البحر الأبيض المتوسط . أما بغداد ثانى أكبر عاصمة للحضارة الإسلامية فقد أنشئت سنة ٧٦٢ بعد الميلاد على الضفة الغربية لنهر دجلة بالقرب من بلاد فارس فى أول منطقة تم الاستيلاء عليها خلال الفتوحات التى قام بها العرب المسلمون من قلب الجزيرة العربية .

وفى تلك المنطقة الجغرافية ظهر الانشقاق فى الدين الإسلامى والمستمر حتى وقتنا هذا . ولقد أثارت مظاهر الترف التى بدا عليها القصر الأموى وتشبعه بالنزعة الدنيوية غضب هؤلاء المتعصبين فى تمسكهم بتقاليد ومعتقدات الإسلام ، وهم من سلالة أو أقارب هؤلاء الذين قاتلوا إلى جانب الرسول . وفى النضال من أجل السيطرة على المنطقة العربية وإصلاح الحياة الوثنية التى كانت تحياها هذه المنطقة . وهم يدينون بالولاء لعلى ابن عم الرسول وزوج فاطمة إبنة الرسول . وفى عهد عمر فترة الخلافة الثانية – وبعد وفاة الرسول بأربع سنوات كانت الكنوز والثروات التى استولى عليها العرب من ملوك فارس ضخمة إلى حد أن العرب وجدوا صعوبة فى كيفية التصرف فيها . وقد شرح أحد الأسرى وكان من كبار المسئولين فى فارس لعمر كيفية إدارة « الديوان » فى فارس وكيف يتم تسجيل الدخل والمصروفات وإن تلك هى الوسيلة التى تمكن بها الفرس من مراقبة أموالهم وكيف يتم أيضا جدولة مرتبات المسئولين فى الدولة . وبناء عليه وفى عام ٦٣٦ بعد الميلاد ، تم وضع قائمة تضم أسماء العرب الذين يعتنقون الدين الإسلامى وتم تخصيص حصة محددة من الغنيمة لكل مسلم .

وقد اتخذ عمر قراره فى هذا الشأن ، حيث خصص مبلغاً محدداً لزوجات الرسول وأقرب أنسابه حتى تم استنزاف كافة الأموال الموجودة فى الخزانة ، دون أن يودع جانباً أى مبلغ للطوارىء خشية أن يغرى ذلك المبلغ من

سيخلفونه . وقد أمر عمر أن تكون أسبقية الدفع وفقاً لأسبقية اعتناق الإسلام وما يقدم من خدمات فى ميدان القتال . ولم يكن النسب أو القرابة لمحمد كافياً فى حد ذاته رغم ما لذلك من أهمية فى تحديد درجة عراقة الدم فى شبه الجزيرة العربية ، ولكن الأمر يتطلب حماساً دينياً وعملا ملموسا حتى يكون ذا مضمون حقيقى .

وفى ظل حكم عمر أصبحت المنطقة العربية بمثابة ساحة ضخمة تضم أعداداً هائلة من المجندين لخدمة جيوش الإسلام . وقد شكل العرب فى الأراضى التى فتحوها طبقة عسكرية اقتصرت عليهم .. تعيش فى معسكرات ضخمة .. والبصرة الحديثة هى واحدة من هذه المعسكرات .. وكان يتم تزويدهم بالأموال التى يجرى تحصيلها من السكان من غير المسلمين . أى من المسيحيين واليهود وأتباع زوروستر الذين تمسكوا بالدين الذى نشأوا عليه وقد كفلوا لهم الحماية والتسامح الدينى من خلال دفع ضريبة الذمة .

إن التنافس السياسى الذى نشب بين العرب بشأن تدبير مسألة الخلافة أدى إلى انقسام المجتمع الإسلامى لشقين أحدهما يؤيد المبدأ الانتخابى والثانى يؤيد مبدأ الوراثة ، وعلى بن أبى طالب هو المثل على ذلك . فعندما انتصر هؤلاء الذين يؤيدون مبدأ الانتخاب أصبحوا يمثلون الكيان المتزمت ويتبعون السنة أى التقاليد الخاصة بدينهم ومن هنا أطلق عليهم اسم المسلمون السنيون .

أما الشق الآخر فقد احتفظ بذاتيته بوصفه مشايعاً لعلى وأفراد عائلته وقد أطلق عليه فيما بعد اسم « الشيعة » وفى ظل تلك الظروف ظهرت بعض العناصر المنشقة . وبدأت الأفكار المتعلقة بالإيمان بالعصر « الألفى السعيد » (الذى سوف يملك فيه المسيح على الأرض) تنتشر وتتردد فيما بين هذه العناصر المنشقة . فقد ظهرت الأفكار التى تفيد بأن الأرض سوف تشهد « المهدى » المنقذ الملهم من الله وينحدر من سلالة الرسول :

إن تكبر العرب وعدم اختلاطهم ومغالاتهم فى الوطنية جعلهم مكروهين من جانب رعاياهم الجدد ، ولم يحقق الآلاف من أسرى الحرب ممن استوطنوا

فى المعسكرات العربية واعتنقوا الإسلام قدراً كبيرا من الاستفادة المادية لأنهم اعتملوا ، نظراً لوضعهم على حماية ساداتهم من العرب حيث أنهم انضموا إلى القبائل التى ينتمى إليها هؤلاء السادة بوصفهم أتباعاً أو مواطنين من الدرجة الثانية يتمتعون بالتسامح ولكنهم لا يتمتعون بالمساواة . وقد استفاد العرب من مهاراتهم وبراعتهم ومواهبهم وحضاراتهم الموروثة واستغلوا ذلك كله . بيد أن ثمرة اعتناقهم الدين الجديد وهى قبولهم السياسى للعرب والمساواة بهم حجبت عنهم البصيرة السليمة .

وقد انتحل العديد منهم أسماء عربية وحاولوا إخفاء أصلهم الأجنبى كما نسبوا أنفسهم إلى أنساب زائفة واستخدموا اللغة العربية وارتدوا أيضاً الزى العربى . ونظراً لمنعهم من المشاركة فى الحياة العامة فقد ركزوا كل جهدهم ونشاطهم فى مجال التجارة والتعليم . ومن بين صفوف هؤلاء المواطنين الذين يشعرون بخيبة أمل استمدت طائفة الشيعة أكبر قدر من التأييد . وهكذا أصبحت هذه الحركة حركة مناهضة للعرب أكثر من كونها انشقاقاً سياسياً تحركها مشاعر الكراهية التى يكنها هؤلاء المواطنون المضطهدون تجاه من يضطهدونهم . وقد دفعت الأفكار الفارسية فيما يتعلق بالحق الإلهى – حيث اعتاد ملوك ساسان استخدام اسم الله – مدعمة بتوقعات اليهود بظهور المسيح المنتظر ، دفع ذلك كله هذه الحركة فى طريق يبعد كثيرا عن طريق المذهب السنى المتشدد . وعلى الرغم من أنهم ظلوا مسلمين اسما ، إلا أنهم أدخلوا الكثير من التعديلات على الدين الإسلامى ليبدو فى الشكل الذى يريدونه عليه وذلك من خلال تقديم تفسيرات غامضة تعتمد على ما توارثوه عن الرسول .

وعلى أنقاض هذه الحركة السياسية انبثق ذلك التنظيم الدينى الضخم الذى يمكن أن يتحد فيه أناس حتى الأكثر اختلافاً فى الرأى لمعارضة الطبقة الحاكمة وهذا وضع لم يعترض سبيله فى الوقت الراهن سوى انتشار الإيدلوجية الماركسية . وما أضفى على سياسة الحركة الشيعية ذلك الشعور الدينى الذى اجتاحه وجعله يبدو على ذلك النحو غير المتشدد إلى حد كبير

هو المذبحة التى وقعت فى كربلاء جنوب العراق فى عام ٦٨٠ بعد الميلاد والتى راح ضحيتها الحسين بن على مع مجموعة من الأتباع – والأقارب فى ظروف قاسية ومؤلمة . لقد جعل ذلك الحادث والأساطير التى ترددت من حوله لهذه الحركة نزعة صوفية كما جعل لها أيضاً نظرة تختلف تمام الاختلاف عن تلك النظرة الإيجابية الهادئة الرزينة التى يتسم بها السنيون المتشددون .

وخلال الأيام العشرة الأولى من شهر المحرم .. وهو الشهر الأول فى السنة الإسلامية يحيى المسلمون الشيعة فى كل مكان ذكرى استشهاد الحسن والحسين أولاد على وأحفاد الرسول الوحيدين . وتتسم تلك الفترة بالتوتر العاطفى الناتج عما يقدمه الوعاظ من عظات ولوم وتوبيخ ، وهؤلاء الوعاظ المعروفون ببلاغتهم الكلامية يسافرون من أكبر مراكز الشيعة فى العراق وإيران ويتوجهون إلى المجتمعات البعيدة عبر العالم الإسلامى ليرددوا قصة استشهاد الحسن والحسين فى جوامع الشيعة فى كل مكان .

وقد تم اغتيال على فى أحد جوامع الكوفة عام ٦٦١ الميلادى كما وضع السم للحسن إبنه الأكبر بعد اغتيال والده بثمانى سنوات ، بيد أن قصة مقتل الحسين هو وابنه القاصر وابن أخيه الشاب فى كربلاء جنوب بغداد هى التى تثير العواطف إلى حد كبير. إن إعادة تمثيل تلك المأساة يمثل ذروة فترة الحداد التى تدوم عشرة أيام كل عام .

ولا يزال بالإمكان رؤية مسرحية الحسن والحسين فى البحرين فى العصر الحديث ، وقد ظلت تلك المسرحية على قيد الحياة بوصفها أداة لإثبات الهوية السياسية العلمانية لدولة يسيطر فيها الحكم السنى على سكان البلاد الذين هم شيعيون بالفطرة . وهناك أوضاع مماثلة فى مدن الإمارات الأخرى ، إلا أنها تفرض حظراً على احتفالات شهر المحرم على اعتبار أنها تحرض على إثارة القلاقل والاضطرابات الطائفية . والبحرين هى الدولة الوحيدة التى تسمح بإقامة تلك الاحتفالات . وينظر البعض إلى المشاركة فى هذه الاحتفالات وعمل الطقوس الخاصة بها من جلد وإراقة للدماء وضرب على الصدور على أنه

إعادة لتأكيد وضعهم باعتبارهم من السكان التابعين ولكنهم منفصلين ثقافياً عن حكامهم . ومن ثم يجب الاستمرار فى تلك الاحتفالات بوصفها دليلا يؤكد تضامنهم مع أتباعهم .

ولاتزال الأحداث التى وقعت منذ ما يزيد على ألف عام لها أصداء حقيقية وواقعية لدى مجتمعات الشيعة . ويمكن شراء صور ملونة وبأسعار زهيدة صنعت فى بومباى وكراتشى — خاصة بالشخصيات البارزة من المأساة التى تعرضت لها سلالة الرسول فى أسواق الخليج . وعادة ما يصور على بعمامته الخضراء وعباءته السوداء فى صورة شخص ورع وطاهر متمسك بالقيم الروحية وهو فى شكل وسيم تماماً على النحو الذى يبدو عليه المسيح من خلال صوره . والآثار التى ترتبت على وفاة على تأتى فقط فى المرتبة الثانية لتلك الآثار التى ترتبت على وفاة محمد نفسه وهو يعد بالنسبة لقطاع كبير من العالم الإسلامى رمزا لمطامحهم الدينية وأهدافهم السياسية . ويسجل الفنانون أحداث كربلاء على نحو يتسم بالسذاجة فيصورون الحسين وهو جريح ويبدو عليه الإجهاد حاملا ابنه القتيل بين يديه راكعاً على ركبتيه بجانب خيمته ليشرب بعض الماء وأثناء شربه للماء يصاب فى فه بسهم وقد تزاحم من حوله أعداؤه والسنيون ليدوسوا بأقدامهم على جسده ويمثلوا به .

وعبر الشوارع فى المناطق المجاورة لأماكن العبادة الخاصة بالشيعة تعلق اللافتات المكتوبة باللغة العربية والتى تكتب أحياناً أخرى بالإنجليزية وتحمل أسماء الثلاثة وتحمل أيضاً عظات للتذكرة بما حدث . ويجلس داخل الجوامع والمصليات جماعات من الرجال يستمعون إلى أحاديث الوعاظ تلك الأحاديث التى يتم نقلها إلى الأماكن المجاورة عن طريق استخدام مكبرات الصوت التى زودت بها كافة المآذن .

ويشارك فى الاحتفالات الشيعة من جاليات العمال الأسيويين الذين تم استيرادهم بعقود للعمل فى تلك البلاد ، حيث يحملون نماذج للمساجد الموجودة فى المدن المقدسة ويحملون أيضاً اللافتات والأعلام على صوارى

مرتفعة تحمل فى أعلاها رمزاً ليد فاطمة . إن أى شىء يظهر فى الاحتفال إنما يرمز إلى شىء مرتبط بقصة على والحسن والحسين : فنماذج الخيول المصنوعة من الرصاص ذات سروج مزركشة وملطخة باللون الأحمر الذى يرمز إلى الدماء تعرض فى هذه الاحتفالات كما تضم الاحتفالات أيضاً نعوشاً توضع فيها جثث فى وضع قائم بحيث يسهل على الحاضرين رؤية هذه الأجسام . ويعرض نموذج الحسين نفسه وهو يمتطى فرساً أبيض اللون ويرتدى ملابس مزخرفة بل إن شخص يظهر يمثل ذلك الجنرال المسيحى الذى يقال أنه شهد المذبحة ، وعادة ما يظهر فى شكل رجل أوروبى يرتدى قبعة للشمس حاملا بين يديه زجاجة ويسكى .

وقد اختفت فى الوقت الراهن الكثير من مظاهر هذه المهرجانات والمواكب فلم تعد المشاعل تستخدم فى إنارة تلك المواكب إذ حلت محلها المصابيح الكهربائية المثبتة على صارى طويل ومتصلة بمولد كهربائى متحرك يمكن أن ينتقل فى كل مكان . ويشارك رجال الدين والشيوخ فى الاحتفالات ويقرأون آيات من الكتاب المقدس من فوق مظلة خشبية محمولة على الأعناق ومضاءة بالمصابيح الكهربائية المتصلة بالمولد الكهربائى . ويتوقف من حين إلى آخر هؤلاء الرجال الذين يحملون هذه المظلة ويتصببون عرقاً حتى يتسنى للشيوخ المحمولين على الأعناق ترديد قصة الاستشهاد بنبرة رتيبة وصوت رنان .

إن هذا الجمع بين مشاعر الحماس والأساليب الحديثة يشكل سمة مميزة لتلك المبادىء الدينية التى تحظى بشعبية بين طوائف الشيعة . وقال لى أحد المسلمين الألمان وهو سنى قدم إلى البحرين لشغل إحدى الوظائف إن الشيعة « يكرهون السنيين » .. « لقد ذهبت إلى أحد المساجد التابعة للمنطقة التى أسكن فيها ، وهو مسجد شيعى ، وبصراحة شعرت وكأنى مسيحى بين هؤلاء الشيعة » . فهناك صرخات تنطلق على وتيرة واحدة مرددة يا « على » ويضرب الحاضرون على صدورهم فى صوت يتسم بالرتابة والانسجام وهناك ترانيم جنائزية حزينة ناتجة عن صوت اصطدام السياط بأجسام

الحاضرين . وآخرون ممن يستخدمون سياطاً مصنوعة من الحديد ومزودة فى نهايتها بشفرة حادة يضربون بها ظهورهم العارية ، وهكذا فإن منظر الدماء وأصوات التأوهات ومشاعر الحماس تترك آثاراً بعيدة كل البعد عن التحليل الحديث الذى يعوزه الحماس الخاص بالدوافع السياسية والاقتصادية التى يخضع لها العالم الإسلامى بصورة متزايدة والتى يعالجها انطلاقاً من وجهة نظر علمانية محضة .

إن قوة وحدة المشاعر التى لاتزال تبدو حتى وقتنا هذا تعطى المرء فكرة ما عن الصدمة التى شعر بها الشيعة عندما هاجم الوهابيون عام ١٨٠٢ كربلاء ونهبوا أماكنها المقدسة ودمروا أو نقلوا بالقوة المعادن النفيسة الموجودة فى قبة الجامع الذى دفن فيه الحسين . وقد نهبوا أيضاً المجوهرات والسجاد والأسلحة وسرقوا نحو ٤٠٠٠ شال كشمير و ٦٠٠٠ قطعة من العملة الذهبية الأسبانية القديمة و ٣٥٠ ألف قطعة عملة فضية و ٤٠٠ ألف قطعة عملة ذهبية هولندية قديمة و ٢٥٠ ألف دولار أسبانى وعدداً كبيراً من العبيد الأحباش الذين يقومون على خدمة الجامع . وقاموا أيضاً بذبح عدد كبير من الرجال والنساء والأطفال باسم الدين فقطعوا رقابهم زاعمين أن ذلك ما أوصاهم به الله .

وفى العام التالى اتجهوا إلى مكة التى استولوا عليها فى أبريل عام ١٨٠٣ – وقد تم الاستيلاء عليها بيسر وسهولة حيث أن سكان المدينة – نظرا لما انتابهم من ذعر – هجروها وتركوا البلد مفتوحة أمامهم وقام الوهابيون حينذاك بأداء الطقوس الأولية ومن ثم ارتدوا ملابس بيضاء كتلك التى يرتديها الحجاج قبل دخول المدينة ، ثم بدأوا العمل فدمروا جميع القبب المشيدة على مقابر أبطال وبطلات العهد الإسلامى الأول بحماس يشبه حماس من يحطم التماثيل الدينية وحماس البيوريتانيين الإنجليز وهم يدمرون تماثيل ومقدسات كنائس العصور الوسطى .

إن عملية الربط بين القتل وبين العقاب الدينى هى التى منحت الوهابيين تلك الصورة المعينة فى أذهان معاصريهم ، وجعلت الكثير يتردد بشأن قسوتهم

وضراوتهم . وبعد الهجوم الذى شنه الوهابيون على كربلاء ومكة وذبحهم النساء والأطفال – وهو ما يتناقض إلى حد كبير مع مبادئ القتال السليمة المسلم بها – يعد نقطة بداية التحول عن الوهابيين بصفة عامة وعن الأساليب التى يتبعونها تجاه هؤلاء الذين لا يخضعون لهم ولكنهم مشتركون معهم : إن حشد قوات الشريف فى الحجاز مكن الوهابيين من السيطرة على المدن المقدسة ، حيث لم يدمروا مقابر الأولياء فحسب بل دمروا أيضا قبر الرسول نفسه فى المدينة وكسروا أيضا الحجر الأسود الموجود بالكعبة . وقد تدخلوا أيضا فى تجارة موسم الحج المربحة . وكانوا يمثلون بصفة عامة مظهرا من مظاهر الرعب ، وقد دفع ذلك الأتراك العثمانيين – الذين توارث سلاطينهم الخلافة – إلى إرسال جيش وأسطول من الباشوات المصريين لسحق الوهابيين – كما اعتقدوا – إلى الأبد .

وقد استغرق المصريون مدة خمس سنوات لتحقيق ذلك . وفى عام ١٨١٨ ضعفت القوة الوهابية وانكمشت داخل نجد موطنها الأصلى وقد دمرت داريا (الرياض) تدميرا كاملا إلى حد أنها سويت بالأرض بناء على تعليمات إبراهيم باشا ابن محمد على نائب السلطان فى حكم مصر . ولم يتم قط إعادة بنائها . وقد أصبحت الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية فى الوقت الراهن . وقد استسلم الأمير السعودى وأرسل كأسير إلى مصر ثم تم نقله من مصر إلى القسطنطينية حيث كان يجرى استعراض عبد الله بن سعود آل سعود أمير نجد الرابع عبر شوارع العاصمة العثمانية على مدى ثلاثة أيام بصحبة رفاقه الأسرى الآخرين ، ثم نفذ فيهم بعد ذلك حكم الإعدام علانية .

وفى الهند ، كانت شركة الهند الشرقية تفكر فى السياسة التى يجب اتباعها لمواجهة الجرأة المتزايدة التى تتسم بها أعمال القرصنة التى يقوم بها الوهابيون وقبائل القواسمى الذين لا يكتفون بالاندفاع من مخابئهم على كلا جانبى مضيق هرمز لمهاجمة السفن المتجهة داخل الخليج ، ولكنهم اتجهوا للغرب حتى وصلوا إلى موشه واتبعوا نظام قرصنة تم وضعه على نحو يتسم بالدقة لمهاجمة الساحل الهندى . وقد تعرضت الشركة ذاتها إلى خسائر ضخمة فى

السفن والرجال من جراء أعمال القرصنة وضراوة وشراسة ما كانت تتعرض له من هجوم ، وقد أرغمت فى نهاية الأمر على اتخاذ إجراءات حاسمة نظراً للقسوة التى كان يتسم بها الوهابيون فى قتلهم البحارة والركاب باسم الله .

وقد تم القضاء على الوهابيين وقبائل القواسمى بعد القيام بأربع حملات بحرية وعسكرية متتالية على مدى خمسة عشر عاماً تم خلالها حرق رأس الخيمة وقصف وتدمير العديد من المواقع الأخرى الواقعة على ساحل الخليج وساحل باتينه . ومنذ عام ١٨٢٠ أصبح ساحل القرصنة يعرف باسم ساحل الإمارات المتحدة وقد تم الحفاظ على ذلك الوضع إلى أن تخلت بريطانيا عن مسئولياتها فى عام ١٩٧١ .

وهكذا تم حصر الوهابيين على الجانبين الشرقى والغربى . وقد ترك الأتراك وراءهم جيش احتلال مصرى ، واحتفظ الأتراك بحاميات عسكرية تابعة لهم فى نجد ولكن فى عام ١٨٣٤ تمكن الأمير فيصل بن سعود من الهروب من الأسر فى القاهرة وذلك عن طريق التدلى من على الصخرة المقام عليها القلعة التى كان ينزل بها مستخدماً الحبال ثم الهروب عبر الصحراء على ظهور جمل كان قد تم إحضاره فى الخفاء ليقوم بنقله خارج البلاد . وفى عام ١٨٣٤ تخلصت نجد من المصريين وتسلم فيصل زمام السلطة فى الرياض طوال إحدى وثلاثين عاماً إلى أن وافته المنية سنة ١٨٦٥ .

وفى ظل زعامة فيصل استعادت السلطة الوهابية معظم الأراضى التى فقدتها فى نجد ، وتركت بحرية ودون مضايقات لمواصلة حملاتها وغاراتها وتسوية الخلافات القائمة بين حكام المدن الصغيرة الداخلية وجمع الضرائب بانتظام . وكانت تلك السلطة تتمتع بالاكتفاء الذاتى وتسير وفقاً لنظام دقيق فى ظل إدارة فعالة تتسم بالكفاءة ويرأسها الأمير . ويقوم المحافظون الإقليميو ورجال الدين فى كل مسجد بقراءة النصائح والعظات التى يقدمها الأمير كل شهرين . باعتباره الإمام أو الزعيم الروحى لشعبه بالإضافة إلى كونه حاكمهم وتدور حول خشية الله وأهمية الصلاة وإخراج الزكاة وصيام شهر

رمضان وأداء فريضة الحج . وكان التضامن الاجتماعى ، والحرب المقدسة وإطاعة السلطة ومساعدة الفقير والمحتاج من الأمور المطلوبة أيضاً إن تلك القواعد الصارمة الخاصة بالسلوك والتفنيد الدقيق لما هو مسموح به ، أو مايمكن التسامح بشأنه وما هو مرفوض رفضاً قاطعاً ، والطقوس الإجبارية الملزمة ، والإصرار على وجود مؤذن يدعو إلى إقامة الصلاة خمس مرات فى اليوم فى صوت يفوق فى حدته صوت أجراس الكنائس . كل ذلك يمثل مظاهر القاعدة الشاملة للحياة التى حددها الرسول للسيطرة على نحو دقيق على الطبيعة البشرية التى تتسم بالتهور والهمجية وحب المباهج . وقد فسر الوهابيون تلك التعليمات تفسيرا حرفياً .

ومع ذلك لم يعد الحماس الدينى يسخر عن عمد لخدمة الدولة ، حيث تم وضع نظام مدروس على نحو أكبر وبتأنى تم بمقتضاه وضع قائمة تفصيلية سجل عليها عدد الرجال والخيول والجمال الخاصة بكل مدينة وقرية وقبيلة . بحيث أصبحت عملية حشد الجيوش تتم وفقاً لأسلوب معد ومألوف . وكانت الجيوش تدعم نفسها ذاتياً : حيث كان يخصص خمس الغنائم لخزانة الدولة لصرفها فى مجالات الإنفاق العامة الخاصة بالدولة . وكان يقسم الجزء الباقى فيما بين القوات حيث كان يتم توزيع حصة واحدة على قوات المشاة ومن يحاربون على ظهور الجمال ، بينما يحصل الفرسان على حصتين .

والأمير فيصل الذى يبدو لنا كما لو كان ينتمى إلى عصر العادات القديمة هو جد الملك بن سعود مؤسس المملكة العربية السعودية الحديثة .. وقبل وفاته بدأت تتردد أولى الأنباء الخاصة بوصول المسافرين الأوروبيين إلى المناطق الداخلية للبلاد ، بيد أن رحلاتهم كانت محفوفة بالمخاطر مشحونة بمشاعر القلق والخوف خشية أن تنتعش مرة أخرى تلك الروح الوهابية المتعصبة للسكان . وعند وفاته اختلف أولاده فيما بينهم ، وأصبحت الانقسامات بين أهل المدن ، الذين يميلون نحو التزمت والتعصب الأعمى ، وبين عناصر القبائل التى تتسم بالتساهل واللين ، أكثر وضوحاً .

وكانت الحملة الإنتقامية التى قام بها إبراهيم باشا منذ عام ١٨١٥ ،

حتى عام ١٨١٨ ضد الوهابيين بمثابة عمل إنتقامى أكثر من كونه محاولة لتأكيد حق السيادة . فبمجرد سحق الوهابيين لم يبق فى المملكة العربية السعودية شىء يجذب سكان الشمال الذين هم ثمرة حضارة البحر الأبيض المصرية والحضارة الشرقية . إن ما فعله العرب فيما بين أنفسهم هو أمر خاص بهم . ولم يكن أحد يهتم بذلك طالما أن المدن المقدسة لم يلحق بها أى أذى وطالما يعامل الحجاج باحترام .

وفى الوقت الراهن ترتبط منطقة الخليج فى أذهان القليل من الناس بتركيا والإمبراطورية العثمانية ، لأن بريطانيا هى التى سيطرت على مجال العلاقات الخارجية فى التاريخ الحديث ، وقد تفوقت اللغة الإنجليزية على اللغة التركية بوصفها لغة الطبقات المتعلمة .

إن ذلك الشقاق والتنافس والنزاع الذى دب فيما بين أبناء الأمير فيصل آل سعود الذى تمكن بعد هروبه من القاهرة من تأسيس أول إدارة سعودية شاملة فى نجد – كل هذه الأمور أدت إلى جلب القوات العثمانية ، مرة أخرى إلى شبه الجزيرة العربية . وذلك أن الجيش التركى ، بعد حرب القرم عام ١٨٥٦ كان قد تم صقله وتجديده ، وإعادة تسليحه وكانت الدولة العثمانية قد بدأت تتطلع إلى التوسع ، وتشعر بأنها قادرة على بسط يدها مرة أخرى على الأقاليم الشرقية النائية التى كانت قد أهملت أثناء انغماسها فى مواجهة انتهاك الروس لحرم ممتلكاتها الأوروبية

وكانت تلك سياسة تقدمية تتفق مع روح العصر ، الذى كانت تعتبر فيه الدول العظمى عملية ضم الأراضى التى تمتلكها نظام حكم ضعيفة وبدائية بحيث لا تستطيع الدفاع عن أنفسها وحماية أراضيها ، بمثابة لعبة عادلة ومنصفة. وكانت شبه الجزيرة العربية ، إنطلاقاً من ذلك المفهوم ، هدفاً للتقدم العثمانى ، بيد أن هناك عوامل أخرى تدخلت فى اتخاذ مثل هذا القرار . فقد تم حث السلطان عبد الحميد على القيام بمحاولة أخيرة لإعادة إحياء الأهمية الروحانية للخلافة التى توارثها السلاطين العثمانيون والمحافظة على مفهوم

الإخاء فى الإسلام ، وكذا فكرة التضامن الطائفى ، أمام العالم الإسلامى ، الأمر الذى قد يكون بمثابة ثقل مضاد لمواجهة اتجاه الدولة العلمانى الآخذ فى النمو وكذا محاولات الإصرار والتأكيد على القيم المادية الغربية .

وقد حظى السكان العرب التابعون للامبراطورية باهتمام يفوق فى حجمه أى اهتمام حظوا به من قبل ، وكان يتم الترحيب بأبناء العائلات البارزة – ليس فقط تلك التى تنتمى إلى المدن ولكن أيضاً التى تنتمى إلى القبائل الصحراوية – فى القسطنطينية ، وكانوا يتلقون تعليمهم ويتعرفون على الحضارة والسلوك العثمانى . وهكذا أتاح العثمانيون الفرصة لإيجاد بديل متحضر ليحل محل الطبيعة الصحراوية المتزمتة التى يسودها عداء وحشى . وفى عام ١٨٧١ احتل الأتراك كل ساحل الحسا حتى منطقة حفوف فى الداخل وذلك عن طريق إيفاد حملة من البصرة . وقد خضعت نجد لحمايتهم . واستجابة لالتماس تقدم به أهل البلاد إلى السلطان تم الإطاحة بأسرة سعود وتولى إدارة الإقليم محافظ تركى .

وكان الأتراك قد احتلوا بالفعل اليمن والحجاز . وكانت بغداد هى مقر المحافظ العام وقد خضعت أيضاً شبه الجزيرة برمتها باستثناء – سواحلها الجنوبية للسلطات العثمانية ، كما خضعت لها أيضاً كل من البحرين والإمارات المتحدة . ولم تهدأ قط الأوضاع فى وسط البلاد ، بينما تم الاحتفاظ بالحاميات العسكرية فى المدن الكبرى ، وقد وضع المسئولون عن الضرائب نظاماً هشاً للتحكم فى الشئون المالية . ولم يتدخل البريطانيون – الذين يتاجرون عبر الخليج من الهند إلى البصرة – فى ذلك الشأن . وليس ثمة شك فى أنهم اتبعوا سياسة التعاون مع الأتراك . فهم لم يسعوا بأية حال من الأحوال إلى قلب أى نظام قائم مهما كان يبدو للعيان على أنه غير ملائم ، أو أن يتسم بالجشع .

وفى نهاية القرن التاسع عشر كانت أسرة سعود فى حالة خسوف سياسى كلى ، حيث ضاعت قوتهم لتذهب إلى آل راشد فى هيل ، الذين كانوا يتمتعون بقدر ضئيل من السلطة فى وادى حنيفة والمنطقة المجاورة للرياض

مباشرة ولم تزل حدائق النخيل الموجودة فى الوادى تقول من حولها من
فلاحين ميسورى الحال وتجار أغنياء يعيشون فى ذلك الوادى الذى يبلغ طوله
مائة ميل .

وآل راشد الذين كانوا يمثلون القوة المسيطرة على نجد فى ذلك الوقت
على العكس من آل سعود – هم من البدو فى المرتبة الأولى الذين يقضون
معظم أوقاتهم فى الخيام وفى تربية الخيول وآلاف الجمال . ومدينتهم المعروفة
باسم هيل كانت ملتقى للقوافل ، وكانت بمثابة محط للحجاج القادمين من فارس
والعراق ومتجهين إلى مكة ، وكانت أيضاً نقطة اتصال هامة للقوافل
المتجهة شمالا أو جنوباً .

وقد تولى زعيمهم الحكم بوصفه حاكماً تابعاً للسلطة التركية ، وقد سيطر
على جبل شمار شمالا كما سيطر أيضاً على منطقة قاسم الزراعية التى يسهل
ريها . وفى النهاية بسط نفوذه أيضاً على وادى حنيفة وامتد ذلك النفوذ
إلى أسفل حتى الإقليم الذى كان تابعاً لأسرة سعود المعزولة .

ومن بين هؤلاء التجأ عبد الرحمن – والد الملك ابن سعود – هو ونساؤه
وأطفاله – وكان من بينهم ملك المستقبل – إلى الشيخ عيسى حاكم البحرين
وبعد إجراء مفاوضات استغرقت عدة شهور تم الاتفاق على أن تمنحه الحكومة
العثمانية معاشاً شهرياً قدره ٦٠ ليرة ذهبية أو ٦٠ جنيها تركياً والسماح له
بالإقامة فى أى مكان يرغب فيه فى ظل حكومتهم . وقد وقع اختياره على
الكويت وهكذا انتقل هو وأسرته إلى شقة تتألف من ثلاث حجرات
وكان ذلك عام ١٨٩٣ وترجع الصداقة القائمة بين السعودية وشيخ البحرين
فى الوقت الراهن إلى ذلك الوقت وما حدث فيه . إن الصداقة الحالية تعد
بمثابة اعتراف بالفضل أو الدين المتمثل فى كرم الضيافة ومشاعر الصداقة
التى أبداها حاكم البحرين تجاه السعوديين عندما كانوا فى أسوأ حال.

وعلى هذا الحطام خرجت المملكة العربية السعودية الحديثة إلى الوجود ،
لقد علم عبد العزيز بن سعود الذى أصبح فيما بعد ملكاً – بحقيقة وضع أسرته ،

لأنه عندما كان فى العاشرة من عمره كان ضمن البعثة التى قامت بتسليم الرياض
إلى قوات راشد . وان إقحام مثل تلك الحقائق والمعلومات على حياة الشباب
لا يزال يمثل الأسلوب المفضل لدى العرب فى تكوين شخصية شبابهم ،
وهم يسمحون للصبية من الشباب بمجالسة الرجال . بل إنه يتم الترحيب بهم
على أساس الاعتقاد بأن التجربة الشخصية أهم من أية تعليمات تنزع إلى إلقاء
المواعظ على الآخرين .

ومع نهاية القرن أصبح ملك المستقبل مغيرا محنكاً وجندياً مدرباً على
القتال عن كثب ، وعندما بلغ من العمر واحدا وعشرين عاماً وجه أول
ضربة مستقلة فى حياته ألا وهى استرداد قاعدة أسرته فى الرياض ، وقد
حقق ذلك العمل الجرئ من خلال الإغارة بصحبة أربعين شخصاً من
الكويت عبر الصحراء وقتل الحاكم الذى ينتمى إلى عائلة راشد بينما كان
يغادر الحصن بعد أداء فريضة الصلاة وأثناء توجهه لزيارة زوجته فى منزلها
الذى اختبأ فيه السعوديون من قبل . وقام ابن سعود نفسه بقطع رأسه وفصلها
عن جسده وعلقها على سور القلعة . وهكذا استرد السعوديون سيطرتهم
المستمدة من الأسلاف ثانية . وعشية الحرب العالمية الأولى كانت نجد الجنوبية
فى أيدى السعوديين . وقد أصبح ذلك الشاب أميراً بينما استرد والده اللقب
الدينى وهو « إمام » بيد أنه أقام فى الرياض حتى يظل موطنهم الأصلى فى
مأمن بينما عمل ابنه على إضعاف قوة راشد تدريجياً وطرد الأتراك من قلب
شبه الجزيرة . وفى نهاية عام ١٩١٣ دعم سلطته على طول ساحل الخليج
فى جبهة تمتد من حدود الكويت إلى شبه جزيرة قطر .

ومنذ ذلك الحين بدأ يخوض مجال السياسة الدولية . وكان الأتراك
والبريطانيون لازالوا متمسكين بروابط الصداقة القديمة التى كانت تربط
بينهما . وكانا يتفاوضان فى مشروع من شأنه تقسيم شبه الجزيرة العربية فيما
بينهما إلى مجالين : مجال نفوذ شمالى وآخر جنوبى . ان الوجود التركى ، وذلك
الانتشار الاستراتيجى عبر دول ما بين البحرين وطريق البحر الأحمر
المؤدية إلى الهند هو الذى دفع بريطانيا فى نهاية الأمر إلى فرض سيطرتها

السياسية – التى لم تدم سوى فترة زمنية قصيرة – على منطقة الخليج . وإذا كانت تركيا قد احتفظت بحيادها ، فلم يكن مؤكدا أن بريطانيا كانت ستتخذ موقفاً مضاداً منها ، ولاسيما إذا أخذت فى الاعتبار مشاعر وأحاسيس رعاياها من المسلمين .

بيد أن تحالف تركيا مع ألمانيا وإعلانها الحرب فى نوفمبر عام ١٩١٤ أشعل المسألة وهيأ الأحداث التى أدت إلى ظهور المملكة العربية الحديثة .

وقد خشى البريطانيون والحكومة الهندية بصفة خاصة ، من أن تدفع السلطة الدينية التى يتمتع بها السلطان التركى المسلمين فى كل مكان لقبول أية دعوة يعلنها خليفة المسلمين السلطان ، لشن حرب مقدسة أو « الجهاد » ضد الكافرين ، وحدوث تمرد آخر فى الجيش الهندى فى الفترة التى تجردت فيها شبه القارة من حامياتها البريطانية وكانت قوات الجيش الهندى ذاتها مطلوبة فى الخارج .

إن ذلك التفكير هو الذى دفع بريطانيا إلى دعم ومساندة الثورة العربية وتقديم مساعدات عملية فى شكل سلاح وذهب للحركة الوطنية التى يخوضها العرب ضد العثمانيين ودفعها أيضاً إلى تعزيز الجوانب المادية العدوانية القبائلية لمواجهة التيوقراطية الإسلامية للحكم العثمانى .

وقد أغفلت الحرب ذاتها منطقة وسط شبه الجزيرة حيث ارتكز كل شىء فى المنطقتين الشرقية والغربية . فى الغرب كان تى . أى . لورانس يعمل جنباً إلى جنب مع أعوانه لإثارة الثورة العربية فى الحجاز ضد الأتراك ودفعهم شمالا إلى فلسطين وسوريا . وفى الشرق كانت القوات البريطانية والهندية تشق طريقها ببطء من البصرة إلى بغداد وما بعد ذلك وكان نجم عائلة الشريف فى الحجاز آخذ فى اللمعان . وقد تلقى أفراد هذه الأسرة العلم على يد الأتراك ، وأقاموا فترات طويلة فى القسطنطينية ويتميزون بسلوكهم الحضرى المرموق . وقد انضمت هذه الأسرة إلى جانب بريطانيا . وكان ذلك التحالف بمثابة تحالف للمصالح المشتركة . فكلا منهما يرغب فى طرد

الأتراك فبريطانيا ترغب فى ذلك بدافع من الرغبة فى جمع المغانم فى زمن الحرب . أما الطرف الثانى فهو يريد ذلك بدافع من الرغبة فى استعادة السلطة على شبه الجزيرة كزعيم للعرب .

ولم تكن الحكومة البريطانية تتردد فى دفع المال فى مقابل تحقيق أهدافها . ومن ثم قام عملاؤها بتقديم الذهب لأفراد القبائل المختلفة وتقديم الكثير من العروض المغرية لكى تضم العرب إلى جانبها .. وفى عام ١٩١٤ بمجرد إعلان الحرب تم إيفاد الكابتن شكسبير العميل السياسى فى الكويت إلى الرياض حاملا هدية عبارة عن ١٠٠٠ بندقية و ٢٠,٠٠٠ جنيه إسترليني كوسيلة لإقناع ابن سعود بالوقوف ضد الأتراك . وكانت حرية وصول السعوديين إلى مستودعات الذخيرة فى البحرين واحدة من تلك العروض المغرية ، بيد أن شكسبير قتل فى بداية عام ١٩١٥ وهو يقاتل إلى جانب ابن سعود ضد عائلة راشد التى ظلت موالية للاتراك . ويقال أن موته جاء نتيجة لرفضه ارتداء الملابس العربية ، وهكذا كان من السهل معرفة هويته الأوروبية ومن ثم تعرف عليه أحد الرماة البارعين ، ووجه إليه ضربة بدافع من مشاعر الخوف والكراهة التى يكنها تجاه الأجانب وأيضاً نظرا لما له من أهمية سياسية .

وبوفاة شكسبير أصبح ابن سعود بمفرده هو المسئول عن تقرير مستقبله ومواجهة إدعاءات أسرة الشريف والإزعاج البريطانى الملح الذى لا يهتم بشىء سوى هزيمة الأتراك ولم يكن معروفاً عن ابن سعود إلا القليل ، وقد ظل كذلك حتى عام ١٩١٦ عندما تمكن من الحصول على اعتراف بريطانيا بوضعه. وقد وجهت إليه الدعوة لزيارة البصرة مكافأة له على شن هجوم ضد راشد فى هيل .

وقد تمكن البريطانيون من محاصرة الأتراك مما أدى إلى حدوث نقص فى المواد الغذائية داخل أراضيهم . وقد ظل التجار فى الكويت على اتصال بقبائل شامار وأنيزا الواقعة فى الشمال ، وكانت قوافل القمح وبعض الاحتياجات

الأخرى تمر عبر هيل إلى فلسطين وسوريا . وحتى يوقف مثل هذا التسرب، أقام البريطانيون فى نهاية الأمر حصاراً بحرياً حول الكويت فى الوقت الذى يغدقون فيه على القبائل الأموال والمؤن ويسرفون فى تقديم الوعود لإغرائهم على عدم الولاء للأتراك .

وأخيرا وفى عام ١٩١٨ وبعد أن تمكن ابن سعود من تحقيق أكبر صفقة كان يمكن أن يحققها بدأ يتحرك ضد هيل . ولكن الوقت كان متأخرا حيث كانت تركيا قد خرجت بالفعل من الحرب . وقد ركزت بريطانيا اهتمامها على عائلة الشريف فقدمت لهم الكثير ثم جعلتهم بعد ذلك ملوكاً على منطقة تمتد على شكل هلال يبدأ الحجاز عبر فلسطين وسوريا حتى العراق .

★ ★ ★

الفصل الثالث

الوصول الى الكويت — الدين — اسرة ديكسون — العهد العثمانى — الحرب العالمية — الانتهاكات الوهابية — انهيار تجارة القوافل الداخلية — الافكار الديمقراطية الجديدة — تسوية الحدود البريطانية فى عام ١٩٢٢/١٩٢٣ — الانتداب البريطانى فى العراق — سيطرة بريطانيا سياسيا على منطقة الخليج — المطامح القومية — عميل سياسى من نوع قديم .

* * *

إن وصول أى مسافر جوا إلى منطقة الخليج دون أية ترتيبات سابقة قد تجعله يشعر بالإحباط . ذلك أن الجو المشبع بالرطوبة الذى يحيط بوجهه بمجرد خروجه من الطائرة ينبئه على الفور بأنه وصل إلى الخليج .. إن مبانى المطارات التى يرجع تاريخها إلى منتصف القرن يمكن أن توجد فى أى مكان بيد أن المظهر الهش لهذه المبانى وما تتسم به قاعة الاستقبال من ابتذال نظراً لاستخدام شرائح الصفيح فى زخرفة المبنى هو مالانراه كثيرا ، وفى داخل المبنى يأخذ العمل طابع التشنج ، ويتم على نحو متقطع ، والمكاتب الخاصة بالتسهيلات إما أنها مغلقة أو ليس لها وجود على الإطلاق ، والعمل فى مكاتب شركات الطيران الموجودة بالمطار إما أنه يتم على نحو بطىء أو على نحو مثير للانفعال .. سلوك ونظرات العاملين فى إدارة الجوازات والهجرة التى تنم عن البغض والكراهية ، وانتشار قوات البوليس المسلح ومظاهر الحيرة التى تبدو على وجوه الناس الذين يواجهون صعوبات بشأن الوثائق التى يحملونها ، كل ذلك يخلق جوا من القلق والاضطراب ، وبوسعك معرفة المسافر الذى خاض تجربة مشابهة من قبل من خلال مظهره الذى يتسم بالهدوء فى حين يعانى العديد من المسافرين الآخرين من الحيرة والارتباك وينتابهم شعور بالقلق إزاء المقابلات ، والحجز والاتصالات ، ذلك الشعور

الذى يزيد ويدعمه الضجيج الذى يسود قاعات الاستقبال على فترات متقطعة .

لقد وصلت الكويت فى وقت مبكر من المساء ، فى وقت الغروب ، وكان هناك ما بين الركاب امرأة عربية فى سن الشباب ترتدى بالطو من الفرو وحذاء برقبة مصنوع من الجلد . وتصحب معها عددا لا يمكن تخيله من الحقائب ، وتحمل بين يديها كلب ضخم ، بيد أنه تمكن من الفرار وتوجه إلى سير الحقائب الكهربائى مما أثار ذعر الحمالين وأدى إلى وقف السير . ولذا استغرق نقل الحقائب فترة زمنية طويلة . وفى الوقت الذى غادرنا فيه مبنى المطار كان الظلام قد حل ، وقد قدنا العربة عبر طرقات واسعة وسريعة وكانت حركة المرور فى الاتجاه المؤدى إلى شاطىء الخليج غير مستقرة . وكانت عشرات السفن ترسو بهدوء فى مرفأ الخليج ، وكان المنظر غاية فى الجمال حيث تنعكس أنوار السفن على سطح المياه فى شكل مزدوج .

وفى المساء أمكن تحديد مدى حجم تطور المدينة من خلال الأنوار المتلألئة التى تحيط بالخليج ، فهناك طريق البحر ذو الاتجاه المزدوج تتلألأ فيه الأنوار وتتخلله إشارات المرور الضوئية ، بينما تضيئه صوارى النور العلوية ويتميز بحركة مرور ضخمة وتنطلق أصوات أبواق السيارات عالية على طول الساحل .

والانطباع الأول متعلق بالمدينة ، وكان انطباعاً مثيراً حيث كانت المبانى مضاءة بالأنوار المتلألئة الكاسحة ونافورات تنساب فى أضواء متباينة الألوان أمام واجهات هذه المبانى ، بحيث يبدو للمرء وكأنه يسير وسط فجوة تلمع على نحو متألق طعمت جدرانها بالأحجار الثمينة ، إن ذلك المظهر الفخم كان يمثل جانباً من جوانب الاستعدادات الخاصة بالاحتفال بالعيد القومى للكويت ، ولذا كانت المدينة بشكل عام متوهجة مثلها فى ذلك مثل ضوء النيون الذى يومض فى ليلة ذات مساء حالك . وفى اليوم التالى ، خرجت فى نزهة بالسيارة . وكانت تجربة مروعة ومثبطة للهمم ، حيث أن بريق المساء السحرى قد اختفى ليحل محله منظر شاحب وشمس ساطعة محرقة جعلت

السفن تبدو نظيفة كما لو كانت لعب أطفال على سطح مياه الخليج الزرقاء ولا استثنى مظاهر القدم والغبار الذى ينتشر فى شتى أرجاء المدينة ، فهو منظر موحش وكئيب وسط مظاهر الرخاء المهلهل غير المميز للتطور الجديد للمدينة . وقد ظل ذلك الانطباع ماثلا فى ذاكرتى . وهناك بعض المبانى التى انفردت بطابع خاص جعلها مميزة عن بقية المبانى . إلا أن المظهر العام للمدينة كان يتسم بالتبرج مع خيبة الأمل . فإن تكدس الأسفلت ، والأسمنت بصورة عشوائية كان أمراً غير مريح للنظر ، ذلك المظهر القذر والحقير الذى تبدو فيه المبانى الحكومية الضخمة مع انتشار الغبار على سطح كل شىء ، ذلك الغبار الذى يغطى بل ويحجب أوراق الشجر التى من شأنها التخفيف من حدة ورتابة الحياة فى المدينة كل ذلك كان مخيفاً بل ومنفراً أيضاً

والكويت مدينة صغيرة لا تمتد لمسافات طويلة على الرغم من أن بها مبانى شاهقة الارتفاع ، ولكنها تمتد فى غير نظام ، وتنمو شيئاً فشيئاً . فهى منطقة تزحف عليها تدريجياً مشروعات عديدة للتنمية ، تلك التى تنتشر على أرض ليس لها معالم محددة وتتزاحم جنباً إلى جنب على رقعة صغيرة من الأرض . وثمة حائط يحيط بكل منزل لضمان العزلة ، أما البيوت الخاصة فقد تم تجميلها بأساليب مثيرة للدهشة وتنم عن الثراء ، وقد يحاول الطالب الذى يدرس فى قسم عمارة بكلية الهندسة أن يسلى نفسه من خلال تحليل الحضارات المختلفة التى أدى تأثيرها إلى الوصول إلى مثل تلك النتيجة . ونادرا ما يمر المرء على مناطق تتميز بالخضرة حيث الحشيش والأشجار التى تضفى على المرء الشعور بالراحة ، ولكن قلما نرى مثل ذلك وسط الفوضى المنتشرة فى كل مكان .

وقد تم تخطيط الكويت على أساس مبدأ التقسيم إلى مناطق ، وهى محاطة بطرقات دائرية تحدد محيط كل منطقة ، مثل المنطقة التجارية والمنطقة السكنية والمنطقة الصناعية .إلخ .. ولايبدو أن هناك مركزاً للمدينة .. وعندما تم تفسير ذلك وجدت نفسى أفكر على نحو يتسم بالكآبة فى جحيم دانتى ودوائره السبع ، وخطر فى بالى أن هناك قدراً كبيرا من التشابه بين

كليما ، ذلك لأن وصف دانتى للجحيم مستمد من الرحلة التى قام بها محمد من مكة إلى القدس ليلا ، على ظهر مخلوق عجيب ذى جناحين يعرف باسم البراق ، ثم ساعده بعد ذلك جبريل حيث تسلق سلما ليصعد إلى السماء فيما يعرف بالإسراء والمعراج ، وقد شاهد محمد الأشرار كلا فى دائرته بالجحيم يكفر عن جرائمه وأخطائه وسط نيران مروعة ، ثم مر محمد بعد ذلك بالعديد من السماوات ، وكان المسيح وجون المعمدان فى السماء الثانية ، وقد وصل محمد حتى السماء السابعة حيث وجد إبراهيم الذى يعتبر بوصفه والد إسماعيل أبى العرب .

وتنطوى الأسرة التى كنت أنزل فى ضيافتها أثناء إقامتى فى الكويت على مفارقات تاريخية . فهى تقطن بمبنى ملتوى الشكل وفى مدخله توجد شرفة واسعة تطل على طريق البحر المزدحم الذى يطل بدوره على الميناء وهو خليج ضخم ذو مياه زرقاء ترسو فيه السفن فى هدوء . وقد تم طلاء جدران المنزل باللون الأبيض بينما تم طلاء أعمدة الشرفة والأبواب باللون الأزرق . ويضم المنزل فناء فسيحاً يكسوه الغبار ويلتقط فيه الدجاج الفتات من تحت الأشجار الشوكية ويحتشد الحمام فى جماعات بينما يتراءى إلى السمع صوت كركرة متقطعة يطلقها ثلاثة من الديوك الرومية المختلطة بالدجاج .

إن ذلك المبنى الذى لا ينتمى إلى تاريخ بعيد كان فى يوم ما المسكن الخاص بالمندوب السامى البريطانى ، والإبقاء عليه حتى الآن يعد بمثابة إقامة طريفة خاصة بأرملة واحد من أشهر هؤلاء المندوبين السياسيين . لقد حضرت مسز فيوليت ديكسون إلى ذلك المنزل وهى عروس فى عام ١٩٢٩ ، ويرجع بقاء المنزل على ماهو عليه واستمرارها فى الإقامة فيه أساساً إلى محاولة إحياء ذكرى الكولونيل ديكسون والدور الذى لعبه إلى جانب الأسرة الحاكمة فى الكويت ، والاعتراف بالدور الذى لعبه من أجل تطوير الدولة الحديثة ؛

إن مثل تلك الإيماءات التى تنم عن مشاعر العطف والود الشخصية ليست بالشىء غير المألوف فى دول الخليج ، التى تحررت فى وقت لاحق من الوصاية البريطانية ، والتى يتذرع حكامها فى كثير من الأحيان بأسباب تجعلهم يشعرون بالامتنان تجاه ما قدم لهم من مساندة من قبل البريطانيين الذين لم يسعوا قط بأى سبيل للاستفادة شخصياً من ذلك . لقد عرفت المحسوبية والمحاباة طريقهما إلى الإسكان والتوظف على نحو متحفظ بعد أن انتهى الوجود الفعال للبريطانيين واضمحلال نفوذهم فى البلاد . وتلك الإيماءات التى تنم عن الامتنان هى من واجب الصفات التى يتسم بها العرب والتى تبدو بدرجات متفاوتة فى المجتمع بكافة مستوياته .

ويحتفظ منزل مسز فيوليت بذلك الطابع الرزين الذى كان سائداً فى تلك الفترة الزمنية . ويبدو أنه لم يتأثر بالتغيرات التى اجتاحت تلك المدينة التى كانت فى يوم ما مدينة صغيرة تضم عدداً من المنازل المبنية من الطين والمصبوغة بلون الرمال الصفراء والمقامة على طول الساحل الذى يخلو تماماً من الأشجار أو الشجيرات . وبالمنزل مواطن عمانى دائم الابتسامة يتولى مهمة فتح الباب ، وهو حارس من قبل الحكومة يقوم بمهمة حراسة المنزل والتأكد من إغلاق الباب ، والمنزل يعيش فى عزلة وراء جدرانه العالية ، وأسفل المبنى توجد الأماكن المخصصة للخدم والمكاتب التابعة للمندوب البريطانى ؛ وفى الخلف توجد الاسطبلات التى كانت تضم الخيول التى اعتاد أن يمتطيها أعضاء عائلة ديكسون عبر الصحراء المحيطة بالمنزل . وفى الطابق العلوى توجد أماكن المعيشة ويحيط بها شرفة مفتوحة تبدو كما لو كانت حجرة فسيحة ، وكانت فى يوم من الأيام مكاناً من المستحب الجلوس فيه فى فترة المساء لمشاهدة الخليج ، بيد أن تدفق حركة المرور فى الوقت الراهن دون توقف جعل منه مكاناً مزعجاً من المتعذر الجلوس فيه .

وفى الداخل ، لا تزال طقوس الماضى قائمة فهناك الطباخ وهو هندى مسلم طاعن فى السن ، ويعد جزءاً لا يتجزأ من ذلك المبنى على مدى ثلاثين عاماً . وهناك أيضاً كبير الخدم الذى يبدو من خلال بنطلونه وقميصه الأبيض

النظيف كما لو كان يشغل منصب سكرتير وليس كبير خدام . لقد مات كبير الخدم السابق منذ نحو عام أو ما يقرب من ذلك . وقد حل محله ذلك الشخص الذى يأتى إلى عمله صباح كل يوم فى سيارته الفولكس واجن من مدينة الأكواخ والعشش الواقعة خارج المدينة حيث يعيش فى غرفة مثله فى ذلك مثل العديد من العاملين المحليين فى الكويت . ومن ذلك يمكن استنباط بعض التغيرات التى طرأت على المجتمع من خلال الجوانب التى سبق الإشارة إليها . فلم يعد يرغب الخدم فى الوقت الراهن بالعيش داخل المبنى الذى يعملون فيه ، ولم يعد هناك أى سيد على استعداد لتحمل مسئولية مبنى مكتظ بالخدم وبعائلاتهم كما كان الحال فى العهد القديم .

وتتم إدارة العمل على خير وجه دون أية مشقة وبهدوء تام داخل ذلك المنزل . إذ يتم تقديم الطعام فى أوقات منتظمة ، وهى تجربة من المتعذر بالنسبة لى خوضها مرة أخرى ، ولكن عن مدى دقة انتقال الحضارة من عصر إلى عصر . إن ذلك الطعام الشهى يعيد إلى الأذهان ذلك الجيل من نساء العصر الفيكتورى اللائى فرضن أسلوبهن المتبع فى إدارة شئون المنزل على الأسلوب الهندى الغريب ، وقاموا بتعليم صناعة الحلوى والبودنج والسمك المقلى والكعك المسطح المستدير لرجال قاموا هم بدورهم بتلقين الأجيال التالية تلك المهارات التى اكتسبوها مؤكدين استمرار حضارة خضت أنا شخصياً الدلائل الأخيرة التى تؤكد وجودها من خلال كرم ضيافة مدام فيوليت .

وكان الطابع الهندى يبدو اضحاً ، ذلك الطابع الذى يذكرنى بطفولتى ، وكثيراً ما كان يراودنى طوال رحلتى فى منطقة الخليج ، غير أنه لم يبد قط بذلك الوضوح والصفاء إلا فى ذلك المنزل القديم بالكويت ، وكما كان الحال بالنسبة لمنزل أجدادى الذى يتكون من طابق واحد ويقع فى الجزء الداخلى من البلاد كان المنزل يضم نوعاً من الأثاث العملى الذى ينتمى لعصر الملك إدوارد إلى جانب وفرة السجاد العجمى وعدد من الميداليات وبعض التحف الزينية الشرقية وصور فوتوغرافية معلقة داخل براويز ، وأحواض زهور وذلك

كله بغرض إظهار الطابع المحلى . ولدى وصول أى شخص بصورة غير متوقعة يتم استقباله على خير وجه وتقدم له كل مساعدة ممكنة بروح مرحة .

لقد اختفت الآن البساطة التى كانت تتسم بها تلك الفترة من الزمان ومنزل مدام فيوليت الذى يتسم بالهدوء ويتميز بطابعه القديم قد يبدو غير مطابق للمبانى الكويتية الحديثة ، من حيث الاتساع والرحابة التى يفتقر إليها هؤلاء المرغمون على العيش داخل شقق محدودة النطاق ومحاطة بالضوضاء أو فى بيت خاص مقام على مساحة صغيرة من الأرض . وقد أصبح من الصعب فى الوقت الراهن العثور على خدم بنفس حكمة ورزانة هؤلاء الذين يقومون بخدمة مسز فيوليت ، فمثلهم لا يمكن العثور عليهم سوى لدى العائلات المفرطة فى الثراء .

وقد اعتدنا الخروج كل مساء لمشاهدة جانب جديد من الجوانب المدينة وكانت ملاحظات مدام فيوليت تتسم بالحدة . إذ كانت تقول : « اعتدنا أن نترك جيادنا هنا ونذهب إلى الشاطىء » . أو تقول : « كان هناك فى ذلك المكان شجرة وحيدة » . وكنت أحاول أن أتصور الشاطئ ذا الرمال الصفراء ، والأكواخ المصنوعة من سعف النخيل ، والمراكب الشراعية المصطفة على طول الشاطىء ، والحياة الرتيبة التى كانت تحياها البلاد ذات الحوائط المصنوعة من الطين قبل اكتشاف البترول وما ترتب عليه من ثراء فاحش أدى إلى إزالة تلك الحوائط الطينية . فشهدت تلك الرقعة المقتضبة من الأرض أول جيل من أصحاب الملايين من الكويتيين .

وقد تم إعادة بناء هذه الجدران عام ١٩٢٠ وظلت قائمة حتى عام ١٩٥٦ عندما تم إزالتها على يد هؤلاء المخططين الذين وقع عليهم الاختيار لتخطيط المدينة الجديدة . وقد أحاط هؤلاء المخططون المدينة من ثلاثة جوانب بسور يمتد على مسافة ثلاثة أميال ويبلغ ارتفاعه إثنى عشر قدما . وهناك ثلاث بوابات تخترق هذا السور وخمسة أبراج للحراسة لتعزيز الدفاع عن المدينة . وقد بذل سكان المدينة طوال شهرين من صيف عام ١٩٢٠

جهداً كبيراً لبناء سور يحل محل السور القديم الذى تم هدمه خشية تعرضهم لهجوم من جانب الإخوان المسلمين ، ذلك الجيش المتعصب المغير الذى ينتمى إلى المملكة العربية السعودية التى ظهرت حديثاً فى وسط شبه الجزيرة العربية . وقد تم تجنيد كل رجل قوى البنية لأداء تلك المهمة ، وكان يمكن مشاهدة أكثر سكان المدينة احتراماً وهم يشاركون فى تنفيذ هذه العملية . وحتى بعد القتال الذى وقع فى أكتوبر من نفس العام كان يتعين على كل تاجر بارز تقديم حصته من الرجال لحماية الحائط أثناء الليل .

وقد تم وقف الإخوان فى واجة الجهرة التى تبعد نحو اثنى عشر ميلا من المدينة ، ومن ثم تعين عليهم التقهقر إلى الصحراء تاركين وراءهم ٨٠٠ من القتلى ، كما أصيب عدد كبير منهم بجراح خطيرة أدت إلى أن يلقى الكثير منهم حتفه قبل الوصول إلى المنطقة الآمنة التى تتواجد فيها قواعدهم فى نجد . ويعد ذلك الحادث نقطة تحول بالنسبة للعلاقات التى تربط بين الكويت وبين جارها القوى الذى انتهك حرمة كل الأراضى الصحراوية . إذ أدى هذا الحادث إلى تكليف البريطانيين بحمل إنذار إلى ابن سعود بأن الكويت لن تخضع لتلك القوة الوهابية التى انبعثت فى شبه الجزيرة العربية على أنقاض الإمبراطورية العثمانية ولم يكن نجم الكويت قد لمع بعد فى تلك الفترة إذ كانت تعتمد هذه المدينة الصغيرة بالنسبة لاقتصادها قبل عام ١٩١٤ على تجارتها الخارجية وتطوير ما تتمتع به من مهارات فى استخراج اللؤلؤ وبناء السفن . ولم يكن ميناء الكويت يستخدم فحسب من جانب قبائل جبل شمار المرتكزة فى هيل أو من جانب تجار نجد بل كان يستخدم أيضاً من جانب تجار اليمن البعيدة فى نقل البن إلى الهند عبر نجران . وكان يتم من هذا الميناء أيضاً شحن الجياد والماشية والزبد من هناك إلى الهند وإيران والبحرين .

وطريق القوافل الممتد فيما بين وسط شبه الجزيرة والكويت هو أسهل الطرق الصحراوية من حيث أنه أقل الطرق فى الكثافة الرملية ونظراً لوجود العديد من العيون المائية بقدر يفوق وجودها فى أى طريق صحراوى آخر

يمتد من المناطق الداخلية لشبه الجزيرة حتى الخليج إن ذلك الحزام الرملى الذى يربط بين صحراء النفود الواقعة شمالا وبين صحراء الربع الخالى الواقعة جنوباً يضيق كلما اتجهنا إلى أسفل لمسافة تقدر بنحو ٤٠ ميلا عند النقطة التى يتقاطع فيها مع الطريق الذى تمر فيه القوافل ويؤدى إلى الرياض . إن هذا الطريق الأكثر سهولة فى المواصلات عبر الصحراء بالإضافة إلى التسهيلات الخاصة بالرسو وكذا وجود ميناء الكويت كل ذلك جعل من الكويت منفذاً طبيعياً للتجارة التى تركزت فى فترة ما قبل عام ١٩١٤ فى أيدى الشيوخ وعائلات كبار التجار فى المدينة التى تقدر قيمة اتجاراتهم سنوياً بحوالى ١،١٢٥،٠٠٠ جنيه إسترلينى .

وفى عام ١٩١٣ كان اقتصاد البلاد راسخاً ومستقراً . وقد استوعبت عمليات استخراج اللؤلؤ ١٠،٠٠٠ رجل ، وبلغ عدد السفن المستخدمة فى هذه العمليات ٧٠٠ سفينة ، وكان الكويتيون فى مقدمة شعوب الخليج فى صناعة السفن ، وكانت سفنهم الضخمة تقوم بنقل ٢٠٠٠ عبوة بلح فى اليوم . وقاموا فى الفترة ما بين ١٩١٢ وعام ١٩١٣ ببناء نحو ١٢٠ سفينة لاستخراج اللؤلؤ بلغت تكاليف تصنيعها ٢٧ ألف جنيه استرلينى ، وقد كفلت واحة الجهرة التى تضم عدداً وافرا من الآبار .. وهى المنطقة الزراعية الوحيدة فى البلاد .. كفلت حركة مرور قوافل التجارة المتجهة شرقاً وغرباً مما عاد عليها بالربح .

بيد أن نشوب الحرب العالمية الأولى ، وتمويل بريطانيا للثورة العربية ضد العثمانيين قد أفسد ذلك كله . فقد تم وقف التجارة الداخلية المربحة مع قبائل جبل شامار بحجة أنها تضر بالحصار الذى تفرضه بريطانيا ضد الأراضى العثمانية . وهكذا اضطر شيخ البلاد الحاكم إلى التخلى عن حصته فى الأرباح وكان يحصل على هذه الحصة مسبقاً على أساس ما يتم تحقيقه من أرباح قوافل التجارة المتجهة شمالا . إن وجود زوارق البحرية البريطانية وطائراتها لفرض حصار بحرى ضد الكويت لم يكن أمراً من السهل تجاهله . وهكذا لم يكن الشيخ فى وضع هين . ولم تؤيد طبقة التجار الأغنياء ممن

يتمتعون بنفوذ قوى ، بالإجماع تورط الأسرة الحاكمة على نحو متزايد مع بريطانيا وقد تم اعتقال أحد أعضاء أسرة الغانم عام ١٩١١ ، وانتقل عدد آخر من التجار إلى البصرة بسبب الخلاف حول حق الشيخ فى تغريم العائلات الغنية للتوسع فى مشروعاته الخاصة ببناء مدارس ومستشفيات حديثة فى المدينة . إن ذلك الاضطراب الذى خيم على أسلوب حياتهم ، وتلك الصعوبات التى واجهوها مع الإخوان أدت إلى زيادة فرص عدم الاستقرار فى المجتمع . وكانت العلاقات التى تربط بين سكان المدينة وسكان القبائل قوية ، وقد هجر العديد من سكان القبائل الصحراء للاستيطان فى القطاع الخاص بهم فى المدينة وكانوا يرحلون فى الربيع لينضموا إلى عشائرهم فى رعى قطعان الماشية بالمراعى الواقعة بالقرب من شاطىء البحر وفى الأراضى التى تنمو فيها الحشائش على ضفتى النهر بالقرب من الحدود العراقية .

وكان المجتمع الكويتى لا يزال يتسم بضيق الأفق ، حيث كان بوسع الشيخ التدخل شخصياً للتأكد من أن أحد شباب القبائل قد حصل بالفعل على السعر المناسب لما يمتلكه من لؤلؤة قيمة . وقد استخدم الأخوان أحد تجار اللآلىء الأثرياء فى الكويت وهو هلال المطيرى الذى توفى عام ١٩٣٨ عن عمر بلغ ٨٠ عاماً – استخدموه ليقوم بدور الوسيط لنقل مطالبهم إلى الكويتيين بشأن ضبط سلوكهم وفقاً لمبادىء العقيدة الوهابية المتزمتة ، ثم فى أشد فترات حياتهم ضراوة .

ومعظم الكويتيين من المسلمين السنيين ، بيد أن النفوذ الوهابى كان قويا ، وكانت هناك مشاعر من الكراهية الحقيقية والخوف تجاه الأساليب الحضارية الجديدة التى جلبها الأجانب معهم . وفى نهاية الثلاثينات تم فرض حظر شديد على الموسيقى سواء المذاعة من خلال الراديو أو الجرامفون ولم تكن الفرق الموسيقية العامة أو الفرق الموسيقية العسكرية أمراً معروفاً لديهم .. وقد باء المشروع الخاص بالسينما بالفشل عندما رفض الحاكم تنفيذه . ولم تكن هناك فنادق – خشية أن يؤثر هذا الوجود على سمعة الكويتيين بالسخاء

الشديد بما يتفق مع تعاليم القرآن – ولم تكن هناك صحف محلية ، وكان يتم إحضار القليل من الصحف العربية من العراق .

وكان الشيخ (أو أبناؤه) يجلس على أريكة فى المكان المخصص للسوق كل صباح ليقيم العدل بين المواطنين ، وكانت الأسر الحاكمة تتفاخر بسهولة الوصول إليها . وكان السكان فى الأساس ينتمون إلى أصول قبلية ، وكان هناك أيضاً جالية كبيرة من المسلمين الشيعة القادمين من إيران والعراق ويعملون كعمال فى البحر والأسواق . وفى فترة ما قبل عام ١٩١٤ كان هناك نحو ٢٠٠ يهود يعيشون فى المدينة . بيد أن معظمهم انتقل إلى العراق أو هاجر إلى الهند ، أما هؤلاء الذين ظلوا بالكويت فقد كانوا يعيشون فى ظروف سيئة ويعانون من فقر مدقع ، ويعيشون فى عزلة عن كافة مظاهر الحياة الاجتماعية اليهودية إلى أن انتقلوا إلى فلسطين التى كانت خاضعة للانتداب البريطانى .

وفى الفترة التى سادتها مشاعر الخوف والقلق فى نهاية الحرب العالمية الأولى أتاحت وفاة الشيخ الحاكم الفرصة أمام التجار لتأكيد ذاتهم . وقد أبلغوا أسرة الصباح أنهم لا يجيزون سوى ذلك الحاكم الذى يكون على استعداد لأن يشاركه فى السلطة مجلس من المستشارين ، وانطلاقاً من ذلك الإنذار خرجت إلى الوجود أول تجربة كويتية للمشاركة فى السلطة .

وكان الحاكم الجديد وهو الشيخ أحمد على علاقة طيبة بابن سعود والوهابيين على العكس من سلفه ، ومن ثم كانت هناك آمال فى أن يؤدى ذلك إلى الحد من حدة التوتر القائمة بين البلدين ، وأن تستعيد الكويت ما كانت تتمتع به من ازدهار تجارى . بيد أن الأمور سارت فى اتجاه مضاد . إذ رغبت المملكة السعودية ، التى تنزع إلى التوسع – فى أن تدلل للكويتيين على أنهم قد يحققون أكبر قدر من المصلحة من خلال الاندماج فى الدولة السعودية ، ومن أجل تحقيق ذلك الهدف فرضوا حصاراً حول الكويت أدى فى وقت من الأوقات إلى خفض حجم العمل إلى نحو عشر حجمه المعتاد.

وقد تحولت حصة الكويت فى التجارة إلى الموانى السعودية مثل القطيف وجبيل على شاطئ الحسا .

وفى عام ١٩٢٢ تعرضت أسرة الصباح لضربة أخرى فبعد أن فرض البريطانيون وصايتهم على العراق ، كانوا يتوقون إلى تعديل الحدود التى تفصل بين العراق والدول المجاورة لها وقطع الدعم الذى كانوا يقدمونه لابن سعود مقابل قيامه بنشاط موجه ضد تركيا . وقد تم وضع الترتيبات الخاصة بعقد مؤتمر فى عقار على ساحل الحسا فى نوفمبر من نفس العام تمكن من خلاله سير بيرسى كوكس المندوب السامى البريطانى فى العراق من ضم منطقة إقليمية واسعة النطاق إلى العراق ، كان ابن سعود يطالب بها وعوضه عن ذلك بأن دفع الحدود الكويتية الجنوبية إلى الوراء مسافة ١٥٠ ميلا وقد حصل ابن سعود بذلك على نحو ثلثى مساحة الصحراء التى طالب الصباح بحقه فى السيطرة عليها ، وذلك فى مقابل وضع حدود ثابتة بين المملكة العربية والعراق قام سير بيرسى شخصياً بتحديدها على الخريطة مستخدماً قلمه الأحمر . وقد أدى ذلك فى النهاية إلى تقليص مساحة الكويت إلى ٦٠٠٠ ميل مربع مع وجود منطقة محايدة على شكل منحرف تفصل بينها وبين المملكة السعودية . وقد تم التوقيع فى ذلك الوقت على بروتوكول تعاون بين نجد والعراق وكان الهدف منه السماح للقبائل المتنقلة بحرية الحركة عبر الحدود بحثاً عن المرعى باعتبار أن ذلك هو نمط أسلوب حياتهم ، وحظر بناء أية حصون أو قلاع أو حشد وتركيز القوات فى تلك المنطقة ، إلا أن هذا البروتوكول لم يكن مصاغاً بدقة ومن ثم حدث خلال خمس سنوات خلاف بين الدول المتجاورة ، وهو نزاع قائم حتى الوقت الراهن . وقد قام أيضا سير بيرسى فى شهر أبريل عام ١٩٢٣ بتسوية نزاع الحدود الكويتية — العراقية وحصلت بموجبه الكوين على جزئين فى واربا وبوبيان — وهما موضع نزاع فى الوقت الراهن بين العراق والكويت . وقد وصل النفوذ البريطانى فى منطقة الخليج ذروته فى ذلك الوقت . لقد ولى وانقضى ذلك العهد من الانعزال السابق الحصيف الذى تجنب الارتباط بأى شىء لا تأثير

له على الأنشطة التجارية البريطانية فقد وصلت إلى العراق مجموعة من المسئولين الذين يتسمون بالفاعلية والنشاط ممن تدربوا على إدارة الأقاليم الهندية ، وبدأوا عملية إعادة تنظيم البلاد . وسرعان ما واجهوا تمرداً لأن عرب القبائل لم يعتادوا النظام وفقاً للأسلوب الهندى ، ومن ثم أبدوا استياءهم تجاه كبح جماح إغاراتهم بعضهم على البعض الآخر وما يكنونه من مشاعر العداء والحد من حرية الحركة قطعانهم وماشيتهم فى المنطقة التى تتقابل فيها الصحراء بالأراضى الزراعية :

ولم يكن هناك نقص فى السلاح لأنه كان قد تم الاستيلاء على آلاف البنادق التركية والبريطانية على حد سواء أثناء الحملة على بلاد الرافدين وكانت جماعات العرب من اللصوص يحومون حول ميادين المعركة — فى جماعات تتراوح أعدادها ما بين ١٥٠٠ إلى ٢٠٠٠ فارس قوى — وكانوا يحملون بكل ما يمكن الحصول عليه من أسلحة وذخيرة وجياد وأى شىء آخر . وقد ظلت البلدة المحيطة « بعمارة » التى تبعد عن البصرة ١٣٠ ميلا تتعرض للغارات المستمرة حتى بعد الاستيلاء على بغداد بفترة طويلة فيما بين عام ١٩١٦ وعام ١٩١٨ . لقد آمن وجود المستنقعات عملية التقهقر — التى كانت تتم تحت إشراف المشايخ أنفسهم —وقد وجد الضباط السياسيون مثل ديكسون صعوبة كبيرة فى تحديد اللصوص . وكان هؤلاء اللصوص يلتزمون الصمت التام إذا ما وقع أحدهم فى الأسر . وقد تم نصب المشانق بالميدان العام فى مدينة عمارة فى صيف عام ١٩١٦ وأرغم سكان المدينة على مشاهدة عملية تنفيذ الإعدام ، وكان الهدف من وراء ذلك هو السيطرة على عمليات السرقة ، بيد أن أحدا من أصدقاء أو أقارب المحكوم عليهم لم يأت لوداعهم . وهكذا كان اللصوص يلقون حتفهم دون أن تبدو عليهم أية مظاهر للانفعال .

أين انتهى عصر الكفاءة النزيهة وبدأ عصر المصلحة الشخصية ؟ وفى أى الظروف يمكن تبرير أسلوب الوصاية والرعاية الذى تنتهجه الحكومة

فى إدارة البلاد ؟ إن أحدا لم يشر قط إلى أن المسئولين البريطانيين فى ظل الانتداب البريطانى كانوا يتسمون بالفساد والرشوة كما كان الحال بالنسبة للمسئولين العثمانيين ، كما أن أحد لم يدفع قط بأن المسئولين البريطانيين استفادوا بأى شكل من الأشكال من مناصبهم . لقد كانوا يقومون بمهامهم بنفس النشاط والحيوية التى تتناول بها ربة البيت النشيطة مهمة تنظيف الاسطبلات البالغة القذارة ، وقد حققوا بالفعل انتصارات ملموسة ، فقاموا ببناء المدارس التى كانت تعلم اللغة الإنجليزية ، وبناء المستشفيات وشق الطرق وتقديم خدمات نهرية ، وأقاموا طرقاً جوية وأدخلوا وسائل الاتصال الحديثة وكانوا يشعرون بسعادة بالغة فى العمل لأنه كان بوسعهم إنجاز ما كانوا محرومين من إنجازه فى كل ظروف حياتهم البريطانية ، لقد رأوا فى العراق هند أخرى يمكنهم فيها ممارسة مهاراتهم ومواهبهم .

ومما يدعو إلى الدهشة أن المستفيدين من روح الحماس والفعالية البريطانية هذه كانوا غير شاكرين للجميل . وثمة قرار اتخذ على وجه السرعة مفاده أن الحكم المباشر هو حكم غير عملى ، ومن ثم أنشأت ممالك عربية فى المناطق الخاضعة للانتداب البريطانى ، فى حين أقامت فرنسا الجمهوريات فى المناطق التابعة لوصايتها . وقد منح البريطانيون حلفاءهم الهاشميين والشريف حاكم الحجاز وأولاده – الذين قادوا مع تى . اى . لورانس الثورة العربية ضد العثمانيين – ألقاباً مستحدثة . وأراضى جديدة ، بيد أن اختيارهم لهم لم يكن موفقاً حيث سيطر ابن سعود على الحجاز ، وتم عزل الملك الجديد الذى عاش فى المنفى فى قبرص ، وقام الفرنسيون بطرد ابنه من دمشق ، وكانت المملكة الوحيدة المتبقية من بين الممالك التى عمل البريطانيون على إقامتها هى مملكة الأردن ، أما الأسرة المالكة العراقية التى تعد أكثر أعمال بريطانيا الخلاقة طموحاً ، فقد لقى كل أفرادها مصرعهم فى ثورة عام ١٩٥٨ .

وقد تساءل حاكم الكويت عندما أبلغه سير بيرسى كوكس أنه انتزع ما يقرب من ثلثى مملكته لاعطائها للسعودية قائلا « ألم تدخل بريطانيا العظمى الحرب لحماية حقوق الدول الصغيرة ؟ » .

ولم توجه الدعوة للشيخ أحمد الصباح لحضور المؤتمر المنعقد فى عقار بل أنه لم يتم التشاور معه بشأن ما دار فى المؤتمر من مناقشات ، وقد رد بيرسى قائلا « أنه فى حالة مالم يهب هذه الأراضى لابن سعود كان سيأخذها هو بنفسه » ولم يهدىء ذلك الرد من مشاعر غضب الكويتين .

لقد أثارت الأعمال الاستبدادية التى قامت بها بريطانيا مشاعر تنم عن الاستياء فى نفوس ضحاياها وجعلتهم يتذرعون بالصبر لإخفاء ما يكنونه من مشاعر الكراهية ، وقد ظهر ذلك فى وقت لاحق فى اتخاذ مواقف معادية لنظام الحكم البريطانى ، وكان البريطانيون يفتقرون إلى الحساسية فى تعاملهم مع عملائهم الجدد ، وكان أسلوبهم يتسم بالعجرفة والتكبر ، وربما كان ذلك سلوكا مقبولا فى الهند ولكنه غير مقبول فى منطقة تعتبر المفهوم الإسلامى الخاص بالمساواة بين الناس هو القاعدة السائدة .

ولا تزال البحرين تتذكر الميجور دالى المندوب السياسى البريطانى فى البحرين ولا يزال سكان البحرين يكنون تجاهه مشاعر تنم عن الكراهية ، وقد كان الميجور دالى رجل قصير القامة يتسم بالنشاط والحيوية . وهو سياسى هندى قام فى عام ١٩٢٣ بعزل الشيخ الحاكم وهو الشيخ عيسى المسن الذى يرجع الفضل فى توليه السلطة عام ١٨٦٩ إلى النفوذ البريطانى وحل محله أبنه وهو جد الحاكم الراهن . وكان ذلك التدخل فى الشئون الداخلية لجزيرة أمراً يثير استياء الكثير من الناس ولا سيما عندما قام الميجور دالى بالتدخل فى الانشطة التى يقوم بها التجار البارزون بهدف اصلاح النظام المتبع فى إدارة تجارة اللؤلؤ . وقد أبلغنى راشد زيانى رئيس الغرفة التجارية فى البحرين أنه يتذكر منذ طفولته ذلك اليوم الذى عاد فيه من المدرسة ليجد أن جده قد ألقى القبض عليه بناء على تعليمات من الميجور دالى ، وقد تم نفيه من البلاد فى غضون أربع وعشرين ساعة . ومضى يقول « أننى لازلت أتذكر صرخات جدى والنساء فى المنزل . . وقد توجه والده فى مساء نفس اليوم ليبحث مع الميجور دالى الأمور المتعلقة بالمنفى : وكان عليه أن يختار اما العراق أو الهند . وقد وقع الاختيار على الهند على أساس الاعتقاد أن فى بومباى توجد جالية

عربية ضخمة كما يوجد عدد وفير من المحامين الأذكياء وحيث تكون الفرصة أمام الجد زيانى لرفع أمره إلى القضاء مواتية بدرجة أكبر منها فى العراق التى بلغت سلطة الانتداب فيها ذروتها .

وقد رفضت المحكمة النظر فى القضية ؛ ولم يعد قط الجد زيانى إلى البحرين . وتوفى فى الهند وتم دفنه هناك . ولا تزال الظروف التى أحاطت بعملية القاء القبض على زيانى وذلك الأسلوب المتعجرف الذى اتسم به دالى تراودنا ولازلنا نتذكرها . لقد تجمعت العناصر المستاءة من المواطنين البارزين الذين يشعرون بالسخط أزاء عزل الحاكم القديم فى مكتب دالى لبحث الأمر وظلوا منتظرين وبينما يمر الوقت يبطء هبطت معنويات المجتمعين . بيد أن الحكمة عادت لتؤكد نفسها مرة أخرى . فانسحب العديد من المجتمعين ولم يتبق سوى الجد زيانى ورجل آخر هو الحاج أحمد بن لاهيج وقد تحملا المشقة حتى النهاية إلا أنه ألقى القبض عليهم وتم ترحيلهم فى اليوم التالى ، حيث أحضروا إلى رصيف الميناء تحت الحراسة المشددة وتم شحنهم على ظهر إحدى السفن البريطانية على مرأى من الجماهير .

ومثل كثير من شباب عائلات التجار فى البحرين كان أفراد أسرة زيانى متزوجين من عراقيات ، وربما نظراً لتلك الروابط العراقية كان المندوب البريطانى يرتاب فى قدرتهم الكافية على إثارة المتاعب . وكانت العراق بالنسبة للمسئولين الذين ساروا على نهج الميجور دالى بمثابة مصدر تأثير له خطورته : فقد أزدهرت فى العراق كما ازدهرت فى باقى أجزاء الامبراطورية العثمانية جماعات سرية تحت زعامة الأتراك . وكان يتم الإعراب بحذر عن المفاهيم الخاصة بالقومية والنهضة العربية خلال الاجتماعات التى كان يعقدها الشباب من ضباط الجيش وفى أوساط الطبقة المثقفة التى كانت ترعاها الجامعات الفرنسية والأمريكية فى سوريا ، حرك الحنين إلى الاستقلال والرغبة فى التحرر من أجل تطوير البلاد — حرك العديد ممن ينتمون إلى الطبقات المتعلمة . وكان ذلك مجالا للتنافس مع الأسلوب التقليدى للولاء للقبيلة ذلك الولاء الذى حظى بتأييد جوهرى من جانب بريطانيا أثناء الحرب .

وكانت مجتمعات التجار فى الخليج أكثر تعرضاً لتلك التأثيرات بقدر يفوق الأسر الحاكمة التى كانت تخضع لمراقبة وأشراف المندوبين السياسيين وباعتبار أن التجار كانوا أكثر انطلاقا وتحررا من القيود المحلية الأقليمية بالمقارنة بالشيوخ ، وباعتبار أنهم أكثر ترحالا فقد كانوا يرغبون فى ادخال التعليم الحديث لأبنائهم . فقام بعض تجار البحرين — ومن بينهم أسرة زيانى — بانشاء مدرسة فى مهراك فى عام ١٩١٩ وقاموا بجلب مدرس مصرى وهو الشيخ حافظ وهبه وجعلوه يشغل منصب ناظر المدرسة . بيد أنه وقع فريسة غدر الميجور دالى ، إذ فوجىء لدى عودته من حفل زواج فى المملكة العربية السعودية أنه تم إلغاء التصريح الخاص بإقامته ومن ثم منع من النزول من السفينة . ومما يثير الدهشة أنه أصبح فى وقت لاحق أول سفير للمملكة العربية السعودية لدى بريطانيا العظمى وقد حصل على وسام الفرسان قبل مغادرته لندن ، بيد أن عملية استبعاده عن البحرين فى ذلك الوقت تمت على نحو بالغ السرعة إلى حد أن أسرة اسحق التى تمتلك عدداً من البنوك والفنادق زعمت أنه لا يزال هناك حساب باسمه فى سجلاتهم وأنه لم يعد قط لتسوية ذلك الحساب

* * *

الفصل الرابع

فترة الانتداب – احياء الحركة الوهابية – تشجيع ابن سعود – الاخوان – التوسع السعودى وتوحيد وسط شبه الجزيرة العربية – الاخوان وهزيمتهم – افكار حديثة – المستشارون الاجانب – وصول التكنولوجيا الامريكية – الحرب العالمية الثانية وتطور صناعة البترول – امريكا تستولى على الدعم البريطانى – الرفاهية والثروة – تحيز الوهابيين – القانون القرانى – عمليات الاعدام العامة – نفى الاجانب دون محاكمة – احياء المبدا الوهابى فى الحاضر – قرارات الامراء – حالات السكر – حوادث الطرق – الطريق الى البحرين .

* * *

وفيما يتعلق بالدول الحليفة فإن يقظة العرب كانت على قدر كبير من الأهمية . وقد أثارها عاملان متوازيان وإن كانا غير مترابطين . ويتمثل أحدهما فى الإدراك الفكرى لماضى العرب ، الأمر الذى عززته الصحف المطبوعة والمعرفة الدراسية الواسعة التى نقلتها البعثات الأمريكية البروتستانتية والجيزويت الفرنسية فى بيروت والقاهرة التى فتحت أمام أجيال بأسرها من الشباب رؤية خيالية لإمكاناتهم الكامنة . ويتمثل التأثير الآخر فى استياء رجال القبائل الذين يعيشون تقاليدهم بحرية ، ويمارسون حياتهم وفقاً لتنظيمات وضعوها هم أنفسهم فى ظل حكم شيوخ قبائلهم والذين يشعرون بالامتعاض إزاء تسلط البيروقراطية العثمانية التى يمثلها المسئولون عن الجمارك وحامياتهم المقيمة فى بلادهم .

وكما سطع مثل هذا الضوء المبهر على العرب ، سطع أيضاً على ملك الحجاز وأبنائه ، غير أن معظم الضوء سطع على المنتصرين . وتركز انتباه دولى

الانتداب ، فرنسا وبريطانيا ، اللتين طالبتا بامتلاك الأراضى التى كانت تسيطر عليها الدولة العثمانية ، تركز على صياغة نظام جديد للعمل بمساعدة المسئولين فيهما . وامتزجت الثقافة التركية الأولى فى الفصول الدراسية بالثقافة الفرنسية أو البريطانية ، طبقاً لنوع الانتداب السائد فى المنطقة ، وظل حلم قيام أمة عربية ، كما اقترح فى بداية الحرب ، حلماً محيراً كما كان من قبل ، إذ أنه تم نفى الملك حسين ملك الحجاز إلى قبرص ، وظلت ممالك أبنائه مستقلة شكلا فقط ، حيث كان المسئولون عن الانتداب يمسكون فى أيديهم بزمام السلطة وإدارة تلك الممالك .

وكانت لاتزال شبه الجزيرة العربية دولة فقيرة ، إذ لم يكن البترول قد اكتشف بعد ، بالرغم من أنه على الجانب الإيرانى للخليج كان قد تم اكتشافه فى عبدان . وكانت حدائق النخيل فى الداخل التى يرعاها العبيد وسلالتهم ، وزراعة الحبوب ، وتربية الدواجن والمواشى والدواب وعائد تجارة القوافل وطريق الحج واستخراج اللؤلؤ من أعماق البحار هو الذى يدر دخل الشيوخ الحاكمة لمختلف القبائل المتحالفة .

وبفضل عبقرية ابن سعود تحولت الحروب المتفرقة للقبائل بما تطوى عليه من نشر للضغائن وتبديد الطاقة إلى سلاح حاد جدا للهجوم والإرهاب وحقق بذلك استخدام التحمس لإحياء الحركة الوهابية وتكوين جيش موجه بصورة فعالة ، ملأ به فراغ القوى فى وسط شبه الجزيرة وقد تمكن من أن يدخل إلى الميدان ، ليس فقط مجموعة من الجنود القبلية العادية الذين تربطهم تفاهم متبادل غير مستقر وإنما تمكن أيضاً من إدخال قوة متحمسة للغاية أكثر تشابها بأعضاء البرلمان فى عهد كرومويل ، أو الأشخاص الذين تعهدوا بتنفيذ التزاماتهم الواجبة ، إذ أن إحساسهم بالرسالة الدينية قد دعمت من روحهم القتالية . ولم يكن إحياء الحركة الوهابية أو حركة الإخوان هو الذى خلق ابن سعود وإنما كان ذلك بمثابة اداة لتوسعه حتى أضحى قوة مهيمنة فى وسط شبه الجزيرة العربية قبل أن تدعمه ثروة البترول وتعزز من موقفه . وكانت حركة الإخوان قامت على أساس المعتقدات الدينية

للطائفة الوهابية . وكانت سمتها الأصلية دينية محضة . ولم تتطور أهميتها الدينية حتى عام ١٩١٣ عندما طرد ابن سعود الأتراك من إقليم الحسا مستخدماً قوة صغيرة قوامها ١,٥٠٠ رجل تسللوا من الرياض راكبين جمالا سريعة وتسلقوا حوائط الحصن فى حوفوف تحت جنح الظلام .

وحتى تلك الفترة كان الإخوان يمثلون حركة محلية تتركز فى مدينة عرطوبة ، وهى مدينة صغيرة فى نجد ، حيث كان عدد من رجال الدين البارزين يدعون إلى إحياء الحركة الوهابية ، وكان من بينهم سليل مؤسس الحركة ، محمد عبد الوهاب .

واستغرق الأمر مع ابن سعود خمسة عشر عاماً حتى استكمل سلاحه على أكمل وجه . ولم يكن ابن سعود فى مبدأ الأمر سوى مقاتل شجاع وناجح داخل إطار صراعات نجد الضيقة . وحتى عام ١٩١٤ لم تتطرق إلى ذهنه فكرة إحياء الجيوش الوهابية الأولى بصورة جادة بالرغم من أنه فى عام ١٩١٢ شجع على طرح الأفكار الوهابية التى تتسم بالصرامة والتعصب الدينى على القبائل وكانت تلك السمة هى التى ميزتهم عن المسلمين السنيين بعامة ، وجعلتهم مختلفين عن جماعة الشيعة الأكثر إعمالا للفكر .

وكان شأنه فى ذلك شأن الآخرين قبله ، حيث اكتشف أنه حالما تندفع النيران فلا يمكن إطفاؤها دائما . ومع حلول ١٩١٦ رسخ الدين الجديد فى أذهان الأفراد البسطاء ، فضلا عن أن عدم حنكتهم فى معتقداتهم الدينية قد دفعته إلى اتخاذ موقف كان يتعين عليه فيه إما السيطرة عليهم أو الانضمام إليهم . وهكذا فإن ما كان يبدو فى بادىء الأمر وسيلة مشجعة من شأنها تحويل عناصر القبائل إلى مجتمعات مستقرة ويمكن فى حالة تعبئتها عند الطوارىء مشاركتهم كمواطنين فى مساندة سكان الواحات ، قد أضحى قوة فى حد ذاتها تعرف باسم الاخوان وتسير تحت لوائها فى ظل زعامة الرئيس الأعلى وزعماء القبائل الآخرين المتعصبين على نحو متطرف .

وانتهج الاخوان نظاماً صارما . إذ تجنبوا ارتداء الملابس الأنيقة ، وظهروا بمظهر أشعث إلى حد ما وميزهم ارتداء عمامة بيضاء بدلا من غطاء الرأس العادى للصحراء . واعتبروا تدخين التبغ خطيئة عظمى شأنه فى ذلك شأن استخدام الأفيون والحشيش وشرب الكحول . وهكذا فإن رؤية رجل يدخن اعتبر تصريحاً بمهاجمته ، وربما قتله ، وحدثت بالفعل عدة حوادث من ذلك النوع خلال الأيام الأولى فى حوفوف عندما كانوا يضربون أية امرأة تسير فى الشارع وأطلقوا النيران على العديد من المواطنين الذين كانت جريمتهم الوحيدة هى رؤيتهم يدخنون السجائر .

وكانت عملية الإرغام على اعتناق الدين على النمط القديم بمثابة مبدأ للإيمان . إذ أن رؤية أجنبي غير مؤمن كان يثير اشمئزازهم ، ويغطون وجوههم ويجرون بعيداً حتى لا يلوثوا نظرهم برؤية شخص بغيض . وكانت الأخلاقيات المنحلة السائدة فى المدن الواقعة على الخليج أمراً بغيضاً كما أن وثنية الشيعة فى إعجابهم إلى حد العبادة بالحسن والحسين ، وكذا الدعارة وشرب الخمر فى تلك المجتمعات المختلطة ، كل ذلك أسفر عن مشاعر من الخوف تجاه الأجانب وكراهية لهم .

وحالما اتخذ قرار باستيعاب الدين الجديد بدلا من تحديه فإنه يتحتم توجيه عملية انتشاره على نحو مدروس . فقدم ابن سعود المال والبذور والوسائل الزراعية للمجتمعات التى تكونت فى كافة أرجاء نجد ، وعين كل منها رجل دين مقيم وحاكم . وزودت بمواد البناء للمساكن والمساجد والمدارس كما زودوا بالسلاح والذخيرة ، وطبعت فى الأذهان عملية تقويم وتصحيح النفس وبغض وكراهية الوثنية والخرافات وتقاليد المجتمع القبلى وطرحت جانبا الانقسامات القديمة التى أوجدتها الانتماءات القبلية والطبقية الاجتماعية بوصفها معوقات تعرقل تحقيق التضامن الدينى والأخوة المطلوبة .

وأضحى ابن سعود من الآن الإمام وكذلك الأمير ، وقدم نفسه للقبائل بوصفه والدهم وزعيمهم الروحى وشيخهم الوحيد . وطلب من كافة القبائل

البدوية فى شبه الجزيرة العربية الاعتراف به بوصفه زعيمهم وشيخهم كما طالبهم بالانضمام إلى حركة الاخوان ودفع الضريبة له بوصفه الزعيم المعترف به لتطبيق القصاص وقام بتوجيه تعلياته أولا إلى مشايخ القبائل بشأن النظام الجديد عن طريق بعثات متجولة ثم دعاهم إلى الرياض ، ومنحهم مسكنا وطلب منهم أن يظلوا تحت طوع الإمام لأنه هو الوحيد الذى بوسعه التصريح لهم بالعودة إلى قبيلتهم . وفى غضون عام كان ابن سعود يقود جيشاً إقليمياً مكونا من رجال القبائل الذين تحولوا إلى مزارعين صغار واستقروا فى مستعمرات وسط شبه الجزيرة العربية وتشربوا بكل ما هو ضيق وغير محتمل فى النظرية الوهابية . ووسط مشاعر القلق والاضطراب والشكوك ومحاولات إعادة تنظيم الصفوف وظهور فرص جديدة سادت فترة ما بعد الحرب مباشرة كانوا هم الشرارة التى أطلقت نيران المدافع ؟

وفى عام ١٩٢١ استولى ابن سعود على هيل وأطاح إلى الأبد بعائلة الراشد . وأضحى الآن سلطان نجد وأصبح يسيطر على المناطق التابعة لها وعلى وسط شبه الجزيرة العربية . مع حلول عام ١٩٢٢ كانت القوات الوهابية تسيطر بصورة فعالة غعلى كافة واحات صحراء شبه الجزيرة العربية إمتداداً من الحدود الأردنية والسورية فى الشمال إلى حدود عمان فى الجنوب ، وشنت هجوماً من قواعدها فى الصحراء ضد منطقة الحجاز والأراضى المستقرة التى تقع تحت الانتداب .

وفى تلك المناطق الأخيرة وجدت قوة الجهال وقوة الحماس الدينى صعوبة فى مستهل الأمر أمام التكنولوجيا الحديثة التى تمثلت فى شكل طائرات وعربات مدرعة . وبإشراف لورد تريتشارد قامت قوات السلاح الجوى الملكى بتطوير نظرية السيطرة على العناصر القبلية المنشقة باستخدام قاذفات القنابل ووحدة المدافع الرشاشة الميكانيكية :

وكان لذلك تأثير مؤسف على ابن سعود ، الذى شاهد فى عام ١٩١٦ فى البصرة شكلا من أشكال القوة المحتشدة المجهزة بأسلحة الحرب الحديثة ،

ولم يكن الأمر كذلك بالنسبة للإخوان الذين كانوا ممتلئين بالمشاعر الدينية المفرطة ، ومعتادين على عمليات الإغارة التقليدية ومتحمسين لعمليات السلب والنهب فى الحروب ، فتقدمت قوة منهم قوامها عدة آلاف من الرجال إلى مسافة عشرين ميلا من عمان وذبحت سكان إحدى القرى التى تقع على الطريق . غير أنهم تكبدوا خسائر جسيمة على يد السلاح الجوى الملكى البريطانى الذى استخدم طائراته وعرباته . وعزز سكان الحدود العراقية من الغارات والمذابح أيضاً مما أسفر عن وقوع مئات الضحايا الذين كانت تقطع رقابهم جزاء لهم على العمل الذى اختاروه .

وفى سبتمبر عام ١٩٢٤ ، اتجه الإخوان نحو الغرب فى اتجاه الحجاز وسقطت الطائف فى يد المغيرين . وفرت قوات الشريف وهى فى حالة من الفوضى أسفل منحدر الجبل بصحبة الآلاف من المواطنين من الطائف ومن كانوا فى زيارتهم فى الصيف . وقتل نحو ثلاثمائة شخص فى المدينة التى نهبت ، وانتشرت موجات من الرعب والذعر تجاه مكة وجدة حيث توقعوا نفس المصير وهو يدنو منهم .

ودخل ابن سعود مكة وهو يرتدى لباس الحج ، كما فعل جده فى عام ١٨٠٣ ، وتم العفو عن المواطنين ، غير أن قصور الشريف تعرضت للسلب والنهب ، ودمرت مرة أخرى كافة قباب مقابر أولياء المسلمين . وتنازل الملك حسين عن العرش وتوج ابنه على ، وفى مستهل عام ١٩٢٥ استسلمت جده ، المعقل الأخير للشريف لابن سعود ، ولحق الملك على بوالده الملك حسين إلى المنفى .

وحصل ابن سعود نتيجة لاحتلال الحجاز على رسوم عائدات الحج السنوية من مكة ، وهى خمسة جنيهات ذهبية إنجليزية عن كل فرد ، الأمر الذى ملأ خزانته بالكثير من الأموال التى يحتاجها . ونودى به ملكاً على الحجاز فى مسجد مكة العظيم عقب صلاة الجماهير المحتشدة وذلك فى ٨ يناير ١٩٢٦ ، وكان يبلغ من العمر ٤٥ عاماً ، أمضى أربعة وعشرين منها فى حرب مريرة تساندها إدارة سياسية ماهرة حتى أصبح يمثل الآن قوة لا تقبل المنافسة ويمكن للدول الكبرى الاعتماد عليها .

ولم يتمكن من السيطرة على أتباعه من الإخوان . ونظراً لسمعتهم الرهيبة التى تثير الفزع فإن المدينة رفضت الاستسلام على الإطلاق لزعيمهم فيصل الدويش وأصرت على أن يرسل ابن سعود أحد أبنائه كى يحميها من عمليات الإخوان الوحشية . وتولى تلك المهمة ولده فيصل الذى أضحى فيما بعد ملكاً على البلاد . وكان يبلغ من العمر حينئذ أربعة عشر عاماً .

وفى البداية تم التسامح أو التغاضى عن استخدام سلاح المذابح كوسيلة للإرهاب ، غير أن هذا السلاح بدا الآن يرتد إلى زعزعة الثقة فى الحركة الوهابية . وأسفر عن اشمئزاز الطبقات الحاكمة المتعلمة العثمانية فى الأراضى التى كانت تخضع للانتداب ، حيث كانوا يعتزمون إقامة دول مستقلة حديثة بعيداً عن بلادهم ، فقد رأوا وحشية الإخوان وأنصارهم وتعطشهم للدماء واعتبروها بمثابة ارتداد إلى الوراء من المحتمل أن يرجئ تحررهم من التحكم والسيطرة .

وبدا الإخوان أنفسهم يعربون عن تذمرهم إزاء أى محاولة تستهدف كبح جماحهم ، وينظرون إلى المفاوضات التى يجريها ابن سعود مع البريطانيين بشأن تعيين حدود المملكة العربية الجديدة بشك وازدراء .

وانتقلت شبه الجزيرة العربية بسرعة من النظام القبلى القديم الذى كان يتسم بضيق الأفق فى التفكير — غير أن شعبها ظل ينتمى إليه — ودخلت سبل التكنولوجيا الجديدة ، المتمثلة فى الاتصالات السلكية واللاسلكية وطائرات الاستكشاف ، ووسائل النقل المزودة بمحركات ، على نظم جنود القبائل القديمة غير العملية ، حيث يتقدم آلاف من راكبى الجمال خلف راياتهم فى صفوف طويلة غير منتظمة ثم يتوقفون فى مواجهة الأسلحة الحديثة . وانتاب الإخوان شعور بعدم الارتياح لمنعهم من تحركهم التقليدى شمالا لرعى ماشيتهم فى مزارع العراق ، إذ كانوا يتوقون للإغارة على الوثنى والأجنبى ، وخلال عامى ١٩٢٨ و ١٩٢٩ ، وقع تمرد ضد سلطة الملك فقام بإخماده فى معركة عنيفة أصيب فيها زعيم الإخوان فيصل الدويش إصابة

بالغة . غير أنه سرعان ما التأم جرحه وشرع يغير مرة أخرى على الأراضى العراقية والكويتية ويسلب الماشية والجمال من القبائل التى تقطن منطقة الحدود .

وتوصل الملك الآن إلى اتفاق مع البريطانيين . وهزم الإخوان مرة أخرى ، واحتشدت الزمرة الباقية من جيشهم فى المنطقة التى تلتقى فيها حدود العراق والكويت والسعودية . واشترط ابن سعود عدم تقديم حمايته لزعماء الإخوان الثلاثة إذا ما عبروا الحدود إلى العراق ، فضلا عن أن شيخ الكويت لن يسمح بمنحهم حق اللجوء السياسى . ومن ثم يتعين تسليمهم إليه .

وبالرغم من احتجاجات ملك العراق على ذلك باعتباره خروجاً على قوانين الصحراء وانتهاكاً لها ، فإن الزعماء الثلاثة وقعوا فى قبضة داورية عسكرية بريطانية عندما عبروا الصحراء عن طريق الحدود الكويتية وتم تسليمهم للعراق . حيث أبلغوا بأنه من المحتم تسليمهم رسمياً ومن ثم قامت إحدى السفن بنقلهم إلى الكويت ومن هناك أقلتهم إحدى طائرات السلاح الجوى الملكى البريطانى إلى المعسكر السعودى . وقام الكولونيل ديكسون بنفسه شخصياً بتسليمهم إلى الملك فى خيمته . وحدثت هناك مواجهة مؤثرة بين الملك ورؤساء التمرد الذين سمح لهم بتقبيل أنفه طلباً للعفو عنهم ثم جرى ترحيلهم ووضعهم فى السجن حيث لم يظهروا بعد ذلك على الإطلاق .

وكان ذلك هو نهاية حركة الإخوان ، ونهاية الحياة التقليدية أيضاً . ويتحسر المسافرون على الحياة البدوية القديمة بما كانت تتسم به من اقتصاد فى الإنفاق وتقاليد مقبولة وشهامة . وتعد ثروة البترول وانتشار التعليم الحديث وقدوم الأجانب بمثابة عوامل مساعدة للإسراع فى تفكيك سبل الحياة التى عرفت بتعقيدها وتوازنها بصورة دقيقة للغاية .

غير أن هذا التغيير جاء من الداخل قبل أن تبدأ ثروة البترول فى التدفق . إذ أن التكنولوجيا الحديثة جاءت أولا فى شكل سيارات ومواصلات سلكية ولاسلكية وطائرات ، وكل ذلك أدخله الملك بنفسه على المملكة ، لأن استخدام السيارات مكنه من التنقل بسرعة من جانب إلى آخر فى مملكته

المترامية الأطراف . وفى عام ١٩٢٩ كان هناك بالفعل أسطول مكون من مائتى سيارة تم استخدامها إبان فترة تمرد فيصل الدويش . وتم شراء أربع طائرات يقودها طيارون بريطانيون لاستخدامها لنفس السبب ، وفى وقت لاحق أنشئت شبكة من المحطات السلكية واللاسلكية لالتقاط تحرك القبائل والأفراد بصورة أفضل وإمداد الملك بجهاز للمخابرات يتسم بالكفاءة والفاعلية بحيث تفوق سرعته فى نقل الأخبار سرعة الكلمة التى يتفوه بها فرد أو أفراد متنقلين يحملون معهم كافة الأخبار فى حديثهم المنقول .

وقد لقيت قبائل الإخوان المتمردة عقابها ، وتم تجريدهم من جمالهم التى كانوا يستعملونها فى غاراتهم . ومن جيادهم ومواشيهم . وفقد فيصل الدويش كافة جماله ومن بينها جمال الشروف الشهيرة وهى نوع أسود نادر كانت تملكها قبيلة مطير الذى كان برأسها ، وانتقلت تلك الجمال إلى ملكية ابن سعود وأصبحت جزءاً من ماشيته الشخصية التى يبلغ قوامها خمسة آلاف رأس .

وكانت تلك الفترة بالنسبة لأهل نجد وإقليم الحسا هى نهاية اضطرابات ماضيهم البطولى العظيم ، علاوة على أنها كانت تمثل نقطة تحول بارزة فى ذكريات أولئك الذين عاشوا تلك الفترة . فقد تم ترويض حياة الفوضى القديمة التى كانت تحياها القبائل ، وتوقفت عمليات الإغارة على الجيران وسلبهم ممتلكاتهم باسم الدين . غير أن ثمة إدراك لشىء شائك ومشكوك فيه من الناحية المعنوية ، انطلق بسرعة كالسم الخطير المدمر ممثلا فى قبول المبدأ الوهابى بلا مناقشة حتى الآن وهذا أدى إلى تضاؤل الإيمان بالدولة التى يحكمها رجال الدين .

وكان الملك نفسه هو المحرك لذلك التحرر من الوهم . الأمر الذى أطلق إشارة نهاية : النفوذ الوهابى . وأضحى هناك إدارة علمانية آخذة فى الازدياد تدين بالولاء الشفهى الكاذب إلى المعتقدات الطـائفية القديمة ، وأرست قواعدها تحت عباءة سلطة الملك . وهيمنت عائلة سعود(*) على الحكومة ، بمساعدة

(*) من المقدر الآن أن عائلة ابن سعود تضم ما بين ٣٠٠ر٥٠٠٠ أمير . ويبلغ عدد سلالة ابن سعود المباشرة من الذكور نحو ٤٠٠ أمير .

أبناء عم سعود — وأهل والدته — وأصبح عدد من الأقاليم تحت سيطرة أبناء العائلة ودعم الملك من قبضته على القبائل باختيار زوجات له من بينهم . ومن خلال عمليات التغيير فى عدد الزوجات المسموح به له شرعا وهكذا مكنه من أن يظل على علم مستمر بما يحدث بين شعبه .

وحتى عائلة الرشيد الكبيرة المنـافسة ، التى قضت على نفسها فى سلسلة من عمليات القتل التى هزت حتى أكثر العائلات الحاكمة قسوة فى وسط شبه الجزيرة العربية ، قد اختار الملك لنفسه زوجة منها . وكانت العروس كريمة آخر الأمراء ، الذى احتجزه السعوديون فى شبه أسر فى الرياض حتى قتل فى عام ١٩٢٣ على يد أحد عبيده فوصل بذلك العدد الكلى للأمراء ، فى الأسرة الثانية عشرة ، الذين قتلوا على يد أقرب أقاربهم أو خدمهم الخاص ، إلى ثمانية أفراد .

ومر أكثر من خمسين عاماً على ظهور أول سيارات خاصة فى شبه الجزيرة العربية ، غير أنه لم يسمح للعامة من الشعب فى السعودية بامتلاكها حتى الثلاثينيات . وقبل تلك الفترة . وعلى خلاف عدم ثقة الوهابيين بالتجديدات الأجنبية ، فإن الملك والمسئولين فحسب كانوا يستخدمون تلك السيارات . . وعندما اقتنعوا فى نهاية الأمر عام ١٩٣٦ بأن سيارات النقل تنقل البضائع على نحو أفضل من الجمال ، كان مصير أول سيارة تدخل مدينة حوته الحرق علانية فى السوق فى حين نجا السائق بصعوبة قبل أن يلقى نفس المصير .

إن التعصب ضد كل ما هو أجنبى وكل ما ينبثق من « النصارى » أو المسيحيين خيم على سكان المناطق الداخلية لفترة طويلة بعد أن رحب حكامهم بتلك المبتكرات واعتمدوا عليها . وقد اعتبر غزو الحجاز ، بطبقاتها الحاكمة التى تلقت تعليما عثمانياً ، وضم مدن ساحلية متحررة

فى عام ١٩٢٩ مثل جده إلى المملكة الوهابية ، اعتبر عاملا سارع فى تفشى الإسراف والفساد بين ورثة ابن سعود .

وكان فى وسع الطبقة الحاكمة المتطورة فى الحجاز ، وأقاربها فى الشمال ، التعامل بفاعلية مع العالم الخارجى أكثر من الإخوان الذين يتسمون بالوحشية وزعماء الدين الذين يتسمون بضيق الأفق والتشكك . ونظراً لأن دولتى الانتداب بريطانيا وفرنسا شددتا من قبضتهما على الأقاليم التى استولت عليها من الإمبراطورية العثمانية السابقة ، فإن السعودية أصبحت بمثابة ملاذ للمنشقين ومكان يمكن فيه للرجال القادرين والطموحين تكوين ثروات وتحقيق رغبة الملك فى صبغ مملكته بالصبغة الحديثة .

وكان تدفق الرجال الطموحين وما يتمتعون به من مهارات فنية وحرفية تفوق قدرات مضيفيهم ، سبباً فى خلق عنصر المغتربين الشرقيين الأثرياء الذين لايزالون يتمتعون بنفوذ فى الدوائر الحاكمة السعودية . وهم الذين حددوا طريقة الإنفاق بإسراف وتبديد ثروة البترول ، خلال الأيام الأولى من اكتشافها الأمر الذى جعل المملكة السعودية نموذجاً للإسراف والتبذير وفى النهاية الفساد . ووجد العنصر الوهابى القديم نفسه يتقهقر إلى المقعد الخلفى ، بالرغم من أن عبد الله السليمان الحمدانى وزير المالية رافق الملك منذ الأيام الأولى لتوليه السلطة فى الحجاز كسكرتير خاص له ، وهو نجدى المولد ، ويعمل محاسباً بالتدريب العملى . ومن خلال سلطاته وسلطات أفراد أسرته ، الذين وضعهم فى المواقع الرئيسية للإشراف على الشئون المالية ، كانت كافة الأعمال تخرج إلى الوجود وفقاً لأهواء ونزوات حاكم مطلق .

وقد تواجد الأمريكيون ، الذين ظهروا لأول مرة على نحو بارز فى السعودية عام ١٩٣١ ، فى الإطار الفنى أكثر من الإطار التاريخى أو السياسى . ويرجع الفضل فى حياة السعوديين الأثرياء على مستوى

مادى مرتفع إلى وجود الأمريكيين فى السعودية . وقبل عام ١٩٤٢ لم يكن يسمع عن أجهزة التكييف والمياه المثلجة والعروض السينمائية ، ليس فيما بين الوهابيين المتشددين فحسب وإنما بين طائفة التجار الأجانب الصغيرة ، وكان القناصل يجاهدون لتعيينهم فى جده ، وهى تمثل الحد المسموح بتواجدهم فيه داخل البلاد .

وارتبط الأمريكيون فى أذهان العرب بمجئ سبل الحياة الحديثة التى أعقبت وصول أول بعثة للحكومة الأمريكية إلى السعودية فى عام ١٩٤٢ واستيلاء الأمريكيين على جزء كبير من المؤن والمساعدات المادية التى كانت تمدها بها بريطانيا حتى الآن لتعويض خسائر الحج التى حدثت نتيجة للحرب العالمية الثانية . وكانت موارد الحج ، المصدر الرئيسى لعائدات المملكة قد نضبت فى الحقيقة فى بداية الحرب . فى حين أن الأرض لا تكفى محاصيلها على الإطلاق إحتياجات السكان ومن ثم فإن حدوث قحط طويل الأمد هدد بحدوث مجاعة .

وأدرك البريطانيون الذين كانوا فى يقظة دائمة لاحتمال تعرض إمبراطوريتهم لقلاقل دينية ، إنه ليس ثمة سبيل أكثر فاعلية للمحافظة على الأماكن الإسلامية المقدسة دون أن يلحقها أى ضرر . ومن ثم وعلى فترات منتظمة كانت تصل سفن محملة بدقيق كندى وقمح مصرى وأرز هندى . وكانت سفن السلاح البحرى الأمريكى تصل حاملة العملة السعودية الجديدة ، الريال ، والجنيه الاسترلينى الذهب ، كى تدفع أجور رجال بوليس وجيش ابن سعود والأعضاء الإداريين الذين يعتمد عليهم فى تنظيم حكومته . ونظراً لتلك الجهود لم يحدث قط أى عجز فى السلع الغذائية فى شبه الجزيرة العربية إبان فترة الحرب .

وأول أمريكى داخل المملكة العربية السعودية ، باستثناء بعثات الأنباء التى كان يدعوها الملك بين الفينة والأخرى لاستشارتهم ، هو مليونير غريب الأطوار محب للخير يدعى تشارلز كرين ، كان والده قد جمع ثروة من بيع تجهيزات الأدوات الصحية . وكان كرين مولعاً بشبه

الجزيرة العربية ، وأشبع هوايته بتيسير الحصول على مزايا التعليم الغربى والخبرة الأمريكية العملية لبعض المستفيدين الذين تم اختيارهم وفى عام ١٩٢٦ ظهر كرين فى جده وهو يتوق إلى التعرف على ابن سعود ذلك النجم الجديد الذى سطع فى سماء شبه الجزيرة العربية والذى كان قد قضى من توه على سلطة آل الشريف فى الحجاز .

وكى يحقق كرين مشروعاته الخيرية العملية ، قام بتشغيل كارل تويتشل وهو مهندس تعدين ، اشترك بمساهمته المالية فى مشروع يمد المياه والكهرباء على طول القطاع الساحلى لليمن على البحر الأحمر ، ومنطقة تهامة الرملية ، وذلك من خلال استيراد طواحين هوائية أمريكية . بيد أن اليمنيين الذين ساورتهم الشكوك إزاء التدخل الأجنبى ، قاوموا أفكار التقدم ، ومن ثم فشل المشروع . ونصح تويتشل كرين بالتوقف حتى لا تزداد خسائره وأن يتجه إلى الشمال . وفى عام ١٩٣١ رحب ابن سعود ووزير ماليته بتويتشل فى السعودية وطلبا منه ، من بين الأمور الأخرى ، البحث عن احتمال وجود بترول على طول ساحل الحسا شرق البلاد بهدف الحصول على موارد تدر أموالا أكثر لكى تحقق رغبة الملك فى بناء دولة حديثة . كانت إحدى الشركات البريطانية وهى شركة أيسترن آند جنرال سينديكات قد حصلت على امتياز التنقيب عن البترول فى تلك المنطقة غير أن المشروع توقف نظراً لإهمال شركات البترول البريطانية . ونجح تويتشل فى جذب اهتمام شركة ستاندارد أويل الأمريكية للمشروع . وفى مايو عام ١٩٣٣ ظهرت شركة أرامكو إلى الوجود . وأودع الأمريكيون ٣٠,٠٠٠ جنيه إسترلينى ذهب فى البنك الهولندى فى جده ، وحينئذ تم التصريح باستمرار العمل فى المشروع الذى أسفر عن النتائج المذهلة التى أصبحت معروفة تماماً بحيث لا توجد هناك حاجة لإعادة ذكرها .

وفى عام ١٩٤٠ ، طلب ابن سعود مرة أخرى من تويتشل ، الذى كان يعمل فى الوقت نفسه بإعادة تشغيل منجم ذهب قديم لصالح الملك ،

إجراء دراسة شاملة لموارد المياه واحتمالات الزراعة فى نجد . وكان قد تم استشارة الهولنديين فى هذا الموضوع أصلا ، غير أنهم بددوا الفرصة بتشبثهم بالحصول على مقابل مادى قبل البدء فى العمل . وعرضت وزارة الخارجية الأمريكية إرسال بعثة رسمية تضم خبراء زراعيين ، من ذوى الخبرة بالظروف الصحراوية السائدة فى جنوب غرب أمريكا ، وانضم إلى البعثة وهى فى طريقها إلى السعودية الوزير الأمريكى فى مصر ومستشارون عسكريون وخبراء بترول أمريكيون . وقدم الوزير أوراق اعتماده للملك فى معسكر فى الصحراء حيث وصلت طائرة البعثة . وهكذا بدأت علاقات حكومته الرسمية مع البلاد . وبدأت شركات البترول الأمريكى تعمل بنشاط فى السعودية منذ عام ١٩٣٣ ، ولكن عقب عام ١٩٤٣ ، ودخول أمريكا فى الحرب ، بدأ العمل ينهض بالفعل ، إذ أصبحت شركة بترول أرامكو هى أقرب مصدر للإمدادات لمسرح الحرب اليابانية وأصبحت عمليات استخراجها للبترول وتكريره من العمليات ذات الأهمية القصوى للحرب . وقام أسرى الحرب الإيطاليون الذين تم أسرهم من عباسينيا وأريتريا ببناء مدينة البترول « الظهران » بالاشتراك مع العمال الهنود والعراقيين . وما أثر فى السعودية وأدهشهم هو استخدام المعدات والسيارات بوفرة والإصرار على مستوى من الراحة المادية لم يشاهدوه فى المنطقة من قبل قط — إذ كانوا قد اعتادوا على قبول النمط القديم والخضوع دون تذمر له إبان فترة الاستعمار . واحتفظ الملك ، الذى شب على حياة التقشف والقسوة التى كانت تحياها جماعة الوهابيين ، احتفظ فى حياته الشخصية بالبساطة والاعتدال فى نشأته وانغمس فى ممارسة الطب وهى هوايته الوحيدة . غير أنه حبب إليه النساء وحذا حذو الرسول ، غير أن مستشاريه والأجانب وأعضاء عائلته من الشباب سرعان ما بدأوا يتنافسون فى العيش على المستوى الجديد .

وفى عام ١٩٤٤ ، أصبح الكولونيل وليام إيدى ، ابن أحد رجال الإرساليات الأمريكية ، والذى نشأ مع والديه فى صيدا بلبنان ، أصبح

الوزير الأمريكي في جده . . وكان مستشرقاً وعلى علم منذ صباه بالتحيزات الإسلامية . وكان بينه وبين توينتل تفهم كبير المصـــاعب الكامنة في فرض عدد كبير من الأمريكيين الفنيين على شبه الجزيرة العربية الوهابية . واصطدمت ثروة الأمريكيين المـــادية ونشاطهم التكنولوجي ومساعداتهم الجديدة المذهلة وخلافاتهم الترفيهية مع أسس التقشف الوهابي والاكتفاء الذاتي الأمر الذي أسفر – من ناحية – عن انبهار مثير بهم ، وعن شعور متضائل بالخوف من الإفساد الروحي من ناحية أخرى .

وتوصل الملك إلى حل لذلك النزاع الحضاري ألا وهو عزل الأمريكيين بقدر الإمكان عن الشعب . إذ تم تحديد تحركهم في معسكراتهم فقط ولم يسمح لهم بزيارة القرى المحلية وقبائل البدو ، وكان يسمح لهم مرة واحدة في الأسبوع ، وتحت إشراف مشدد ، بالقيام برحلات باستخدام سيارات أتوبيس إلى حفوف أو إلى الساحل في منطقة الخوبر ، ومنع السكان المحليون من دخول معسكرات الأمريكيين مالم يكن هناك عمل وحرموا من مشاهدة العروض السينمائية التي كانت تقام في الهواء الطلق لكي يرفه رجال البترول عن أنفسهم . وتم فرض حصار صحي حول الأجانب أيده المسئولون في شركة البترول .

وخلال الفترة الأولى كان تعصب الوهابيين لا يزال قوياً للغاية . إذ كانت مجموعات مما قد نصفهم اليوم بأنهم « مجرد فكرة بوليس » يجوبون المدن مسلحين بهراواتهم الخشبية يدفعون بها الســـكان لإرغامهم على حضور الصلوات الخمس في المسجد ويفرضون عليهم مفهومهم عن السلوك العام بالقوة . وكان من المحتمل أن تتلقى أول سيدات أمريكيات يقمن في السعودية ، عام ١٩٤٥ – وهن زوجات الدبلوماسيين ورجال البترول – ضربات خفيفة على الرسغ والأرجل من حراس الفضيلة هؤلاء الذين يمثلون جماعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وذلك كتعبير لعدم رضائهم عن تعرية أرجلهن . وكان يجرى تنفيذ عقوبات علانية وخارج المساجد أيام الجمع مثل عمليات بتر أيدى اللصوص وعقوبة

الإعدام لمن يخالف قانون القرآن ، وذلك لضمان أن أحدا لن يجهل العقوبات التي تتخذ ضد السلوك الخاطىء . .

ولم يكن هناك وعي بالذات إزاء تلك العقوبات وأن الشعور بالصدمة الذي انتاب الأجانب الذين شاهدوها ، وفي بعض الأحيان التقطوا صوراً فوتوغرافية لهـــا قد أسفر في حينه عن إحساس بالعدل إلى حد ما ، إذا لم يكن بالرحمة ، مع إدراك تأثيره على الأقل على الرأي العام الخارجي ، وقد منع الأجانب من مشاهدة مثل تلك المناظر والتجاوز عن تسجيلها بالكاميرات . وفي الآونة الأخيرة ، أعيد تأكيد عمليات الإعدام والعقوبات العلانية إذ يتم الإعلان عنها مسبقاً في الصحف المحلية وتنفذ ظهر يوم الجمعة أمام عدد كبير من الجمهور في الميادين العامة خارج المساجد حيث يدعو المصلون للضحايا . وفي السعودية يقوم بتنفيذ عمليات الإعدام عائلة تتوارث تلك المهنة ، ويكون الجلاد دائماً رجلا أسود البشرة طويل القامة يذكرنا بسلالة العبيد ، وهو ذو خبرة في استخدام السيف العربي ذي الحدين الذي يمكنه من الإطاحة بعنق رجل بضربة واحدة تسدد جيداً .

وفي دولة أخرى لا تتبع المذهب الوهابي مثل البحرين ، فإن تلك العقوبات النادرة تنفذ في العاصمة ولكن على نحو حذر وفي أحد حصون البوليس في وقت مبكر من الصباح . وهناك منشأة العقوبات تقع في إحدى الجزر البعيدة عن الشاطىء يشرف عليها سجان إنجليزي ، وهناك تقام مزرعة تنتج الخضروات لكي تباع في الأسواق ، وتقام أسس العدل وفقاً للقانون الجنائي الذي يرتكز على قانون العقوبات الهندي كما سنه البريطانيون إبان فترة احتلالهم لها .

وفي مثل تلك الدول كانت « الشريعة » ، أو قانون القرآن هو المطبق حتى أقل من عشر سنوات مضت على المسائل العائلية والأوضاع الشخصية ، وكان يجرى تطبيق العدل في المحاكم وفقاً لما هو معروف بمرسوم الأمير ، وقوانين يعلن عنها بوسائل الإعلان المختلفة ، وكان لمرسوم الأمير قوة

القانون فى المحاكم . وقبل عام ١٩٦٥ لم يكن القانون المدنى وجود حتى فى دولة البحرين المعتدلة والمتقدمة . وإبان الحقبة السابقة على تنازل البريطانيين عن السلطة تم إحراز بعض التقدم الطفيف لتنظيم قانون العقوبات وقانون العمل وقوانين محلية تشرف على التراخيص والسجلات التجارية ، ويستمر ذلك العمل تحت إشراف محامين مصريين .

وحتى عام ١٩٧١ (وعام ١٩٦٢ بالنسبة للكويت) كان يفصل فى منازعات البريطانيين والجنسيات الأخرى غير الإسلامية ومواطنى دول الكومنولث فى الخليج وفقاً لنظام العدل البريطانى أمام محاكم بريطانية محلية . ولم تعد تلك الامتيازات سائدة ، إذ يحاكم كافة الأجانب الآن أمام المحاكم الوطنية ، ويتعرض المسلمون لعقوبات مستمدة من قانون القرآن . وقد ازداد استخدام العقوبات التحذيرية وتردد أنه تنفيذ عمليات الجلد علانية وبتر الأطراف والإعدام فى عدد من دول الخليج ، بصرف النظر عن تنفيذ تلك العملية وعرضها أمام الجماهير كما هو الحـــال فى السعودية التى تنهج المذهب الوهابى . ويتردد أن وجود عدد كبير من الرجال الذين لم يصحبوا معهم عائلاتهم وهم يشـــكلون أعدادا ضخمة من المتعاقدين من كل دولة يقتضى التشدد فى تنفيذ العقوبات الرادعة ضد الفسوق . وإلا فإن الأمن التقليدى الذى يتمتع به النساء والأطفال العرب سوف يتعرض للخطر ، وستزداد عمليات اغتصاب النساء .

وفيما يتعلق بالأجانب غير المسلمين فإنهم كانوا معرضين لخطر أعظم بسبب القيود المفروضة عليهم وحظر استخدام الكحول . إذ تردد أن أحد الهولنديين كان يعمل فى جمع المحار من قاع البحر على ساحل الحسا ، قد تم جلده بالسوط لإعطائه الكحول لأحد السكان المحليين ، وأعلن أيضاً عن حالات أخيرة اشترك فيها بريطانيون . وكانت تفرض عليهم غرامات هائلة ، بلغت عدة مئات من الجنيهات فى بعض الأحيان ، على من يقود السيارة وهو ثمل أو يضبط متلبساً بتعاطى الكحول وهو يقود سيارة الأمر الذى يفضى به إلى مواجهات غير مرضية فى مراكز البوليس

حيث يدفع الغرامة صباح اليوم التالى . وتبدو قوات البوليس الذين يتنقلون بسيارات تطلق أصواتاً عالية وتستعمل الأضواء الباهرة وكذا أولئك الذين يركبون دراجات بخارية ويلبسون خوذات تغطى جزءاً من الوجه ، هؤلاء يبدون وكأنهم يتعرفون مثل شرطى فى أحد الأفلام الأمريكية . ويمكن إيجاد تبرير وبعض التبرير لتحمسهم فى وقف راكبى السيارات من واقع إحصائيات تصاريح الدخول إلى المستشفى ، إذ ثبت أن ٢٨ فى المائة ممن دخلوا مستشفى الشارقة من الرجال ، على سبيل المثال ، أصيبوا نتيجة لحوادث المرور . وما كاد يتم فتح مستشفى الشيخ راشد الجديدة الكبيرة فى دبى حتى استلزم الأمر توسيع الجناح الخاص باستقبال الحوادث وضحايا الطريق وإصابات العمل الصناعى .

والمسألة تعتمد على تقديرك الشخصى لتقرير ما إذا كان الدخول فى محل لبيع الخمور فى البحرين يمثل تجربة تستحق تجديدها ، أو أنها تجربة مثبطة للهمة . إن مخازن الكحول فى البحرين تديرها فروع شركة يونيلفر وانشكاب وشركة أفريكان وأيسترن تريدنج وميسرز جرارى ماكينزى . وهناك حركة بيع متصلة لتوزيع المشروبات الروحية والخمور والبيرة لحشد من مختلف الجنسيات الأوروبية . والعرب والهنود ، بعضهم يرتدى الزى التقليدى وبعضهم يرتدى الجينز وآخرون يرتدون زى عمال الصناعات بقبعات ثقيلة . ومن هنا تتراكم وتتبعثر زجاجات البيرة على طول الطريق من الشاطىء وقدر البعض أنه إذا تم وضع مبيعات هينكن فى المنامة طوال شهر ، زجاجة فوق الأخرى ، فإنه سوف يصل ارتفاعها إلى ثمانية أميال ونصف الميل .

ومن الناحية التقليدية فإن التجار الهنود الذين وطدوا أنفسهم على الحياة على طول سواحل الخليج خلال القرن التاسع عشر ، يعدون الوكيل الذى يمكن الحصول منه على عصير النخيل المحلى ، وتقطير البلح المعروف لدى السكان المحليين باسم « الصديق » وليس هناك قيود على تلك الأنشطة . ويبدو حقاً أنه إبان سنوات الحرب فحسب ، عقب

عام ١٩٤٠ عندما أصبحت منطقة الخليج تعتمد فى إمداداتها على السلع الواردة من الهند ، فإن التصريح ببيع الخمور والحصول على رخصة بذلك أصبح حالة شائعة وعامة . والآن فى البحرين فقط حيث تضم عدداً كبيرا من سكان الشيعة المسلمين وطائفة أجنبية مقيمة منذ أمد طويل ، هناك اتجاه صريح لتناول الخمور ، التى يمكن لأى فرد شراؤها واستخدامها والرقابة الوحيدة السارية مفروضة على مراعاة آداب المجتمع ، وفى ذلك الصدد فهى دولة فريدة بين دول الخليج .

وينظر عدد كبير من سكان الجزيرة ، من المواطنين والأجانب ، بعين الشك والقلق لمشروع ربط الجزيرة بطريق معبد لساحل السعودية . الأمر الذى من المنتظر أن يتم فى غضون السنوات الثلاث القادمة . ذلك لأن حكم عائلة خليفة لسكان الجزيرة — وهم يشكلون خليطاً من الأجناس — يتسم بالاعتدال والتسامح . وقد اعتاد كل من طائفة الشيعة الوطنية والهنود على تناول الخمور ، وسمح للأوربيين الذين تعتمد حياتهم الاجتماعية على الكحوليات ، سمح لهم بممارسة ملذاتهم الشخصية . والآن فإن تفسير قانون القرآن على نحو أكثر صراحة ، الأمر الذى يخشى أن يقوم به المشرعون الوهابيون فى السعودية ، قد يفسد ذلك الاتجاه السعيد وينذر بمستقبل أكثر كآبة ، ويقضى أيضاً على دور السينما والملاهى الليلية وفرق الموسيقى الراقصة والبرامج الترفيهية التى تحاول الفنادق الدولية الكبرى تقديمها بمستوى يشابه إلى حد ما سبل الرفاهية الغربية لرجال الأعمال الأجانب ورجال البترول الذين يفدون من المعسكرات فى إجازات محلية ، ويدر وجودهم على الدولة فوائد مالية هائلة .

* * *

الفصل الخامس

الكويت — واحة الجهرة — القلعة الحمراء — المزيد عن الاخوان — ظهور المملكة العربية السعودية الحديثة — الرداء العربى — الجاليات المهاجرة — المغالاة فى الوطنية العربية — الفلسطينيون — مجتمع ذو شقين — الرخاء المادى — شرعية صناعة اللؤلؤ — كيف تسير — انهيارها — اوقات عصيبة — ظهور البترول .

* * *

« استسلم والدى هنا فى الجهرة » . . هكذا أشار أحد المواطنين وكان يبدو عليه الارتياح ، بينما يجلس مع أصدقائه على مقاعد عالية مصنوعة من الخشب على رصيف الشارع أمام مجموعة من الشقق .

وكان الجو يسوده الهدوء مع اقتراب المساء عندما خفت حرارة النهار وقل الوهج فى السماء . ومن الأمور الشائعة والمستساغة الجلوس هكذا أمام باب البيت واستنشاق الهواء . وعبر الطريق بدت حوائط القلعة الحمراء المبنية بالطين تبدو شاذة على نحو ملحوظ فى إطار المبانى الحديثة المجاورة العالية . وتقف القلعة هناك تحيطها حديقة فى مظهر لا يبهج العين يحوطها سياج من الحديد يفصلها عن الطريق .

وتسلقت ذلك السياج الحديدى ، ومن خلال الباب الخشبى الكبير مرقت إلى الفناء وأطلقت لخيالى العنان . وهناك شاهدت حجرات ضيقة يسودها الإهمال ، وممرات مظلمة ، ينيرها ضوء خافت يتسلل من كوات عالية فى الحائط الأمر الذى جعلها تبدو وكأنها ذات علاقة بالماضى . وكان السكون المشمس بالخارج عاملا مشجعاً للجو المحيط به للتعبير عن نفسه .

وتواردت على ذهنى كافة الأحداث التى وقعت فى تلك القلعة عندما هاجم الإخوان الكويت فى عام ١٩٢٠ مختفين وراء سعف النخيل . وكانت القوة الكويتية محاصرة خلف حوائط تلك القلعة بصورة تشبه شخصيات إحدى الروايات الغريبة . ثم حادث آخر ، وقع فى عام ١٩٣٠ وهو تمرد فيصل الدويش ، عندما رابط الإخوان المحاصرون الذين كانوا يعانون من التمزق ، هنا فى تخوم الواحة حيث هلكت ماشيتهم وإبلهم من جراء إرغامها على السير كما أن السلاح الجوى الملكى البريطانى أمطرهم بوابل من القنابل على الحدود الخارجية للقرية مما أوقع الفوضى بينهم وأضعف معنوياتهم . وتذكرت الدور البريطانى فى ذلك الصدد وتساءلت إلى أى مدى يمكن أن تعوض الاستقامة والأمانة الشخصية والشعور بالشفقة للتصرفات المتسمة بالشك الأخلاقى ؟ وتذكرت كم يختلف ذلك كلية عن يقين المطلق غير المعقد بمرحلة مراهقتى .

وتقبل الإخوان مصيرهم وتحررهم من الوهم فى صمت وذهول . إذ تحطم عالمهم عندما كانت تنفجر قنابل السلاح الجوى الملكى من حولهم وشاهدوا أنفسهم وهم يحاصرون من كل مكان من قبل أناس غير مؤمنين لا يعرفون الصفح ولديهم القدرة على التدخل عنوة بين عربى وعربى كى يحبطوا عمليات التحكيم المقدسة الطبيعية . وكان إمامهم هو الذى نصب لهم ذلك الفخ مما جلب لهم أخيراً شعوراً بالمرارة .

إن القلعة خالية الآن من الحياة ، باستثناء مجموعة من عمال البناء الذين جلسوا فى أحد الأركان يعدون وجبة غذائية لهم ، ويستجيبون لأى تحية توجه لهم ويشجعوننى على التطلع من حولى . وقد تفضل أحدهم كأنه صديق ، بإرشادى إلى الطريق المؤدى إلى الأماكن الخاصة بالقائد وشرح لى تفاصيل أخرى عن المكان . وشعرت بالارتياح من تقبل وجود شخص آخر دون توجيه دعوة له وهذا يعد عنصرا يثير البهجة والارتياح فى العالم الإسلامى القديم . وفى الخارج وجدت سيدة ضئيلة الحجم تجلس على أحد المقاعد تتبادل الحديث عن الماضى مع رجل مسن وهى تتناول

كوباً من الشاى الساخن . ومثل العديد من رجال قبائل مطير وعجمان فإن أولئك الأشخاص حبذوا الاستقرار فى الكويت ، بعيداً عن متناول ابن سعود ويعيشون الآن فى الجهرة ويقطنون منازل حديثة غير أنهم لايزالون قريبين من الصحراء .

ثم ركبت السيارة الألمانية الفارهة بجوار سائقها الأفغانى الأنيق ، ومررنا فى شوارع غير مرصوفة ومررنا بهياكل منشآت جديدة وأعمدة من الحجارة والبلدوزرات وآلات خلط الأسمنت ولم أشاهد مناطق مزروعة كبيرة . ومررنا بمشروعات تنمية قديمة وروابى ضئيلة تكسوها نباتات غير سوية حيث تلاشت المدينة فى سهل فسيح قذر يمتد إلى التلال الصغيرة لحدود العراقية . ووقف رجال إلى جانب أكوام من الملابس الرخيصة الصارخة الألوان يعرضونها للبيع على الأرض ، واصطفت السيارات حيث نزل الآباء الرحماء يقيسون الملابس على أبنائهم الصغار الذين يتسمون بالبدانة ويرتدون ملابس فضفاضة وسترات ذات ألوان صارخة .

وتمتد الخيام فى صفوف هنا وهناك فى أشكال سوداء عتيقة وتتناثر معدات حربية فائضة عن الحاجة ولا تستخدم الآن وهى معروضة للبيع للأفراد الوافدين من المدينة الذين يحبذون قضاء يوم عطلتهم — الجمعة — فى القيام برحلات عائلية فى الصحراء ويقيمون فى أماكن متربة يتم الإعلان عنها فى منشورات من البلاستيك توزع باليد .

وبدأنا نعود إلى المدينة فى نهاية النهار حيث بدأ الظلام يكسو الكون . وعلى مسافة من يميننا ، عند انحدار السهل ، امتدت مدينة طويلة من الأكواخ القذرة ، يصل إليها طريق ملتو معبد وتقع فى مدخلها نقطة بوليس ، وهناك عاش المهاجرون من غير الكويتيين ، مثل السائق الذى يقود سيارتنا ، وخدم المنازل التى يمتلكها الأجانب الأثرياء ، وعمال المصانع ، ومستخدمون من نوع أو آخر وهؤلاء يذهبون كل صباح إلى أعمالهم مستقلين سياراتهم المستعملة أو ينتظرون على جانب الطريق أى

شخص ينقلهم إلى أعمالهم أو يسيرون فى صبر لمسافة طويلة إلى المدينة — ولا أدرى ما إذا كان ذلك بدافع الاقتصاد أو لعدم وجود وسيلة نقل عامة .

وقد تتساءل عما حدث بعد ذلك فى مأساة الحرب والسياسات التى شهدت نهاية الأخوان ، والإجابة هى ، لم يحدث شىء كبير فيما يتعلق باستمرار التمرد .

فى غضون عام توفى فيصل الدويش ، بعد بضعة أشهر من اختفائه فى الأسر بالرياض ، وتم إرسال الزعماء الباقين إلى حفوف فى معتقل ابن جيلاوى — وهو المحافظ وابن عم الملك وزميل قديم فى السلاح — حيث هلكوا فى الزنزانات . وانزوت قضيتهم ولم يتشفع لهم أحد .

وفى عام ١٩٣٢ أضحت مملكة الحجاز ونجد والمناطق المحيطة بهما المملكة العربية السعودية وأصبح ابن سعود ملكاً عليها ، وعقب مرور عامين نشب نزاع مع إمام اليمن واحتل السعوديون نجران (التى كانت منطقة مسيحية فى عهود ما قبل الإسلام) وواحاتها وأعلنوا سيادتهم على إقليم الأسير الذى تم ضمه إلى السعودية فى عام ١٩٣٤ . وترك السهل الداخلى لليمن ، عندما تدخلت دول الاستعمار العظمى بريطانيا وفرنسا وإيطاليا التى كانت تهتم جميعها بالمنطقة . وتم إجلاء السعوديين عن الحديدة التى تقع على ساحل البحر الأحمر بعد احتلالهم لها .

وضمت الدولة التى حكمها ابن سعود منطقة مساحتها : ٩٣٠,٠٠٠ ميل مربع ، وبلغ عدد سكانها نحو ستة ملايين نسمة . وكان مجهوده ، هو الذى دعم مركزه ولم يكن لأى حكومة أجنبية دخل فى ذلك ، ولم يفعل له أى جيش أجنبى شيئاً ، وإنما كل ما أنجزه حققه بنفسه . وبزغت مملكة عربية يحكمها عرب من أرقى السلالات . وهذه الشخصية التى تتسم بالوطنية هى التى أضفت على الدولة سلطتها ومكانتها الخاصة تساندها ثروة عائدات البترول الهائلة . وقد يكون الاعتزاز بالنفس وتأكيد الذات بين الدول التى أثرت حديثاً هو أحد مظاهرها . غير أن الصورة غالباً ما يتم نقلها بصورة مهزوزة ومحرفة على نحو يفتقر إلى الاستقامة .

ولم يكن من الحماقة إعلان أول بيان بقرار منظمة أوبك الخاص برفع أسعار البترول فى عام ١٩٧٣ باللغة العربية على حشود الصحفيين المنتظرين ، لقد حدث ذلك كى يدفعوا صحافة العالم إلى البحث على نحو محموم عن مترجمين كى يوضحوا لهم القرار .

وفيما يتعلق بالملابس أيضاً فإن الزى التقليدى له سماته ، فمهما فعل أى عربى كى يبدو غربياً فى الخارج فإنه سيكون أحمقا إذا حاول إنجاز أعماله مع السعودية ، أو فى أى دولة من دول الخليج دون أن يرتدى ملابسه التقليدية . كما أنه لا يشعر دائماً الآن أنه من الضرورى أن ينبذ فى الخارج زيه الوطنى المريح ، إذ لم يعد منظر العرب الذين يرتدون جلابيب ونساؤهم المحجبات اللاتى يرتدين سترات من الكشمير ، لم يعد يثير أى تعليق فى محلات مثل هارودز — حيث يشير إليهم العاملون فى المحل من الشباب باللهجة العامية بأنهم مثل « باتمان » و « روبين » — وباتمان هو شخص مقنع .

ويحتفظ المشتغلون بالبحر من غرب عمان وحضرموت بزيهم المميز ، إذ يلقون حول خصرهم قماشاً مربعاً ويرتدون شيلاناً مطرزة من صوف الكشمير ملفوفة فى شكل عمامة أنيقة ، ويرتدى سكان المدينة طواقى مطرزة كغطاء للرأس ولايزال يمكن التعرف على قوم « سيورى » الذين يعيشون حول الموانىء ، والذين يتسمون بقصر القامة وامتلاء الجسم والبشرة الداكنة الضاربة إلى الصفرة ، وذلك من خلال ملابسهم الصفراء الباهتة ، غير أن المهاجرين العرب الآخرين يشعرون بالحاجة إلى أن يصبحوا غير بارزين فى المجتمع المضيف ، ويشير ارتداء العربى الذى يعيش فى الصحراء لقيد الجمل المصنوع من الصوف الأسود والذى يضعه على شكل إكليل على رأسه إلى تضامنه مع الثقافة السائدة فى منطقته . أما طائفة التجار الأثرياء فى الخليج وغالبيتهم ينتمون إلى العائلات التى عبرت من إيران فى مستهل القرن العشرين ويظهرون بمظهر يؤكد تفسير كلمة الأثرياء العرب ، فإنهم يرتدون ملابس فضفاضة تعبر عن الوقار

والمية أو ملابس للصيف ناصعة البياض ، وتكلفهم العباءة الصوف السوداء أو البنية اللون المزركشة بخيوط ذهبية نحو ٢٥٠ جنيهاً إسترلينياً ، ولا يزال بعض رؤساء العائلات المسنون فقط يحتفظون بغطـاء الرأس الحريرى المزركش الذى ينم عن مجتمعهم .

ولبس الزى العربى زياً موحداً كما يبدو من الوهلة الأولى ، إذ أنه يمكن استخلاص معلومات خصبة عن أى رجل من المراقبة الدقيقة لملابسه. فإن ميل عمامته ووضع رباطها الطويل الرفيع بصورة معينة يمكن أن يفسر الجهة التى وفد منها العربى . وهناك طرق مختلفة فى ارتداء شيلان الرأس الأنيقة المصنوعة من القماش الرقيق الشفاف ، ومن المناظر الرائعة حقاً ، فى فترة إغلاق السوق فى المساء ، رؤية مجموعات من شباب التجار وهم يرتدون شيلانا أنيقة ملفوفة بإتقان على الرأس وجلاليب ضيقة عند منطقة الخصر وهم ينطلقون بسياراتهم الفارهة ويسدون بها الطرق الضيقة .

ويمكن التمييز بين عرب الخليج والعرب الأجانب القـادمين من أراضى الانتداب السابقة عن طريق الزى . فالشماليون فقط هم الذين يحتفظون بسراويلهم وستراتهم (جاكتاتهم) ، التى كانت تعد فى يوم ما رمزاً للنظرة التقدمية . والآن وعلى النقيض من ذلك فإن ملابسهم وأزياءهم هى التى تنزلهم إلى مرتبة دنيا تعرضهم للازدراء وللتعـامل معهم بحذر بوصفهم دخلاء على المنطقة . وقد تساءلت « لماذا يستمر الزى العربى بهذه الصورة ؟ وكان الرد القاسى هو : لأن أحدا لا يود أن يحدث التباس فلا يعتقد من يراه أنه فلسطينى » .

وتلك صرخة بعيدة ترجع إلى العشرينيات عندما كان ارتداء البنطلون يعد أمراً ضرورياً إذا أردت الحصول على وظيفة فى الحكومة فى ظل حكم البريطانيين كما أن نبذ الزى الوطنى كان خطوة هامة إزاء التحرر من الماضى العتيق .

ولا يمكن أن تعيش فى منطقة الخليج فترة طويلة دون أن تكتشف أنك تعيش فى مجتمع من طبقتين ، والكويت ليست مستثناة من ذلك ..

إذ أن هناك الوطنيين وهناك آخرون أيضاً وفى حالة الكويت فإن عدد الجنسيات الأخرى يفوق الوطنيين .

وفى شتى أنحاء الخليج فإن إجراء إحصائيات عن السكان تعد مسألة خط ويرجع ذلك جزئياً إلى أن استطلاع الرأى لا يتم على أسس منتظمة ، ويرجع أيضاً إلى الأعـداد المتباينـة للمهاجرين بطرق غير مشروعة الموجودين فى كافة الدول . ومن ثم فإن كل الأرقام التى تقدم هى أرقام تقريبية ، وغالباً ما تكون قديمة ، أو تكهنات متوقعة .

وقدر عـدد الفلسطينيين الموجودين فى الكويت بـ ٢٠,٠٠٠ فرد وهم يمثلون أكبر تشكيل واحد فى خليط من الجنسيات المختلفة الذين يكونون سكان الدولة من الأجانب وهم أيضاً أكثر طائفة تلتزم بالاحتفاظ بموقفها والجنسيات الأخرى التى تعمل هناك القادمة من العالم الذى يتحدث اللغة العربيـة هم اللبنانيين والمصريون والأردنيون والسودانيون غير أنهم يعودون إلى بلادهم عندما تنتهى فترة عملهم . ولـكن الفلسطينيين ليس لهم مكان يعودون إليه . ومن ثم فإنه نظراً لأزمتهم المزمنة وعدم وجود وطن لهم يجعلهم عصبيين وطموحين وسريعى الغضب .

ومثل المهاجرين فى كل مكان فقد كافحوا ضـد وضعهم الطبقى المتدنى . وفى داخل طائفتهم حصلوا على نوع ما من الاستمرارية غير أنهم داخل الدولة المضيفة بدأ يحدث تدهور حتمى لوضعهم . إذ تم الترحيب بهم فى مستهل الأمر كلاجئين من الأهوال الإسرائيلية وحملوا معهم مهاراتهم التى تحتاجها البلاد . وكانت لغتهم الإنجليزية التى تعلمها ذلك الجيل الذى عاش تحت الانتداب ، أفضل من الإنجليزية التى يتعلمها العرب المحليون ، والتحقوا بوظائف الحكومة وشركات البترول والمؤسسات التجارية . وهكذا قدموا بديلا عربياً للهنود الذين احتكروا الوظائف الكتابية والسكرتارية غير أنه مع كل هزيمة متلاحقة للعرب على يد الإسرائيليين يتدفق مهاجرون جـدد ورجال تواقون لبدء حياتهم العملية

من جديد . إلا أن التفاوت بين ما كانوا يتوقعونه والحقيقة الواقعة يبدو أكثر وضوحاً .

إنهم مواطنون من الطبقة الثانية تتحملهم بنية المجتمع ، ولكن يكبح من نشاطهم ذلك لأن المجتمع يحمى ويمجد حتماً الوطنى على حساب ذلك الوافد من الخارج . وهــذا ضرب من المغالاة فى التعصب الإقليمى السائد فى شتى أرجاء شبه الجزيرة العربية . وعلى نحو ظاهرى عقد الوطنى العزم على العمل ضد نظام السلب والنهب الذى كان متفشياً إبان فترة الاستعمار ، غير أنه يستمد سلوكه وربما دون وعى – من التقاليد السالفة ، والآن أصبح الموقف فى وضع يكفل للوطنى السيطرة بصورة فعالة على كافة العمليات التجارية والصناعية . إذ أنه الوحيد الذى بوسعه حيازة ممتلكات ، وبدون مشاركته لا يكون بوسع أى أجنبى البدء فى مشروعه .

وقد نجم عن ذلك ظهور سباق بين المؤجرين والمقاولين على كافة مستويات المجتمع المحلى . وحتى أفراد الطوائف القبلية الذين يعيشون فى أوضاع سيئة نسبياً وأعادت الحــكومة تسكينهم ، فإنهم يستطيعون أن يؤجروا مساكنهم السابقة للهنــود والفلسطينيين واللبنانيين الذين وفدوا مؤخراً إلى البلاد بعد أن دمرت الحرب الأهلية بلادهم . وفى وسع الطبقة المتوسطة الطموحة أن تجلب الأجنبى الماهر لمشاركته فى مشروعه . وفى وسع الثرى صاحب الممتلكات الوفيرة أن يحصل على أجور من شققه التى يؤجرها للأوروبيين بحيث يمكنه خلال عام من شراء منزل فى بلادهم .

ومحظور على الفلسطينيين المشاركة فى كل تلك المشروعات المزدهرة وذلك لافتقارهم لحقوق المواطن الأصيل . وهناك آخرون أكثر حظاً وهم الإيرانيون والعراقيون الذين استقروا على مدى عــدة أجيال فى البلاد وتعتبر فترة ثلاث أجيال ضرورية كى يضحى المرء مواطناً فى الدولة ، وحتى اليهود السفارديين قد اكتسبوا حق المواطنة غير أن الفلسطينيين لم يزودوا بعد بتلك الصلاحية الشرعية . إذ أنهم لا يتمتعون بأية ميزة

فى الدولة باستثناء حقهم غير المستقر فى العمل الأمر الذى يشترك معهم فيه الأجانب الآخرون . ونظراً لأنهم متعلمون ويتسمون بالذكاء ولأنهم أكثر الطوائف المقيمة ثقافة ، فإنهم يواصلون التقدم فى وظائفهم الحكومية فى وجه منافسة متصاعدة من جانب الجيل الجديد الذى يتخرج من المدارس والجامعات التى تغدق عليها الحكومة الأموال والمعــدات والأجهزة فى محاولة لمواجهة جاذبية جامعات بيروت وبغداد بتقاربها الخطير من المثالية الثورية .

إن الاكتفــاء الذاتى هو ما يسعى العرب إلى تحقيقه لأنفسهم إذ أنهم لا يريدون أن يظلوا معتمدين على الوافدين من خارج البلاد ، مثل الفلسطينيين أو غيرهم ، للحصول على المهارات الحرفية لفترة أطول من حاجتهم . ويبغضون الإشارة ضمناً إلى أنهم غير قادرين على العمل لأنفسهم . ويشعرون بالاستياء إزاء النظر إليهم بوصفهم أثرياء نزلت عليهم الثروة من خلال عدة ظروف لم يساهموا فيها سوى بالنذر القليل . وليس فى وسع أى أجنبى إحراز تقدم فى مواجهة التصميم القوى للعرب كى يحتفظوا لأنفسهم بالسيطرة على ثروتهم الشاسعة .

وفى تمام الســاعة الثامنة صباح كل يوم تنطلق صيحات السارينات تتقدم موكب وريث العرش وولى العهد وهو فى طريقه إلى « مجلسه » فى قصر السيف . وتعلو سارينات سيارات البوليس ، وتسير سيارتان سريعتان ثقيلتان مكدستان برجال الحرس الذين يرتدون ملابس قرمزية اللون ، فى اتجاه القصر ، ويحتشد المرور فى الصباح على جانبى الطريق حيث ينطلق الموكب بسرعة فائقة على طريق البحر وببطء تبدأ من جديد ضوضاء المرور المملة ويمتد فى هدوء ضوء النهار الساطع على جموع المارة بينما يعمل الرجال على ظهر سفنهم الراسية على شاطئ الميناء .

وأعتقد أنه منذ ثلاثين عاماً عندما كان يتجرأ سائق متهور ويسبق إحدى سيارات العائلة الحاكمة فإن عبيد العائلة يجرونه وينهالون عليه ضرباً .

ولم يعد لذلك السلوك المستبد وجود الآن ، غير أنه حلت محله تصرفات أخرى . إذ تم إغلاق البعثة الأمريكية المجاورة مقصر السيف لأن أحد أعضاء البعثة أدلى بتعليق عام بشأن عدم المساواة السائدة فى المجتمع الكويتى مما أدى إلى إغلاق مقر البعثة وهى فى سبيلها إلى الانتقال إلى مكان آخر . وتم حل مجلس الأمة وهكذا فإن أكثر النظم ديمقراطية فى الكويت والذى كان يحظى بإطراء كثير معطل الآن بصورة مؤقتة . وهناك رقابة مفروضة على الصحف الواردة من الخارج ، وإشراف على الصحف المحلية ، ويتم إغلاق الصحيفة عندما تشن هجوماً أو تكون استفزازية بصورة حادة : ويقولون ضع فلسطينيين معاً فسوف تجد أحدهما يبدأ فى إصدار صحيفة . إذ أنهم يهيمنون على وسائل الإعلام فى كافة أرجاء دول الخليج ووسعوا نطاق العلاقات العامة التى ازدادت فى شتى أنحاء الخليج .

وتنحصر مطامحهم كطائفة ، فى مطامح الطبقة الوسطى شأنهم فى ذلك شأن الهنود والمصريين واللبنانيين . ومن المتعذر على أى أجنبى يتلقى أجراً أن يحتفظ بمركزه . إذ أن المزايا التى يحظى بها الوطنى دون جهد محظورة عليه ما لم يدخل ضمن بعض التصنيفات الحرفية المطلوبة مثل الطب أو التعليم .

إلى أى حد تسمع أصوات الاستنكار وعدم الرضاء ؟ لقد أمدنى المدير المنتدى بمساعدة ، إذ قدم لى تفاصيل تكاليف التعليم الخاص ، الذى يوسع به مسئول الحكومة ، من نطاق عدم المساواة والتباين الاجتماعى الذى يعانى منه الفلسطينيون بوصفهم طائفة ليست أمامها فرص كبيرة بديلة للخيار . وهناك إحساس بالإحباط والظلم يتخلل هذه المستويات من الإدارة المتوسطة . إذ أن تكاليف المعيشة الباهظة تلتهم ما يكسبونه وتفوتهم الغنائم الحقيقية للاقتصاد الذى يحرمهم من حيازة الممتلكات : وليس هناك نوادى اجتماعية وجمعيات خاصة ، ومن صالح كافة الطوائف الأجنبية الاحتفاظ بصوت هادئ وألا يحاولون جلب انتباه إليهم بقدر المستطاع .

وكل يوم تظهر فى الصحف أنباء عن اعتقال السكارى ، لأن حيازة الخمر أو المخدرات أمر غير مشروع ، ويتم تهريب المشروبات من العراق وإيران وذلك عن طريق أطقم السفن فى الميناء . وتعد طوائف الشيعة أكثر مرونة فى ذلك الصدد من السنيين والوهابيين كما هو الحال عند (الجونيز) والمذاهب المسيحية الأخرى ويصنع الأوروبيون الخمر والبيرة فى منازلهم إذ يصنع الرجال البيرة والنساء الخمر . ويشترون الخمر المصنوعة فى المنزل من تجار محليين يمدونهم بما يطلبونه فى الحال .

ولا تمر فترة طويلة قبل أن تزحف مشاعر اليأس على الوافد الجديد . وهناك مجتمع صغير ثرى يضم نحو خمس عشرة عائلة وهى تمثل العائلات الثرية المعروفة التى تعيش فى عزلة فى منازلها الكبيرة التى تحيطها أشجار عالية وفى مناطق مغلقة حيث يمكن لأعضاء العائلة أن يعيشوا فى بيوت خاصة آمنين بتقارب علاقاتهم ويتولى حراستهم رجال وخدم أجانب لحمايتهم من أى تطفل . ويشكلون مع الطائفة الدبلوماسية وطائفة البنوك الدولية نواة مجتمع عالمى الذى يتسم بالتعقيد والزخرفة حيث تكون الأحاديث التى تجرى فى حفلات الغداء والعشاء خاطفة ومليئة بالمعلومات والمشتركون فى تلك الحفلات ، من الرجال والنساء يماثلون بعصريتهم وتحضرهم أى مجتمع مماثل فى لندن أو باريس أو نيويورك .

غير أن ذلك القطاع الصغير من المجتمع يعتمد على بضعة شخصيات . ووراء تلك الدائرة الجذابة تقف طائفة رجال الأعمال الأوسع وقوامها نحو ٥٠٠٠ عائلة . ويمضى الجيل الأول من الأثرياء فى طريقه للصدارة وهناك تيار يتجدد دائماً من الأجانب الذين يخدمون الاقتصاد الذى يحاول تدعيم نفسه على أساس مستقل من عائدات البترول .

ولهذا القطاع من المجتمع أنشىء السوبر ماركت والمجموعات السكنية ومواقف السيارات المتعددة الطبقات والبنوك والفنادق التى تزخرف بالحجارة المصقولة وقطع الزجاج والمعابد الحديثة . وتخدمه المهارات

المستوردة وتجرى فى ظله ووجوده ممارسة التخلى عن مفهومين أساسيين فى الحياة الإسلامية التقليدية هما واجب الضيافة وحظر الربا .

ويعتقد الكثيرون أن هـذا المجتمع الهش هو الذى يمثل الكويت بأسرها . غير أن المرء عندما يتطلع حوله يدرك أن جوانب الحياة القديمة لاتزال قائمـة . والكويتيون نشيطون على الصعيد الدولى فى عملية تأجير السفن وكل ما يتعلق بها من أنشطة . فقد طوروا خبرتهم البحرية وتصليح السفن وصناعتها ونقل البضائع . وكل ذلك يدخل ضمن عملية تنويع اقتصادهم . ولاتزال سفن الإبحار التقليدية تضع فى أحواض صناعة وتصليح السفن حيث لايزال بناة السفن يستخدمون المهارات الموروثة ، إذ أن عملية القياس تتم بالعين المجردة ، باستخدام قطعة من الخشب يتم اختيارها بدقة ، من أكوام الفروع الرئيسية لشجرة الطرفاء ذات الشكل الغريب .

وتدور أسراب الحمام حول المنـاطق القذرة ، ويمكن رؤية النساء اللاتى يرتدين ملابس سوداء وهن يسرن ببطء على أرض غير مستوية ويحملن أمتعة على رؤوسهن باتزان . ولايزال يمكن سماع صياح الديك ونقنقة الدجاج غير أن نهيق الحمار ينتمى إلى الماضى ، أما قطعان الماعز والماشية التى كانت تتدفق من بوابات المدينة كل يوم تحت إشراف رعاة الماشية الصغار فقد حل محلها قطعان الماشية التى يتم استيرادها بالآلاف من استراليا ونيوزيلندا فى سفن تم تصميمها خصيصاً لذلك الغرض ويجرى تحميلها على شاحنات الماشية حيث يتم نقلها إلى مناطق الرعى فى الصحراء إنتظاراً لتحويلها إلى المجزر بمناسبة العيد .

وصناعة اللؤلؤ التى ساندت المدينة إبان سنوات الحصـار الذى فرضه ابن سعود قد انتهت تماماً تاركة وراءها قدراً هائلا من الثروات قامت عليها . وخلال أوج ازدهارها كان هناك ٣٠٠٠ زورق ونحو ٤٠٠٠٠ فرد يعملون بها فى كافة أرجـاء منطقة الخليج غير أن بداية القرن شهد آخر أحقاب الازدهار القليلة ، ومع حلول عام ١٩٤٦ ، كان هناك نحو ٥٣٠ زورقاً يعمل عليها ١٠,٠٠٠ فرد .

غير أن تراث تلك الفترة ظل باقياً بين الرجال الطاعنين فى السن إذ خلفت أعداداً كثيرة وعاهات فى الأوصال . وتركت آثار ندوب كان يسببها قنفذ البحر ، وقرح وآلام مبرحة ، وأصيبت العيون أيضاً بالتراكوما نتيجة للملوحة الزائدة التى تحتويها مياه الخليج الضـحلة ، والتى تعالج فقط بالعقاقير المضـادة . وأثرت تلك الفترة على الرجال أيضاً بآلام الروماتيزم ، وتقيح طبلة الأذن ، وضعف فى الرئة ، وهذه هى الآثار المتبقية لصنـاعة تركزت أرباحها فى أيدى حفنة من الرجال الأثرياء ، وجعلت القائمين بهذه الصناعة من غطاسين وأطقم سفن وقباطنة فى حالة من العبودية الاقتصادية .

وقبل أن يبدأ اقتصاد البترول ، كان استخراج اللؤلؤ يشكل نشاطاً مؤثراً فى حياة كل فرد تقريباً بمنطقة الخليج ففى شهر يونيو من كل عام فى عمان ، تبدأ عملية هجرة تجاه الشمال من ساحل بتينة إلى ساحل الإمارات المتحدة والبعض يذهب فى قوافل عن طريق الجبال على طول طرق أصبحت الآن شوارع حديثة . والبعض الآخر يذهب عن طريق البحر . وفى مواجهة ذلك الفيض من الرجال كانت هناك هجرة مضادة من النساء اللاتى ينزحن جنوباً من الإمارات المتحدة إلى ساحل بتينة لجمع البلح . وغالباً ما يسافرن مع القوافل العائدة وفى شهر سبتمبر تتحرك العملية فى اتجاه العكس إذ تعود النساء إلى الشمال ويترك الرجال اصطياد اللؤلؤ ويعودون إلى عمان .

وفى نهاية الثلاثينيات كان عدد كبير من أولئك المهاجرين من العبيد الزنوج الذين يؤجرهم وكلاء ويتعاقدون مباشرة مع القبطان لهذا الغرض وكان الطلب على العامل كبيراً للغاية فى ذلك الفصل حيث تأتى السفن إلى عمان قادمة من مناطق بعيدة مثل سوكوترا وعليها أطقم مؤهلة للصيد . وغالباً ما يكون العبيد من أفضل الغطاسين ، إذ يبدأون العمل وهم فى سن الشباب فى حين يعمل الرجال الأحرار فى سحب الحبال التى تجذبهم إلى السطح .

ومتوسط الزمن الذى يستغرقه الغطاسون تحت الماء وهو دقيقة واحدة. ويغطسون عشرات المرات ثم يستريحون ، وتقوم أربع فرق مناوبة فى المتوسط يومياً بالغطس أربعين مرة . وكان الأسلوب الشائع هو الغوص دقيقة واحدة ثم راحة دقيقتين أو ثلاث دقائق ، ثم يقومون بالغطس مرة أخرى . وفى ظل الظروف المواتية فإن الغطاس على ساحل الإمارات المتحدة يغطس فى المتوسط ٥٠ مرة يومياً ، أى أن مجموع ما يمكنه تقريباً تحت الماء هو ساعة . ويوماً بعد يوم على مدى أربعة أشهر، تستمر عملية الغطس . وعندما ينتهى فصل الغوص لصيد اللؤلؤ ربما يكون الغطاس قد غطس على مسافة تبلغ من ٣٠ إلى ٥٠ قدماً تحت الماء ٣٠٠٠ مرة ، وقضى ما يربو عن خمسين ساعة تحت سطح الماء — أى قضى أكثر من أربعين ساعة كاملة فى الأسبوع دون استنشاق الهواء .

وكل عشرة أيام أو نحو ذلك يمنح الغطاسون فترة راحة ، وإذا هبت الرياح الشمالية يتوقف العمل ، إذ يكسو الضباب البحر ويتعذر الرؤية . وبعد عدة أسابيع فى البحر يكون الغطاسون عرضة للإصابة برعشات تشنجية عندما يأخذون قسطاً من الراحة وذلك برغم أن درجة الحرارة قد تكون ١١٠ درجة فهرنهيت ويصابون بتورم ونزيف فى اللثة وهو داء مستفحل . وكان انحناء الأجساد مرضاً شائعاً يسبب آلاماً حادة ويؤدى إلى الشلل حتى الموت . ولم يكن الغطاسون يتناولون الطعام خلال فترة العمل إذ أن الطعام كان يسبب لهم دوار البحر . وفى نهاية اليوم كان مجرد تناول بضع حبات من البلح وقليل من الأرز وبعض الشاى كافياً . كلما اقترب موسم العمل من الانتهاء ، أصابهم الضعف والهزال بصورة مطردة ، ويعد النوم الوسيلة الوحيدة التى يملكونها لتجديد طاقتهم .

وعندما ينتهى الموسم ويتم بيع اللؤلؤ يخصم القبطان تكاليف الطعام والمؤن ويحسب الأرباح . وفى تلك الحالة يحصل المالك على نصف الأرباح ويحصل الغطاس ومن يشد الحبل على نصيب واحد ، والقبطان على الضعف . ويبلغ ارتفاع معظم سفن الصيد ، التى تأتى من موانى الخليج

ومن ساحل الحسا ، ٤٠ قدماً وهى أصغر السفن إذ يتكون طاقمها من ستة غطاسين وأربعة أفراد لشد الحبال وقبطان . والسفن القادمة من البحرين والكويت أكبر فى الحجم ، إذ يتكون طاقم كل منها من ٤٠ فرداً أو ما يقرب من ذلك . وفى تلك الحالة فإن نصيب القبطان يكون أكبر نسبياً .

وكانت عملية صيد اللؤلؤ مقامرة كبرى إذ أن أقل حصة تدرها فى أقل سنة تقدر بخمسين أو مائة روبية فقط فى حين أن متوسط ما يحتاجه المشتركون فى العملية للإنفاق على معيشتهم فى السنة يقدر بعدة مئات من الروبيات . وتعمل هذه الصناعة وفقاً (لنظام الدين) . إذ يحصل الغطاسون ومن يقومون بشد الحبال على أجرهم مقدماً خلال فترة البطالة ، عندما لا يكون هناك عمل ، ويقوم قبطانهم بإمداد عائلاتهم بالطعام والتموين فى الوقت الذى يكونون فيه بعيدين فى قاع البحر ، وعقب كل موسم يقومون بتسوية ديونهم بما كسبوه ويستأنفون الدائرة المرهقة من جديد ونادراً ما يتحررون من أعباء الديون .

وبدأت عمليات إصلاح ذلك النظام فى البحرين . تحت ضغط من البريطانيين فى العشرينات . إذ تم إلغاء الديون المتوارثة لأنه وفقاً للنظام القديم كانت ديون الرجل تنتقل إلى ابنه أو شقيقه فى حالة وفاته أو عجزه ، حيث يقومون بدورهم بإدخالها ضمن ديونهم . وحالما يكون الفرد مديوناً يحظر عليه تأجير نفسه إلى قبطان آخر . إذ يتعين عليه أولا تسديد ديونه للرجل الذى يمتلك قدراته للعمل فى حين كان لايزال عليه أن يعول نفسه . وبهذه الطريقة يتجنب الممول أوامر القرآن التى تحرم الفائدة والربا ، إذ يمتنع عن المعاملات التجارية بالمال السائل ويسترد ديونه فى صورة عمل .

والقبطان نفسه بدوره ، يرتبط دائماً بتاجر ما بنفس الأسلوب ، حيث يقترض منه مبلغاً من المال كى يدفع مسبقاً أجور الغواصين ومن يسحبون الحبال . وفى عمان يقوم القبطان باستئجار عماله من أحد وكلاء القبيلة ، ويعطى الوكيل المال والأرز مقدماً . ويقدم العبد ما يكسبه لصاحبه الذى يقوم بدوره بتقديم الغذاء والكساء له ويكون مسئولا عنه .

وتم تنظيم تلك الصناعة من خلال « محكمة الغوص » التي يديرها تجار اللؤلؤ ، وتطبق قوانينها الخاصة ، وتنظر في منازعات العمال والمسائل المتعلقة بالضرائب ، والقوانين التي تحكم هذه المسائل وهي جائرة ؛ وإذا لم يتمكن القبطان من دفع ديونه للتاجر الذي يموله فإنه قد يخسر زورقه وغواصيه ولكنه لا يخسر ممتلكاته الشخصية ؛ في حين أن الغواص الذي تتمثل ممتلكاته ورأس ماله في عمله فحسب فإنه محظور عليه عرضه للطلب في السوق العام .

ومن الغريب أن الاصلاحات التي فرضتها الضغوط البريطانية قد واجهت احتجاجاً مريراً من أولئك الذين كان من المأمول أن يستفيدوا منها . وطالبت حكومة البحرين بأن يقدم لكل غطاس دفتر حساب على أن يحتفظ بها ويتم مراجعتها وفقاً لأسس منتظمة ، وهو الأمر الذي كان متعذراً على الرجال الأميين الذين كانوا يعتقدون فقط أنهم يحصلون على أجور أقل . ولا يدركون أن ذلك يجعلهم يفادون الدين : وقد نشبت إضطرابات وعمت الفوضى في « محوراق » مما أسفر عن مصرع عدد كبير من الأفراد عندما تظاهر الغطاسون في الشوارع .

ولم يبذل الحكام الشيوخ أي جهد ملحوظ لتحسين حالة رعاياهم حتى حثهم على ذلك المتموبون الساميون . فقد كانوا أنفسهم يفرضون ضرائب على كل زورق ويحصلون على نسبة من كل صفقة ، ولذلك كان تجار اللؤلؤ أنفسهم يتمتعون بصورة أو بأخرى بسيطة العائلة الحاكمة . وكان بعض أعضاء العائلة الحاكمة يشتركون في عمليات تجارية مثل الشيخ ماني في دبي . الذي كان تاجراً ناجحاً في تجارة اللؤلؤ طوال عدة سنوات قبل أن يصبح حاكما للإمارة .

إن حالة اليأس التي خيمت على الخليج إبان الثلاثينيات قد أسفرت عن أضرار مباغتة في المنطقة إذ خلال فترة وجيزة وجد عشرات الآلاف من الرجال أنفسهم عاطلين حتى في فترات العمل الموسمية ، الأمر الذي جعل مستوى معيشتهم الضئيل يصل إلى حد الكفاف .

وبعد تلك السنوات العصيبة حرماً من ثمرة الحركة التي تمت في تطور الطبقة المتوسطة في الخليج . إذ لم يحظ [illegible] النشاط وحب المغامرة والتجارة أنفسهم يخضعون [illegible] وتمكن المشاق والمتاعب الشاقة المستمرة وحتى [illegible] بالأجر الضئيل . وقد انتقل الكويتيون من تجارة اللؤلؤ إلى العمل في البحر وتحولوا إلى نقل البضائع بالسفن بين الكويت والبصرة والهند . وأبحرت السفن الكبيرة التي يملكونها إلى الهند وعبرت إلى شرق أفريقيا وحملوا [illegible] في الأقاليم والسفن عندما كانت تهب العواصف الصحراوية وتجرف السفن في مياه الخليج الغادرة . وعمد الكويتيون [illegible] على قيد الحياة [illegible] وطويلة . وقد تجارة أسلافهم [illegible] صناعة اللؤلؤ [illegible] وعندما تم اكتشاف البترول . [illegible] وعاش هؤلاء [illegible] وعاشوا رغم حظهم العاثر [illegible] التي مكنتهم من البقاء لتمتع بثروة البترول .

وحتى عام ١٩٤٥ لم تكن صناعة البترول السعودي قد بدأت كي تستوعب القوة العاملة بقدر كبير . ثم بدأت منذ ذلك الوقت في جذبهم من حياة الصحراء البدوية . ولم تبدأ صناعة البترول الكويتي إلا في أواخر الأربعينات وخلال عهدها الأول كانت العقود تحتوي على شروط خاصة بتشغيل الأفراد وتقضي بضرورة منح العمال فترة راحة خلال أشهر الصيف لحضور صيد اللؤلؤ .

وموسيقى فجيري التي تسود الخليج ، هي تلك الأغاني التي يرددها العاملون على أسطول الصيد خلال فترة العمل ، وهي موسيقى حزينة . ومثلها في ذلك مثل معظم الموسيقى الفولكلورية فإنها تسجل في إشارة ضمنية كئيبة مشاعر المشقة وأحزان طائفة من الأفراد الفقراء قضى عليهم أن يعملوا ساعات طويلة في كد مرهق وممل وأن يواجهوا المخاطر والغربة والبعد عن الأهل والوطن وكان رحيل أساطيل اللؤلؤ بمثابة حدث عظيم في حياة سكان القرى الفقيرة . الذين يعملون في الصيد ، وحياة الشباب الوافدين من قبائل

الصحراء الذين يتوقون إلى المغامرة بأرواحهم وبصحتهم فى سبيل الحصول على فرصة مثل هلال المطيرى ، لتكوين ثروة من عملية غوص واحدة تجلب لهم الحظ .

إن بناء وتدشين سفن اللؤلؤ وتزويدها بالمؤن ورحيلها وعودتها ، كانت مجالا ومحورا للأغانى المختلفة التى كان الرجال يشدون بها خلال عملهم ، وكانت النساء يترنمن بها على الشاطئ وقت إبحار الزوارق والأعلام ترفرف عليها وأصوات الطبول والدفوف تعلو فى إيقاع رتيب . واليوم يشغل الشباب المتعلمون أنفسهم بالذهاب إلى المقاهى المنتشرة حول الموانى للاستماع إلى تلك الأغانى التى يرويها رجال طاعنون فى السن وهم يتأوهون . وقد تم تسجيل أصواتهم وذكرياتهم ، فمنذ بضع سنوات قام مخرج أفلام كويتية وهو شاب يدعى خالد الصديق بتصوير فيلم يروى فى عبارات مأساوية مليئة بالمشاعر الفياضة قصة حياتهم .

وكان تأثير ذلك الفيلم « بس يا بحر » على من شاهده هائلا . إذ كان بمثابة مرآة تعكس أمام أعينهم صورة الماضى القريب مما فجر مشاعرهم وفى كافة دول الخليج كان بعض المشاهدين يخرجون من دار العرض وأعينهم تفيض بالدموع ، ويستقلون سياراتهم الفارهة وقد ظهرت بهم مشاعر الشفقة والكبرياء . ذلك كان ماضيهم ومعاناتهم ، وملحمتهم البطولية الصامتة غير المرئية حتى الآن وبالمقارنة فى الصورة المقابلة ، بشكوى الأفراد المشردين ومكائد الوافدين الجدد الذين يتوقون للاستفادة من ازدهار ورخاء المنطقة تبدو الصورة جوفاء وغير واقعية ومما يدعم هذه الصورة بدء نفور عدد كبير من المواطنين الأصليين إزاء ضيوفهم .

واعتقدت فى بعض الأحيان أن اهتمام الكويتيين ، وكافة سكان شبه الجزيرة العربية فى الواقع بصحتهم يرجع إلى ما عانوه من مشقة وحرمان فى ماضيهم . كيف حال « ضغط دمك » قد تبدو تلك الملحوظة العامة محدودة بالنسبة لنا ، غير أنها بالنسبة لشخص عربى بعينه تفتح أمامه فرصة لإجراء حديث طيب . غير أن تذكرهم للفترات العصيبة الماضية تفسر بعض ما يتسم

به الكويتيون من نفاذ الصبر والجفاء وبعض القسوة الكامنة الناجمة عن سنوات العيش على هامش الحياة ، عندما كانت القلة الثرية تستفيد من مركزها ولا تبذل جهدا كبيرا كى تحسن من ظروف أولئك الذين هم أقل حظاً منها .

وقد تم الترحيب بامتيازات البترول على المستوى العالمى . غير أن عدداً كبيراً من تجار اللؤلؤ وأصحاب السفن عارضوها ، إذ اعتبروا أن إتاحة فرص جديدة أمام عامة الشعب بمثابة تهديد لمركزهم ، باعتبارهم الموزعين الوحيدين للعمالة . وقد ساد ذلك الاتجاه كافة أرجاء الخليج من الطبقة المستقرة والقوية . ونظر الشيوخ إلى الحاجة إلى عمالة بديلة بعين الارتياح فمثل هذه الصناعة التى تستلزم أن يظل قطاع كبير من السكان فى شبه بطالة لفترة تستغرق ثمانية أشهر تعد بمثابة أفضل ضمان لاستمرار وجود إمداد لا بأس به من الغطاسين الذين قد لا يسهل إقناعهم بالقيام بعمل خلاف ذلك .

وتم تصدير أول برميل من بترول الكويت فى عام ١٩٤٦ ومع حلول عام ١٩٥٣ ارتفع الإنتاج إلى ألف مليون برميل ، ذلك الإنجاز وضع الدولة فى مصاف أكبر الدول المنتجة للبترول فى العالم ، وكفل لسكانها الحصول على تلك الثروة التى أفقدتهم صوابهم . إذ أن مشاكل استيعاب الثروة التى كانت هائلة شأنها فى ذلك شأن المشاكل السالفة التى أثارها الفقر .

* * *

الفصل السادس

البحرين ــ المنامة ــ محرق ــ استصلاح الاراضى تاريخها ــ بنية المجتمع ــ السنيون والشيعة ــ الجالية الايرانية ــ المزيد من صناعة اللؤلؤ ــ مواطن اللؤلؤ ــ الحصيلة الموسمية ــ انهيار الصناعة ــ اثر ذلك على السكان ــ حكم الاقلة التجارية ــ الخمسة الكبار ــ اصلهم ــ الحدائق ــ ممارسة التجارة ــ وسائل النقل الجوى الاولى ــ المضيفات الجويات ــ الفتيات غير المتزوجات ــ تحرر النساء ــ التفسيرات العربية ــ الزواج الحديث ــ التمسك بالاتجاهات التقليدية .

* * *

إن الانتقال من الكويت إلى البحرين هو التقدم المنطقى لأى عملية استكشاف للخليج ، ويتعين على المسافر أن يجد فرصته فى التزاحم على حجز مقاعد فى خطوط الطيران المحلية إذ ليس هناك أية بدائل ، كسفن أو سكك حديدية إلا أن يحصل المرء على مقعد فى سيارة تاكسى تسير إلى موانى السعودية مارة بساحل الحسا ، وتعبر عن طريق زورق شراعى من القطيف أو الدمام إلى الجزر ، وهو الأمر الذى يعمله السكان المحليون الأكثر فقرا .

بيد أن الحظ قد حالفنى ، فقد أرسل رجل إنجليزى سائقه الهندى كى يدبر لى حجزاً عن طريق أحد أقاربه الذى يعمل فى إحدى الوكالات العربية لحجز التذاكر . وبدون مثل هذه المساعدة التى جاءت فى حينها فإننى كنت سأظل يائسة لعدة أيام منتظرة الحجز فى إحدى الرحلات . وهذه تجربة عامة مر بها كل الذين ترددوا على منطقة الخليج . وتمتلىء مكاتب شركات الطيران فى المطار ومقاعد الاستقبال فى الفنادق بمجموعات من الرجال يظلون طوال الصباح والمساء يحملون حقائبهم ويصرون على صحة حجزهم لموظفى الاستقبال الذين يتسمون بالأناقة وعدم المبالاة .

أقلعت طائرتى فى رحلة مسائية تخللها كثير من المطبات الهوائية وما كدنا نحلق فى السماء حتى خيم على الأرض السحب والضباب الكثيف المنتشر أسفلنا مما حجب البحر عنا تماماً . وخلال الفترات الأولى للرحلات الجوية فى الثلاثينيات كانت شركة خطوط الطيران الملكية تحدد بدء رحلاتها فى الساعات الأولى من الصباح كى تتفادى العواصف الرملية التى كانت تهب بعنف مهددة الطرق الصحراوية وفى الطائرة كان يجلس بجوارى رجل أمريكى عصبى المزاج وبرفقته زوجته . وبما يتسم به الإنجليز من الامبالاة جلست أقرأ رواية « قسيس ووكفيلد » متجاهلة تمايل واهتزاز الطائرة بصورة مضطربة كما مررنا من خلال السحاب المتفخ .

« ماذا تقرئين ؟ » هكذا سألتنى الزوجة التى انتابها الرعب وفقدت رباطة جأشها من مثابرتى على ما أعتقد .

وفى صمت أدرت الكتاب على صفحة العنوان وأظهرت أسلوب الطباعة القديم وتاريخ صدور الكتاب على غلافه وخيل إلى أنها اعتقدت أنه كتاب دينى ، ووجدت نفسى عاجزة عن تفسير دلالة ما يعنيه الدكتور بمريموس الطيب فى نفسى إذ هو بمثابة تعويذة ضد سخرية المجتمع الغريب فى الخليج .

وفى الوقت المناسب بدت أضواء البحرين وهى تتلألأ أسفلنا واقتربت الطائرة من الأرض واختفى منظر مبانى المطار فى ظلمة الليل ، ومن ثم فإن الأضواء المتلألئة وصالات الاستقبال المسلط عليها الضوء كان لها تأثير مسرحى كما لو كانت هناك قاعة شاسعة لأوبرا تنتظر عرض إحدى المسرحيات .

وثمة سحر خاص لتلك الرحلات الليلية حيث تتوهج الطائرة وهى تهبط إلى الأرض يحوطها الغموض فى الظلام الدامس الذى يكسو الكون أسفل ويرى المسافر شعلات البترول تنير فى الظلام الحالك الذى يحيطها ، وتزيد من التخيلات التى تزيدها سلسلة الأضواء المتلألئة كالماس التى تميز بوضوح أشكال التطور الحضارى .

ويبدو وسط المدينة لامعا براقاً حيث تومض أنوار النيون من أعلى المبانى الشاهقة ، وتومض أضواء المرور مثل الياقوت والزمرد فى الليل الذى يشبه المخمل الناعم .

وفى نطاق الساحل المجاور لها ، تعد البحرين مكاناً مفضلا ، وهى واحة خضراء – جزء منها على الأقل – وسط البحار الضحلة التى تومض بوهن على ساحل مكفهر ويعد البحر المحيط بها مصدر جمالها الرئيسى . إذ تبدو من الجو الرمال البيضاء فى الأعماق الساحلية المتباينة وتتدرج الألوان المتغيرة على نحو باهر متألق ، وتتموج الزرقة الباهتة إلى لون أخضر زمردى جذاب .

ومن البحر أيضاً ، تبدو الجزيرة وكأنها تومض فى لون أبيض واهن من خلال أشعة الشمس الحارقة المتكسرة ، وتبدو السماء وكأنها أسلاك زرقاء تتدلى فوق الرؤوس مما يجعل للجزيرة جاذبية غامضة . إنها تبدو شاحبة ، إن الأرض المنبسطة والحرارة والصورة الظلالية للمبانى ، التى تبدو كسراب ترتفع على نحو وهمى وسط الضباب مما يعطى انطباعاً باتساع المكان بصورة سحرية غير متوقعة .

وفى بعض الأحيان فإن خداع اتساع المكان هذا يعطى انطباعاً بوجود فضاء هو فى الحقيقة مكان صغير للغاية . ويثير الطرف الجنوبى للجزيرة – وهو عبارة عن مسطحات من الرمال القاحلة التى تطغى عليها مياه البحر الفاترة ، حيث يؤثر تحليق طيور على منظر البحر وظلال المبانى من وقت لآخر – يثير هذا الطرف لدى المرء إحساساً بالفراغ والكآبة . وبالنظر عبر البحر المتماوج الذى يميل لونه فى المساء إلى الزرقة الشاحبة ، فإن المنحدرات الصخرية المنخفضة وجرف ساحل الحسا يبدو كئيباً ، وكلما توغل الليل أصبح لأضواء ومشاعل آبار البترول التى تشع على مسافة بعيدة فى الظهران سحر بعيد .

ولايزال بعض هذا السحر يلازم المنامة ومحرق ، غير أنه فى حاجة إلى بعض الضوء . فى كلتا المدينتين تمتد الفضلات المبعثرة كالخيط فى الأزقة

بين الحوائط الطينية الطويلة للبيوت العربية التقليدية التى لايزال عدد كبير من السكان يعيشون فيها . وتبدو الأبواب الكبيرة المصنوعة من خشب الساج وألواحها المزدانة وكأنها تتكتم خلفها الأسرار وفى فترة الغسق القصيرة وكذا فى الليل تبدو المدينة وكأنها مدينة شرقية تخيم عليها الظلال ويسودها الهدوء . ومن وقت لآخر يسير المارة متاخمين للحوائط وقلما يثيرون ضجة فى الحديث أو الحركة . وبإيجاز ليس هناك حياة فى الشوارع .

إن المرء يجد فى أية مدينة إنجليزية فى الساعة العاشرة مساء حياة أكثر مما هو موجود فى المنامة وحتى فى القطاع الجديد من المدينة وتنساب سيارات الأجرة على نحو متقطع فى الطرق المزدوجة على طول البحر ، وتبرق أنوارها على الطريق المعبد المؤدى إلى المطار . وفى القطاعات السكنية القديمة يزداد عدد دورات محرك السيارات ويسمع صوت إغلاق أبوابها بعنف وترتفع أصوات النساء الصاخبة عندما تتزاور العائلات فيما بينها ، ثم تغلق أبواب البيوت وتنطلق السيارات . ومثل كافة المدن التى تمضى فى عملية إعادة التنمية هناك فراغات ومسافات شاسعة تثير الحنق . وتوجد هنا كل سبل تخطيط المدينة من طرق ملتوية وطريق للبحر وحركة مرور للجزيرة ونظم للسير فى اتجاه واحد استعداداً لليوم الذى سوف تنمحى فيه المساحات الشاسعة المتربة وشجر النخيل الجاف ، والمنازل الطينية المنهارة والمدن المصنوعة من أفرع النخيل كى تصبح كياناً حضارياً مركباً .

وحتى اليوم ليس هناك نظام صرف صحى حديث ، بالرغم من أن هناك تعهداً بتنفيذ مشروع بذلك . إذ تتدفق مياه المجارى من المنازل إلى خزانات أسفل المبانى مع وجود فتحات يستطيع الرجل أن ينفذ من خلالها إلى المجارى فى الشوارع والطرقات . ومن آن لآخر تقوم عربات نقل ذات خزانات ضخمة بامتصاص مياه المجارى ، ويعمل عليها أفراد يتسمون بالفظاظة وهم موظفون فى المجلس البلدى . وحتى الآونة الأخيرة كانت النفايات والفضلات المحلية تقذف فى الأماكن الطلقة كجبال حيث تتراكم وتنبعث منها رائحة كريهة للغاية . والآن وعقب أن يؤذن المؤذن فى الرابعة صباحاً للصلاة يأتى

رجال يحملون مكانس ويجرون عربة يد وعربات تسير بالموتور تحدث أصواتاً عالية ، وحمير صغيرة تنهق ، ومع صيحات مزاحهم الفظ ينطلقون بسرعة لتنظيف الشوارع ويفرغون صناديق القمامة التى يلقى فيها الأفراد فضلات منازلهم على جانب الطريق بجوار أبوابهم . وبتلك الطريقة تم المحافظة بصورة معقولة على نظافة الشوارع ، غير أنه إذا حدث وهطلت أمطار غزيرة ، كما هو محتمل فى شهر يناير وفبراير ، فإن المياه تتدفق فى الطرق المعبدة والأزقة الرملية ، من خلال فتحات المجارى المغطاه بمادة صلبة — والتى غالباً ما تغطى بأكوام من الحجارة غير المحكمة بعد الانتهاء من امتصاصها من الخزانات ، وتطفو محتوياتها وتكون بركاً وجداول من المجارى كريهة الرائحة حيث يلعب فيها الأطفال الصغار الفقراء من ذوى البشرة الداكنة . وحتى الأطفال الموسرين أحياناً ما يتوانون ويتسكعون كى يلعبوا فى تلك البرك بالعصى ، تماماً مثل أطفالنا اللذين ينبهرون بسقوط الجليد ويلهون به قد رغم أنه قد يكون قذراً وملوثاً .

ولاتزال عملية تطوير المنامة فى بدايتها . إذ لاتزال المناطق الشاسعة من المدينة الأصلية كما هى ، وقد امتد تيار تنمية الضواحى الحديثة حتى غمر القرى وأماكن الصيد وحدائق السوق حتى امتدت المنامة الآن إلى حافة الصحراء وسوف ترتبط فى القريب العاجل بمدينة عيسى ، وهى المدينة الجديدة التى قام ببنائها ويمبى لحكومة البحرين خلال الستينيات — كما أنها أول مشروعات التنمية فى منطقة الخليج امتدت على نظـــام متشابك مع توفير وسائل الصحة العامة وشبكة مجارى ومدارس ومساجد وتسهيلات موانى وملعب كرة قدم . وتوجد صحراء قذرة تنتشر فيها مشروعات التنمية الصناعية الخفيفة وهى تمثل فاصلا بين المدينة وأشجار لم تصلها المياه الجوفية فى باطن الأرض والتى تتسرب إليها تدريجياً وسائل التنمية الحضرية .

وفى وسط المنامة ارتفعت مبانى حديثة وبدأ الأسمنت يفد إلى الجزيرة بكميات كبيرة فى الثلاثينيات — واعتاد اليابانيون على تأجير سفن وملئها بشحنات من الأسمنت للتجار والمحليين ومنذ ذلك الحين ارتفعت غالبية

المبانى إلى طابقين ، وهى مبنية من الحجارة المرجانية اللون والجبس . وهذه البيوت الخاصة التى تم بناؤها حملت طابع بومباى ، وهذا ليس بالأمر المثير للدهشة إذ أن الهند كانت هى المكان الذى يتوجه إليه أصحاب تلك البيوت الخاصة للاستشفاء وطلب الراحة .

وفى تلك الأيام وقبل بناء الطرق المعبدة ، كان البحر يتاخم المدينة ولم يكن هناك سوى ممر ضيق فقط يفصل البيوت عن شاطئ البحر . واليوم تتغير حدود المدينة من عام لآخر ، إذ تم زيادة رقعة الأراضى الساحلية بواسطة عمليات رفع الرمال من قاع البحر . وهكذا تتكون أرض جديدة للتنمية . وتختفى الصفة المميزة للمدينة بوصفها ميناء بالرغم من أن المرء لايزال يرى رجال البحر العمانيين بعماماتهم المتأرجحة حول « باب البحرين » ويمكن مشاهدة المراكب الشراعية من مسافة بعيدة وهى تتقدم فى هدوء عبر البحر الضحل وتم تركيب محركات بحرية لها باهظة التكاليف مما زاد من قوتها .

وفى محرق نجد نفس الشئ ، فالبيوت التى كانت تقع فى وقت ما على حدود خط المد مباشرة ، تبعد الآن عن البحر بمئات الياردات ، وقد وسعت الكراكات الهولندية من مساحة الأرض التابعة للمجلس البلدى فى المدينة بنحو ٣٠ فى المائة . وهذا النظام المتمثل فى إيجاد أرض جديدة يعد بمثابة سلاح فى أيدى الحكومة تستخدمه فى محاولاتها الرامية إلى الحد من التضخم . إذ ارتفعت قيمة الأرض فى المدينة القائمة حالياً كنتيجة لضغوط الشركات التجارية الجديدة التى تتدفق على الجزيرة وتحاول الحصول على تصاريح لإقامة مكاتب لها ولتوفير الراحة لأعضائها . وبدأت عملية البناء تزدهر فى مستهل السبعينيات وقامت شركات خاصة بتمويلها ويشترك فيها عدد كبير من عائلات التجار الأثرياء غير أنه يطرح الأراضى المستصلحة لإقامة مشروعات للتنمية بسعر أقل بنحو ٩٠ فى المائة من مستوى السوق فإن الحكومة بذلك تكون قد أحبطت احتكار تلك العائلات تقريباً لمشروعات تنمية المدينة الحديثة .

وبدلا من تداول أراضى المدينة ، بكل مشاكلها الملازمة لها وما يصاحب

ذلك من مشاكل ممثلة فى طوائف ممزقة وهدم وتغيير الاستغلال ، فإن استراتيجية الحكومة تبدو أنها تحبذ تنمية مدينة جديدة على أساس من استصلاح الأراضى وتوضح الخرائط المعدة مشروعات تخطيط الطرق ، وملتقى الطرق على المنطقة التى لا تزال مياه ضحلة . وسوف يتم سد وتغطية الفجوات الممتدة على الساحل ، ومن ثم فإن جانب المدينة المواجهة للبحر سوف يخطو خطوة عملاقة إلى الأمام تاركاً وراءه الأسواق العتيقة المهملة والأحياء الفقيرة المتهدمة .

وتعد البحرين مركزاً تجارياً ، والمدخل التقليدى للوصول إلى أسواق شرق الجزيرة العربية بالرغم من أنها قد فقدت تلك الميزة بتنمية موانى السعودية فى جبيل والدمام ونمو دبى .

والبحرين دولة صغيرة تبلغ مساحتها ٢٢٥ ميلا مربعاً تحكمها عائلة متوارثة من الشيوخ . والجزيرة الرئيسية فى البحرين هى عوال ويبلغ طولها نحو ثلاثين ميلا ويمتد عرضها عشرة أميال عند أوسع نقاط لها . والمنامة هى عاصمتها وتقع فى طرفها الشمالى . والدولة عبارة عن مجموعة من أرخبيلات وثانى أكبر جزيرة هى محرق ويربطها بعوال طريق معبد يمتد إلى مسافة ميل ونصف الميل . وفى محرق يوجد المطار الدولى وهو معد لاستقبال طائرات الجامبو النفاثة والكونكورد وطائرات شركة طيران الخليج وهى شركة مستقرة يمتلكها اتحاد مالى يضم دول الخليج الأدنى وتخدم المنطقة بالقيام برحلات منتظمة لنقل الركاب والبضائع .

وفى الماضى ساعد وجود ينابيع المياه العذبة التى تتدفق بعيداً عن الشاطئ لتزويد السفن بمياه الشرب على جعل الجزيرة ميناء طبيعياً يشجع على زيارة ذلك الساحل القاحل ، كما ساعدت الينابيع الأخرى فى الداخل والتى تتدفق بصورة غامضة وتكون بركاً عميقة ، ساعدت على تنمية نظام الرى والزراعة علاوة على ازدهار حدائق نخيل قيمة . غير أن السكان اليوم لا يكترثون بسبل الراحة المحلية هذه ، وأضحى من الضرورى إقامة مصانع للتخلص من ملوحة مياه البحر لمسايرة المتطلبات الحديثة لتوفير المياه العذبة للمناطق المحلية .

ولاتزال مظاهر الماضى البسيطة متبقية ممثلة فى ارتداء النساء الحجاب الأسود والقرى المبنية من الطين والماشية والحمير البيضاء ، ومصائد الأسماك غير أنها الآن أقل من كونها صورة رائعة تستحق البقاء . ويذهب كافة الأطفال إلى المدارس ، وهناك العيادات الطبية وأتوبيسات القرية ، ويبتعد الشباب ، بصورة مطردة ، عن نطاق الوجود القروى .

وترأس الدولة عائلة خليفة ، التى تأسست فى البحرين عقب غزو عام ١٧٨٢ . والحاكم أو الأمير الحالى هو عاشر حاكم على التوالى ويتولى الحكم بالوراثة وفقاً لمرسوم مباشر ، وتساعده حكومة يتكون ثلثها من الأقارب والثلثان الباقيان من مواطنين .

وأحد أشقاء الأمير يتولى منصب رئيس الوزراء والآخر من أصحاب الأراضى ويعيش حياة خاصة . والوريث المحتمل هو وزير الدفاع ويتولى الأعضاء الآخرون فى العائلة عدة مناصب وزارية أو فى مجالس البلدية . وليس هناك من بين أولئك الأعضاء الذين يعملون بنشاط من هو طاعن فى السن . والحاكم نفسه فى بداية الأربعينات ، ورئيس وزرائه أصغر منه بعامين . ويجدون متعة حيوية فى إدارة شئون دولتهم ويقسمون فيما بينهم جوانب العمل الفعلية والجوانب المظهرية الخاصة بالاحتفالات ، ويتولى الأمير الجانب الأخير ، ويعقد مجالس مفتوحة — أو محاكم — لعدة ساعات كل أسبوع حيث يكون من السهل على أى فرد الوصول إليه وتقديم التماس له . وتماثل مجالسه هذه مجالس مشابهة تعقدها زوجته الشيخة حصة مرة أو مرتين فى الأسبوع وبالرغم من أنه من الناحية النظرية يكون فى وسع المرأة تقديم التماس للحاكم فإنه فى المجتمع العربى المنعزل من الناحية التقليدية يجد الغالبية أنه من الأسهل الاتصال بالحاكم عن طريق زوجته .

وتتم تلك الجوانب التقليدية الاحتفالية المظهر لحياة القصر فى رفاعة حيث يعيش غالبية أبناء خليفة وحيث يقع قصر الحاكم . هناك فى الصحراء على بعد نحو خمسة عشر ميلا من المنامة شاع وجود أفضل ينابيع مياه الشرب فى الجزيرة . وهناك استقرت عائلة خليفة نهائياً عقب غزوهم

الجزيرة ، بالرغم من أن بعض أعضاء العائلة لايزالون يعيشون فى محرق ، إذ كانت هى العاصمة إبان القرن الثامن عشر ، حيث عاش الجد الأكبر للحاكم الحالى عندما تقاعد فى السنوات الأولى من القرن الحالى .

ويرجع أصل عائلة خليفة إلى العرب من وسط شبه الجزيرة العربية الذين يتفاخرون بسلالتهم العربية الصرفة التى حافظوا عليها بالحرص على أن تتزوج نساؤهم من داخل عشيرتهم . وقد احتفظوا ببعض أساليب حياتهم الصحراوية السالفة فى حياتهم الحديثة ، إذ يخرجون فى رحلات إلى الصحراء فى الربيع يصحبون معهم الصقور وكلاب الصيد والجياد التى حرصوا على الاحتفاظ بسلالتها مثلما حافظوا على أنسابهم . وأسفل الجرف الذى تقع عليه رفاعه تمتد الصحراء إلى مسافة بعيدة ، وتقع فيها الأماكن المتهدمة أو المغلقة التى عاشت فيها الأجيال الأولى والتى تتناثر على نحو عشوائى على الرمال الجرداء وتحيطها أحياناً أدغال غير كثيفة من الأشجار الشائكة، وغالباً ما تبرز فى تحد على الأرض القاحلة كخيم متناثر شاسع فى الصحراء . وهنا يفضل بعض أعضاء العائلة الأكبر سناً الحضور فى بعض الأحيان كى يمضوا اليوم برفقة الخدم والأتباع وسلالة الزنوج والعبيد العباسيين الذين كانوا يشكلون جانباً هاماً فى حياة أية عائلة تحظى بالاحترام . غير أن أعضاء العائلة من الشباب لا يأتون كثيرا لإلقاء نظرة على مخلفات الماضى هذه . ويعيشون فى بيوت خاصة حديثة مكيفة الهواء تضم حمامات سباحة وحوائط تحجبهم عن الأنظار . أن انتشار نباتات الظل وأشجار الطرفاء ، والطرق التى تزينها النباتات ذات الأزهار المعطرة والشجيرات المتشابكة الأغصان والحدائق التى تذكرنا بشمالى الهند وفى الشتاء تجعل من رفاعه واحة بهيجة ، بعيدة عن فوضى زحام المنامة ، ويقف الخدم والطفيليون يتناقلون الأسرار فى الظلال وترى قطعان الماشية والخيول الأنيقة التى تقف بتراخى فى حظائرها المفتحة الجوانب تنزع برقة النواة من البلح الذى تتغذى عليه . وكل ذلك يعطى انطباعاً بحياة الفراغ التى يحياها شخص أرستقراطى يشترك بصورة هامشية فى إدارة مزرعته .

وذلك الانطباع خاطئ . إذ أن المجتمع فى البحرين معقد وينقسم إلى كيانات منفصلة فى مناطق يسودها تمزق كامن من ناحية الجنس والدين : وذلك أن السكان الأصليين لجزر البحرانيين ، من الشيعة المسلمين ويقطنون القرى ومناطق فى المنامة ، ويمارسون الزراعة وصيد الأسماك ، وهم من الناحية التقليدية أقل جشعاً وميلا للقرصنة من جيرانهم الذين يقطنون الساحل العربى . ويرجع ذلك لما تتمتع به جزيرتهم من خصوبة أكبر ووفرة اقتصادية. وفوق تلك القاعدة العريضة من الشيعة المسلمين يوجد المسلمون السنيون الأرستقراطيون ، الذين يتركزون فى عائلة آل خليفة وأتباعهم والذين وفدوا فى القرن الثامن عشروزاد عددهم بصورة كبيرة فى القرن التالى بوفود من السنيين العرب واستقرارهم فى البحرين كتجار لؤلؤ وشكلوا طائفة تجارية ذات شأن تخضع لسيطرة آل خليفة الذين يهيمنون على الأرض .

وفى الماضى كانت تقطن على جانبى الخليج قبائل عربية وسكان من إيران ومن شبه الجزيرة العربية أيضاً . ولم يعمل الإيرانيون الذين يقطنون بالداخل فى البحر على الإطلاق وكانوا يعتمدون على العرب فى تلك المناطق الساحلية لإدارة سفنهم . وكانت جزر البحرين يحكمها إبان فترة استيلاء آل خليفة عليها عرب يقوم بتعيينهم ويعترف بهم حاكم إيران من عاصمته فى شيراز . وكان يتم أيضاً تعيين سلطان مسقط كما فعل العثمانيون فى الشمال لحماية مرسى مصايد اللؤلؤ المربحة .

وفى براعة ودهاء تلاعب الخليفة على الجانبين مستخدماً أحدهما ضد الآخر رافعاً راية من يوعده أكثر . ومن خلال سياسة الانفتاح الاقتصادى وحرية التجارة وقبوله أصلا وجود قوة بحرية بريطانية للمحافظة على السلام ، فإنه بذلك ساعد فى تطوير المجتمع مع حلول عام ١٨٧٠ بحيث أصبح مجتمعاً تجارياً مستقراً يهيمن على صناعة اللؤلؤ فى الخليج . وكانت أغنى الشواطئ الزاخرة باللؤلؤ لا تبعد عن البحرين سوى أقل من رحلة بحرية ليلية وذلك هو السبب الذى دفع آل خليفة إلى غزو البحرين من مقرهم فى قطر ، كما حدث فيما مضى فى القرن السادس عشر عندما دفع نفس السبب البرتغاليين إلى الاستيلاء على الجزر واحتلالها .

وتستتب الوضع الداخلى الذى حققه ذكاء الخليفة بصفة خاصة للدولة وفقاً لمعاهدة مع البريطانيين كفلت حمايتهم له ، الأمر الذى جلب إلى الجزر السنيين القادمين من الجانب الإيرانى للخليج الذين شعروا بأمان وهم فى وسط شركائهم فى الدين أكثر من كونهم بين مواطنيهم من الشيعة وهناك الآن نحو ٣٠,٠٠٠ من السكان ذوى أصل إيرانى ويقطنون ضاحية عوازر فى المنامة ومن بينهم عدد كبير من كبار العائلات التجارية فى الجزيرة . وجميعهم الآن بحرانيون ، إذ أن فترة استقرار السكان على مدى ثلاثة أجيال كافية كى يصبحوا مواطنين من أهل البلد . غير أنهم يحتفظون بهويتهم الثقافية فى المدارس ومن خلال استخدام اللغة الفارسية فى منازلهم ويحتفظون بها فى بعض الأحيان من خلال المحافظة على روابطهم العائلية فى إقليمهم الأصلى . والملاحظة التى تشير إلى أن جميع التجار فى شبه الجزيرة العربية من الإيرانيين تفسر بصورة ضاحكة التحرك التقليدى للتجارة فى منطقة الخليج .

وقبل تدفق ثروة البترول وظهور مزايا الخيرات الوفيرة الهائلة التى أصبحت حقاً شرعياً لمواطنى الدول المنتجة ، كانت التساؤلات تدور حول قناة التطلع والافتقار إلى الهوية الوطنية عما هو عليه الآن . وقد انتقل التجار من جانب إلى آخر فى الخليج وعبروا شبه الجزيرة العربية أو اتجهوا شمالا نحو العراق . أى حيثما كانت ظروف التجارة مواتية والضغوط السياسية أقل . وأرسلت العائلات أبناءها وأشقاءها وأبناء الأخوة لفتح محال تجارية أو إدارة توكيلات فى موانى مداخل الخليج ، كما فعلت العائلات اليهودية فى الغرب إذ وطدت أقدام أفرادها فى شتى أرجاء العواصم الأوروبية وأنشأت شبكة من المعاملات المصرفية والروابط التجارية التى تمخضت عنها الثروات الهائلة .

والبحرين بموقعها كجزيرة ، تتمتع بالأمن ضد القبائل المغيرة التى ترتكز فى الصحراء وبسياستها المالية التى تحبذ التجارة ولقد بزغت فى القرن الماضى كميناء تجارى بارز فى شرق ووسط الجزيرة العربية . ونظراً لاستتباب أمن الخطوط البحرية التى كانت فى مأمن من القرصنة ، والفضل فى ذلك

راجع إلى دوريات البحرية البريطانية ونظراً لموقعها كميناء هام فإن الجزيرة ازدهرت وسيطر سكانها التجار على صناعة اللؤلؤ التى استمرت حتى اندثرت الصناعة ذاتها .

وكان نحو ٩٠ فى المائة من لؤلؤ الخليج يمر عبر البحرين . وفى عام ١٨٣٣ وهو زمن أسبق على ما سجلته التقارير الحالية ، تردد أن دخل البحرين وحدها من اللؤلؤ ٢٠٠,٠٠٠ جنيه إسترلينى و ٢٤٠,٠٠٠ جنيه استرلينى فى حين بلغت القيمة الكلية لصيد الخليج بأسره فى ذلك العام ٣٠٠,٠٠٠ جنيه استرلينى . وفى عام ١٨٩٦ قدر المبشر الأمريكى زويمر أن حصة البحرين بلغت قيمتها ٣٠٣,٩٤١ جنيها استرلينياً غير أنه مع حلول العشرينات ظهرت دلائل تنذر بتدهور صناعة اللؤلؤ . وعقب الحرب العالمية الثانية كانت تلك الصناعة لا تزال مستمرة ولكن بمعدل أقل كما هى عليه اليوم فى الواقع : ولم يعد المرء يتذكر عصر إدوارد المزدهر عندما لم تكن هناك أية امرأة تتظاهر بانتمائها إلى طبقة اجتماعية مميزة دون ارتداء ثيابها الطويلة المزدانة باللآلىء .

وقد تم وضع ترتيبات تكفل تنظيم الصناعة فى الخليج وتوجهها على نحو دقيق وفقاً لاتفاقيات أبرمت بين القبائل المشتركة . إذ ارتبط أسطول صيد اللؤلؤ بأسره معاً ، ويبحر وفقاً لموعد متفق عليه ويتقدم إلى الشواطئ كوحدة واحدة .ويتحرك أسطول الكويت جنوب الساحل فى حين يتحرك أسطول البحرين شمالا . وتسير زوارق الإمارات المتحدة على طول الساحل إلى مسافة أربعمائة ميل من رأس الخيمة إلى قطر ، فى حين لا تذهب زوارق عمان قط إلى أبعد من جزيرة هليل فى الشمال التى تقع بالقرب من نتوء قطر ؛ وعادة ما كانت تعمل الزوارق الأصغر بالقرب من موانيها المحلية وذلك كى تتمكن من الرسو إذا ما هبت عاصفة من الشمال ، غير أن زوارق الكويت والبحرين الكبيرة تظل فى قاعدتها وتقاوم العاصفة . ويتغير إنتاج قواقع اللؤلؤ على فترات . ففى بعض الأحيان تقدم محصولا وفيرا وقيما من اللؤلؤ وفى أحيان أخرى لا تقدم شيئاً . وفى بعض الأحيان يكون الساحل عقيما

لعدة أسباب وفجأة يقدم أكبر كمية من اللؤلؤ . ولم ترسم خريطة لأى من ضفاف الخليج . إذ كان لكل قبطان معلوماته ونظرياته الخاصة به وأسراره التجارية ، التى كانت تتوارث فى العائلات . ويعتقد العرب أن أنقى وأكثف أنواع اللؤلؤ يحصل عليه من المياه العميقة ومن ثم فإن المياه الضحلة تقدم لؤلؤاً أقل كثافة وأخف لوناً .

وكانت هناك ضرورة قاسية لتلك الصناعة . وأقل من ثلث الكمية التى يتم اصطيادها لم تكن تحتوى على أى لآلئ إذ كانت غالبيتها بمثابة بلور لؤلؤ . وربما لا تقدم عمليات الصيد فى الخليج بأسره أكثر من عقدين من أرقى الأنواع فى موسم واحد .

ويتم العثور على القواقع التى تحمل اللؤلؤ فى غالبية أجزاء الخليج فى أعماق متفاوتة تبدأ من أسفل المد المنخفض مباشرة إلى مسافة عشرين قدماً ، وعلى الجانب الإيرانى للخليج فإن القاع ينخفض بسرعة إلى خمسين قدماً ، غير أنه على الجانب العربى فإنه ينخفض تدريجياً ومن ثم فإن هناك مناطق مكثفة فى حدود عشرين قدماً . وتأتى كميات قليلة من اللؤلؤ ، ولكنها نقية ، من أعماق بوشير ولنجة ، غير أن أكثر المناطق إنتاجاً هى تلك التى تقع شمال وشرق البحرين ، إذ أن جزءاً من ساحل اللؤلؤ يمتد مسافة سبعمائة ميل من رأس الخيمة إلى رأس مشعب ، التى تقع جنوب الكويت ، وغالبية تلك المنطقة يصل عمقها إلى ما بين ٣٠ و ٦٠ قدماً .

وفى فترة العصور الوسطى كان العرب الذين يقطنون جفوف هم الذين يسيطرون على عمليات صيد اللؤلؤ فى البحرين . وقبل إجراء عمليات رفع الرمال من قاع البحروإعادة تشكيل الشريط الساحلى كانت هناك أكوام هائلة من أصداف القواقع ، بعضها يصل طوله إلى مائة ياردة ، تمتد على طول الشاطئ على بعد ميل جنوب الخوبر ، التى تقع على الساحل المواجه للبحرين ، وبين منطقة جبيل ورأس تنورة ، هناك أكوام أخرى من الأصداف ،

أكثر قدما ، يتكون بعضها من قواقع كبيرة ومسطحة ، ومن أنواع أخرى يتم العثور عليها اليوم من وقت لآخر .

ترى هل استنفد الخليج ثروة اللؤلؤ ، فى عصرنا هذا ، عقب كل تلك القرون ؟ حقاً أنه فى عام ١٩٤٧ قدر أن البحرين لم تعد تنتج النسبة العظمى من اللؤلؤ ، إذ بلغ نصيبها الكلى ٣٥ فى المائة فحسب ، وحقق التوازن ساحل الإمارات المتحدة والكويت .

وقد نشأت صناعة زراعة وإنتاج اللؤلؤ اليابانية فى العشرينات . وسارع الكساد والذى ألم بالصناعة إبان الثلاثينيات من تدهورها ومع حلول الخمسينيات انخفض دخل الصناعة إلى عشر ما كانت عليه منذ خمسة وعشرين عاماً سابقة .

وربما يتمثل العامل الحاسم لانهيار صناعة اللؤلؤ فى ظهور مصدر بديل للعمل . إذ أنها كانت عملا جائرا للغاية بحيث لم يكن من الممكن أن تستمر فى تقديم أى شئ أفضل لمن يقومون به .

وكانت باريس هى مركز السوق الدولى لتجارة اللؤلؤ ، إذ أن أرقى وأفضل الأنواع كانت تجد طريقها هناك . وفى الخليج ، كانت البحرين تعد دار مقاصة يصدر منها اللؤلؤ إلى بومباى ، التى تعد دار المقاصة الآسيوية الكبرى ، أو يقوم المشترون الفرنسيون والأمريكيون بشرائه من الجزيرة حيث يعدون كل موسم لذلك الغرض .

وكان تجار البحرين يعملون كوسطاء . إذ عن طريقهم يتم بيع الغالبية العظمى من لؤلؤ الخليج إلى بومباى . وغالباً ما يقوم السماسرة البحرانيون بشراء كل حصة الساحل وكانوا ينطلقون من الأساطيل بزوارقهم البخارية على أمل أن يحصلوا على أفضل أنواع اللؤلؤ قبل أن يتمكن منافس آخر من التدخل لفرض السعر .

وكان من مسئولية القبطان التفاوض على الصفقة ، ويشهد عليه من يعملون معه ، واتسمت معاملات هؤلاء الرجال بعضهم مع البعض الآخر

بدرجة عالية من الأمانة . غير أن السعر الذى يحصلون عليه من السمسار كان بمثابة نسبة فقط مما قد يصل إليه سعر اللؤلؤ فى نهاية الأمر ، كما هو الحال بالنسبة للؤلؤ الخليج الذى اشترته فى النهاية وريثة وولورث وتدعى بربارا هاتون بسعر ٧٥٠,٠٠٠ دولار وكان يباع أصلاً بسعر ٣٠,٠٠٠ دولار .

وغالباً ما علق المراقبون الأجانب على المقارنة بين أولئك الأشخاص المرتجفين العراة الذين يستقلون الزوارق وبين السماسرة معسولى اللسان الذين يركبون زوارقهم البخارية الأنيقة الصغيرة وهم مزودون بالطعام الطازج ومعهم الخدم الذين يعدون لهم الشاى والمرطبات . ويرجع التغيير فى الموضة — الأزياء — دون جدال إلى قلة فى الطلب .. إذ حل البلاستيك محل اللؤلؤ فى صناعة الأزرار العالمية وتضاءل الطلب على « الأصداف » النادرة ، وبعد عام ١٩٤٧ خبت روعة وفخامة الأمراء الهنود ، ولم يعد لذلك السوق وجود فيما يتعلق بالمبيعات الضخمة ، بالرغم من استمرار الطلب على اللؤلؤ لتزيين الأساور والأقراط بين تجار الجواهر الهنود الذين لا تزال مهنتهم تشكل العنصر الرئيسى فى صداق المرأة بين كافة الأجناس المألوفة فى الخليج . وتستخدم بذور اللؤلؤ كمادة لإثارة الشهوة الجنسية ، إذ تضاف إلى أكثر أنواع أوراق شجر التبول باهظة الثمن ، وهى عبارة عن ورقة خضراء ملفوفة بمضغها الهنود . ومنظر البصاق الأحمر القبيح يعطى للمناطق التى يعيشون فيها مظهر حجرة عمليات طبيب أسنان حيث تتناثر أوراق التبول التى تم مضغها وهى مشربة بالدماء فى كل مكان .

ومثل ذلك المجتمع الصارم الخالى من المشاعر ، حقق قطاع واحد منه ، وهو قطاع التجار ، تفوقاً مالياً متقدماً على جماهير السكان ، وكانت صناعة البترول بمثابة مؤشر للانهيار الوشيك لنظامهم ، مقروناً بعدم الشعور أو الإحساس أو الندم على أولئك الذين اتخلوا هذه الصناعة كوسيلة للاستغلال وقد حصلت طائفة التجار على المكانة الهامة والسلطة والنفوذ بصورة لا تتناسب

مع عددهم الحقيقى . ونظراً لعدم وجود بديل آخر للدخل فإن كافة سبل التنمية كانت تكمن فى يدهم ، وخلقوا طبقة حاكمة دائمة ترتكز على احتكار رأس المال .

ويدور جزء كبير من تاريخ البحرين الداخلى حول قدرة عائلة آل خليفة على تحقيق توازن فعال بين مهارات طائفة التجار التى تدر الثروات وبين احتياجات ومطامح بقية السكان . وللتجار ، سواء من السنيين أو الشيعة أو الشيعة أو العرب أو الإيرانيين مجموعة من المصالح تتجاوز انقساماتهم الاجتماعية . ويمكن تتبع أية اختلافات ثقافية من خلال أسلوبهم فى الزواج فحسب .

وأدى انهيار صناعة اللؤلؤ فى الثلاثينيات إلى التخلص من هذا التسلط والتفوق والسطوة إذ لم يفقد عدد كبير من تجار اللؤلؤ سبل عيشهم فحسب ، وإنما فقدوا أيضاً رأس مالهم . ويرجع السبب فى رسوخ ذلك النظام لفترة طويلة وبقاء أتباعهم فى حالة من العبودية الاقتصادية وربطهم بما هو فى غير صالحهم إلى أن جزءاً كبيرا من رأس مالهم كان ينفق فى شكل قروض يتعذر تغطيتها من رجال أصبحوا عاطلين نظراً لقلة الطلب على اللؤلؤ .

وقد اندثر عدد كبير من العائلات الثرية ، أو تضاءلت إلى حد كبير نتيجة لذلك الحظ العاثر ، وانهارت خمس أو ست عائلات فى البحرين كلية وانزوت فى غموض نسبى . غير أن العائلات الأخرى ظلت مستمرة عن طريق إعادة توزيع طاقاتها بتقديم خدمات مجزأة للأجانب الذين جلبتهم صناعة البترول الجديدة إلى الجزيرة ومن أولئك ينبثق الجيل الحالى من عائلات التجار البارزين فى الجزيرة .

وهذا الإطار ليس قاصراً على البحرين وحدها ولكنه يظهر فيها بصورة أكثر وضوحاً مما هو عليه فى الدول الأخرى ، ويرجع السبب فى ذلك إلى حالة الاستقرار الكبرى التى يتمتع بها شعبها نظراً لأن شواطئه تحميها طرادات بحرية بريطانية مرابطة فى الخليج وفقاً للمعاهدة العامة التى أبرمت عام ١٨٢٠ . ولم تشارك أى من الكويت أو البحرين فى عمليات القرصنة المنظمة وعلى

نطاق واسع فى الخليج الأدنى . ولما تم تحذير البحرين فى وقت سابق من السماح بإحضار العبيد إلى أسواقها لبيعهم من قبل الشيخ المخلوع محمد بن خليفة فى عام ١٨٦٧ قبل البحرانيون حقيقة الوجود البريطانى فى حياتهم ، وهو الأمر الذى حولوه إلى صالحهم . واستقر أول مندوب سامى بريطانى فى الجزيرة عام ١٩٠٢ ، وفى عام ١٩٤٧ انتقل المندوب السامى البريطانى فى الخليج بأعضاء مكتبه من بوشير إلى البحرين واستقر فى الجزيرة .

وفى البحرين عشر أو اثنتا عشرة عائلة من عائلات التجار البارزين غير أنه من المعترف به بصفة عامة أن العائلات الخمس الكبرى ، التى تحظى كما هو معروف بالاحترام ، هى عائلات : كانو وموعـسير باتيم الزيانى والفاطر . ويشرفون فيما بينهم على التوكيلات الرئيسية ويمتلكون عقارات كثيرة فى المنامة ومحرق ، علاوة على ضيعاتهم . وجميعهم من المسلمين السنيين وينحدرون من سلالة طبقة تجار اللؤلؤ الأرستقراطية والملاك الذين شكلوا صفوة المجتمع التقليدى .

ويضاف إلى مجموعة تلك العائلات الأصيلة ذات النفوذ القوى عائلات أخرى مثل عائلة اسحق وهم من الإيرانيون الذين أدخل أبوهم صناعة الفنادق فى الجزيرة ببناء فندق سبيد بيرد القديم ، وكان بمثابة استراحة لأطقم شركة خطوط الطيران البريطانية الملكية والذى يمتلك أبناؤه الآن فندق هيلتون ، وبرزوا فى الكويت والبحرين فى دوائر المصارف والبنوك . ولتلك العائلة أيضاً أعمال متعلقة باللؤلؤ والاشتغال فى استيراد المنسوجات غير أنهم اتجهوا إلى امتلاك العقارات فى العشرينات والآن يملكون مجمعات من الضيعات البالغة القيمة .

وعائلة على رضا هى عائلة أخرى من أصل إيرانى ، ومؤسس الأعمال التجارية هو يوسف أكبر على رضا الذى انتقل من لينجه ، موطن رأسه التى تقع على الساحل الإيرانى ، إلى البحرين عام ١٩١٢ ، حيث أقام أعماله كتاجر عام ووكيل لمنتجات شركة بترول الأنجلو إيرانية ، وكون ثروة من تجارة الروائح . واشترك معه فى إدارة ذلك العمل ، الذى يتفاوت بين

تقديم خدمات صناعية ومصرفية ، أبناؤه الثلاثة الذين أنجبهم من زواجه الأول ، غير أن ذلك جانب واحد فحسب من تاريخ عائلة تأسست فى إقليم فارس بإيران خلال عام ١٨٢٠ ، وتركزت جهودها الرئيسية الآن فى السعودية والكويت .

وبالرغم من أن تعدد الزوجات قد توقف بصورة فعلية ، فإن الافتقار إلى التسهيلات الطبية فى السنوات الأولى من هذا القرن ، قد أسفر عن ارتفاع معدل الوفاة بين النساء وبالتالى كان الرجال يتزوجون مرة أخرى ، وتعد العائلات بمثابة جماعة متسعة النطاق بدلا من كونها نطاقاً محدوداً ، كما أن وجود عدد كبير من الأطفال المنحدرين من عدد من الزوجات جعل من العسير تتبع العلاقات فى مجتمع يكون فيه الأعمام والأخوال والعمات والخالات من نفس سن أبناء الأم والأخت تقريباً .

واليوم فإن فتيات تلك العائلات الثرية يتوقعن الزواج عندما يبلغن الثامنة عشرة ، أو حتى بعد ذلك إذا كن يدرسن بالخارج . غير أن أمهاتهن تزوجن فى الخامسة عشر أو السادسة عشر وأصبحن جدات قبل أن يبلغن سن اليأس تقريباً . ويؤيد المجتمع تفضيل الزواج من بين أبناء العم ، إذ يحتم الواجب على الشاب أن يتقدم لخطبة ابنة عمه وهذا يدعم من تماسك العائلات ، ويحد من التغييرات المحدودة التى يسمحون لأنفسهم بإجرائها فى تقاليد الزواج . وتنتمى عائلة المؤيد فى الحقيقة إلى عائلة كانو ، إذ أن الجيل الحاكم لكلا العائلتين يشترك فى الجد الأكبر — ويرجع لقب المؤيد الراهن إلى والد يوسف المؤيد ، وقد أخذ ذلك الاسم من اسم صحيفته المفضلة ، إذ أن اختلاط البريد الدائم بين إسمه واسم ابن عمه أرهقه ولكبريائه الجريح تخلى عن اسم كانو وحمل اسم صحيفة تحظى بشعبية — « بمشيئة الله » وهو اسم دينى مستعار من ذلك النوع المحبذ كثيراً فى الأدب العربى .

وكان يوسف المؤيد ، مؤسس الأعمال التجارية الراهنة ، هو الطفل الخامس فى عائلة تضم اثنين وخمسين طفلا . إذ تزوج والده خليلى تاجر اللؤلؤ ، عشر زوجات توفيت خمس منهن . وطلقت واحدة منهن ، وهى آخر زوجاته

العراقية وكانت تبلغ من العمر ستة عشر عاماً تزوجها فى عامه الخامس والستين كى يكمل نصيبه فى الزواج من أربع زوجات الحد المسموح به ، وأنجب منها خمسة أطفال قبل وفاته .

ومثل تلك الإنجازات الأبوية يشار إليها الآن بوصفها ماضى بطولى وكان الاقتران بزوجة واحدة طوال الحياة هو القاعدة العامة ، مالم تتوقف ، أو يحدث طلاق — وهو أمر نادر — أو يقع أى شىء غير متوقع . ويبلغ عدد سلالة خليل المؤيد الآن ٢٧٤ فرداً وإذا أضيف إليهم سلالة كانوا فإن المجموع الكلى للعشيرة يكون نحو ٤٥٠ فرداً .

وسلالة كانوا أنفسهم ، المعترف بهم بصفة عامة بأنهم من أشهر البيوت التجارية وأغنى وأهم عائلة فى الجزيرة ، يشكلون عشيرة عديدة أخرى . وقد تأسست تجارتهم خلال عام ١٨٨٠ على يد عمهم الأكبر أحمد كانو ، وظل ذلك العم حتى عام ١٩٠٠ تقريباً يعمل وسيطاً فى تجارة اللؤلؤ . ولم يكن قد أسست فى تلك الفترة بنوك فى الجزيرة ، إلا أن التجار الأجانب ، الفرنسيين والهنود والأمريكيين ، الذين يفدون إلى الجزيرة كل موسم ، كانوا يشعرون بالابتهاج لاستغلال الخزانة التى قدمتها لهم عائلة كانو فى منزلها للحفاظ على أموالهم السائلة التى كانت تضم روبيات فضية وبتقديم تلك التسهيلات أرسى يوسف ابن أحمد كانو فى الخارج قواعد من الالتزامات والنوايا الطيبة الأمر الذى أفاده فى وقت لاحق عندما توسع فى التجارة وحصل على توكيل خط فرانك ستريك للبصرة وهو خط التجارة الوحيد المباشر مع أوروبا . ومع حلول الثلاثينات ازداد حجم التجارة على نحو يكفى لتشغيل موظف هندى لكتابة الخطابات باللغة الإنجليزية ، وخضعت التجارة لتوجيه وإشراف ابنى شقيقه ، على وجاسم كانو وهم آباء الجيل الراهن من الشركاء الذين يديرون هذه الأعمال. ويعمل لديهم الآن ألفان وخمسمائة شخص و ٨٢ فى المائة منهم من الموظفين المحليين فى شبه الجزيرة العربية .

وأبناء على وجاسم كانو ، ومعهم سبعة من أبناء عمومتهم ، هم أول بيت تجارى فى الجزيرة يحول العلاقات العائلية إلى شركة قانونية محدودة . وذلك

مافعلوه فى عام ١٩٦٦ بناء على امتياز منحه أمير البحرين ، الذى تكهن بقدوم اليوم الذى يؤدى فيه التوسع فى الأعمال إلى السيطرة عن كثب على العائلة ، وعلى الأعمال المحلية بصفة عامة ، وذلك افتراض غير عملى وغير سهل .

ومما دعم من وحدة المصالح بين الشركاء الحقيقة المتمثلة فى أن كل شاب كان يتزوج ابنة عمه الأولى ، ومن ثم يتم المحافظة على رأس مال العائلة فى أمان داخل مجموعة واحدة . وتلك الرابطة قوية ومحكمة للغاية إلى حد أنه منذ بضع سنوات حصلت إحدى بنات على على الطلاق من زوجها كى تتمكن من الزواج من شخص من اختيارها ، وهو شريك آخر ، وتم تسوية ذلك الموقف الصعب بهدوء دون أن يفقد رباط التماسك أو يجرح كبرياء أحد .

ويخيم جو من الاعتدال والرصانة والهدوء غير المتسرع على تلك الأعمال الثابتة منذ أمد بعيد . وربما لم يعد صاحب العمل يعيش فوق المحل ، بل انتقل إلى بيت خاص حديث مكيف الهواء يقع فى الضواحى ، غير أن مكتبه لايزال هو مركز وجوده جزءاً ضرورياً لأى عمل ينبغى إنجازه .

ويجلس عبد الرحمن فخرو خلف مكتب كبير فى حجرة باردة معتمة على يسارك عندما تدخل من الشارع المزدحم ، حيث تقف سيارته ماركة بويك الرمادية اللون ، والتى يقودها بنفسه ، فى منطقة الظل المواجهة لمحله محتلة مساحة كبيرة من الطريق ، وخلف حائط داخلى يوجد مكتب تحول منه المكالمات التليفونية لتوصيلها إلى مكتبه . ويظهر موظف هادىء يرتدى غطاء الرأس وعباءة ويتقدم لمراجعة وثيقة أو ليحصل على توقيع على خطاب . والمبنى عبارة عن صالة عرض فى جزء منه ، والجزء الآخر مخزن للبضائع ، وفى وسع صاحب المحل أن يعرف من نظرة واحدة وهو جالس فى مكتبه من الذى دخل المبنى أو خرج منه . وتقع مكاتب على رضا على بعد بضع ياردات من بداية الشارع ، وهى مبانى متواضعة ترتفع ثلاثة طوابق تبدو كالأقزام الآن فى مواجهة لمكتب يتيم وكانو المتطور ، الذى يقع على الجانب الآخر ، وهو متواضع أيضا . ومن مدخل جانبى هناك سلم من الرخام يصل

إلى الطابق الأول حيث توجد حجرات يخيم عليها الظلام مؤثثة بأثاث نافع ومفيد يتكون من مكاتب صلب وحجرات لحفظ الملفات. وهناك يجلس موظف يبدو عليه الوقار يرتدى غطاء الرأس، وعلى الحائط توجد صورة فوتوغرافية كبيرة لرجل مسن يرتدى عمامة حريرية إيرانية، وهى صورة مؤسس الشركة التجارية. وتوجد أيضاً مجموعة من الأثاث المكسو بالجلد الصناعى الأسود اللون ليجلس عليها الزائرون. ويعطى ذلك الجو انطباعاً بالنظام الهادىء كما أنه ليس هناك مجال للتظاهر والاستعراض وعلى العكس من ذلك، فإن يوسف المؤيد يقطن فوق محله، فى الطابق الأعلى للمبنيين اللذين شيدهما فى عام ١٩٥٦ مكان بيت جده الذى كان مقاماً من الخشب. ووضع ذلك البناء الضخم، وهو أول مبنى عال يقام فى الجزيرة، تحت رقابته الفعالة بحيث سلم من المشاكل التى تعرضت لها المبانى العالية التى أقامها الجيل التالى والتى تمثلت فى تكتلات معيبة وخاطئة. وفى داخل صالات العرض تعرض السلع من سيارات وثلاجات كهربائية، ومضخات يملك توكيل بيعها. ويجلس جيش من الموظفين، قوامه ٢٧٠ فرداً، على مكاتبهم فى الدور الأعلى، وقد اتبع فى تصميم مكتبه نظام الانفتاح الذى وصل إلى ذروته بمواجهة منظر البحر من الداخل.

ويتم إنجاز العمل فى تلك المنشآت على الملأ وبصورة متفتحة. وبعد وجود أريكة مريحة وكراسى ومنضدة للقهوة وسجادة، مهما كانت بسيطة وبعيدة عن الترف، بمثابة جزء أساسى من الأثاث حيث يمكن للأصدقاء والمعارف الحضور لتبادل الحديث أو الانتهاء من إنجاز الصفقات، ويجلس رجال من الهنود يتسمون بالأناقة كحراس خارج المكان الخاص لرئيسهم، ويحافظون على حساباته. غير أن قدراً كبيراً من العمل يتم كما يبدو دون مبالاة وعلى مرمى السمع من الجميع. وفى بعض الأحيان يتدخل من يكون جالساً فى ذلك الوقت فى المناقشة. ويجرى اتباع هذا الأسلوب الواضح فى إنجاز الأعمال لبيان أنه ليس لدى أى رجل شريف ما يخفيه، كما أن وجود مشاهدين يعد بمثابة رقيب على أخلاقيات الرجل. وأدى إنشاء المكاتب بصورة حديثة إلى إلغاء قدر كبير من هذا الأسلوب القديم، إذ بدأ يظهر صاحب المال وهو

يجلس فى عزلة فى مكتبه الخاص، وفى بعض الأحيان على نحو مقبول كما هو الحال فى عائلة كانو، إذ يجلس فى المكتب الخارجى سكرتير انجليزى الجنسية وتتميز مؤسسته بكل ما تتسم به أية مؤسسة غربية من كفاءة موضوعية.

ويرتفع عدد كبير من المنشآت الجديدة مكان المبانى التى كانت العائلة تحتلها فيما مضى، وهى المبانى التى كانت تضم مكاتب الأعمال ومعيشة كافة أعضاء العائلة. وعلى سبيل المثال فإن بيت عائلة كانو، الذى كان مبنياً بصورة غير منتظمة مكتظاً بالسكان تمت تسويته بالأرض الآن لإقامة مكتب كبير يقوم ويمبى بإنشائه للعائلة، وبالمثل قامت عائلة يتيم، بهدم منازلهم لاستغلال أماكنها فى إقامة منشآت على نطاق أوسع.

وقد ارتفعت المبانى فى المنطقة المتاخمة للسوق القديم المسقوف ومبنى الجمارك، وارتفعت على نحو شاهق بحيث لم يصبح هناك موضع لقدم، الأمر الذى أضحى محل شكوى، أضف إلى ذلك أن المبانى الجديدة الشاهقة التى حلت محل المبانى ذات الطابقين أو الطوابق الثلاثة، التى كانت سائدة خلال الثلاثينات قد ازدحمت فى الطرق الضيقة القائمة إلى حد أنها تحجب الضوء والهواء بعضها عن البعض الآخر. ويمكن استرداد تكاليف المبنى فى غضون عامين. والحصول على عائد يتراوح مابين ٣٠ فى المائة و ٤٠ فى المائة أو حتى مايفوق ذلك. ومن المألوف أن الأجنبى لايتمكن من امتلاك أرض. ويسيطر أصحاب الأراضى على مشروعات القطاع الخاص التى تعود بالفائدة العاجلة على ممتلكات عائلاتهم.

ولاتزال عائلة إسحق هى الوحيدة التى تعيش فى بيت العائلة وتحتفظ إلى حد ما بأسلوب الحياة القديمة وذلك على مساحات شاسعة من الأراضى تنفذ فيها مشروعات التنمية. وأحياناً ما يمكن مشاهدة الأب مؤسس الأسرة، وهو رجل نحيف محنى الجسم يرتدى قفطاناً تقليدياً وعمامة ذات خيوط صفراء كان يرتديها الجيل الماضى من التجار الإيرانيين، وهو يسير متلمساً طريقه ببطء فى فناء الدار فى طريقه إلى المسجد. وكان والده قد جاء إلى الجزيرة قادماً من باستاك التى تقع بالقرب من لينجه، منذ نحو مائة عام وذلك للاتجار

فى المنسوجات واللؤلؤ وأبناؤه فى سن الشباب وهم يتسمون بالأناقة ويرتدون زى العمل المهندم وقد تلقوا تعليمهم فى الهند وانجلترا ويتحدثون الإنجليزية بطلاقة .

ويستخدم جزء من فناء البيت كمخزن ، والجزء الآخر يستخدم كمدخل لمسكن الأجيال المختلفة التى تسكن المكان . وتوجد خلف البيت بقايا حديقة نخيل تحمى الدواجن والماشية التى يتولى رعايتها بستانيون تقوم العائلة بإحضارهم من الخارج . وفى جناح حديث متاخم للبيت يرتبط بالمبنى القديم عن طريق سلم وشرفات ، يقطن مزيد من أفراد العائلة ، وتعلوه شقة تطل على أحد جوانب بقايا بستان للموالح يسوده الإهمال ، وواجهة البيت تطل من بعيد على البحر التركوازى اللون من خلال فتحات فى شريط ضيق من المبانى الجديدة . وهذا الاتساع الشاسع الهادىء من الأراضى يعد الآن شيئاً من الماضى . وتتباين قيمة الأرض فى المدينة طبقاً لمشاعر الجيل السابق الذى يسمح باستمرار وجود بيوت العائلة غير المنتظمة فى الشكل بأبراجها وساحاتها التى تظللها أشجار النخيل وزهور الفاكهة حيث تشكل العائلة ومن تعولهم مجتمعاً متحداً داخل حى واحد .

وتمتلك العائلات الثرية ضيعات و « حدائق » على ساحل البحر حيث يقضون فيها عطلة نهاية الأسبوع يوم الجمعة . ويمتلك العديدون أكثر من عقار واحد إذ يملك يوسف المؤيد على سبيل المثال سبعة عقارات ، وهو ثالث أكبر صاحب أراضى فى الجزيرة . وتلك « الحدائق » ليست حدائق بالمعنى الذى تعنيه تلك الكلمة بالنسبة لنا . إذ يزرعونها بالنخيل وتمتد على مساحة عدة هكتارات من الأرض ويقوم برعايتها وريهـا رجال أذكياء من ذوى البشرة الداكنة وينسقون الأشجار كل ربيع لتقليمها وانتزاع الأغصان الجافة منها حتى يأتى الربيع وتنمو جميعها فى تناسق وترتيب ونظام . وفى ذلك الفصل يمكن مشاهدة الرجال فى المدينة وهم يحملون أعضاء التذكير فى الزهرة ويلفونها بحرص داخل ورقة النبات التى تحميه ، ويتوجهون من بيت لآخر لتلقيح الأشجار فى ساحات البيوت .

وتمثل المزارع ، وبساتينها المتراصة على نحو منتظم ، مظهر حقيقة بدائية فى عدن ، وتحد أوراقها المتضائلة من شدة حرارة أشعة الشمس الساطعة وتحولها إلى شكل من الظل على الأرض الجافة . وتحت أشجار النخيل تنمو كميات أقل من الفاكهة والمزروعات . وتقسم قنوات الرى المنطقة إلى مربعات كل مربع غنى بمزروعات نبات الفصفصة الخضراء وحدائق الخضروات . وتنمو بينها ثمار من فصيلة التفاح ، والموز والعنب ونباتات ذات زهور عطرة . وتنمو فى قنوات المياه نباتات خصبة من النعناع وعشب الريحان ذو الرائحة العطرة النفاذة الذى يتم بيعه فى سوق الخضروات مع البقدونس والشبت ، ويكون مجالا للنكات والتعليقات والتلميحات المكشوفة نظراً لأنه من الناحية التقليدية يثبت فى شعر العروس وينثر فى حجرة العروس ، ومن ثم هناك علاقة بين رائحة الريحان وفكرة المتعة الجنسية .

وتتعلق تلك الحدائق فى الأذهان بفترة استجمام أصحابها حيث يمكن أن يقضوا بها يوماً يتمتعون فيه بالألفة الأسرية أو يقضون وقتاً ممتعاً مع أصدقاء أجانب . وليس ثمة أحد يمكن أن يرفه عن نفسه خارج ذلك النطاق داخل بيته كما أن الحياة العائلية فى الأسرة ماهى إلا مجتمع أكثر تعقيداً تصونه وتحميه كافة علاقات الأسرة . ومن ثم فإن أفراد العشيرة يعتمد بعضهم على البعض الآخر تقريباً للترفية عن أنفسهم . ويزرع حسين يتيم زهوره وخضرواته بنفسه ويقوم بتطعيم زهوره ، ويلعب أفراد عائلة المؤيد التنس ويصطاد أفراد عائلة الزيانى السمك ويعكس وجود أماكن الاستجمام المنعزلة على مسافة بعيدة ويصلون إليها بعد رحلة طويلة ، يعكس مظهر البحرين المنبثق من حضارتها المختلطة المتوارثة بقدر انبثاقه من أى نموذج غربى . إن أخذ سنة من النوم خلال فترة الظهيرة فى مكان ظليل أو التجول فى الصباح الباكر المنعش بين بساتين النخيل والبلابل الصفراء اللون وهى تحوم وتغرد فوق الرءوس ، يعد بمثابة تجربة يتذوق فيها المرء حلاوة الحياة التى تمنحها الجزيرة له ، والتى تضفى عليها جاذبية تجعلها فى وضع لا يجاريها فيه الإمارات الأخرى إلا بما لديها من مشروعات باهظة النفقات لإذابة ملوحة المياه وآراء طموحة لتخطيط المدن على نحو يمنح الراحة لسكانها .

ومع ذلك فإنه حتى تلك البساتين الهادئة تواجه خطراً يهددها بالقضاء عليها نظراً لأن الطلب على أراضى البناء آخذ فى التزايد . ويجرى تطوير كافة المنطقة التى تقع عبر المنطقة الشمالية الخصبة لبناء بيوت خاصة حديثة ، وغالباً ماتكون هذه البيوت سابقة التجهيز أو أنها تبنى وفقاً لنظام يصممه مؤسسة مالية تضم شركات تعمير أجنبية ورجال الأعمال المحليين وأصحاب الأراضى . ونظراً لازدياد حركة المرور والطرق المعبدة فى المنامة فإن الإيجارات ترتفع ، كما أن الأفراد فى مسيس الحاجة إلى سبل الراحة ، ومن ثم فإن البيوت الصغيرة سابقة التجهيز التى يمكن الحصول عليها بسهولة تصبح فى مجتمع بالغ الثراء يتطلب المزيد من الأيدى العاملة ، والحل الأمثل والمطلب الشعبى للموظفين الذين يفدون من الخارج بعقود ، أو ترسلهم شركات أجنبية لكى تستفيد من نظام الإعفاء الضريبى السائد فى البحرين أو من أية تسهيلات أخرى لإنشاء مكتب لها فى الخليج .

وإذا برزت أية شكوك حول التحول الذى يطرأ على مجتمع البحرين ، فسرعان مايتم إخمادها . وقد يلقى المليونيرات الذين يشعرون بالأمن نتيجة لثرواتهم وممتلكاتهم الثابتة ، قد يلقون نظرة بين الحين والآخر على الأيام الماضية التى كان يتخللها فترات فراغ فى العمل ويتم إرسال برقيات من مركب شراعى إلى بوشير للتقدم إلى الأمام . غير أنه يسود كل فرد آخر شعور ملح بالرغبة فى النشاط البالغ ، حيث دعا ازدهار حركة البناء جيل جديد من المقاولين وجيل من الشباب إلى نبذ عبء الكسل والدخول فى مشروعات قائمة لتأكيد الذات وتطويرها واتخاذ مكانتهم المرموقة وقد شجعهم على ذلك الجيل الأكبر ، الذى شعر بالفخر لرؤية مثل هذا الدليل على الصفات المتوارثة .

وفى مضمار ازدهار مشروعات التنمية الجديدة ، فإن الفتيات أيضاً سوف يبدأن أعمالا تجارية فى محل لبيع الملابس أو فى مؤسسة تجارية ، أو محل زهور أو صالة لعرض صور زيتية وذلك بناء على موافقة أب متسامح على استعداد لاستثمار ١٠,٠٠٠ دينار بحرينى أو شخص قريب يتوق لتشغيل ماله وهذا

المتنفس عن الطاقات ، التى اقتصرت حتى الآن على واجبات الأسرة ، بدأت به سميرة على رضا ، ابنة الشريك الأكبر فى بيت على رضا التجارى ، وذلك فى عام ١٩٧١ ويحتل محلها الصغير الأنيق أحد أركان الدور الأرضى فى مكتب عائلتها ، مما جعل الكثيرين يقلدونها ، ومن ثم فإنه من المتعذر أن نجد أسرة بارزة فى البحرين لاتشترك بعض الفتيات الأنيقات فى إدارة أعمالها ، بالرغم من أنه لم يحدث أن سارت كل فتاة على نهج سميرة وتبعتها إلى الغرفة التجارية ، ذلك المعقل الرجالى الذى اقتحمته أول امرأة .

إن الشعور الجارف بالرغبة فى العمل هو أمر عالمى وواسع النطاق ، وممارسة العمل كمجرد هواية يعد انحرافاً عصبياً من المتعذر قبوله ناهيك عن فهمه ، نظراً لأن الجيل الحاكم لايزال وثيق الصلة بما حققه من نجاح يكفى لدفعه إلى التفاخر والتباهى بما أنجزه بلا عقد ويتوقع نفس الشىء من أبنائه . إن شراء سيارة ومشاهدة الأفلام السينمائية والقيام بأول رحلة إلى لندن وأمريكا تعد نقط تحول وعلامات مميزة فى ذكريات الرجال الذين بلغوا الخمسين من عمرهم الآن والذين انتقلوا فى حياتهم من الحضارة التقليدية إلى الحياة الحديثة . حقاً إنه فى وسع المرء أن يدفع بأن انهيار أسلوب الحياة القديم الآمن قد أفاد أولئك الذين يعتبرون من الوهلة الأولى ضحاياه الرئيسيين ، إذ أن ذلك خلق فى جيل، حرم من أصل فوزه بتحقيق أحلامه ، ثورة من الطاقة زاد من حدتها وقوتها الدافع إلى البقاء .

وتتعاون الأحداث الخارجية بالطبع فى مساعدتهم ، وأدى الوجود البريطانى بالرغم من أنه كان يحبذ حتماً مشروعاته التجارية الخاصة به ، إلى تطور النقل الجوى وإصلاح السفن الأمر الذى استفاد منه الوطنيون الذين يسارعون فى استغلال أية فرصة .

وقد عمل يوسف المؤيد كصبى تحت التمرين وهو فى الرابعة عشرة من عمره لدى والده فى تجارة اللؤلؤ المندثرة ، وسرعان ما اكتسب مهارتها . وعندما بلغ الثامنة عشرة اقترض من والده ٢٠٠٠ روبية (مايعادل اليوم ٢٠٠ دينار بحرينى)

وافتتح محلاً صغيراً للاتجار في الخشب بالقرب من السوق المسقف ، ومن ذلك المشروع التجاري الصغير الذي أداره بمساعدة رجل غريب الأطوار ، تمت شركة الزراعة التي يمتلكها والمقدرة بعدة ملايين .

وكان السلاح الجوي البريطاني قد أقام خطاً جوياً مع البحرين في منتصف العشرينات وتفاوض بشأن إنشاء مهبط للطائرات مع الشيخ عيسى بن علي الذي حكم الجزيرة منذ عام ١٨٦٩ وكان يتسم هو وعائلته بطابع حاد بالنسبة لما هو أجنبي . واتخذ السرب رقم ٨٤ الذي يتخذ من شعيبة في العراق قاعدة له ، وهي لا تبعد كثيراً عن البصرة ، التحليق فوق الخليج بطائراته من طراز دي هافيلاند ٩ إيه . إتش ، وذلك في رحلات روتينية ويقوم بزيارات ودية إلى البحرين والشارقة اللتين كانتا تمتلكان مطارات للهبوط . وعندما واجهت شركة الخطوط الجوية الملكية مصاعب سياسية مع إيران في الثلاثينات بشأن الطريق التي تسلكه طائراتها المتجهة إلى الهند والشرق الأقصى ، تم اتخاذ قرار بنقل العملية إلى الساحل العربي والخليج . ومن ثم أصبحت البحرين والشارقة بمثابة نقطة مرحلية للطائرات كما أصبحت دبي نقطة مرحلية للزوارق السريعة التي كانت لاتزال تستخدم عقب الحرب .

وساهم هذا الارتباط الملاحي بالاتصال جواً في تدعيم إحساس البحرانيين بأنهم يعيشون في العالم الحديث وهم في بلادهم . وكانت استراحة أفراد السلاح الجوي البريطاني التي تضم كل حجرة فيها أربعة أسرة ، المرحلة الأولى في رحلة تحول لبناء فندق ديلمون والملايين ثروة هائلة في شكل عقارات حقيقية .

وأخذ يوسف المؤيد الصغير ، في إطار جولاته حول القاعدة لتسليم ما يبيعه من مساحيق وأدوات صحية ومنزلية ، بإنشاء علاقات عملية مع أعضاء الإمدادات والتموين في شركة الطيران الذين كانوا يتطلعون إلى الحصول على مساعدات محلية ، وتعلم الإنجليزية . ومع حلول عام ١٩٤٢ بدأ يزود السلاح الجوي البريطاني في قاعدته في محرق بما يحتاج إليه من الأسواق ، وكان يتقاضى عمولة قيمتها خمسة في المائة على ما يحصل عليه .

وعندما سئل عما يعتبره أفضل عملية قام بها على الإطلاق يجيب قائلاً : إعادة

شيك قيمته ٣٫٠٠٠ روبية كان السلاح الجوي البريطاني قد أصدره مرتين بطريق الخطأ ، وبتلك العملية الفورية التلقائية اكتسب سمعة الأمانة مما زاد من استقلال عمله ، ومع انتهاء الحرب أضحى لديه ممتلكات تقدر قيمتها ٥٠٫٠٠٠ جنيه استرليني تقريباً .

إن الكد في العمل والتعامل بأمانة وعدل ، والحصول على ربح مقبول هو ما نعهد به . ويقول : على مدى خمسة عشر عاماً كنت أعمل لمدة ست عشرة ساعة يومياً ولم أسترح يوما . ومن الأهمية عدم تبديد الوقت في مرحلة الشباب — ذلك هو ما أقوله لشباب اليوم : يتعين عليكم الجري وراء العمل وانتهاز فرصتكم وتعاملوا مع زبائنكم باستقامة .

وحقق الارتباط بالسلاح الجوي مكاسب في اتجاهات أخرى . إذ تكفل السلاح بدفع نفقات رحلته إلى لندن وعلى متن طائرة من طراز لانكستر واستغرقت اثنين وعشرين ساعة وعاد يوسف بأول توكيل له مع شركة جنرال اليكتريك ونقل محله إلى المنطقة الأكبر ، التابعة لباب البحرين رقم ٨ ، وهو المحل الذي لايزال يمتلكه حتى الآن . وكان ثاني تاجر يقوم برحلة إلى إنجلترا إذ أن يوسف عبد الرحمن فخرو ، الرئيس الحالي لمطاحن دقيق البحرين وعدد كبير من المشروعات الأخرى ، قد قام بالفعل في نفس الفترة التي أعقبت انتهاء الحرب بالرحلة على متن سفينة سريعة .

ومع حلول عام ١٩٤٨ ، فإن تلك الروح التوسعية ذاتها حملت يوسف المؤيد إلى أمريكا حيث حصل على توكيل لشركة جنرال موتورز . وبدأ يجوب الخليج ذهابا وإيابا كي يوسع من أسواقه . وانبثقت معظم أعماله من علاقاته الأولى مع السلاح الجوي البريطاني . إذ أن الرجال الذين كان يقيم معهم علاقات صداقة بدأوا في الظهور مرة أخرى بالخليج عقب انتهاء الحرب كي يعملوا في مجالات البرق والخطوط اللاسلكية وشركة خطوط الطيران الجوية البريطانية ، ونظراً لتطور صناعة البترول والمشروعات المدنية الثقيلة الأخرى وتلك الخاصة بالميناء ، ازدادت الحاجة إلى المضخات والأوناش وآلات تحطيم الأحجار والسيارات وعربات النقل والشاحنات :

وفى غضون حقبة ، مع حلول منتصف الخمسينات تمكن من بناء ميناء الضخم الحديث ومنزله ومسكن أبنائه فى شقق متاخمة تقع أعلى ذلك الإنجاز الذى يبعث على الفخر .

وبالنسبة لشخص أجنبى يعمل وفقاً لعقد مدته عامان أو ثلاثة أعوام فى منطقة الخليج تعد البحرين بلدة فريدة تتميز بطابع خاص هام إذ أنه بوسعك الالتقاء بالفتيات هناك ، فتيات حقيقيات وليس مجرد زوجة لشخص آخر أو فتاة فى سن المراهقة تقضى فترة أجازة بين الحين والآخر .

وبالنسبة لشخص غربى يشتهى الجنس الآخر ويعيش فى مجتمع يقارب نصف البشرية فإنه يعيش فى حرمان ثقافى على نحو لايقبل التفسير فى عبارات مادية بحتة . ويمكن تصوير الوضع كما لو كان هناك عنصر أساسى مفقود فى تركيبة المجتمع ، ومن ثم يكون المجتمع الناتج باعثاً على الكآبة ومثبطاً للهمة بصورة متزايدة تماماً .

ومنطقة الخليج مكتظة بالرجال ، من كافة الجنسيات غير أن النساء نادرات إنه مجتمع رجال شكلته الروح التجارية العملية حيث الاهتمام المهيمن يتركز فى العمل التجارى وبينما يعود المواطن العربى من أهل البلد كل يوم إلى دفء وحنان النساء ورعايتهن المفرطة — إذ تصبح حياتهن المحلية بلا معنى بدون الحياة الأسرية الطبيعية — وتحيطه تشكيلة متنوعة من أقرب أقربائه من النساء يتبادلون الزيارات والمزاح والأحاديث التليفونية بينما يحدث ذلك للمواطن العربى نجد زميله الغربى ورفيقه فى العمل محكوماً عليه بحياة الضـــياع والوحدة فى حجرات الفندق وقضاء أمسيات مملة فى البارات والافتقار كلية لأساليب الترفيه والتسلية واللهو وجاذبية صحبة النساء المعتادة . إن مجرد رؤية للفتيات يتحركن بحرية فى الشوارع ، ولسن متلحفات بعباءات سوداء ، أو منطويات فى تواضع مفرط ، أمر يبعث على ارتياح رجال معتدلين وغير عدوانيين بالطبيعة ، قانعين بالزواج ويشعرون بالقلق والاضطراب وسط التوترات المتأججة فى مجتمع لايزال يفرض الحيطة والحذر والغيرة تجاه الملكية الجنسية . كما أن القيود المفروضة حول

الجنس تزيد من حدة الوعى الجنسى . وبالنسبة لأولئك الرجال والشباب الذين يسعون إلى تكوين شكل من أشكال الرفقة التى اعتادوها فى البيت فإن البحرين تعد ملاذاً طبيعياً فى منطقة تكتنفها المخاطر والحرمان .

وهناك نحو ستمائة مضيفة جوية ، يعملن فى شركة طيران الخليج العربية ، ويسكن فى الجزيرة . وتضم البحرين عدداً كبيراً من المساكن القديمة والمتهدمة التى خلفتها القوات البريطانية عندما تركت الجزيرة فى عام ١٩٧١ ولاتزال المساكن الصغيرة ذات الطابق الواحد والبيوت الخاصة تحمل أسماء مثل «باجيت» و « أوسبورن وهلم جرا » ، تجدها منقوشة على باب صناديق بريدهم مما يجعلها أشبه بسكن أشخاص رحل ، وقلة منهم هم الذين يهتمون بالإنفاق ببذخ على وسائل راحتهم الباهظة التكاليف ، ويرفض ملاك الأراضى بصفة عامة تقديم أى شىء لمستأجرى ممتلكاتهم سوى رفع الإيجار دون رحمة كل عام . وفيما مضى إبان فترة إقامة الضباط وضباط الصف المتزوجين كانت تلك الممتلكات تحتفظ بلمسة ميزت مساكنهم الأصلية وذلك بتزيينها بالزهور العطرة والنباتات المتسلقة بالقرب من النوافذ ، بدلا من الحدائق المزدانة فى بلادهم حيث تصطف أشجار الكرز والزهور العطرة إلى جانب أسوار الحدائق .

وكثيراً ما تتردد مجموعات من الكلاب الضالة على تلك المناطق ، وهى مخلوقات كبيرة الحجم مهجنة وكانت سلالاتها من حيوانات منزلية أليفة ولاتزال تحتفظ بذكرى أوقات القبيلة الطيبة والمجتمع الإنسانى الودود . ويعيش الأجانب غير المتزوجين فى تلك المناطق ، ويشكلون مجموعات ويستأجرون بيوتاً أكبر ، وغالباً ما يشترك اثنان أو ثلاثة فى شقة واحدة ، ويعيشون حياة سهلة غير منتظمة تتسم بالحرية وتختلف تماماً عن مجتمع الجيل السابق ، ويحرصون على الإبقاء على المظهر ويدركون تماماً أهميته .

وفى ذلك المجتمع المنطلق والذى يمارس فيه الفرد حياته بحرية ، تلعب فتيات شركة الطيران دوراً بارزاً . وتعيش « دمى السماء » كما تصفهم الصحف الإنجليزية فى مجتمع كله من الذكور تقريباً . وقد انضم إليهن فى العام الماضى

تقريباً عدد متزايد من الفتيات اللاتى يعملن كسكرتيرات . وتشغل الفتيات وظائف فى البنوك التجارية وتوكيلات السفريات ، ومكاتب المحامين والمحلات الحديثة ، وتحاولن إعادة بسط حياة الحرية والاستقلال التى كن يعشنها فى لندن بعيداً عن القيود الحرجة فى دوائرهن المحيطة بهن . وهذه الثقافة الفرعية الجانبية تعتبر فى قيمتها بالنسبة للعرب الأثرياء كنصف عالم وهى مثيرة لما يمكن أن يتصوره كاتب قصة فى القرن التاسع عشر . ومن اليسير التعرف على تلك الفتيات ، اللاتى يعتبرن امتداداً لذلك العالم الذى من السهل فيه الحصول على صديقات بحيث يمكن لكل مسافر إلى الغرب أن يعود ومعه قصة عنهن . وهن أيضاً بمثابة هدف للتخطيط والحنين لذلك النوع المبهم من الفتيات المتحضرات اللاتى تطالبن بحقهن فى المساواة فى الجنس وتكون معظمهن صداقات مع رجال يماثلون معهن فى خلفيتهم الأمر الذى قد يفضى إلى زواج ، بالرغم من أنه فى مجتمع الخليج المترحل فإن عدداً كبيراً من غير المرتبطين من كلا الجنسين يعيشون هاربين من علاقات فاشلة فى بلادهم ومن ثم فإن أحداً منهم لايكون قادراً أو على استعداد لتكوين روابط دائمة . ويؤدى هذا الموقف إلى تحررهم من الوهم والشعور بالإحباط . وخلال الشهور الستة الأولى من عام ١٩٧٧ ، انتحرت ثلاث فتيات يعملن فى شركة طيران الخليج .

وتوجد مجموعات من مثل تلك الفتيات اللاتى يمكن والحصول عليهن بسهولة « والمحبوبات كثيراً » فى كافة المدن الكبرى فى الخليج وتحاول مكاتب التنمية الحديثة ، وشركة الطيران من خلق الظروف المتاحة لهن ، غير أنه فى البحرين على وجه التحديد يوجد أكبر حشد منهن وذلك يساهم بلاريب فى وجود مجتمع « مفتوح » فى الجزيرة التى تعد مكاناً محبذاً لإقامة الأجانب .

وفى أماكن أخرى ، فإن حياة الأعزب يمكن أن تكبلها قيود كثيرة للغاية . إذ أن العائلات المتزوجة تميل إلى العيش فى ضواحى خاصة بها ، وتعيش منغلقة داخل نطاق الالتزام فتقوم بتوصيل أطفالها إلى المدارس وإعادتهم منها والتوجه إلى الشاطىء أو إلى حمام السباحة ، وينزلون من بيوتهم للتسوق معاً من السوبر ماركت مثلما كانوا يفعلون فى بلادهم .

ويقوم عدد كبير من النساء المتزوجات بالعمل فترة إضافية حتى يتمكن من تحسين معيشتهن . وهناك نقص فى السكرتيرات الماهرات ذوات الكفاءة ومن ثم من السهل على أية سيدة إيجاد عمل . وتعمل بعضهن من أجل الأموال التى يحصلن عليها وعدد كثير منهن يعملن للتخلص من حياة الضجر والركود فى البيت ، عندما يكون الأطفال فى مدارسهم والأزواج منهمكون فى العمل الذى غالباً ما يتطلب ويحتاج كل طاقتهم وتركيزهم . ويعمل البعض الآخر مع السيدات العربيات الثريات التى يدرن أعمالا خاصة بهن ويتولين الإشراف على محلات الملابس والمؤسسات التجارية ومحلات المجوهرات والزهور داخل الفنادق الدولية .

والمجتمع الأجنبى يعتمد على مساعدة نفسه بنفسه — وقد أثبت أفراده نجاحهم الكبير فى ذلك إذ يلعب الشباب رياضة الركبى « الكرة المستطيلة » أو الفروسية ويلعبون التنس والاسكواتش ، وتعرض هناك مسرحيات يقدمها الهواة ، وتوجد جمعيات للآثار ، وتضم القنصلية البريطانة مكتبة ، وتعقد شركات السجائر الأمريكية مسابقات للدراجات البخارية وعربات السباق الأمر الذى يجلب متنافسين من كلا الجنسين ومن كافة الطوائف . ويعد ذلك بالنسبة للعرب بمثابة بديل للعبة كرة القدم وتعد اليوم الرياضة الوحيدة التى تجمع من حولها عدداً هائلا من المشجعين .

وحتى فى البحرين المتقدمة ، التى تحتل الصدارة فى ذلك المجال بالنسبة لشبه الجزيرة العربية بأسرها ، فإن حياة النساء المحلية تحمل صفة مميزة مثلما كان الحال فى عهد إدوارد . ولاشك أنه من الجرأة البالغة الاستعداد لمحاكاة بطلة روايت إتش . جى . ويلز إن فيرونيكا . لقد انقضى اليوم الذى كانت تقبل فيه دون تمييز الاتجاهات الغربية . ولم تعد النساء المدللات يتمتعن بالحماية فى الطبقات الثرية (كما أنه من الصعب على المواطنين العرب عدم الانتماء لتلك الفئة) لم يعدن مقتنعات أن موقف المرأة الغربية يفوق موقفهن بصورة جوهرية. ذلك لأن توسيع قاعدة التعليم بين جنسهن ، وقبول المجتمع بصفة عامة لحق وحاجة الفتيات فى العمل سلب قضية النساء سحرها . إن ما يريدونه الآن هو

منحهن حرية أكبر لحركة والاستقلال فى تنظيم حياتهن الخاصة ، وكلها أشياء يتعذر تحقيقها فى مجتمع قام على أساس نظام العشيرة ، حيث تتوقع المرأة أن تجد مايرضيها اجتماعياً داخل إطار عائلتها وأصدقاء العائلة .

وليس من طبيعة العربى التفكير فى أن العزوف عن الزواج ينطوى على قوة فعالة بل إنه يعتقد أن ذلك يعبر عن حظ عثر وحرمان الفرد من غريزته الطبيعية ، كما أن زواجاً غير متكافىء سوف يؤدى إلى الطلاق . ويتدخل الرجال الأقارب سعياً لانفصال زوجة كى تتزوج مرة أخرى عندما يفضل رجلها ممارسة الشذوذ الجنسى مما يؤدى إلى إهمال الزوجة . وتناقش النساء المسائل الجنسية بغير احتشام على أساس أنها حقيقة واقعة وذات اهتمام مشترك إذ أن الزواج هو مصير كل فرد ، وكلما عرف المزيد عن أسراره . زاد احتمال بقائه واستمراره ونجحت علاقة الفرد الجنسية .

وفى مجتمع يدرك تماماً نظرته التقدمية ، فإن عدداً يثير الدهشة من البحرانيين الذين يبدوا أنهم متحضرون يتزوجون من بنات عمومتهم . وهو شكل تقليدى لاستمرار سلالة معينة ، الأمر الذى لايثير أى نقد أو تعليق بين مجموعات أنساب السلالات المعنية أو الطبلة الذين ينتمون للأصل الملكى .

إنه مجتمع لايزال يقوم على أساس خطوط تقليدية إلى حد كبير غير أنه يعيش فى فترة من الازدهار لم يسبق لها مثيل والتى تولد دوماً ثروات جديدة . وبالنسبة للأب فإنه كى يزوج إبنته فإن ذلك يعد مشكلة مصحوبة بالمصاعب والقلاقل ولم يكن أمراً مستغرباً بالنسبة لجيل الصاعد من الآباء أن يثير قلقهم مستقبل بناتهم الصغيرات ، وليس أبناءهم .

إن الرغبة فى الاحتفاظ برأس المال داخل العائلة ليس هو فحسب الذى يرغم الجيل السابق على استمرار تحبيذ الزواج من داخل العشيرة بالرغم من أن ذلك قد يكون له دور أيضاً . ولكن هناك المزيد من الدوافع الإنسانية التى تساعد فى تحقيق ذلك . ويتمثل أحدها فى الخوف من أن تفقد الفتاة المجتمع المألوف لديها عندما يتم لها الزواج من شخص آخر غريب عنها . ويتمثل الدافع الآخر فى وجود تقاليد جديدة تعتبر الطلاق أمراً هيناً ، وفى بعض

الأحيان مسألة عرضية ، ومن ثم تكون الفتاة فى مأمن إذا تزوجت من داخل إطار نفوذ عائلتها وهكذا يمكن حماية مصالحها والتكهن بأن معاملتها ستكون محاطة ببعض الأمان .

وبالرغم من أن هناك ولاء شفهياً كاذباً حول فكرة حرية منح الشباب فرصة اختيار شريكته أو شريكها فى الحياة فإنه فى الحياة العملية الفعلية توجد قلة من الشباب الرجال وحتى عدد أقل من الفتيات على استعداد للاستخفاف على نحو معتمد برغبات عائلتهم . إن فرة الزواج سراً بغير إعلان ودون موافقة الآباء لاتزال تشكل خطوة جريئة تثير الصدمة عند الغالبية من الجيل الصاعد ويمكن أن يحدث ذلك فى الخارج فقط .

وعلى عكس الاعتقاد الغربى الشائع ، فإن الفتيات غالباً ما يتمتعن بحب وتعلق عائلاتهن . ويكن موضع حماية وعناية أقاربهن الذكور ، وإعجاب وفرحة أمهاتهن . وبغض النظر عن المشاعر الطبيعية ، فإن واجب الحماية هذا للجنس الذى يتسم بالضعف بالطبيعة ولايتساوى فى كل جانب مع الذكور هو أمر تنص عليه مبادىء القرآن . ذلك أن نضال المرأة الغربية يتناقض بصورة ظاهرة مع سلوك المرأة الإسلامية المطمور بمحض إرادتها فى مجتمع مختلط بالرغم من أنها داخل البيت تظهر فى وضوح صفات النشاط والطاقة المعنوية والفطنة والدهاء .

وإذا تزوجت فتاة من شخص أدنى من مرتبتها الاجتماعية فإنه يكون أمراً مهيناً ويسبب حرجاً لعائلاتها ، وإذا تزوجت من جنس مغاير لها أو من يعتنق ديناً آخر فهذا يعتبر عاراً . كما أن أى أوروبى يطمح فى الزواج من فتاة مسلمة ، يتعين عليه أن يكون على استعداد لاعتناق الدين الإسلامى ، وداخل طائفة الشيعة حدث زواج من ذلك النوع . غير أنه إذا تزوج رجل من فتاة أقل منه فإن ذلك يعد حظاً عثراً وليس كارثة ، نظراً لأن الأطفال يحصلون على وضعهم من الوالد وليس من الوالدة . كما أن نسل الأجنبى ، أو حتى ذلك المختلف فى الدين ، يعتبرون فى مأمن فى وضعهم داخل العائلة .

وزواج الفتيات من داخل عائلاتهن هو أمر يحقق الشعور بالأمن ، كما يمكن التكهن بزواج الفتاة من ابن الجار فى مجتمعنا ، وهذه نتيجة عاطفية بسيطة لحاجة

طبيعية تبعث السرور فى نفس كل واحد من الأشخاص المعنيين . وفى كل عائلة ثرية تتمتع بمنزلة هامة ، لايكون من السهل فى بعض الأحيان العثور على شريك ملائم داخل نطاق التعديل أو الترتيب المحدود الذى تقبله منزلتها الاجتماعية ، فأى قريب ، مهما كانت منزلته المتواضعة لايمكن أن يكون فى مرتبة دنيا إذ يمكن تحسين ظروفه ووضعه بمساعدة نفوذ أصهاره ، وربما يرجع ذلك إلى استمرار قوة ترتيبات الزواج التقليدى .

وينقسم المجتمع العربى التقليدى إلى شطرين ، الذكور والإناث . وبيوتهم الخاصة مقسمة على هذا الأساس ، إذ أن هناك قسما للذكور وهو مفتوح أمام الزائرين ، وجانب للإناث وهو منعزل ومحجوب عن أعين المتطفلين . إن التحام واندماج شطرى المجتمع فى كيان واحد ، حيث يتقاسم الجميع الحياة على كل مستوى ، يمثل فكرة مثالية بعيدة تماماً عن مدارك عدد كبير من النساء اللاتى يشعرن بالأمن داخل هويتهم النسائية ويشعرن بسعادتهن الكبرى من امتلاك الأطفال ، بدلا من تكثيف العلاقة العاطفية مع الزوج .

ويعتبر الزواج مؤسسة اجتماعية ، كما كان الحال داخل المجتمعات الثرية فى العالم الغربى ، إذ أنه يمكن تحقيق المنجزات الشخصية بزواج سعيد يتطور خلال فترة التودد فيما بعد الزواج ، غير أن غالبية الزيجات تبدو وكأنها ترتكز على الاحترام والعاطفة المتبادلة ، ومباركة المجتمع لها . وتعيش العائلات فى سرور معاً ، فى نوع من التكامل البرجوازى ، وتصطدم الأجيال المتباينة دوماً بعضها مع البعض الآخر .

وينبع مثل ذلك التغيير الذى يطرأ على حياة المرأة من ضغط الرجل وليس من المرأة ، إذ أن الشاب الذى قضى عدة أعوام فى الخارج ، وربما يكون قد كون علاقات هناك ، فإنه حينما يعود يسعى فى زواجه إلى تحقيق شىء يتجانس مع أكثر إنجازات الغرب على نحو يفوق مايمنحه الزواج العربى التقليدى . وقد يحضر معه زوجة أجنبية وهكذا يحرم الأسرة من زواج كان يتطلع إليه الجيل الأكبر بثقة ويخطط لتحقيقه .

والمرأة الأجنبية هى التى تتحمل عبء التفرقة والتمييز فى الزواج ، مهما كان دفء العاطفة بينها وبين زوجها ، كما أن المطالب التى يرهقه بها أقاربه يمكن وأن تضايق امرأة ليست على استعداد لمشاركة زوجها الحياة على هذا النحو. ويمكن أن تفضى الضغوط الناجمة عن ذلك إلى تعاسة وشقاء . وغالباً مايحل زواج تقليدى يحدث من داخل نطاق الأسرة محل ذلك النمط من الزواج المحفوف بالمخاطر ، ويتم طلاق الزوجة الأجنبية والضمان المادى الوحيد الذى يحققه لها زواجها يتمثل فى الهدايا التى تلقتها من زوجها خلال فترة الزواج . ومن المفترض أن تعود الزوجة المنبوذة إلى رعاية والدها أو أشقائها ، ولايتحمل الزوج أية مسئولية تجاهها ، وإذا كان لديها أطفال صغار فإنها تضمن بعض المساعدة المالية. وحتى فى هذه الحال فإن الجزء الأكبر من مساعدتها يتركز على تنشئة الأطفال نشأة طيبة .

وفى سبيل التخلص من احتمال الاقتران بزوجات أجنبيات غير مرغوب فيهن ، يأتين لشغل منزلة ماكان من المتوقع أن تشغلها فتياتهم ، توصلت — حتى أكثر الأسر رجعية — إلى فكرة تعليم فتياتهن . وإذا كان هناك جانب واحد فى مجتمعهم يفخر ويعتز به البحرانيون فإنه يتمثل فى تنشئة وتعليم الفتيات، ذلك لأنهن يمثلن نقطة الانطلاق للظهور فى عالم حديث ومتقدم ، وبالتالى يحظين بتقديرهم على هذا الأساس .

وتعمل الفتيات الآن فى البنوك والمكاتب والأعمال المتعلقة بالأسرة وبالرغم من أن بعضهن يرين أن تكسبهن العيش يستهدف مجرد إنفاق المال على الملابس إلى حين زواجهن، فإن البعض الآخر ينظرن إلى حياتهن بعين الجد، وأنهن سوف يواصلن العمل بعد الزواج ، وإذا كن يشغلن وظائف مهنية أو فى مراكز حكومية مسئولة وحدث لهن حمل فإنهن يعدن إلى العمل عقب فطام الطفل .

وترتدى القلة الآن العباءة الحريرية السوداء التى كانت ترتدى دائماً قبل مغادرة البيت ، بالرغم من أن أمهاتهن لايزلن يرتدينها من قبيل الاختيار أو العادة. إذ أنهن نشأن فى ظل التقاليد القديمة التى تحتم عليهن العزلة ، ولا يرحبن بمجتمع

الأجانب بصفة خاصة إذ يجدن مشقة فى التعامل معهم بلغة أجنبية غير مجدية بالنسبة لهم .

وإبان فترة شبابهن لم يكن يسمع عن فتاة من أسرة طيبة قد ذهبت إلى السوق ، إذ أنه كان على الخدم ورجال البيت شراء المشتريات . وفى المساء فقط وتحت ستار الظلام الدامس فإنهن قد يتسللن لزيارة أقاربهن الإناث وأصدقاء الأسرة ، بالرغم من أنه فى البيوت المحافظة للغاية لم يكن من الحبذ تكوين صداقات خارج إطار الأقارب ، خشية تكوين علاقات غير مرغوب فيها ، أو استيعاب أفكار غير تقليدية . ولاتزال تلك الرقابة الصارمة التى يفرضها الأب تسود عدداً كبيراً من عائلات الطبقة المتوسطة فى البحرين ، رغم أن الوظيفة تعطى الفتيات مظهراً مصطنعاً من الاستقلال .

ويفخر الآباء بمنجزات بناتهم الجديدة وأضحى ماحققته الابنة من نجاح فى المجال العلمى يلقى التهنئة مثل نجاح الابن تماماً . ولا يجردها ذلك من رغبتها فى اختيار شريك للزواج ، حقاً إنه يمكن أن يقال إنه يعززها ، نظراً لأن العائلات الثرية والآخذة فى التقدم تسعى لحصول لأبنائها على زوجات تنقلن إلى الحياة الزوجية تلك الصفات التقدمية والاستقلالية فى التفكير التى يمنحها التعليم .

وتتطلع العائلات إلى الفتيات اللاتى يمكن أن يكن رفاقاً وشريكات لأزواجهن بالمعنى الغربى ، ويثير الآن ذلك المخلوق الذى كان يكرس نفسه للحياة المنزلية فى الماضى ، والذى اتسم بالخضوع وعدم الإمتاع ، يثير الازدراء نوعاً ما ، كما أن نظرة الفتاة المحدودة وخجلها وعدم براعتها يثير الحنق بدلا من التعاطف وقد يؤدى إلى رفضها وطلاقها .

* * *

الفصل السابع

اتجاهات مشتركة بين البحرين والكويت — اسلافهم المشتركة — عائلات « الاشراف » — نظام الزواج فيها — تطور الصفوة التجارية — النشاط البريطانى فى الخليج — التحالف مع عمان — سلطنة عمان — هزيمة القراصنة — معاهدة عام ١٨٢٠ — البند التاسع الذى اضافه الكابتن طومسون — الانجيليون — تجارة العبيد فى شرق افريقيا — العبيد الاثيوبيون وعبيد غالا — الخصيان — معدل خسارتهم — التدخل العمانى — سوق زنجبار — التجارة الحرة — التجار الهنود — تزايد الطلب على العبيد — القواسمة يمارسون نقل العبيد — التجار الفرنسيون والامريكيون للرقيق — التعاون الدولى — اغلاق اسواق العبيد — البريطانيون يغتصبون زنجبار ويعتبرونها محمية بريطانية — أميلى رويت — الجاليات الزنجية فى الخليج الحديث — موسيقى « لايوا » — تحضير الارواح — اتخاذ المحظيات — الغاء ذلك النظام — الاصرار على استمرار الحركة فى القرن العشرين .

* * *

عندما يدرس المرء تاريخ منطقة الخليج خلال فترة المائتى عام الماضية يستطيع أن يكتشف وجود حركة للعمل التجارى تتجه نحو الغرب ، ويعتبر أحدث مظهر لها هو شراء العقارات واستثمار الأموال فى أوروبا وأمريكا وفى منتصف القرن الثامن عشر انتقلت المحطة التجارية لشركة الهند الشرقية من الساحل الإيرانى إلى البصرة ، ثم حدث بعد ذلك ، ولفترة من الوقت بعد ظهور الوباء العظيم واستيلاء الإيرانيين على المدينة ، أن أصبحت الكويت تستخدم كنقطة توقف لعربات البريد الخاصة بالشركة والتى كانت تسلك الطريق الصحراوى السريع المتجه إلى البحر المتوسط . وفى عام ١٧٩٢ انتقلت « المحطة التجارية » نفسها إلى هناك لمدة عامين ، وذلك أثناء الخلافات التى نشبت مع الحاكم العثمانى للبصرة حول رسوم الاستيراد . وقامت الشركة ،

شأنها فى ذلك شأن كل من عمل بالمنطقة ، بنقل العاملين بها إلى جميع الموانئ سواء كانت تركية أو إيرانية أو وهابية أو عمانية أو عتيبية ، وقدمت أفضل الشروط ، وأكثر ظروف التجارة أمناً . وبعد أن تمت تسوية الخلافات عادت الشركة فى عام ١٧٩٥ إلى البصرة باعتبارها مكان الإقامة الطبيعى للتجار المشتغلين بالتجارة حتى المناطق الداخلية من البلاد على امتداد المجارى المائية فى بلاد ما بين الرافدين حتى بغداد والشمال .

وكانت الكويت والبحرين تقومان فى تلك الفترة بتطوير بحريتها التجارية ولكنهما لم تكونا مراكز تجارية ولم يتم إنشاء أية « محطات تجارية » فى أراضيهما ، إذ أن السكان الصحراويين الذين كانوا يعيشون متناثرين فى أراضيهما لم يستحقوا وجود مثل تلك المحطة ، وارتبطت الدولتان برغبة مشتركة استمدتاها من أسلافهما ذوى الأصل المشترك ، إذ أن العائلتين الحاكمتين فيهما وهما عائلة « الصباح » ، و « الخليفة » تنتميان إلى بنى « عتب » ، وهى عشيرة تابعة لفرع الإمارات التابع لاتحاد قبائل عنيزة ، والتى هاجرت من نجد إلى شواطئ الخليج ، ثم تحركت فى اتجاه الشمال حتى وصلت إلى الصحراء السورية فى أوائل القرن الثامن عشر . ويشير التراث التقليدى إلى أن هاتين العائلتين المنتميتين إلى بنى « عتب » وكذلك رفاقهما سكنتا أصلا فى حضر بالافلاج قبل أن يهاجروا إلى قطر ثم إلى الكويت .

وقد اضطر القحط شعوباً بأكملها إلى النزوح عن وسط نجد فى تلك الفترة والاتجاه شرقاً صوب الساحل ثم إلى أى مكان يصلح للاستيطان . وقضت عائلات بنى « عتب » عشرات من السنين بلا وطن ومحرومة من الأمان حتى تمرست على الملاحة واتخذت لها وطناً فى الكويت التى كانت عبارة عن قرية للصيد ليست ذات أهمية . نشأت حول قلعة صغيرة تم بناؤها فى الأصل لتكون مقراً صيفياً للأمير براق شيخ بنى خالد وذلك فى نهاية القرن السابع عشر .

وكانت قبيلة بنى خالد أقوى قبيلة فى شرق الجزيرة العربية فى تلك الفترة ، وقد نجحت بالفعل فى صد التغلغل العثمانى فى عام ١٦٧٠ . وفتحت

حمايتها استوطنت عائلات عتب فى الخليج ، وظل الصباح أجيالا طويلة يدفع الجزية لشيخ بنى خالد عندما يحضر لقضاء الصيف فى الكويت التى يعتبر مناخها أفضل من أى مكان آخر على ساحل الخليج خلال فصل الصيف الحار .

وهناك عاملان ساعدا الوافدين الجدد على تطوير دولهم .. الأول هو النشاط الأوروبى فى الخليج ، حيث قامت الشركات التجارية ، التى يملكها تجار برتغاليون وهولنديون وبريطانيون وفرنسيون ، باستغلال المنطقة كطريق للمرور شمالا إلى أوروبا ، وكسوق لتجارة بلادهم القادمة من الهند . والعامل الثانى هو أنه بخلاف بنى خالد الذين اتسموا بالود وكانوا أصحاب عقلية تجارية ، لم تكن هناك أية سلطة أخرى فى منطقة الخليج تملك من القوة ما يكفل لها التدخل فى عملية استيطانها .

ومع حلول منتصف القرن كانت عشيرة آل بن على قد نزحت من الكويت إلى قطر وتبعهم آل خليفة إلى هناك فى عام ١٧٦٦ وإلى ظفار ومنها تمكنوا بمساعدة آل الصباح وآل الجلاهمة الذين يقطنون الرويش من الاستيلاء على البحرين والاحتفاظ بها فى عام ١٧٨٢ — ١٧٨٣ .

وأولئك كانوا قوماً عقلاء سرعان ما أدركوا الفوائد التى ستعود عليهم إذا ما جعلوا موانيهم مغرية بالنسبة للتجارة وذلك بتخفيض رسوم الواردات المفروضة فى الأماكن الأخرى من الخليج . وازدهرت أحوال مستوطناتهم فى الكويت وظفار بوصفها موانى للتجارة الحرة على عكس موانى قطيف وعقير التابعين لبنى خالد والتى كانت تفرض رسوماً على الواردات مقدارها ١٠٪ على جميع المواد المستوردة باستثناء المؤن ، وفى حين أن مسقط فرضت رسماً قدره ٦,٥٪ على جميع المواد بما فيها المواد الغذائية .

وكان الجلاهمة أمهر البحارة فى إمارات عتب كلها . ومازالت سلالاتها المعروفة الآن باسم النصف موجودة بأعداد كبيرة فى الكويت والبحرين . وكانت معرفتهم فى تلك الحقبة الأولى بوجود شواطئ اللؤلؤ هى التى شجعت

أقاربهم فى الكويت وظفار على توحيد صفوفهم لشن هجوم على البحرين التى كان يحتلها فى ذلك الوقت عرب من الساحل الإيرانى .

وابتداء من تلك الفترة ظهرت التقسيمات الاجتماعية التى مازالت قائمة فى إماراتهم حتى الآن . فالإمارة التى تنتمى إليها عشيرة بنى عتب ؛ من قبيلة أشراف أى عرب خالصين من حيث الدم والأصل ينحدرون من إسماعيل وأمه هاجر اللذين أصبحا عرباً وإن كانا لم يولدا عرباً .

وعائلات الأشراف هذه لا تزوج بناتها لرجال من خارج عائلاتهم ، وهى مازالت تتمسك بهذا التقليد الصارم بشدة فى مواجهة الضغط المتزايد من جانب بعض شبابها من ذوى الثقافة العالية . وقد حدث مؤخراً فى البحرين أن هربت ابنة عائلة تنتمى الفرع الصغير من عائلة الخليفة وعقدت قرانها على نجل أبرز التجار فى المنطقة ، الذى ربما كان أغنى فرد فى الجزيرة ، وهو مسلم سنى مثل آل خليفة وعضو فى الفئة التجارية القديمة المهيمنة التى تشكل عنصراً بالغ القوة من عناصر المجتمع فى الخليج . وكان الزوجان طالبين يدرسان فى الجامعة الأمريكية فى بيروت عندما جمع الحب بينهما وقد حرما من دخول الجزيرة . وحدث بعض التنازل مؤخراً سمح بمقتضاه للزوج بالعودة للجزيرة إذا ماشاء ذلك ، ولكن الزوجة وطفلها مازالا ممنوعين من العودة .

ويتم التمييز بين العائلات وفقاً لنظام الزواج فيها ، ذلك أن مجتمع الرجال العام الواسع النطاق يختلف تماماً عن مجتمعات النساء الصغيرة المحدودة فى بيتها ، وعن طريق هذه الشبكة النسائية تستطيع العائلات التى تعرضت لنكسات مالية أو سياسية ، أن تحتفظ بنفوذها المستمد من نشأتها وأيضاً بوضعها المفضل كشركاء فى الزواج ، مما قد يسمح لها بفرض مركزها على الآخرين مرة أخرى .

وأدى اختلاط العديد من العشائر العربية التى تنحدر من أصل عمانى بالسلالات الإيرانية وغيرها من السلالات على مدى سنوات حياتها الطويلة على شواطئ الخليج ، أدى ذلك إلى فساد سلالتها ، وبالتالى أصبحت لاتستطيع

الزواج من عائلات الأشراف . ويتم الحفاظ على التركيب الطبقى للمجتمع التقليدى بنفس الصرامة التى كانت تشغل المرشح لإدراج اسمه فى تقويم جوته ، والذى كان يتلهف لإثبات سريان الدماء الزرقاء فى أسلافه منذ ٣٢ جيلا . ومهما كانت العائلات متساوية من حيث درجة الثراء والوضع الاجتماعى ومهما كانت درجة الألفة فى اختلاط رجال هذه العائلات ، إلا أن نظام الزواج فى هذه العائلات هو وحده الذى يوضح بصورة جلية حقيقة العلاقات بينهما .

ولم تأخذ منطقة الخليج الحديثة شكلها الحالى إلا فى نهاية القرن التاسع عشر . ومضى وقت طويل قبل أن يتمكن البريطانيون من إقرار السلام فى المنطقة حتى أمكن للأسواق أن تنمو . ولم تتغير الصورة المعروفة عن الكويت والبحرين بأنهما ميناءين بحريين عربيين خاملين يحكمهما شيوخ القبائل ولايقيم بهما من الأجانب سوى حفنة من المبشرين الأجانب ومندوب سامى بريطانى ، إلا بعد مرور عدة سنوات على بدء القرن الحالى .

ويشهد الوافد الجديد على منطقة الخليج مجتمعاً يبدو محدثاً فى ظاهره ، وسريعاً فى التعود على استخدام الآلات الحديثة ، ويتسم بالكفاءة التامة على طراز مدرسة الأعمال التجارية فى أمريكا ونادراً ما يحتفظ بقوة دفعه . وهو مجتمع يكافح من أجل التعبير عن هويته الخاصة به ، ولكنه ليس واثقاً حتى الآن من نوعية هذه الهوية . وبعد أن كان الوجود الأجنبى يقتصر على عدد من البريطانيين فقط . أصبح الآن يضم أجانب من جميع الجنسيات . وهؤلاء ليست لهم أية صلة بالتجربة الاستعمارية ، وهم سعداء بذلك . ويعتبر معظم الشباب العرب أن استبدال المربية البريطانية بآنسة فرنسية أو مربية ألمانية أو سويسرية بمثابة خطوة جسورة للأمام ، كما أن التنافس بين الساعين للزواج منهم من جميع جنسيات العالم يرضى غرورهم تماماً .

وتظهر الآن على السطح وجهة نظر أكثر اتزاناً بين الجيل الحاكم من كبار التجار والذين يقتربون الآن من سن الستين ، فهم يشبهون وضع بريطانيا بحالتهم الصعبة عندما يفقدون قريباً حيويتهم وقوتهم ، وعندها

سيكفون عن محاولة مسايرة منافسيهم الشبان وينتقل عملهم إلى أيدى الجيل التالى من ذوى التوجيه والسيطرة بصورة نشطة . ولا تنطوى نظرتهم إلى ماقام به البريطانيون على أى قدر من عاطفة المودة ولكن هنا وعياً سائداً بينهم واعترافاً بالفوائد السابقة المستمدة من الصلة مع بريطانيا والتى ترجع إلى تصوراتهم الخاصة بقدر ما ترجع إلى التباهى الصاخب من جانب المغتربين البريطانيين أنفسهم .

ولا يستطيع إلا القليل من هؤلاء الرجال تتبع تاريخهم بوضوح إلى ما قبل جيل الجد من جهة الأب ، أى عند بداية القرن ، وعلى الأكثر حتى الربع الأخير من القرن التاسع عشر . وعلى عكس العائلات القبلية الأرستقراطية ذات الأصل الكريم الثابت ، والتى تحمل المعاهدات والاتفاقيات توقيعها ؛ فإن عائلات التجار لا تستطيع تقديم سوى عدد ضئيل من الوثائق وإن كان الكثير منها يبدى الآن اهتماماً بتتبع أصولهم ، وقد ازدهرت تماماً عملية تتبع تاريخ العائلات . والحقيقة الثابتة بشأن المؤسسة التجارية الراسخة فى المنطقة هو أنها تستمد ثروتها من صلاتها السابقة مع البريطانيين . فقد كان الخليج أشبه بنوع من المعدة التى يمر من خلالها وجبة من التجارة ، ولكن البريطانيين هم الذين أعدوا المائدة وجاءت الإمدادات من الهند ، وكان لاحتياجات الهند الأولوية على أى شيء كان عرب الخليج أنفسهم يرغبون فيه .

على أن الوجود البحرى البريطانى وعملية حفظ السلام التى قاموا بها فى القرن التاسع عشر قد حققت ما هو أكثر من مجرد إثراء قطاع واحد من المجتمع . فقد كان أشبه بمكنسة دخلت جميع الزوايا والأركان المظلمة فى الأنظمة الآسيوية المتداعية ، والتى كانت مازالت قائمة هناك واكتسحت فى طريقها القرصنة الوهابية ، ورسمت خرائط للسواحل القاحلة ووضعت فيها العوامات وأقامت الفنانر بها ، وهاجمت تجارة العبيد فى شرق أفريقيا وفروعها الواسعة النطاق فى الخليج ووضعت حداً لها ، وأخيرا أنهت عمليات نقل السلاح من مسقط وبذلك سمحت بدخول الجزء الأخير من حياة إمبراطورية فى هذا القرن ، الأمر الذى ساعد على تكوين ثروات ضخمة

وجعل من البحرين الميناء الذى يمثل المركز التجارى لساحل شبه الجزيرة العربية الشرقى ، حيث أمد نجد الجنوبية بالأقمشة والبن وأرز رانجون والسكر وملابس برمنجهام .

وقد بدأ الهجوم على تجارة الرقيق العربية وعلى عمليات شحن العبيد فى الهند ، حيث تم تشكيل مجموعة ذات نفوذ من المتعاطفين مع الإنجيليين من بين أفراد الجيل الجديد من الإنجليز الذين تولوا مناصب رسمية هناك . وبدأ الهجوم فور صياغة معاهدة سنة ١٨٢٠ بين شركة الهند الشرقية وزعماء ساحل القراصنة واستمر طيلة القرن وحتى عصرنا الحالى .

وقد بدأ فى الهند لأنها كانت المكان الذى تتخذ فيه القرارات المتعلقة بالخليج ، الأمر الذى ظل سائداً حتى عام ١٩٤٧ عندما أدى تقسيم الهند إلى إعادة النظر بشأن ترتيب كان سيؤدى إلى وضع دول الخليج تحت إدارة باكستان أو الهند . وعندما ننظر إلى الأمور الآن نجد أن اختيار بومباى أو كلكتا أو سيملا باعتبارها أفضل مكان يتم منه حكم العرب ، هو أمر قابل للجدل ، ولكن ذلك كان أمراً محتماً بصورة ما فى عهد شركة الهند الشرقية نظراً لأنها كانت تمثل السلطة البريطانية الوحيدة فى المنطقة .

وقد عينت شركة الهند الشرقية أول مندوب سامى بريطانى فى مسقط فى عام ١٨٠٠ . وأحدث هذا التعيين توازناً مع علاقات الصداقة القائمة منذ وقت طويل بين الفرنسيين والسلطان ، وكانت الخطوة الأولى فى طريق زيادة التدخل البريطانى فى شئون السلطنة ، ولم يكن المنصب مريحاً من الناحية الصحية ، فقد تسبب الحر القائظ والجو الخانق فى وفاة المعينين هناك أو إصابتهم بالعجز الكامل بصورة متوالية وظاهرة ، إذ مات أربعة منهم خلال السنوات التسع الأولى وتم التخلى عن هذا المنصب لفترة من الوقت .

ونشأت أهمية هذا الأمر بالنسبة للبريطانيين نتيجة لالتقاط بعض الرسائل التى كتبها نابليون فى مصر عام ١٧٩٩ وتخاطب السلطان ، باعتباره الصديق والحليف المحتمل وذلك بهدف استخدامه كصندوق بريد لنقل المراسلات ،

مع المتعاطفين مع الفرنسيين ومع عملائهم فى الهند ، حيث إن هؤلاء لم يكونوا قد تقبلوا بعد حقيقة « الانتصار البريطانى » .

وبعد تبدد التهديد الفرنسى نتيجة لهزيمة الفرنسيين فى موقعة النيل ، ظهر خطر جديد من داخل وسط الجزيرة العربية نفسها ، إذ بدأت فيها الحركات الأولى لسلطة الوهابيين ، وتحت زعامة عائلة سعود ، تعرض سلاطين عمان ، والذين كانوا حتى ذلك الوقت أقوى أمراء فى شبه الجزيرة العربية لهجوم شديد من البر والبحر .

وقد نجحت عائلة آل بوسعيد التى تحكم عمان الآن فى فرض سيطرتها فى عام ١٧٤١ باستخدام الأساليب التقليدية وهى القتل والزواج ، واستعادت الأراضى الأفريقية والآسيوية التى كانت العائلة المالكة السابق قد خسرتها أمام البرتغاليين . ومع بداية القرن التاسع عشر ، اختفى الخوف من المطامع الفرنسية حيال الهند من أذهان البريطانيين ليحل محله الخوف من المطامع الروسية حيال الحدود الشمالية الغربية لشبه القارة . وكانت ممتلكات السلطان فى ذلك الوقت تمتد من الساحل الشرقى لأفريقيا وجزر زنجبار ولامو ومافيا وبمبا حتى الشاطئ البعيد لخليج عمان ، حيث كان يسيطر على سواحل جواد ومقرن كما استأجر بندر عباس من الإيرانيين.

وعندما أدى ضغط الوهابيين إلى حرمان قبائل المنطقة السفلى من الخليج من تجارة القوافل البرية وأجبرهم على الخروج للبحر لكى ينهبوا السفن المارة عبر مضيق هرمز ، عانى العمانيون وأيضاً شركة الهند الشرقية من أعمال السلب هذه والمعروف أن أفضل الترتيبات هى تلك التى تنطوى على اقتسام مصلحة مشتركة . ولقد كان من مصلحة البريطانيين عقد صداقة مع العمانيين لكى يمنعوا دخول الفرنسيين المنطقة ، والآن أصبح من مصلحة العمانيين أن ينضموا للبريطانيين لكى يمنعوا دخول الوهابيين . وقد وحد الاثنان جهودهم من أجل إخماد مصدر الإزعاج ذلك ، وبعد سلسلة من الحملات البحرية والعسكرية المشتركة تم إلحاق الهزيمة بقراصنة القواسمة وبنى ياس ، وكذلك قصف وإحراق مخابئهم المحصنة تحصيناً سيئاً ، والواقعة على امتداد الساحل وفى شبه

جزيرة موسندام ، كما استولوا على مراكبهم الشراعية كغنائم حرب أو أحرقوها على الشاطئ .

وبعد أن تم احتواء الهجوم الوهابى ضد عمان ، أبرمت شركة الهند الشرقية عن طريق المفاوضات سلسلة من الاتفاقيات مع القبائل البحرية الموجودة فى الخليج ، وتوجت هذه الاتفاقيات بإبرام المعاهدة العامة فى عام ١٨٢٠ ، والتى حولت ساحل القراصنة إلى عمان المتحدة ، الإمارات المتحدة التى أصبحت دولة الإمارات العربية المتحدة فى عام ١٩٧١ .

وكان من بين الضباط الإنجليز الذين اشتركوا فى تلك العمليات الكابتن ت . بيرونيت طومسون . وكان من المستعربين وآلت إليه مسئولية إجراء مناقشات ومفاوضات مع الزعماء المهزومين ، وكذلك صياغة المعاهدة باللغتين الإنجليزية والعربية . وصحبته زوجته نانسى باركر وهى شابة نشطة من يوركشاير مع ابنهما الصغير ، وقد دونت بخط يدها جميع نسخ المعاهدة العامة التى تم تسليمها إلى مختلف زعماء القبائل .

وكانت عائلة طومسون تنتمى إلى طبقة التجار الثرية المتمسكة بالدين والتى حلت فى القرن التاسع عشر محل طبقة ملاك المزارع والأشخاص ذوى الثراء والمكانة التى كانت تتمتع بالقوة فى الفترة السابقة . باعتبارها العنصر النموذجى فى الحياة التجارية فى بريطانيا . وكانت عائلة طومسون صديقة لجون ويزلى ، وكان والد طومسون ينتمى إلى عائلة ويلبرفورس التجارية فى هال وكان واعظاً علمانياً من أتباع الحركة الدينية الإصلاحية .

وكانت هال مركزاً للاهتمامات الإنجيلية الناشئة وقد تولى وليام ويلبر فورس تقديم طومسون إلى طائفة كلابهام ، وهى مجموعة من الإنجيليين الذين يقومون بنشاط كبير فى مجال الإصلاح الإنسانى ، وكانت تعتبر قوة مؤثرة فى إثارة الشعور العام ضد تجارة الرقيق فى تلك الفترة . وكانت مستعمرة سيراليون قد تم تأسيسها بالفعل فى عام ١٧٨٧ لكى تكون موطناً للعبيد الذين تم عتقهم ، ونجح المعهد الأفريقى وجمعية إلغاء الرق فى التأثير على ضمير

الرأى العام المستنير فى بريطانيا إلى حد أن مجلسى البرلمان أصدرا فى عام ١٨٠٧ مشروع قانون ينص على أن جميع صور التعامل والمتاجرة فى شراء وبيع والمقايضة على العبيد أو نقلهم .. قد تم إلغاؤها كلية ، بمقتضى هذا المشروع . وفى أمريكا وقع الرئيس جيفرسون على مشروع قانون بإلغاء تجارة العبيد قبل ثلاثة أسابيع من سن قانون الإلغاء فى بريطانيا ، وبدأ تنفيذه فى أول يناير عام ١٨٠٨ .

وعندما قام طومسون بصياغة البنود الأحد عشر فى المعاهدة العامة المبرمة مع زعماء القراصنة فى قبائل القواسمة وبنى ياس ، أضاف إليها الفقرة التاسعة من المعاهدة التى تنص على أن « نقل العبيد بالقوة سواء من الرجال أو النساء أو الأطفال من سواحل أفريقيا أو غيرها من السواحل وكذلك نقلهم فى السفن ، يعتبر نهباً وعملا من أعمال القرصنة ولن يقوم أصدقاؤنا العرب بأى عمل من هذا النوع » . وقد كتب طومسون يقول فى خطاب إلى أحد أصدقائه فى ذلك الوقت أنه من الأمور ذات المغزى أن الشيوخ قد ضحكوا تماماً من هذه الفقرة ، وافترض طومسون أن السبب يرجع إلى أن السلطان حليف بريطانيا وشعبه فى مسقط كانوا أكثر الجميع انغماساً فى تجارة العبيد .

وابتداء من القرن العاشر وما بعده قام العرب بالاستيطان فى ساحل شرق أفريقيا ، وكانت كيلوا ، وسوفالا ومقديشيو وماليندى ومومباسا وزنجبار ، مركز للنفوذ العربى قبل وقت طويل من دخول الأوروبيين المحيط الهندى . وكانت المدن تستخدم كأسواق تتدفق منها التجارة القادمة من الداخل على الساحل ، كما سيطر العرب على جزء كبير من تجارة العاج والعنبر والحديد وصدروا أيضاً العبيد السود .

وكانت تجارة العبيد فى حد ذاتها تجارة قديمة جداً . وترجع أول إشارة إليها مكتوبة إلى القرن الثانى الميلادى . وكان العبيد السود يتم نقلهم إلى الصين فى العصور الوسطى . وترجع صلة التجارة بمنطقة الخليج إلى زمن بعيد ، إذ اشترك الكثير من العبيد السود فى ثورة العبيد الكبرى التى وقعت

فى وادى الفرات الأدنى فى عام ٨٦٩ ، عندما تم الاستيلاء على البصرة ونهبها وقد هلك حوالى نصف مليون شخص فى القتال الذى استمر عشر سنوات قبل أن يتم سحق الثورة .

وكان يجرى نقل العبيد عبر الخليج إلى الهند وفى نفس الوقت الذى تم فيه نقلهم إلى الشرق الأوسط عن طريق الخليج ، وبرغم أن حجم التجارة لم يكن ضخماً إلا أنه كان كافياً لإثارة غضب المصلحين الاجتماعيين الإنجليز . ولم يكن الأمراء المسلمين والأثرياء فى الهند يحتاجون إلى كل تلك القوة العاملة حيث كانت متوفرة بكثرة فى الهند ، بقدر ماكانوا فى حاجة إلى خدم خصوصيين وحراس خصوصيين وخصى يتولون حماية « الزنانا » الخاصة بهم ، وهو المكان الذى كانت نساؤهم تعيش فيه فى عزلة تامة . وكان من الممكن شراء العبيد فى جوا وأيضاً فى كلكتا حيث ذكرت أنباء أن تجار الرقيق العرب أحضروا إليهما فى ذلك الموسم ١٥٠ خصياً .

وقد اختفت عملية توريد الخصيان البيض فى القرن التاسع عشر ، ولكن التقليد القديم الخاص بتصدير الخصيان السود من ساحل شرق أفريقيا استمر طوال تلك الفترة ، وكانوا يشترون بأسعار باهظة فى الأسواق المصرية والإيرانية والأسواق الموجودة فى شمال الهند . واستمرت عملية بيع وشراء العبيد فى جميع أنحاء الإمبراطورية العثمانية وإيران وجميع الدول الإسلامية باعتبارها نشاطاً مشروعاً فى نظر المسلمين وذلك حتى القرن الحالى عندما أحجم كل من ابن سعود وإمام اليمن عن إصدار تشريع يحرم هذه العملية بالرغم من أن التجارة قد ألغيت رسمياً فى مصر والإمبراطورية التركية وإيران .

وكان العالم الإسلامى بأكمله طرفاً فى هذه التجارة ، واعتاد حكام الأقاليم ووزراء البلاط والمواطنون البارزون الراغبون فى كسب خطوة لدى السلطان تقديم هدايا من الجوارى ، سواء من البيض — وهن اللاتى كن يأتين من قبائل جورجيا والجراكسة فى البحر الأسود . حيث كانت هذه القبائل تبيع بناتها متصورين أنهن سيعشن حياة التنعم والراحة — أو من الجوارى السود . ومن الجوارى السود ، كان أكثر الطلب على الأثيوبيات ليس فقط من أجل منظرهن

الحسن ، بل أيضاً لذكائهن . وكانت قبائل بنات غالا الوثنية فى الصومال مطلوبة بصفة خاصة لجمالهن ، وتولى التجار الأحباش المسيحيون بيع بنات وأولاد هذه القبيلة عن طريق السلطان لينضموا إلى الحريم فى تركيا ومصر ، كما كان المسلمون الصوماليون يجلبون إلى البحر الأحمر ليباعوا فى السوق العربى .

وكان سعر العبد الحبشى أو الأثيوبى أعلى كثيراً من سعر العبد الأفريقى الأسود العادى « سيدى » وكانت المجتمعات التى تمتلك العبيد فى الشرق تقدره كثيراً لنحالة جسده وتكوينه المشوق وتقاطيعه المستوية ، وعيناه الجميلتين وشعره الطويل المفرود الذى يتموج أحياناً ولكنه لا يتجعد على الإطلاق . وكان لونه أيضاً يتراوح ما بين العاجى الفاتح حتى البرونزى والأسود الفاحم تقريباً ، وأطرافه النحيفة تتميز بالرقة والجمال وعيناه الجميلتان تضمنان سوقاً رائجاً للآلاف من هذا النوع الذين يجلبهن التجار كل عام .

ويبدو أن عملية خصى الصبيان لكى يستخدموا كخصيان فى الحريم قد نشأت أصلا لدى العرب ، فقد تزايد عدد الخصيان المستخدمين فى سراى حريم السلطان بصورة مطردة عبر القرون مع نمو ثراء الإمبراطورية وترفها ، وهكذا عندما تم خلع السلطان عبد الحميد فى عام ١٩٠٨ ، وجد لديه ٣٧٠ امرأة فى الحريم و ١٢٧ خصياً . وكانت نسبة الخسارة فى العملية مرتفعة جداً . إذ كان يتم إجراء حوالى ٣٠٠٠ عملية سنوية فى شمال السودان من أجل سوق القاهرة ، على أن الخسارة فى الأرواح قد قدرت بحالة واحدة ناجحة فى كل خمس عمليات ، وأحياناً حالة واحدة فى كل عشر عمليات .

واستمرت التجارة القادمة إلى شبه الجزيرة من طاغوره الواقعة على خليج عدن حتى القرن العشرين ، على الرغم من توقف عملية خطف العبيد كمهنة معترف بها . إذ كان الآباء يقومون بخصى أبنائهم الصغار الذين تتراوح أعمارهم ما بين التاسعة والخامسة عشر لهذا الغرض ، وأحياناً يقوم بالعملية ساحر القرية . وبعد تخدير الصبيان تخديراً كاملا ، كانوا يستأصلون أعضاء التناسل لديهم بالكامل ويتم صب الزيت المغلى ليسد موضع الجرح ثم توضع كمادات من

أوراق النباتات المطحونة فوقه . وإذا لم يصب الصبى بتلوث فى المثانة يؤدى لوفاته خلال ستة أيام ، فإنه يعتبر قد تخطى مرحلة الخطر ، ويتم تغذيته ليسترد قوته فيعطى طعاماً يتكون من اللحم النيئ والعسل . ويستكمل الصبى شفاؤه بعد شهر .

وكانت عملية الخصى التى يقوم بها تاجر العبيد كصفقة تجارية تتسبب فى نسبة خسارة رهيبة . إذ كان ٦٠ ٪ ممن تجرى لهم العملية يموتون خلال ٢٤ ساعة ، وأدت ندرتهم إلى ارتفاع أسعارهم ارتفاعاً شديدا ، وهكذا كان سعر الشابة الأثيوبية الحسناء فى بداية القرن الحالى يبلغ ٧٥ جنيها استرلينيا ، فى حين كان سعر الخصى يبلغ ستة أمثال هذا الرقم وكان مالك الخصى يعلمه لكى يصبح سكرتيرا خاصاً له ويمسك الدفاتر والحسابات . ويتولى غير ذلك من الواجبات المسئولة إذ كانت حالته المحايدة ، لا بالذكر ولا بالأنثى ، تجعله خادماً مخلصاً ويعتمد عليه وقد وصل عدد كبير من الخصيان فى الفترة الأولى ، إلى مناصب ذات أهمية ونفوذ كبير نظراً لهذا السبب .

ولم يطبق البند التاسع من المعاهدة المبرمة عام ١٨٢٠ .. والمناهضة لتجارة الرقيق ، على سلطان مسقط وشعبه ، وهم أكبر تجار الرقيق فقد أعفاهم حلفاؤهم الإنجليز من التدخل فى عملهم . وكانت مسقط هى الرابطة التى تربط تجارة إعادة تصدير العبيد الواسعة النطاق إلى النقاط الواقعة على إمتداد ساحل مقرن ، وإلى الهند ، ثم إلى داخل الخليج ، ومن زنجبار والإمارات الأخرى التابعة للسلطان والممتدة على طول الساحل الأفريقى ، تم تصدير ما لا يقل عن عشرة آلاف عبد إلى الشمال مع هبوب الرياح الموسمية سنوياً . ناهيك عن أولئك الذين تم الاحتفاظ بهم لكى يعملوا فى مزارع الأرز الموجودة فى الجزيرة أو تم شحنهم جنوباً إلى الممتلكات الفرنسية فى المحيط الهندى .

وقد كانت تجارة ضخمة زاد حجمها بدلا من أن ينقص مع بداية القرن . وفى البداية ركز دعاة إلغاء الرق اهتمامهم على تجارة غرب أفريقيا والتى كانت تغذى جزر الهند الغربية والأمريكتين ، ولذلك لم ينتبهوا إلى

التجارة المستمرة فى المحيط الهندى ، فقد كان الفرنسيون يقومون بنشاط كبير هناك منذ أوائل القرن الثامن عشر ، فأقاموا مزارع للسكر وزرعوا الأرز والفانيليا وأدخلوا أنواعاً حديثة من الزراعة والأعمال الزراعية فى الجزر الكبرى الواقعة فى جنوب المحيط . وقد استخدم المزارعون ، العمال العبيد ليعملوا فيها . وعلى الرغم من أن هذا أصبح ممنوعاً من الناحية النظرية بعد نشوب الثورة الفرنسية ، إلا أن الحال استمرت من الناحية الفعلية كما كان من قبل ، وكان العرب العمانيون يزودون أصحاب المزارع بالعبيد ، وكانوا يجمعونهم من أقاربهم فى المدن الساحلية الأفريقية أو من سوق العبيد فى زنجبار . كما كان البرتغاليون أيضاً يمدون هذا السوق بالعبيد من مستعمراتهم الباقية فى موزمبيق . وفى السنوات الأولى من القرن التاسع عشر تم توزيع عشرة آلاف عبد سنويا على أمريكا الجنوبية وجزر المزارع الفرنسية الموجودة فى المحيط الهندى . ومع حلول عام ١٨٣٠ كانت كلمان أهم ميناء للعبيد فى أفريقيا ، وكانت حركة التجارة عامة وعادية جدا حتى أن عبيد شرق أفريقيا كان يطلق عليهم اسم الموزمبيقيين . وكان عدد السفن القادمة من ريو دى جانيرو يتراوح ما بين إحدى عشرة وأربع عشرة سفينة سنوياً ، تقوم كل سفينة بنقل أربعمائة وخمسمائة عبد .

وقد تحدت هذه التجارة جميع محاولات المصلحين الاجتماعيين للحد منها حتى ظهرت الحمى الصفراء فى عام ١٨٤٩/١٨٥٠ فى البرازيل وقيل إن السبب هو العبيد القادمون من شرق أفريقيا ، وأدت موجة الاحتجاج العامة إلى خفض الوارد من ستين ألف فى عام ١٨٥٠ إلى عدة آلاف فقط فى عام ١٨٥٣ ومع حلول نهاية القرن تم إلغاء التجارة وبذلك انقرضت .

على أن التجارة العربية استمرت وقتاً أطول . وفى البداية تعرض السلطان سيد سعيد بن سلطان لضغوط فى عام ١٨٢١ من جانب حكام مورشيس ورئاسة بومباى التابعين لشركة الهند الشرقية ، حيث طلبوا منه إلغاء تجارة العبيد القادمين من ممتلكاتهم فى أفريقيا إلى أقاليمهم ، وكذلك منع الوكلاء الأجانب من إجراء أية معاملات تجارية بشأن العبيد .

ووافق سعيد على ذلك بعد تفكير طويل . فقد ضمن استقبال سفنه فى موريشيس على نفس الأساس من ناحية الامتيازات التى كانت تستقبل بها فى موانىء الهند البريطانية ، ثم كتب بعد ذلك يقول إنه منع نوابه ووكلاءه صراحة من بيع العبيد إلى السفن البرتغالية والفرنسية والأمريكية أو إلى أى أشخاص مسيحيين ، على أنه « حزين جداً » لعدم استطاعته أن يفعل شيئاً بشأن منع شعبه من ممارسة التجارة لأن ذلك « يمس شعبه من ناحية الدين » .

وقد كلفه هذا الاتفاق خسارة سنوية فى رسوم العبيد بلغت حوالى ١١,٢٥٠ جنيهاً استرلينياً ولكن تمتع سفنه التجارية بحرية دخول الموانى البريطانية مجاناً عوضه عن ذلك تماماً ، كما حصل على اعتراف غير مباشر بسيادته المطلقة فى شرق أفريقيا .

وكان ذلك عهد التوسع الكبير فى التجارة . فقد تولى إدارة شركة الهند الشرقية صنف جديد من الرجال الإنجليز ، ومبدأ تطبيق مبادىء الاقتصاد السياسى تطبيقاً حرفياً لتحل محل الأساليب شبه الشرقية التى كانت متبعة فى القرن الثامن عشر . ولم يعد الرجال يذهبون إلى الهند لتولى المناصب ذات المسئولية مدفوعين فحسب بالحماس الإنجيلى على غرار أسلوب ديزلى ، بل كانوا أيضاً متأثرين فكرياً بالفلسفة النفعية التى وضعها جيرمى بنتام والأخوين ميلز ، جيمس وجون ستيوارت وكلاهما كانا يعملان فى مجلس إدارة الشركة فى لندن .

وأدى رواج التجارة الحرة إلى فتح المحيط الهندى . وقد استمرت السفن الشراعية الضخمة التابعة للشركة تقوم برحلاتها حول رأس الرجاء الصالح ولكن تجارة « البلاد » المتجهة إلى الخليج ، والساحل الأفريقى ومدغشقر ، وسيشيل وموريشيس والجزر المجاورة لها أصبحت فى أيدى السفن الهندية والعمانية . ومع رواج حركة التجارة جاء التجار الهنود . وقد استقروا فى مطرة ومسقط فى عمان ، وفى زنجبار وعلى الساحل الأفريقى . ومعظمهم كانوا من الحوقة القادمين من الساحل الغربى ، ومن الهندوكيين الذين اعتنقوا

المذهب الإسماعيلى التابع للشيعة المسلمين وأتباع أغا خان وهو وجيه فارسى كان يتمتع بحماية البريطانيين . وقد جلبوا معهم الصلات التجارية والمهارة فى ممارسة الأعمال التجارية ، وهى الصفات التى يتسم بها جنسهم واستقروا فى جاليات منعزلة أقاموها فى المناطق التجارية التى اختاروها . وبعدهم جاء البهايباند والبهاتيا من السند ، وهم تجار حبوب ومنسوجات ، وجاء فيما بعد صناع الصياغ والجواهرجية من جوجرات . وقد عزز أولئك المهاجرون الهنود مراكزهم إلى حد أن سوق الحبوب فى عمان مازال تحت سيطرة مطرة حيث أقام هؤلاء المهاجرون مستوطناتهم منذ مائة وخمسين عاماً ، ويواصل تجارهم جيلا بعد جيل سيطرتهم الهادئة دون تطفل على جزء كبير من اقتصاد البلاد .

وفى عام ١٨٣٣ ترك سيد سعيد مقر إقامته فى مسقط ونقل بلاطه إلى زنجبار حيث شيد لنفسه قصراً وبدأ ينشىء مزارع للقرنفل والأرز . ومن هناك عزز من جديد سيطرة عائلته على مومباسا والمدن الساحلية الأفريقية وأنشأ شبكة للتجارة داخل البلاد امتدت إلى مسافات بعيدة حتى أصبح من الممكن القول فى نهاية الأمر أنه عندما كانت الطبول تدق فى زنجبار يرقص الناس فى البحيرات العظمى .

وكان الطلب على العاج فى الخمسينيات والستينيات هو الذى دفع التجار العرب للتوغل فى الداخل ، ولكن تجارة العبيد هى التى سيطرت بعد ذلك على أنشطتهم . إذ ازداد الطلب على العبيد بصورة مطردة خلال الفترة الوسطى من القرن ، وأصبحت زنجبار السوق العظيم لهذه التجارة ، والمكان الأمين والملائم لوضع آلاف الأفريقيين الذين يحضرهم تجار العبيد العرب والهنود سنوياً ، ثم يتم شحنهم من الجزيرة فى سفن عمانية وفرنسية وبرتغالية وأمريكية إلى المزارع .

وقد اشترك فى ممارسة هذه التجارة السلطان نفسه وأقاربه والعرب الأثرياء والتجار الهنود . وكل شتاء يحضر العرب الشماليون من مسقط وصور مع هبوب الرياح الموسمية ، حاملين السجاجيد والبلح والسمك المملح

ويعودون فى سفنهم حاملين ألواحاً من خشب أشجار المنجروف الاستوائية ليصنعوا منها سقوفاً لبيوتهم ومعهم أيضاً العبيد الذين يضعونهم فى صفوف بين الألواح . وكانوا يدفعون ضريبة مقدارها دولار عن كل عبد يمر عبر جمرك زنجبار زيدت فيما بعد إلى دولارين ، ولكن السلطان وأقاربه كانوا يستوردون غنائمهم دون دفع أية ضرائب فى دفعات تضم كل منها ما بين ثلاثة آلاف وأربعة آلاف عبد ، وكانوا يستخدمونهم فى ضياعهم الخاصة أو يبيعونهم لسفن العبيد الأمريكية والفرنسية التى كانت تتردد على الميناء .

وكان معظم العبيد من الأطفال الذين تتراوح أعمارهم من الخامسة فما فوق وقد خطفهم النخاسون بينما كانوا يلعبون حول قراهم ، أو سرقوهم من زنجبار نفسها . وأحياناً كانوا من الأيتام الناجين من قوافل العبيد الطويلة القادمة من داخل البلاد ، ومع مرور السنوات أصبح المبشرون والمستكشفون يرقبون هذه القوافل فى حيرة وأسى أثناء توغلهم داخل البلاد قادمين من الأقاليم الساحلية . وكانت المناطق الساحلية المواجهة لزنجبار فى بداية القرن كثيفة بالسكان ويقطنها شعب يتحدث اللغة السواحلية والذى أخذ منه الجزء الأكبر من العبيد . ومع حلول منتصف القرن أصبح المرء يقطع رحلة مدتها ١٨ يوماً إلى داخل البلاد ، أى حوالى ١٥٠ ميلا قبل أن يصل إلى أية قرية أفريقية كبيرة ، ولم يعد العبيد القادمون إلى سوق زنجبار يتحدثون اللغة السواحلية حيث أنهم أصبحوا يجيئون الآن من نياسالاند . وقد وصل التجار العرب إلى بحيرة تنجانيقا فى أواخر الأربعينيات ، وكذا إلى بلاط حاكم بوجندا فى عام ١٨٤٣ .

وأدخل التجار الهنود الذين استقروا فى السلطنة والدول الأفريقية التابعة لها ، عنصراً جديداً على التجارة . وفى البداية كان نقل العبيد شمالا إلى عمان والخليج يتم جنباً إلى جنب مع التجارة العادية التى تجرى فى موسم الرياح الموسمية ولم يكن العبيد هم الشحنة الرئيسية . ولكن مع ازدياد الطلب على العمال العبيد ، أصبح جلب العبيد مهنة مستقلة فى حد ذاتها ، وجعل منها البحارة العرب عملهم الوحيد ، حيث كانوا يكدسون ما بين مائة

ومائتي عبد في وقت واحد في سفنهم الشراعية . واستخدم الأسبان والفرنسيون السفن الشراعية السريعة «يانكي» في هذه التجارة ، وكانت السفينة الواحدة تحمل ألف عبد ، وظل هذا الحال قائماً حتى عام ١٨٦١ عندما أصبح لينكولن رئيساً للولايات المتحدة وأدت الحاجة إلى المساندة البريطانية في الحرب الأهلية إلى إجراء تغيير في السياسة الأمريكية بشأن هذه التجارة .

ولكي يتمكن العرب من تدبير الأعداد الكبيرة المطلوبة من العبيد ، فإنهم تحولوا إلى القيام بحملات لجميع العبيد من داخل البلاد يمولها التجار الهنود الذين كانوا يوردون بالدين بعض السلع مثل قماش الشيت القطني وعقود الخرز والسلك النحاسي والبارود وغيرها من السلع التجارية ويقايضون عليها مع زعماء القبائل الأفريقية مقابل بعض الأفريقيين الذين تم أسرهم سواء في الحرب أو في غارات تم شنها خصيصاً لهذا الغرض . ولكي يضمن العرب استمرار إمداداتهم من العبيد ، فإنهم دعموا الحروب القبلية وأمدوا القبائل بالبنادق والذخيرة مستخدمين بقايا الشعب السواحلي كمرتزقة مسلحين يتولون حماية القوافل الطويلة من الرجال والنساء والأطفال الذين كانوا يقتادونهم إلى الساحل . وكانت التجارة مربحة للغاية بحيث أن السفينة الشراعية الواحدة كانت تعود بربح يوازي ثمنها بعد رحلتين فقط . كما وجد البحارة القواسمة ، الذين حرموا من القرصنة كمورد رزق لهم ، في جمع العبيد بديلا مقبولا ، وأضفوا على العملية قدراً من الجرأة والقسوة اللتين اتسمت بها عملياتهم السابقة .

وقد تساءل أغا خان في مذكراته التي نشرت في عام ١٩٥٤ عما حدث أثناء حياته ، للرجل الإنجليزي الذي يرجع إليه ظهور التغيير الذي طرأ على أسلوب معاملته للأجناس الأصلية في الإمبراطورية فيقول : « خلال سنوات الثمانينات كانت العلاقات طبيعية بصفة عامة وودية وخالية من التوتر ، ولكن بعد ذلك لم يعد ينظر إلى حاجز اللون باعتباره فارقاً مادياً ، ولكن ما هو أخطر من ذلك بكثير أنه أصبح يشكل فارقاً ثقافياً وروحياً » .

وتلاشى الحماس الإنجيلي والتفاؤل الذي غلف حركات الإصلاح العظيمة في الجزء الأول من القرن ، قرب نهايته وحلت محله فكرة الواجب الكئيبة . وكذلك المفهوم الخاص بمهمة فرض الحضارة بالقوة والقائم على أساس الكفاءة وحسن الإدارة ، ولا يسعى للحصول على العطف والحب أو منحهما. وقد طغى مبدأ الدكتاتورية الكامن في الفلسفة النفعية على العامل الراديكالي وتشكل بعد ذلك في صورة مواقف التعالي والتباعد ، بحيث أنه في الوقت الذي تحقق فيه الخير لأعداد أكبر من الناس ، إلا أن ذلك تم بأسلوب بارد مبني على المنطق البحت ، وهي الصفات التي تتسم بها الصفوة المتعلمة .

وطرحت جانباً المشاعر الدافئة التي ميزت العصر السابق . وقد اعتقدت أحياناً أن الكفاح الطويل من أجل إنهاء تجارة العبيد في المحيط الهندي له علاقة بهذا الأمر . فقد كان كفاحاً بدأ من الهند على يد رجال مثل الكابتن بيرونيت طومسون ، الذي آمن بقدرة قلب الإنسان على التغير . وقام بالكفاح ضباط ورجال الأسطول التجاري الهندي ، وأسطول الشركة ثم البحرية الملكية بعد عام ١٨٥٠ ، وربما لم يكن هؤلاء مقتنعين فكرياً بضرورة التغيير ، ولكنهم رأوا رؤيا العين ما كان دعاة الغاء الرق يتصورونه بخيالهم ، كما أنهم لم يتهاونوا مطلقاً في تنفيذ واجبهم نتيجة لذلك .

وقد خاضت بريطانيا ذلك النضال بمفردها مدة طويلة دون أن تتلقى مساعدة من جانب الفرنسيين والأمريكيين ، وإن لم يتدخلوا فعلياً لعرقلة جهودها ، وكان هؤلاء حريصين على الاحتفاظ بحقوقهم التجارية ، غير مبالين بصورة قاسية بالشحنات التي تنقلها سفن ترفع أعلامهم ، واستخدمت بريطانيا مع السلطان سيد وخلفائه أسلوب الترهيب والترغيب بهدف إثناء شعبه عن ممارسة هذه التجارة ، فقامت السفن البريطانية بدوريات في طرق الملاحة البحرية تولت إيقاف السفن وتفتيشها وإطلاق سراح العبيد المنقولين بها ، كما دفعت بريطانيا الغرامات والتعويضات وكانت تلك المهمة شاقة ومحفوفة بالمخاطر وأيضاً كئيبة . إذ كانت تفقد سفنها بعد أن اصطدم بالصخور أثناء العواصف وهي عاجزة بسبب حمولات العبيد التي تحملها

على ظهرها بعد إنقاذهم ، وقد قتل الكثير من الضباط والجنود فى قتالهم ضد جامعى العبيد ، وقد كان عالماً غريباً ، إذ تولى الضباط الشبان وضباط صف بحريون على عاتقهم مسئوليات جديدة غريبة ، عالم يسوده الخداع والقسوة تستعبد فيه الأجناس بعضها البعض الآخر . وكان النضال مشوشاً تماماً ومثيراً للإحباط . كان نضالا تخوضه دوريات بحرية غير مجهزة لهذه المهمة ، ولكن متمسكة بها بإصرار فى مواجهة الإثم والخداع .

وبدأت الدول الأخرى تحذو حذو بريطانيا تدريجياً فأنشئت الجمعيات فى فرنسا وبلجيكا وألمانيا ، وكانت جماعات الضغط التى تساندها قوية ، وتولت حكوماتها بدورها فرض الضغوط على المصريين والعمانيين والكوبيين والأمريكيين . وتحول أصحاب المزارع إلى استخدام العمال الذين تحت التمرين ، والعمال « الأحرار » الذين يحضرون للعمل بموجب عقود ، مثال أولئك الذين يخدم المرء فى الخليج اليوم ، وانتهى الحال بسفن نقل العبيد الضخمة مثل السفينة الأسبانية (شيشرون) التى بنيت فى أمريكا إلى نقل العمال غير المهرة من الصين .

وتم إغلاق سوق العبيد فى زنجبار فى عام ١٨٧٣ ومنعت تجارة العبيد فى البحر ولكن عملية جمع العبيد المحلية استمرت ، كما زادت حركة التجارة المتجهة شمالا على امتداد البحر الأحمر بصورة هائلة . وواصل ضباط سرب مكافحة الرق فى الساحل الشرقى مهمتهم العسيرة تنتابهم مشاعر الإحباط والمرارة فى أغلب الأحيان حيث كانوا يصطدمون بالمصلحين الاجتماعيين فى بلادهم وبقباطنة السفن الأمريكية وبالعرب وبالعبيد أنفسهم ، وأيضاً بالقيادة البحرية التى كانت ترسلهم فى مهام دون أن يتفهموا بصورة صحيحة حقيقة الوضع . على أنه بالرغم من مشاعر الإحباط والانتقادات والمخاطر والمصاعب التى واجهوها ، إلا أنهم لم يفكروا مطلقاً فى التخلى عن النضال فقد مروا بجزء كبير ممن برروا الرق كمؤسسة : فقد نجح سير آرثر هاردينج القنصل العام فى زنجبار فيما بين عام ١٨٩٤ و عام ١٩٠٠ فى منع تنفيذ المرسوم الصادر بإلغاء الوضع الشرعى للرق والذى أصر البريطانيون

على إصداره عندما استولوا على محمية زنجبار فى عام ١٨٩٠ ، ونجح فى ذلك لمدة عشرة أعوام وكان يتعلل بأن العرب سادة متسامحين وأن العبيد يعيشون حياة أقرب إلى حياة عبيد الأرض فى ظل الإقطاع منها إلى الحياة التعسة التى يحياها العبيد الذين تم تحريرهم . وقيل إن حرمان العرب من فرصة شراء المحظيات يعنى حرمانهم من كل ما يجعل لحياتهم معنى ، إذ أن النظام الإسلامى يحتم أن تختار عائلة الرجل له الزوجة ويستقبلها هو دون أن يراها أو يعرفها يوم زفافه . وكان شراء المحظيات هو الذى يسمح له بقدر ما من الاختيار والتفضيل الشخصى . وقيل أيضاً إن العبد يشكل جزءاً لا يتجزأ من المجتمع الإسلامى بحيث أن التدخل فى هذه المؤسسة سيشكل عبئاً ثقيلا وصعوبات لا يمكن تحملها كما سيؤدى إلى خلق فوضى خطيرة وانهيار اقتصادى . وكان السلاطين أنفسهم من نسل العبيد . إذ أن سيد سعيد لم ينجب أولاداً من زوجاته ولكنه أنجب الكثير من محظياته الكثيرات اللاتى ترك منهن ٧٥ محظية فى قصره عند وفاته . وكان العديد منهن من الجراكسة ومنهن أم ابنته سيدة سالمى التى فرت على ظهر سفينة حربية بريطانية إلى عدن بعد وفاته وتزوجت عشيقها الألمانى وأصبحت تعرف بعد ذلك باسم أميلى رويت ونشرت كتاباً عن حياتها فى عام ١٩٠٧ . وكان سعيد قد اشترى الأم وهى طفلة ونشأت فى قصره ثم تزوجها وهو كهل وأنجب منها أطفالا كان إخوتهم وأخواتهم غير الأشقاء أكبر منهم كثيرا وفى سن جدودهم .

ومن الممكن العثور على دليل بوجود أصل أفريقى للسكان فى كل مكان من الخليج اليوم — فمن بين سكان عمان فى القرن التاسع عشر كان الثلث من السود وانتشر العنصر الزنجى على امتداد ساحل مقرن وإلى داخل بلوخستان . وكان السود منتشرين بصفة عامة فى بومباى إذ كانت البحرية تحضر إليها العبيد المحررين ، ظل يمثل إحدى المشكلات المستمرة التى واجهت الدوريات المناهضة للرق ، إذ لم تكن هناك حلول مناسبة . فكان يتم تحرير العبيد فى سيشل وعدن وكاب تاون والهند ، ولم يكن هناك أحد يعرف بالضبط ماذا يفعل بهم . إذ أن العديد منهم كان قد تم أسره فى المناطق الداخلية من الساحل

الأفريقى أو كانوا صغار السن بحيث أنه لم يعد باستطاعتهم أن يتذكروا موطنهم الأصلى . وكانت إعادتهم إلى الساحل تعنى المخاطرة بتعرضهم للأسر من جديد على يد العرب والأفريقيين الآخرين ، ولم ينجح سوى عدد ضئيل جدا فى العودة إلى مواطنهم . ومن هؤلاء كان الثمانية عشر صبياً الذين أخرجوا من إحدى السفن الشراعية وسلمهم المندوب السامى البريطانى فى مسقط إلى المبشر الأمريكى « بيتر ذويمر » وكان أولئك الصبية عاجزين تماماً ، وفى حالة رعب بعد أيام قضوها مكدسين فى قاع السفينة ويحملون على وجناتهم العلامة التى طبعها عليهم النخاسون . فقد أخذهم المبشر بعد أن عجز عن إيجاد حل آخر وأطعمهم وكساهم وتولت الإرسالية تعليمهم حتى أصبحوا قادرين على كسب معيشتهم بأنفسهم .

واستمرت التجارة فى الخليج حتى القرن الحالى . . واستخدم المندوب السامى البريطانى فى مسقط حقه فى الإعتاق بالنسبة لعشرين عبداً فى عام ١٩٣٠ وفى البحرين تم تحرير ٣٠ عبداً فى تلك السنة . ومن بين أولئك الذين كانوا يتقدمون كل عام لدار المندوب السامى كان يوجد دائما واحـــدا أو اثنان من الخصيان . وأحياناً كانوا حديثى الإخصاء وجروحهم لم تلتئم بعد . وكان بعض هؤلاء العبيد السابقين يرقصون يوم عيد الميلاد حول صارى العلم الموجود فى دار المندوب السامى والتى كانت تعتبر فى وقت ما الرمز لحريتهم .

ومازالت مستعمرات الخدم المنحدرين من سلالة العبيد يعيشون حول قصور الشيوخ فى جميع أرجاء الخليج ، وتتكون الفرق الموسيقية والترفيهية من الزنوج ، وهم يمثلون الشركاء المـــأجورين فى أى مناسبة ابتهاج وتهليل ، وتصفق نساؤهم ويغنين فى حماس شديد على أنغام الموسيقى ويزغردن محدثات صوتاً حاداً يعبر عن نغمة الابتهاج العنيف الغريبة التى تثير الأعصاب مثل صوت مجموعة كبيرة من الطيور .

وأحياناً يسمع أثناء الليل فى المدن الصغيرة المكونة من الأكواخ وأكواخ الباراستى حيث تعيش الطبقات الفقيرة ، موسيقى (لايوا) وهى موسيقى

العبيد المستوردة منذ عهد بعيد من الساحل السواحلى ، موسيقى صاخبة مزعجة يحدثها بوق خشبى طويل يصدر نغمات متموجة رتيبة ، تصحبه طبلة تعلق فوق الكتف ويضرب عليها بواسطة عصاة وتتمشى دقاتها مع إيقاع الإصبع فى اليد الأخرى . وهناك أيضاً علبة كيروسين نصفها مدفون فى الرمال (وقد قيل لى إنه يجب دفنها لمدة أربعين يوماً لكى تحدث أفضل صوت) يضرب عليها بفرع من سعف النخيل لكى تعطى صدى قوياً للنغمات ، ويوجد أيضاً « المانجور » وهى مريلة غريبة مصنوعة من حوافر الماعز المجففة مشدودة فى شكل صفوف على الحبال لكى تشكل شراشيب مدلاة ، ويعلقها الراقص فوق ردفه ويتلوى فى حركات عنيفة من وسطه فتحدث هذه الآلة صوت حفيف رتيب ممل .

وبعض موسيقى اللايوا لها صلة بالموسيقى النوبية فى السودان ، ولكن لغة الأناشيد والتعاويذ هى خليط من اللغة السواحلية القادمة من الساحل الشرقى لأفريقيا ، واللغة العربية . والآلات نفسها تحمل أسماء أفريقية . فالطمبورة وهى قيثارة بدائية ذات إطار مثلث الشكل مثبت فى وعاء خشبى وبه ستة أوتار من أمعاء الماعز . وتزين الإطار بعض حبات الودع والصدف وشرائط من القماش الملون ، وهذه تعطيه شكل أداة عبادة بسيطة للغاية .

وتنتشر هذه الثقافة الأفريقية ، شأنها شأن ديانة السحر والشعوذة فى جزر الهند الغربية ، فى جميع المستويات وفى جميع أرجاء الخليج ، وهى تصل إلى أعضاء الأسر الأثرية العريقة عن طريق الخدم والأتباع للزنوج . ويعتاد المؤمنون بالخرافات والمثقلون بالهموم باستشارة النساء الحكيمات — أو العرافات كما يمكن تسميتهن — فى حالات المرض والاكتئاب النفسى وأيضاً بشأن تفسير الأحلام . وتجتمع مجموعات راقصة من الرجال فى أكواخ الباراستى ذات السياج لكى يطردوا أرواح الكآبة أو لتخفيف آلام الروماتيزم عن طريق عقد جلسات رقص طويلة تبدأ عند الشفق وتستمر طوال الليل .

ويعتبر وقت الغسق أفضل وقت لأداء الزار ، أى استدعاء الأرواح بمساعدة الموسيقى . وأفضل ما يسرهم هو الماتارى ، وهى موسيقى بطيئة حزينة تخلق إحساساً بالترقب والانتظار . ويجلس العازفون فى الوسط مرتدين أرديتهم الطويلة ومعهم علب الكيروسين والرق وطبولهم الطويلة والبوق الخشبي ، ويحيط بهم فى شكل دائرة صفوف من الرجال وهم يرقصون فى قفزات بطيئة زاحفة ولكن أرجلهم لا تحدث أى صوت فوق الرمال . وتوحى حركة الأجساد المتمايلة بأنهم منومون مغناطيسياً وكل فرد منهم مستغرق فى التفكير فى مشكلته الخاصة ، وهم يتحركون فى وحدة حول الفناء الظليل يرقبهم أعداد من المتفرجين الصامتين .

وجلست ثلاث نساء زنجيات لا يتحركن على الإطلاق كأنهن أصنام ، جنباً إلى جنب فى صدر الفناء — حسبما شاهدت فى الجلسة التى حضرتها — وكن ذوات أجساد ضخمة حالكات السواد ، ومن الواضح أنهن ذوات سلطة كبيرة ، ومما يبرز ضخامة مظهرهن تلك الطيات الكثيرة فى عباءاتهن السوداء والتى تتدلى من فوق رؤوسهن متخذة شكلا مثلثاً . وتحيط بوجوههن ضفيرة مشغولة بخيوط الذهب اللامعة ، وتنزل على صدورهن فى جمال بربرى رائع .

وقد جلسن متباعدات متعاليات يرقبن الرقص ، دون أن تبدين أية مشاعر . وفيما بين الحين والحين يقترب منهن شخص ما ، لعله زنجية أصغر سناً ذات بشرة سوداء لامعة ، وتتسم حركتها ونظرتها بالجرأة ، وعباءتها تتدلى بإهمال فوق « طرحتها » اللامعة المزخرفة بالزهور . وأحياناً أخرى يتقدم شاب من الشبان المخنثين الذين يرتدون عباءات تفوح منها رائحة زهور الليلاك ، وكوفية ملفوفة عدة طيات بعناية فوق رؤوسهم ، ويظهر هذا الشاب كثيرا كلما تقدمت السهرة ، ويختلط بالراقصين ويتقدم ليهمس بدون أى كلفة وكذلك يتضاحك مع الزنجيات الثلاث اللاتى يرأسن الجلسة .

وبين الحين والحين يمر حاملو البخور بين صفوف المشاهدين وتتصاعد رائحة خشب الصندل واللبان ، كما يتم إيقاد نار صغيرة من فروع النخيل

فى أركان الفناء حيث يتوقف ضاربو الرق من حين لآخر — ويجلسون القرفصاء لتسخين آلاتهم المصنوعة من جلد الحيوانات على اللهب لكى يصلحوا النغمات. وينحنى الراقصون ثم يجرون أقدامهم على الأرض وهم فى حالة نشوة روحية قوية تجعلهم لا يشعرون بالتعب . وبين الحين والحين تنتاب أحدهم نوبة تشنج ، ولكنه سرعان ما يغيب وسط جمع الرجال الحاشد ويسنده أصدقاؤه ، ولم أر أحداً منهم يسقط أو تصيبه نوبة .

والرجال من ذوى الأجساد النحيلة المتأنقون بملابسهم الزرقاء وهم من الرجال البغايا كانوا يدورون بين صفوف الرجال باحثين عمن يطلبهم ، ويرقصون فى حركات رشيقة بطيئة وهم فى مزاج طيب وكل منهم يلف ذراعه حول خصر الآخر . وصدحت الموسيقى وعزف البوق ، وتحرك لابسو الجلاليب البيضاء ، الذين يتراوح لون بشرتهم بين اللون البحرينى الذهبى والأسود الفاحم ، فى حركات لولبية بطيئة ، ونحن نزحف خارجين عبر الفناء الظليل نحو السياج المصنوع من فروع النخيل والرجل الهامس الذى يحمل مصباحاً ويقف عند الباب ، والممرات الضيقة الموجودة بين السياج وفى غضون عدة دقائق وصلنا إلى طريق مسفلت تمر به السيارات مسرعة ، ثم إلى فندق ومجمع سوبر ماركت مضاءة نوافذها كما تضاء واجهاتها بلافتات النيون التى تضئ تلك القطعة المتربة التى تقوم عليها مشروعات التنمية بصورة غير مرتبة .

ولم يفضل العبيد كلهم الحرية عندما جاءتهم . إذ أن المستقبل أمام النساء وبخاصة العجائز منهن ، كان شاقاً وغير مضمون حيث سيحرمون من المأوى والطعام وليس فى الإسلام مكان للمرأة التى تعيش بمفردها دون حماية ، وكان حتماً أن تتجه أعداد ضخمة منهن لممارسة الدعارة ، وهذه نتيجة لم يكن المصلحون الاجتماعيون يتوقعونها على الإطلاق .

وفى وقت خلع السلطان تيمور العجوز ، سلطان عمان ، على يد ابنه — السلطان قابوس الحالى — كان الكثير من الخدم العجائز الموجودين فى قصره من العبيد المحليين الذين تربوا منذ أجيال فى قصره ، وبرغم إهمال

شأنهم إلا أنهم استفادوا من قبول السلطان عرضاً لتحمل مسئوليتهم وهذا وضع يختلف تماماً عن الموقف المسيحى من عمل الخير الذى يمليه الضمير . ولعل جدود هؤلاء الخدم وجدود جدودهم قد مروا عبر سوق زنجبار للعبيد عندما كانت الدولة تحصل على دخلها الرئيسى من هذه الصفقات وكان السلطان وأقاربه يملأون قصورهم بمئات الأتباع .

ولا تصبح أية امرأة ملكاً لسيدها من الناحية الجنسية بصورة آلية ، ولكن جميع الأطفال الذين تنجبهم من رجل من بنى جنسها أو نتيجة لأى اتصال آخر ، ينتمون للسيد ، ما لم يكن الأب راغباً فى شراء المرأة ، أو قادراً على ذلك . وكانت المحظيات أو السرارى تحصل على حريتها بمجرد أن تنجب طفلا . ولم تكن هناك أية تفرقة بين النسل الشرعى وغير الشرعى . إذ يحصل الجميع على وضعهم من أبيهم ويشاركون فى الميراث . ولكن ورثة السيد يرثون المحظية التى لم تنجب أولاداً منه حتى وفاته ما لم يقم هو بتحريرها قبل وفاته . ولم يكن حظها بالضرورة طيباً إذا ما تولى أبناء زوجة تعرضت للإهمال تسوية حسابات الغيرة والاستياء القديمة . وكان من الممكن إعطاؤها لأى سيد آخر فى العائلة إذا كانت جميلة وجذابة ، أو تباع إذا لم تكن هناك حاجة إليها ، فبدون أطفال لم تكن تتمتع بأية حقوق ، ويمكن أن تنزل مرتبتها من وضع الراحة والتدليل والنفوذ إلى وضع الخدم العاديين الكادحين .

وكانت المحظيات الجميلات الغاليات الثمن هن آخر فئة من العبيد يتم تحريرهن من العبودية . وحتى عام ١٨٩٧ لم يكن باستطاعتهن المطالبة بحريتهن إلا بادعاء تعرضهن لمعاملة قاسية أو بالذهاب إلى المحكمة ، إذا كن لم ينجبن ، والحصول على موافقة القاضى . وتم استثناؤهن من التمتع بحق شراء حريتهن الذى منح لباقى العبيد فى عام ١٨٩٠ .

وقد وقع السلطان سيد بن سعيد على المرسوم الذى يقضى بذلك فى أول أغسطس من عام ١٨٩٠ وبعد ذلك بثلاثة أسابيع أصدر أمراً يقضى بأنه حتى إذا أحضر العبد المال اللازم لشراء حريته إلى القاضى ، فإن السيد

لا يكون ملزماً بقبوله . وهكذا لم تستطع أية محكمة أن تجبر أى سيد على إعتاق عبد ما لم يثبت أمامها أنه عومل معاملة سيئة ، وظل هذا الحال قائماً حتى إلغاء الرق فى عام ١٨٩٧ .

وتسببت الإجراءات الطويلة التى لا تنتهى والمراوغات القانونية والمكائد والحيل التى انطوى عليها تورط العرب فى تجارة العبيد فى أن يفقد البحارة والمسئولون الإنجليز المتولون إنهاء هذه التجارة صبرهم وقدرتهم على الاحتمال . وتعلل أولئك الذين يبررون هذه التجارة ، سواء من العرب أو الأجانب ، بأن الحكومة الهندية – وفيما بعد البريطانيين – تتبع أسلوباً فضولياً وتتدخل فى شئون الغير ، واستغرق تنظيم حركة التأييد الدولى قرناً كاملا ، كما اقتضى الأمر قصف قصر السلطان من البحر ، وقيام البريطانيين بفرض مرشحهم لتولى الحكم وذلك لفرض تنفيذ مرسوم عام ١٩٨٧ والذى ألغى الوضع الشرعى للرق فى الممتلكات العمانية .

والحقيقة أن التجارة كانت مربحة للغاية بحيث إن أحداً لم يكن يريد التخلى عنها . ومهما كانت الحجج ، ومهما كان تساهل وتسامح السيد ، فإن الأساليب المستخدمة فى جلب العبيد للسوق كانت بالغة القسوة والعنف ، ولم تفلح أية سفسطة فى إقناع ضمير العالم الذى صحا فى القرن التاسع عشر بغير ذلك . فقد تخربت مناطق بأكملها فى شرق أفريقيا وحرمت من سكانها نتيجة للغارات التى تشنها القبائل لخطف العبيد وذلك بإيعاز وتشجيع من العرب ، ويمولها التجار الهنود . ويقدر عدد العبيد الذين تم تصديرهم خلال القرن بما لا يقل عن مليونين من العبيد ، وأدت هجرة السكان هذه إلى إخلاء المناطق الساحلية من سكانها وإلى فتح الطريق أمام ضم الأوروبيين لهذه المناطق فى نهاية القرن .

وكانت خسارة التجارة فى الأرواح هائلة ، ولكن الأرباح أيضاً كانت هائلة . وقام العرب بمسح الإمارات التابعة لهم فى أفريقيا بحثاً عن القوى العاملة اللازمة لتشغيل اقتصاد المزارع النامية على الساحل وفى الجزر ، وحرضهم على ذلك الأوروبيون والأمريكيون الذين لم يدققوا فى الأمر ، وساعدهم فى ذلك نسل العرب والهنود من الأفريقيين المولدين . وكان السلطان يحصل

على ضريبة على الرؤوس عن كل عبد يمر عبر الجمارك التابعة له ، وبدلا من دفع دولارين « ماريا تريزا » على العبيد المرضى الذين قد يموتون قبل إتمام الصفقة كانوا يتركونهم على الشاطىء خارج حظيرة الجمرك فى حين كانوا يلقون بالموتى منهم من على ظهر السفن ، وكان الموج يدفع بجثثهم حتى الشاطئ وهناك تلتهمهم عشرات الكلاب المتوحشة التى كانت تجوب الشاطىء .

وكان الهنود يشرفون على جزء كبير من جهاز الجمارك ، إذ كانوا يستأجرون هذا الامتياز فى زنجبار وعلى الساحل ، وكانوا هم أنفسهم يمتلكون أعداداً كبيرة من العبيد ونجحوا فى تجنب القوانين التى وضعتها الحكومة الهندية لحظر التجارة وذلك بتسجيل العبيد بأسماء زوجاتهم ومحظياتهم ذوات الجنسية السواحلية أو الزنجبارية ، وتم منح امتياز تأجير جمرك زنجبار بطريقة الالتزام فى عام ١٨٧٠ إلى السادة « جايرام سويجى » من بومباى لقاء مبلغ قدره ٦٥,٢٦٣ دولار (ماريا تريزا) كما استأجر هنود آخرون بنظام الالتزام الجمارك الموجودة فى كلوة ولندى وغيرها من دور التخليص الجمركى فى البلاد وأداروا المشروعات الاقتصادية فى المنطقة .

وقد اتسم العرب العمانيون والقواسمة بالجرأة والمهارة فى تسيير السفن مما مكنهم من تجنب دوريات التفتيش . وكانوا يحضرون العبيد إلى زنجبار من محاجر الأرقاء الموجودة فى البر الرئيسى ، حيث كانوا يحتفظون بهم عند وصولهم من داخل البلاد أو يشحنونهم شمالا إلى عمان والخليج ، وكان العرب السوريون يسيطرون على هذه التجارة ، وكانوا ينزلون إلى زنجبار فى شهور الشتاء ويرهبون سكانها . وغالباً ما كانوا يسرقون عبيدهم ويشحنونهم فى السفن على الشواطئ والخلجان النائية ويكدسونهم فى سفنهم غير المريحة ويسرعون فى الإبحار مع هبوب الرياح الموسمية العكسية . وكان العبد الذى يشترى بمبلغ ٦ دولارات (ماريا تريزا) فى زنجبار يساوى فى مسقط ٢٥ دولاراً ومن ٤٠ إلى ٥٠ دولاراً فى البصرة أو بوشير و ١٠٠ دولار فى كاثياوار . وعادت إلى الظهور من جديد الصفات التى وصمت بحارة الخليج بعدم الرحمة ورهبة الجانب عندما دفعهم الوهابيون إلى القرصنة ، وذلك عندما بدأوا يمارسون خطف العبيد ، إذ كانوا يلقون بالمرضى منهم من على ظهر السفن ، لأن الجدرى والحصبة يمكن أن تسبب أضراراً كبيرة بين شحنة العبيد .

وإذا شعروا بخطر الإمساك بهم كانوا يدفعون سفنهم الشراعية نحو صخور الشاطئ لينجوا بأنفسهم ويتركون شحنتهم من العبيد المقيدين لينجوا أو يموتوا ، أو يقطعون رقابهم ويلقون بهم من على ظهر السفينة لإخفاء جميع الأدلة التى تدينهم وكانت الظروف التى يتم فيها نقل العبيد قاسية للغاية ، إذ كانت القذارة والرائحة العفنة التى تسود أماكن وضعهم تجعلها غير صالحة حتى لنقل الماشية .. والحقيقة أن الحمولة البشرية كانت تعتبر كأنها ماشية . وفى عام ١٩٠٢ أمسك البرتغاليون بأسطول مكون من ١٢ سفينة شراعية عمانية قادمة من صور الواقعة أمام ساحل موزمبيق وحرروا ٧٢٥ عبداً . وتم ترحيل العرب السوريين وعددهم ١٢٥ الذين كانوا يتولون أمر شحنات العبيد إلى أنجولا فى غرب أفريقيا .

إن المعاناة والقسوة الواضحة التى تعرضت لها قوافل الرجال والنساء المعصوبى العيون ، وكذلك معاناة مجموعات الأطفال الصغار الذين كانوا يباعون فى السوق لقاء دولارات قليلة للطفل الواحد ، والفتيات الصغيرات اللاتى لا تزيد أعمارهن عن الحادية عشرة أو الثانية عشرة ، واللاتى كان يتم بيعهن كمحظيات لرجال عجائز ، وتلك المشاهد المقززة والمرعبة التى كان يلاقيها راكبو السفن ، والعمل البطىء من أجل انتزاع الاتفاقيات من حكام يجيدون المراوغة والتسويف — كل هذه العوامل أسهمت فى خلق اتفاق فى الرأى بين أولئك الرجال الذين اشتركوا فعلياً فى وقف التجارة ، يختلف تماماً فى نوعيته عن اتفاق الرأى بين المصلحين الاجتماعيين فى الوطن . وإذ زادت مشاعر الاستياء والتقزز والنفور مع اقتراب القرن من نهايته وتحولت إلى شعور بأن الأجناس الأصلية ربما تكون غير جديرة بتولى أمورها الخاصة وبأن الأوروبيين أمامهم مهمة ترقية وتحضير وتمدين غيرهم ومن واجبهم أن يفرضوها بالقوة . وقد تولى الساسة والمثقفون وبناة الإمبراطورية صياغة هذه المهمة فى عبارات دقيقة فى نهاية القرن واعتادوا تبرير أعمالهم . وأدى ذلك إلى تقسيم أفريقيا بين الدول الأوروبية بطريقة تعسفية وسرية جعلت الأمر يبدو مثيراً للدهشة بعد مرور قرن من الزمان .

الفصل الثامن

البصرة فى بداية القرن ــ شركات الاعمال البريطانية ــ قنصل فى الظهيرة ــ لصوص النهر ــ مجالات الاهتمام ــ المطامع الالمانية ــ خط سكك حديد برلين ــ بغداد ــ الكويت كنهاية الخط الحديدى ــ الشيخ مبارك يستولى على السلطة فى الكويت ويطلب الحماية البريطانية ــ بدء الملاحة البخارية فى الخليج ــ الحرب الفارسية فى عام ١٨٥٦/١٨٥٧ ــ منح عبدان لبنى شعب ــ السفينة سفينكس التابعة لجلالة الملك ــ زيارة الاسطول البحرى السوفيتى ــ بدء تجارة السلاح من مسقط ــ قمعها ــ تشديد السيطرة البريطانية ــ الاسطول البحرى يستخدم البترول كوقود ــ وحدة من البحرية البريطانية تزور الكويت .

* * *

تتمثل الصعوبة التى يواجهها المرء أثناء شق طريقه خلال الأحداث التى وقعت فى الماضى القريب ، فى الاحتفاظ بإحساسه بالتناسب . ومن الصعب الآن تصور سمات تلك الأحداث المتواضعة الموصوفة ، ورتابة الحياة فى مواقع أمامية نائية ، ناهيك عن قضاء العمر كله بعيداً عن وطنه . ولكن العرب يعتبرون من الأحداث ذات المغزى ، التى تمثل لحظات حاسمة فى تطور دولهم ، نجاح شخصى ما بفضل تمتعه بعناد أكبر أو دهاء فطرى أو حتى مجرد الإقدام والجرأة على المعارك ، للاستيلاء على السلطة والاحتفاظ بها ، أو يقوم بعدة اختيارات تسفر عن نتائج تتخطى كثيراً نطاق خيالهم .

ويبدو الأمر كما لو أن المرء يقرأ معالجتين مختلفتين لسيناريو واحد ، أحدهما دقيق واضح ذو نظرة مهيبة ، والآخر تفصيلى مبالغ فيه وملئ بالتوتر وليس به حادثة واحدة واضحة مستقلة ، بل ترتبط جميع أحداثه معاً بصورة جبرية وتشكل سجلا مكشوفاً لأعمال العنف والمغالطة والخداع ونفاذ

البصيرة والذكاء ، وهذا هو تاريخ جميع المجتمعات التى تطغى فيها الصفات الملهمة للأفراد باعتبارها العوامل الغالبة فى تولى السلطة .

والصفة التى تجعل تاريخ الخليج مشوقاً باستمرار بقاء هذه الموضوعات المتنوعة فى ترابط وثيق مع بعضها البعض وقتاً طويلا ، مما جعله شبيهاً بعالم ليدى ماكبث وهو يصطدم بعالم بالمورال ، ولكنه يلقى تجاهلا صامتاً إلا إذا قدم بعض الفوائد .

وشهد بدء العصر الحديث فى الخليج ، التجارة البريطانية وهى توطد أقدامها تماماً فى البصرة ، ويقول أ.س. دايتسلو عن الفترة من عام ١٨٩٨ إلى عام ١٩٠٣ التى عمل خلالها قنصلا عاماً هناك : « كانت التجارة فى أيدى البريطانيين وحدهم . ولم يكن أى ألمانى قد وطىء بعد بأقدامه غير المقدسة أرض الخليج الفارسى ، والسفن التجارية البريطانية وحدها هى التى تتردد على ميناء البصرة ، وحصلت السفن التابعة لشركة دجلة والفرات للسفن البخارية ، على نصيب الأسد فى نقل التجارة فى نهر دجلة حتى بغداد ، وقنعت الشركة التركية المنافسة لها والتى اتسمت بالبطء وعدم إمكان الاعتماد عليها ، بفضلات الشركة البريطانية .

وكان هناك فى ذلك الوقت أربع شركات بريطانية مقرها البصرة وهى : شركة جراى ماكينزى وشركاه ، التى استقرت هناك منذ عام ١٨٦٧ ، وشركة السادة لينشى بروس (التى كانت تدير البواخر النهرية) وشركة البصرة للتجارة ، وشركة هوتز وهاميلتون وشركاها . وشركة جراى ماكينزى هى الوحيدة التى مازالت تمارس نشاطها فى الخليج .

وكان لكل شركة من هذه الشركات مقر ضخم ومبانى كثيرة وكان موظفوها البريطانيون يسكنون معاً فى مقر الشركة ولم يزد عددهم فى المتوسط عن اثنى عشر موظفاً . وأحياناً كانت زوجة أو زوجتان تصحب كل منهن زوجها ، ولكن داتيسلو لا يتذكر وجود أكثر من ثلاث نساء فى وقت واحد ، وذلك فى فترة وجوده هو هناك .

وكانت البصرة مكاناً غير صحى لا يصلح للإقامة فيه ، حتى إن الشركات الأربع والقنصلية كانت تساهم معاً بمرتب يكفى لتشجيع طبيب على الحضور من إنجلترا يمارس مهنته هناك . وكان بعض هؤلاء الأطباء أعضاء فى البعثة الطبية التى كانت موجودة بالفعل فى إقليم فارس ، وقد اتبع الأمريكيون العاملون فى البعثة التى أرسلت إلى شبه الجزيرة العربية أسلوبهم فى العمل ، والبعثة تشكل الآن جزءاً من إرسالية كنيسة الإصلاح الهولندية التى استقرت فى ذلك الوقت بمنطقة الخليج .

وعندما قرأت مذكرات داتيسلو عن عمله كقنصل فى بداية القرن ، استرعى انتباهى النغمة المرحة التى تسودها ، وكذلك استثناء العرب من أية إشارة جادة . فهم لم يكونوا المسئولين الذين اضطر داتيسلو للتعامل معهم بحكم عمله كقنصل لبلاده ، إذ أن هؤلاء المسئولين كانوا أتراكاً وأمريكيين وإيرانيين . ممن لا يعملون كتبة فى المكاتب ورغم أنهم كانوا من الهنود أو الآشوريين المسيحيين فإنهم لم يكونوا أيضاً من خدمة الخصوصيين وكانوا من المسيحيين الجوانيين ، الذين يميلون لإدمان المسكرات .

ويصور داتيسلو العرب فى مذكراته فى صورة عناصر خارجية بعيدة عن قلب الأحداث ، يتسمون بطبيعة تثير الضيق أو الضحك بصفة عامة ، وكأشخاص يثيرون الانزعاج ولابد من استرضائهم عن طريق دفع تعويض عن أى حادث عرضى — أو مداعبة كما يسميها هو — كأن يدفع الرياضيون الذين يصطادون طائر الشنقب تعويضاً لأحد العرب العراة الذى كان يقوم بقطع الغاب على شاطئ النهر . وأحياناً يصورهم بأولئك الأشخاص الذين يثيرون الطرائد من مكامنها ويحملون الرياضيين على ظهورهم ويعبرون بهم قنوات الرى لكى يتجنبوا بلل أطرافهم . أو يصورهم حمالين يشمل عملهم حمل مخدوميهم (الذين يرتدون ملابس السهرة ويحملون مصباحاً) على ظهورهم إلى النادى فى المساء إذا ما سقط المطر بغزارة وجعل اجتياز الطرق الترابية مستحيلا ، أو انحسر المد مما جعل الزورق الصغير يجنح على شاطىء الغدير .

ويصورهم بأنهم لصوص أيضاً ، ويسجل داتيسلو خطر الهجوم الذى كانت تتعرض له السفن الشراعية الهندية عند اجتيازها النهر فى موسم البلح حاملة سلال البلح لنقلها للسوق الهندى . وكانت تستخدم الروبية الفضية فى دفع ثمن مشترياتها ، وحيث إن الرياح العكسية كانت تؤخر إبحار السفن فى أغلب الأحيان ، أصبحت تلك تشكل هدفاً سهلا للعرب الذين يعيشون على جانبى النهرين التركى والعربى مما حدا بالبريطانيين أن يضعوا سفينة حربية — إحدى الزوارق المسلحة الصغيرة من طراز بيرد — فى النهر كل موسم لكى تحول دون نهب وأحياناً قتل أطقم السفن من الهنود البريطانيين .

إن الأوضاع لا تتغير بالسرعة التى يعتقدها البعض أحياناً فما زالت السفن تأتى إلى شط العرب كل عام فى موسم البلح ، وقد بلغ التكدس أشده فى الميناء خلال السنوات القليلة الماضية إلى حد أن السفن تقف فى انتظار دورها فى الممر الضيق من النهر الواقع بين مزارع النخيل . ومازال العرب الذين يقطنون على ضفاف النهر ينهبون كل ما يستطيعون حمله من هذه السفن أثناء الليل ، ومنذ عامين فقط ، أو نحو ذلك ، سمع ضابط سفينة نرويجية ضجة فى السفينة فاتجه لمصدرها وهنا هاجمه اللصوص وقطعوا رأسه بالسيف ، وفى اليوم التالى تم اكتشاف جثته بدون رأس .

وجاء تعيين داتيسلو فى منصب من قبل وزارة الخارجية استجابة لشكاوى أعضاء الجالية التجارية البريطانية من أن مصالحهم تتأثر نتيجة لتغيير القنصل باستمرار ، حيث إن أحداً منهم لم يبق فى منصبه فترة من الوقت تمنحه الكفاءة اللازمة لمعالجة مشكلاتهم وكان التعيين قبل ذلك يتم من قبل الحكومة الهندية باعتبارها خليفة لشركة الهند الشرقية ، وكانت تعين أعضاء الجهاز السياسى الهندى وتتحمل جميع النفقات . وانطبق هذا الوضع على القنصلية العامة فى بغداد ، وعلى معظم القنصليات فى جنوب إقليم فارس .

وقد كان النفوذ الهندى قوياً للغاية : حتى إن المسافر الذى يرغب فى الوصول إلى الخليج بسهولة ، كان عليه أن يسافر إلى الهند أولا ، إذ كانت البصرة غير صحية ومتخلفة ومملة بالنسبة لمن يشغل منصباً بها ، وكان الحال

كذلك بالنسبة لجميع المناصب فى الخليج ــ بحيث لم يكن من السهل إقناع المسئولين فى الجهاز الهندى بالبقاء لأية فترة من الزمن ، وأخيراً تولت وزارة الخارجية البريطانية مهمة التعيين ، وضمنت استمرار المسئول فى وظيفته عدة سنوات ، فى حين استمرت الحكومة الهندية فى دفع نفقات الإقامة .

وكان الأتراك العثمانيون والفرس يشكلون حقائق سياسية ويمكن السيطرة على سياساتهم من لندن على مستوى الحكومة ، ولكن عرب الساحل كانوا عرضة للإهمال ، إذا كان حكامهم مجرد ملوك ثانويين يتحكم فيهم المندوب السامى الذى يعين من الهند ويقيم فى بوشير على الساحل الإيرانى ويساعده مندوبوه السياسيون وغالباً ما يكونون من ضباط الجيش الهندى المعادين إلى الجهاز السياسى .

ولا تخلو كتابات المتمنصل داتيسلو كشاهد على روح العصر فى عام ١٩٠٠ وما بعده من جانب طريف . فقد اتسمت تلك الفترة بالانشغال بمجالات النفوذ من جانب الدول الأوروبية العازمة على إثبات وجودها كدول استعمارية . وكان بوسع بريطانيا وهى فى أوج قوتها ، أن تحتقر أنشطة هذه الدول وهى واثقة ومطمئنة من هيمنتها التى بلا منازع . وكان داتيسلو ومن هم على شاكلته يعتبرون « القدم الألمانية غير المقدسة » بمثابة نكبة ، طالما أنها لم تطأ إلا أرض الآخرين ، مثل الدول الأفريقية التابعة لسلطان زنجبار والتى أصبحت مستعمرة تنجانيقا الألمانية فى الوقت الذى فرضت فيه بريطانيا الحماية على زنجبار .

ولكن الوضع اختلف بالنسبة للإمبراطورية العثمانية ، إذ تمكنت سياسة الزحف نحو الشرق التى أحيطت بدعاية كبرى ، من الحصول على امتياز من السلطان بمد خط سكك حديد برلين ــ القسطنطينية إلى بغداد . وكان الألمان يعتزمون ربطها فى نهاية الأمر بمنفذ على الخليج . ولم تكن البصرة تصلح للاستخدام كمحطة نهائية ، إذ كان الحاجز الموجود عند مصب النهر يمنع دخول السفن البخارية التى تسير فى المحيط ، مهما كان حجمها ، ولكن الكويت الواقعة على بعد ثمانين ميلا فى خط مستقيم ، تصلح كميناء

طبيعى ممتاز يقع فى خليج عميق تحيط به الأرض على بعد عشرين ميلا إلى الجانب الآخر .

وكان الشيخ مبارك الذى تولى الحكم من عام ١٨٩٦ إلى عام ١٩١٥ قد وصل إلى منصبه هذا عن طريق قتل أخويه غير الشقيقين فى نزاع على حدائق النخيل الشاسعة التى تمتلكها الأسرة بالقرب من فاو . وقد قتل الشيخ مبارك بنفسه أحد أخويه بطلقة رصاص واحدة ، فى حين قتل أبناؤه الأخ الآخر . وفر أبناء القتيلين إلى البصرة ، حيث ظلوا يحيكون المؤامرات لعمهم فى ظل الحماية التركية . ولعل ذلك كان الدافع له على طلب حماية بريطانيا ، والقيام بدور العميل لها ، أو لعل الرخاء الذى تمتع به الحكام الخلفاء فى البحرين هو الذى أثار انتباهه إلى المزايا التى تعود عليه من وراء ارتباطه بالبريطانيين أكثر من الارتباط بالأتراك ، وذلك فيما يتعلق برسوم الجمرك والضرائب .

وأياً كان السبب ، فإن البريطانيين لم يظهروا أى استعداد لقبول عروضه إلا بعد ظهور مسألة السكك الحديد الألمانية . ففى عام ١٨٩٨ ، وعده البريطانيون سراً بمد حمايتهم إليه ، وسمحوا للألمان فى الوقت المناسب بمعرفة هذه المعلومات غير السارة ، مما أثار غضب القيصر الشديد .

ولكى يتم إحباط أية خطة لاستخدام الكويت كمحطة نهائية تم الاتفاق عن طريق التفاوض على تأجير قطعة الأرض الواحدة لقاء ٤٥٠٠ جنيه استرلينى سنوياً وكانت تقع على مقدمة الشاطئ على بعد ميلين إلى الغرب من المدينة تجاه بندر عش شويقه . وكان الموقع المتوقع لمحطة (السكك الحديدية النهائية) هو رأس الخادما التى تصل بصورة مباشرة بالخليج . وبعد الحصول على موقع الشويقة ، أصبحت المحطة النهائية على مرمى أية مدافع قد يقيمها البريطانيون هناك .

وقام أصدقاء الشيخ مبارك الجدد بواجبهم نحوه فتولت سفنهم المسلحة مراقبة أى محاولة قد يقوم بها الأتراك لإرهابه ، وفى عام ١٩٠٢ اعترضت

السفينة لابوينج التابعة للأسطول البريطانى طريق مركبين شراعيين واستولت عليهما كغنيمة ، وكانتا تحملان أتباع أبناء أخيه المسلحين الذين اجتازوا النهر قادمين من البصرة أملا فى مفاجأة الكويت .

وطاردت السفينة لابوينج المركبين الشراعيين حتى شاطىء المنطقة الإيرانية الواقعة عند مصب شط العرب حيث كان الماء ضحلا جداً بحيث لا تستطيع تعقبهما . وهذا هو التكتيك العربى التقليدى فى المراوغة أثناء المعارك البحرية . وعندما أنزلت السفينة المسلحة زورقين للماء لإنقاذ المركبين الشراعيين فتح العرب الذين كانوا مختبئين بين البوص نيرانهم وقتلوا أحد البحارة ، قبل أن تحصدهم النيران الأقوى .

وأثار حادث تدمير المركبين الشراعيين بعض الجدل ، فقد طالب الأتراك بتسليمهما إليهم ، ولكن طاقم السفينة المسلحة طلب أن تباعا ويتم توزيع الثمن عليهم كأموال غنيمة وتم حل الأمر فى النهاية بإخراجهما إلى عرض البحر واستخدامها كهدف لإطلاق النار حتى غرقتا .

وهكذا بعد أن اتخذت بريطانيا الحيطة ضد أى تدخل فى المناطق التى تعتبرها حكراً عليها ، قدمت للشيخ مبارك تأكيداً بأنها تعترف بدولته وبحدودها ومنحته صفة الحليف . وهكذا جلبته إلى مجال نفوذها بالرغم من اعتراضات الأتراك . وظل استئجار الأرض سارياً حتى عام ١٩٢٢ عندما انتهى نتيجة لعملية توزيع الإعانات المالية على شيوخ القبائل العرب بعد الحرب . وكان مشروع السكك الحديدية الألمانية واحداً من سلسلة مشروعات بدأت فى الثلاثينات من القرن التاسع عشر وتهدف إلى ربط الهند بأوروبا عن طريق الخدمات البريدية السريعة واستخدام وسائل النقل الحديثة وقد تم إدخال الملاحة البخارية فى وقت مبكر ، بصورة تثير الدهشة ، إلى منطقة الخليج . فبعد ١٧ عاماً فقط من نجاح تسيير أول سفينة تجارية بخارية على نهر كلايد ، تم إحضار سفينتين تجاريتين تعملان بالبدال جرى صنعهما فى ليفربول فى عام ١٨٣٤ ، وأرسلتا فى شكل أجزاء مفككة إلى تركيا وأعيد تجميعهما على ضفاف نهر الفرات وبدأتا رحلاتهما إلى شط

العرب عام ١٨٣٦ . وكانت تلك هى بعثة الكولونيل تشيزنى التى برغم فشلها فى تحقيق هدفها المعلن وهو إظهار مدى تفوق طريق وادى الفرات على طريق البرزخ والبحر الأحمر فى المنافسة على تسليم البريد الهندى ، فقد فتحت الطريق أمام ٢٠ عاماً من عمليات الاستكشاف المتواصلة وعمليات مسح الأراضى التى قام بها الأسطول التجارى الهندى وواصل عمل الكولونيل .

وهكذا دخل الطرف الشمالى من الخليج عصر التكنولوجيا الحديثة فى وقت مبكر جداً . وكانت أول سفينة بخارية تدخله هى يولندساى القادمة من الهند فى عام ١٨٣٦ . وخلال الأربعينات والخمسينات استخدمت الحكومة التركية وكذلك التجار سواء من الوطنيين أو الأجانب ، أعداداً متزايدة من السفن البخارية فى المجارى المائية الموجودة فى المناطق الداخلية من بلاد ما بين الرافدين وكانت الحرب الإيرانية التى نشبت فى عام ١٨٥٦ — ١٨٥٧ ، هى آخر فصل فى تورط شركة الهند الشرقية فى الخليج (فقد أدى التمرد الهندى إلى انتهاء وجود الشركة تماماً) ، وهى التى قدمت أوضح دليل على التطور البحرى الحديث للسكان المحليين . فقد أبحر الجنرال سير جيمس أوترام من الهند ووصل أمام شاطىء محميرة — حيث تربط قناة حفار نهر قارون بشط العرب — ومعه خمس فرقاطات وثلاث سفن مسلحة وقام يوم ٢٦ مارس ١٨٥٧ بقصف القصر وتدميره تماماً مما جعل الجيش الإيرانى يفر مشتتاً .

وكانت فرقاطاته البخارية عبارة عن سفن بخارية تسير بالبدال بها كبائن خشبية رصت فوق البدال ، ويصطف فيها الجنود كما لو كانوا قطعاناً من الماشية ، تحت نيران القواعد الفارسية ، أثناء إبحارهم ضد التيار بحثاً عن مكان مناسب للرسو . وكان الإيرانيون يملكون بطاريات مدافع على جانبى القناة ، الجنوبى منها يقع على جزيرة تسمى عبدان ، وقد أعادت الحملة فى وقت لاحق هذه الجزيرة إلى الشيخ شاهر من عرب بنى شعب . وهذه طريقة مناسبة للتصرف فى منطقة تدعى كل من تركيا وإيران أحقيتها فيها ، وكان حظ بنى شعب طيباً ، إذ لم تكد تمر خمسون عاماً حتى كانت هناك مصفاة هائلة لتكرير البترول تعمل بها .

وثار غضب الشاه وحنقه بسبب الهزيمة التى منى بها جيشه ، وأمر بالتشهير بالضباط علانية وجرهم أمام الجنود بعد وضع حلقات فى أنوفهم وضربهم وسجنهم . على أن الجنرال الإيرانى دفع ٨٠٠٠ جنيه استرلينى إلى كبير وزراء الشاه ، وكونئ بمنحه سيفاً وعباءة .

وبرغم تعود المرء ، عن طريق استعادة الأحداث والتأمل فيها ، على العظمة المهيبة والكفاءة العسكرية التى اتسمت بها الأمبراطورية ، إلا أنه مما يثير الدهشة أن نجد شيئاً من بقايا الحرب الإيرانية مازال مستخدماً عشية الحرب العالمية الأولى ، إذ كانت السفينة سفينكس سفينة بخارية قديمة تسير بالبدال يرجع تاريخها إلى أوائل الثمانينات ، صممت لتكون سفينة نزهة واسعة ورطبة للضباط الذين يقومون بدوريات فى الخليج ، وشمل تسليحها مدفعاً من عيار ٦ بوصات من طراز عتيق — ويقول داتيسلو أنه المدفع الوحيد الموجود فى البحرية الذى مازال يتم نقله بالحبال — ولكن برغم مظهرها العتيق ، إلا أنها كانت فخراً لقائدها وسببت فائدة كبيرة لمواطنيها الموجودين فى أرجاء الخليج .

وكانت شركة الهند البريطانية للسفن البخارية والملاحة قد فتحت خطاً للبصرة فى عام ١٨٦٢ ، وبدأت شركة جراى ماكينزى عملها هناك فى عام ١٨٦٧ ، ويعتبر الحصول على توكيل لتسيير خط للسفن قاسماً مشتركاً عاماً فى تاريخ العائلات التجارية الكبرى فى الخليج اليوم . وكانت السفينة سفينكس وزميلتها القديمة السفينة المسلحة رد برست معروفتين تماماً فى موانى الخليج الصغيرة ومرافئه . والحقيقة أن الشيخ مبارك حاكم الكويت قدم عروضه الأولى للمندوب السامى البريطانى من خلال توكيل قبطان السفينة سفينكس . وتم استخدام هاتين السفينتين فى دوريات مكافحة الرق ، وفى إنهاء تجارة البنادق الخارجة من مسقط ، وكانت زيارتهما للبصرة فرصة لإجراء مباريات للكريكيت مع الجالية المقيمة كانوا يلعبونها فوق حصر تفرش فوق رمال الصحراء على الجانب الآخر من النهر .

ولذلك تلقت الجالية البريطانية فى ضيق وغضب شديد الأنباء التى أفادت بأن الروس — المعروفين باسم « الموسكوب » فى لغة أهل الخليج العامية — أرسلوا سفينتين من سفنهم ، إحداهما طراد والأخرى سفينة مسلحة فى طريقهما لتعزيز أسطولهم الموجود فى الشرق الأقصى ، ولتقوما بزيارة ودية — نزهة بحرية لجعجعة كما يصفها داتيسلو — حول الخليج وأحدثت المداخن الأربع الموجودة فى الطراد الروسى تأثيراً قوياً لدى الإيرانيين مما اضطر حكومة جلالة الملك إلى إرسال سفينة أكبر حجماً فيها عدد مماثل من المداخن بهدف محو هذا الانطباع — والأسوأ من ذلك أن السفينة المسلحة التى بنيت على شكل بارجة صغيرة الحجم الجزء الأعلى منها مجهز للقتال ، كما أنها مزودة بعدد آخر من المبتكرات الغربية . جاءت لتقضى أسبوعاً فى زيارة للبصرة ، وفتحت أبوابها لكل من يرغب فى زيارتها . وشعر البريطانيون بأن هذه وقاحة مخيفة ، وتعدى على المناطق التى يعتبرونها حكراً عليهم ، ولاسيما عندما بدأ الضباط الروس غير المهذبين فى السخرية من السفينة سفينكس القديمة المسكينة ومن مظهرها العتيق .

وكان الروس يملكون كشافاً ، وهو ابتكار جديد أثار إعجاباً شديداً لدى السكان المحليين — وبلغت بهم الوقاحة أنهم قاموا فى إحدى الليالى بتسليط ضوئه الكشاف على نافذة مقر شركة جراى ماكينزى حيث كان معظم أفراد الجالية البريطانية مجتمعين بعد العشاء ، وظل كذلك لمدة خمس دقائق .

ولكن شخصاً بريطانياً ارتفع إلى مستوى الموقف ، إذ تقدم فى عظمة نحو قلب شعاع الضوء ووضع إبهام يده اليمنى على طرف أنفه ، وأضاف اليد اليسرى إلى اليمنى « ووقف » على حد تعبير داتيسلو ، وأصبعيه ممدودين ، « مثل أجاكس متحدياً البرق حتى أطفأ الموسكوفيين ضوء كشافهم » .

كانت أياماً تتسم بالبساطة ، حيث كانت المنافسة بين القوى العظمى تتم عن طريق استخدام أساليب صبيانية كتلك المستخدمة فى التعبير عن الازدراء . ولكن كان يمكن خلف مظهر عدم الاكتراث العارض هذا ، إصرار وعزم

حديدى على حماية ما كانت بريطانيا تعتبره ملكاً لها . ومما عزز من التصميم على مواجهة هذا التنافس العدوانى النشأة والتعليم . إن الاهتمام الأخلاق الجاد الذى اتسمت به الأجيال السابقة والاهتمامات العلمية ، والاستجابة لكافة المواقف دون أى تعقيد ، كل هذا حل محله مفهوم اللعبة ، وهى لعبة ذكاء بين متنافسين يتعين أن يفوز فيها الطرف الأقوى .

لقد كانت الدوافع الإنسانية الخالصة هى الدافع وراء حملة القضاء على تجارة العبيد ، أما الدافع للقضاء على تجارة السلاح التى خلفت تجارة العبيد ، فلم تكن على هذا القدر من عدم الأنانية . وفى كلتا الحالتين كان سلاطين زنجبار ومسقط من عائلة أبو سعيد هم الخاسرون ، إذ خسروا عوائد الجمرك الوفيرة ، وكما هو الحال دائماً فى الخليج ، فإن عدد الأطراف التى تقوم بالأدوار محدود ، وهى نفس العناصر التى تظهر فى عملية تجديد وتنقيح الأفكار القديمة .

لقد حدث سهو فى المعاهدات السابق إبرامها بين كل من فرنسا وإنجلترا وسلطان مسقط ، إذ لم يتم النص على حظر استيراد الأسلحة النارية من أوروبا إلى مسقط . وبذلك استطاع العرب والإيرانيون والبلوخستانيون شراء البنادق والمسدسات علانية فى مدينة مسقط ، التى تحولت فى أواخر القرن التاسع عشر إلى سوق الشرق الأوسط للسلاح . وتولت الشركات الفرنسية والألمانية والبلجيكية والبريطانية توريد السلاح ، واشترك الجميع فى هذه التجارة ابتداء من السلطان فما دونه . وأبرم التجار الوطنيون عقود الاستيراد الأسلحة من أوروبا لعدة سنوات قادمة . وكانت رخص الاستيراد تمنح على أسس مماثلة ، فيقبض السلطان الثمن بالإضافة إلى عمولة عن كل شحنة يتم إنزالها .

وبلغت أرباح هذه التجارة أرقاماً ضخمة . فقد توفى رجل فرنسى يدعى جوجوير فى مسقط فى نوفمبر ١٩٠٩ وخلف وراءه شركة قدرها ٤٠,٠٠٠ ألف جنيه استرلينى جمعها خلال عشر سنوات من التعامل فى السلاح . وكان قد دخل المدينة وهو معدم تقريباً ، وعند وفاته كان متجره يضم مائة ألف قطعة سلاح من مختلف الأنواع تشمل معظم أنواع البنادق الحديثة ذات الخزائن للرصاص وكذلك مالا يقل عن عشرة آلاف طلقة ذخيرة لهذه الأسلحة .

وازداد حجم التجارة ، وربما نتيجة لجهود جوجوير ، بصورة هائلة خلال السنوات الأربع أو الخمس السابقة لموته ، وكانت تدر أرباحاً طائلة مما جعلها تجتذب عدداً كبيراً من الأفغان إلى منطقة الخليج قادمين من كابول وهيرات ، وكذلك عدداً من الباثان من حدود الهند الشمالية — الغربية . وحاولت الحكومة الهندية ، التى كانت قلقة بشأن أمن الحدود ، حمـل فرنسا على أن توافق على جعل مسقط ميناء تحرم فيه تجارة السلاح ، وذلك خلال مؤتمر بروكسل للسلاح الذى عقد عام ١٩٠٨ ، ولكنها فشلت وفى عام ١٩٠٨-١٩٠٩ أرسل عملاء المخابرات التابعين لها والذين كانوا يتجولون متخفين على امتداد ساحل مقرن ، تقارير تفيد وجود قوافل ضخمة من الأفغان من كابول وهيرات ينتظرون رسو شحنات من البنادق تم شرائها من مسقط وشحنها فى سفن شراعية إلى أماكن رسو أعدت من قبل على الساحل المقابل .

إنه عالم يشبه عالم شخصية كيم فى كتابات كبلنج . . فقد سيطر القلق بشأن النوايا الروسية على التخطيط الاستراتيجى فى الهند حتى إبرام الاتفاقية الأنجلو روسية فى عام ١٩٠٧ والتى ركزت الانتباه على النوايا الألمانية . وتم القيام بحملات من أجل إخضاع قبائل الحدود وجعلها تذعن للنفوذ البريطانى . وظلت أساليب الحرب التى كانت مستخدمة فى أوائل القرن التاسع عشر سائدة فى القرن الحالى أيضاً حيث سارت طوابير من جميع الأسلحة على امتداد الممرات الجبلية بحيث تنتشر طوابير حيوانات النقل الطويلة على جبهة ضيقة وتحيط بها من الجانبين مرتفعات شديدة الانحدار .

ولم يكن بمقدور رجال المناطق عبر الحدود المتمردين المسلحين ببنادق ذات جهاز حشو له زناد أمان من طراز قديم له بروز قرب نهاية ماسورة البندقية تجعل السلاح ثابتاً أثناء الضرب من الوضع منبطحاً أوجالساً القرفصاء ، لم يكن بمقدورهم الصمود وقتاً طويلا أمام التقدم المستمر والمتقارب للطوابير المتحركة إلى قلب بلادهم . فبعد وقوع عدد ضئيل نسبياً من الضحايا كانوا يستسلمون أمام القوة القاهرة عندما يشهدون تدمير قراهم ونسف أبراجهم العالية القوية ، ومحاصيلهم القليلة التى تستخدم فى إطعام حيوانات طوابير الغزاة فى حين تفر نساؤهم وأطفالهم بحثاً عن ملجأ يأويهم فى ظروف الشتاء القاسية السائدة فى الجبال .

وهكذا استمرت حروب الجبال فى مناطق الحدود الشمالية الغربية حتى أدى مد الطرق العسكرية فى أوائل عام ١٩٠٠ وما بعده إلى فتح البلاد أمام الدوريات المنتشرة فى كل مكان . ولكن ظهر هنا عامل جديد ، إذ اختفت بنادق جازيل القديمة وأصبح رجال قبائل «مهود» مسلحين ببنادق حديثة يتم حشوها بالرصاص من مؤخرتها ويبلغ مداها أكثر من ٢٠٠٠ ياردة وبواسطتها استطاعوا إلحاق خسائر كبيرة بالجنود . وكان يتم إحضار البنادق من مسقط تحت سمع وبصر البريطانيين من خلال سلسلة منظمة من الخطوات تشبه الأساليب التى كانت مستخدمة فى نقل شحنات العبيد أو التجارة الحديثة فى نقل المهاجمين بطريقة غير شرعية . وقدرت الحكومة الهندية عدد البنادق التى كان يتم إنزالها على الساحل الإيرانى كل شتاء بأكثر من ٣٠,٠٠٠ بندقية من مختلف الأنواع بالإضافة إلى مالا يقل عن ١٠٠ طلقة ذخيرة لكل بندقية .

ولم يفرض الإيرانيون أى حظر أو قيود على استيراد الأسلحة على طول خط الساحل الجنوبى فى بلادهم . والحقيقة أنه من المشكوك فيه قدرتهم على فرض مثل هذا الحظر لو أرادوا ذلك ، إذ كان السيردارات البلوخستانيون أو زعماء ساحل مقرن يحصلون على عمولة عن كل بندقية أو مسدس يتم إنزالها فى أراضيهم ، وكانوا يخزنون البضائع ، حتى تكتمل الشحنة بأكملها ، وذلك عندما يتم تحميل قوافل الجمال التى سارت من كابول وهيرات فى فصل الشتاء مع حرسها من رجال القبائل وتسييرها نحو أفغانستان فى قافلة عن طريق سيستان . وكانت هذه التجارة مربحة للغاية ، إذ بلغت نسبة الأرباح ما بين ٢٠٠٪ و ٣٠٠٪ ، فى عمليات الموسم الواحد ، مما حدا بعدد كبير من رجال القبائل إلى الاشتراك فيها : ومنهم الغلزانيون من أفغانستان والأفريديون وغيرهم من العشائر من الجانب الهندى من الحدود — وكانت الأموال اللازمة لتمويل العمليات تأتى من الهند ، وكان سعر الفائدة المرتفع الذى يفرضه المرابون الهنود يجعل النجاح أمراً محتماً .

لقد كانت اللعبة تتسم بالذكاء . فى البداية اعتاد البائعون السفر بطريق السكك الحديدية عبر الهند إلى كراتشى ثم يستقلون القوارب إلى مسقط حيث

يشترون أسلحتهم ويعدون العدة لشحنها بالمراكب الشراعية إلى مكان الالتقاء المتفق عليه مع أصحاب القوافل على الساحل الإيرانى ولكن بمجرد أن تنبه البريطانيون إلى وجود تلك التجارة بفضل عملاء المخابرات التابعين لهم ، أصبحوا يرفضون منح تصاريح رسو للأفغان فى مسقط . ورد الأفغان على ذلك بأن أصبحوا يستقلون السفن إلى بندر عباس أو شهبار أو غسق الواقعة على الجانب الإيرانى من الخليج ويتسللون بواسطة المراكب الشراعية إلى مسقط ، ولذلك حرموا من المرور بالقوارب إلى مسقط . وهنا لجأوا إلى التخفى وتم فى نوفمبر عام ١٩٠٩ ، وضع فرق للمراقبة تابعة للمخابرات فى بومباى وكراتشى لمراقبة تجار الأسلحة المشتبه فيهم الذين يحاولون حجز إلى تذاكر الخليج بانتحال صفة مزيفة .

ولم تكن هناك لوائح خاصة بجوازات السفر ، كما ازدهرت حركة الإتجار وبيع التذاكر ذات الامتيازات لتلائم احتياجات كل فرد . ولكى تشدد مصلحة الجمارك الهندية الرقابة على هذا الأمر ، أصدرت بطاقات شخصية تحمل صورة صاحبها وبصمات أصابعه ، وتولت فحص الركاب بدقة شديدة وهم يصعدون السلم المؤدى إلى السفينة .

ولكن بالرغم من أن السفن قد ترفض منح تذاكر للأفغان إلا أن شركة بومباى — فارس للملاحة البخارية — التى أصبحت الآن الخط المغولى — والتى كان يمتلكها الهنود وتسير سفنها بين نفس الموانى أبدت قدراً أقل من التعاون ، ولذلك تمكن عملاء تجارة السلاح عن طريق التخفى فى صورة تجار هنود وتجار خيول عرب وحجاج إلى كربلاء ومكة ، من مواصلة التسلل من خلال شبكة الجمارك الهندية وعندما أصبح السفر بالسفن البخارية شديد الخطورة ، استأجروا سفناً شراعية من الموانى الهندية المنعزلة وعبروا إلى ساحل شبه الجزيرة العربية أثناء هبوب الرياح الموسمية .

واقتصر مجال التدخل البريطانى المحتمل فى عملهم على الطريق البحرى الممتد من ساحل شبه الجريرة العربية إلى مقرن . إذ كان سلطان مسقط أميراً يتمتع بالسيادة من الناحية الإسمية ، ولم يكن لدى بريطانيا الحق من الناحية

القانونية فى وقف صادرات الأسلحة الأوروبية إلى إمارته . ولم يكن من الممكن الاستيلاء على أية أسلحة داخل حدود بلاده أو داخل الخط الساحلى لبلاده وعرضه ثلاثة أميال ، وبمجرد نزول الشحنات على أرض إيرانية ، كانت تتمتع بالحصانة ضد الاستيلاء عليها .

وكانت مسقط تمثل فى ذلك الوقت محطة التزود بالفحم . وهى المحطة الوحيدة على الساحلين العربى والإيرانى لخليج عمان . وأرض الخليج الأصلية ، وذلك بعد أن أحبط المندوب السامى محاولات الفرنسيين للسيطرة على خمسة أميال أخرى تقع جنوب المدينة . وكانت ترتبط أيضاً بالهند وموانى الخليج بواسطة كابل يمتد تحت سطح البحر . وكانت واجهتها المائية الضيقة تخضع للرقابة بسهولة ولم يكن من السهل اكتشاف وجود عميل تابع لمصلحة الجمارك الهندية وسط هذا الحشد الكبير من العرب والهنود والبارسيين والبلوخستانيين والإيرانيين والسواحليين القادمين من زنجبار وممباسا لممارسة شئون أعمالهم فيها . وكان قباطنة المراكب الشراعية وتجار السلاح يفضلون استخدام مطرح كقاعدة لهم ، وهى تقع على بعد عدة أميال قليلة شمال مسقط ، ومنها كانوا يتعرضون لتحدى القوة البحرية الصغيرة التى خصصتها الحكومة الهندية لاعتراض شحنات الأسلحة .

وكانت السفن البريطانية « لا ب ونج » و « سفنكس » و « رد بريست » تشكل جزءاً من هذه القوة . ولم تكن ملائمة لهذه المهمة على الإطلاق . إذ كان من الممكن سماع بدالات السفينة « سفنكس » وهى تشق طريقها محدثة ضجة كبيرة وسط بحر متلاطم الأمواج حتى قبل أن تظهر فى الأفق ، وفى آخر الأمر حل أسطول مكون من ثمانية زوارق للسحب (مقطورات) وزوارق بخارية مسلحة بمدافع طراز ماكسيم ومدفع يطلق قذائفه زنة الواحدة ثلاثة أرطال مثبت فى مقدمة السفينة ، محل هذه السفن الثلاث ، وتصحب هذا الأسطول سفينة صغيرة حديثة لنقل الجنود اسمها « منتو » .

وكان هناك زبائن آخرون لتجار السلاح الفرنسيين فى عمان بخلاف الأفغان . إذ ازدهرت التجارة عبر الخليج نفسه وهذه زودت رجال القبائل المستقلة الجامحة التى تعيش جنوب غرب إيران بأسلحة أكثر فتكاً مما فى حوزة الحكومة

المركزية ، وبذلك مكنتهم من فرض إرادتهم على الحكام المحليين وبالتالى على وزراء الشاه بصورة غير مباشرة . وكان التجار العرب يشترون البنادق والذخيرة – معظمها فرنسية وأحياناً ألمانية – ثم تنقلها القوافل عبر جبال هجار إلى منطقة الخليج الأدنى ومنها يتم شحنها فى مراكب محلية صغيرة حيث يتم نقل ٢٠٠٠ بندقية فى المرة الواحدة ، ويتم إخفاؤها ، فى سلال البلح وبالات السكر وكانت وجهتها ساحل تنجستان المقابل وكان يتم إنزالها فى موانى صغيرة مثل عيلوار وتاهيرى ثم تنقلها قوافل البغال إلى داخل البلاد .

وفى ديسمبر من عام ١٩١٠ خسرت السفينة البريطانية « هياسنث » أربعة عشر رجلا مابين قتيل وجريح أثناء رسوها فى دبى خلال عملية استيلاء على الأسلحة ، وخسرت العرب أربعين رجلا . وتم قطر المراكب الشراعية المعتدية وتفريغها من حمولتها وإغراقها . ولكن طالما ظلت الحكومة الفرنسية غير راغبة أو قادرة على وقف أنشطة مواطنيها فقد استمر تدفق السلاح على المنطقة ولم تتعرض وحدها منطقة الحدود الهندية الحساسة دائماً لخطر القلاقل القبلية ولكن تعرض للخطر أيضاً خط الأنابيب الممتد من حقول البترول فى جنوب غرب إيران وكذلك مصفاة التكرير الموجودة فى عبدان . وفى نهاية الأمر ابتكر سير برسى كوكس الذى كان مندوباً سامياً لبريطانيا فى الخليج فى ذلك الوقت وبمساعدة أرنولد ويلسون فى عام ١٩١٢ وسيلة للتغلب على التجار الفرنسيين ونجح فى إقناع وزارة الخارجية بأن هذه الوسيلة سليمة قانونياً وتستحق المساندة الدبلوماسية . وبذلك قدم الأساس الرسمى لإغلاق تجارة السلاح التى كانت تعتبر تجارة مربحة للغاية وكان جميع المشتركين فيها يعتبرونها منفذاً مشروعاً ومحترماً للتنفيس عن طاقتهم التجارية .

واستمرت التجارة حتى عام ١٩٢٠ ولكن تكاتفت وسائل الاتصالات اللاسلكية والشفرة وعمليات رصد تحركات السفن الشراعية بانتظام وتوقع الأماكن التى سيظهر فيها الوكلاء بالإضافة إلى الدوريات المستمرة التى تقوم بها السفن البحرية ، من أجل القضاء عليها بصورة لا ترحم .

وانتشر الوجود البحرى البريطانى فى كل مكان تدعمه فى الموانى شرطة الموانى المرسلة من مصلحة الجمارك الهندية . وفى عام ١٩٠٢ حصلت بريطانيا

على موافقة من جانب شيوخ الأمارات العربية بحظر استيراد أو تصدير الأسلحة من بلادهم . وأدت السياسة ذات الكفاءة العالية والمتعلقة التى تهدف إلى صد التدخل الخارجى فى المنطقة إلى ربط هؤلاء الحكام باتفاقيات خاصة مع بريطانيا . ومع حلول عام ١٩١٦ كانت بريطانيا قد ربطت سائر المنطقة الشرقية لشبه الجزيرة العربية بمعاهدة خاصة مع بريطانيا العظمى ؛ وبذلك أصبح من الضرورى عرض جميع الصفقات التجارية التى تبرمها أمارات الخليج على المسئولين البريطانيين أولا لكى يفحصوها بدقة .

وأخيراً أصبحت السفينة البريطانية (سفينكس) غير صالحة للعمل فى عام ١٩١٩ بعد أن أحرقتها النيران تماماً ، ولكننا نلمحها للمرة الأخيرة عشية الحرب العالمية الأولى ، ومن الملائم بصورة ما أن تجىء إحالة السفينة وضباطها البحريين المرحين بل وأيضاً النظام نفسه التى تمثله ، إلى حالة من النسيان التاريخى فى نفس الوقت الذى وقع فيه هذا التطور أى نشوب الحرب .

فى يوم ١١ نوفمبر ١٩١٣ وصلت السفينة « سفنكس » إلى ساحل الكويت تحمل مجموعة من كبار الضباط البحريين والجيولوجيين فى بعثة أرسلها ونستون تشرشل ، الذى كان وقتها رئيساً للأدميرالية إلى الخليج . وفى عام ١٩١٢ كان تشرشل قد بدأ عملية تحويل سفن البحرية البريطانية من استخدام الفحم إلى استخدام البترول وتلقت المجموعة التى كانت تستقل « سفينكس » أوامر بزيارة حقول شركة البترول الأنجلو – إيرانية وكذلك مصفاة التكرير فى عبدان ، وتقديم تقرير عن احتمالات إنتاج البترول هناك وفى كل مكان من الخليج .

وظلت البعثة هناك ثلاثة أيام ، وعسكر أعضاؤها فى الصحراء فى مكان يسمى برجان يقع على بعد خمسة وعشرين ميلا جنوب الكويت ، حيث تم اكتشاف آثار للقار . وغادروا المنطقة صبيحة يوم الرابع عشر وكان أول مسح جيولوجى للكويت قد تم فى أوائل ذلك العام ، وقدر أن فرص الكويت البترولية كبيرة ، وإن كانت غير مشجعة .

ومرت ثلاثة وثلاثون عاماً قبل أن تتم ترجمة هذا الرأى التجريبى فى احتمالات البترول الكويتى إلى براميل من البترول . فقد أسهمت حربان عالميتان

فى هذا التأخير ، وكذلك أحجام صناعة البترول فى بداية الأمر من المغامرة فيما اعتبره الكثيرون من الخبراء مضاربة خاسرة ، وبدا أن البترول موجود فى إيران والعراق ولكن ليس فى شبه الجزيرة العربية ؛

ولكن البترول كان موجوداً هناك . وعندما ينظر المرء الآن إلى ماحدث ، لايسعه إلا أن يشعر بأن أسلوب بريطانيا فى معالجة موارد الدول التى تحت حمايتها افتقر إلى قدر من الإلحاح والعجلة . إذ أن منطقة الخليج بأكملها كانت تبدو ملكاً لها وحدها فى تلك الفترة المبكرة السابقة لعام ١٩١٤ . وكانت تحتكرها تماماً وتضعها فى حقيبة صغيرة مرتبة فى مقابل تقديم لفتات رمزية إلى الحكام فى شكل إطلاق المدافع تحية لهم ، ومنحهم الأوسمة والنياشين . ولم يحدث أى شىء هناك إلا العمل التجارى ، وهذا تولاه الإيرانيون والهنود وحفنة من التجار البريطانيين والوكلاء الملاحيين فى البصرة .

وكانت المنطقة عبارة عن موضع خلفى منعزل يتسم بالركود ، وظل معظم الموجودين يحيون نفس حياتهم السابقة ولكنهم تخلصوا من خطر القرصنة والمنازعات البحرية . ولم يهتم أحد بتقصى ماحدث فى المناطق الداخلية التى ظلت خطرة ، واستمرت الغارات وأعمال الثأر الدموية والاغتيالات تحصد ضحاياها فى نطاق التحالفات القبلية على جانبى الخليج .

وكان الطقس مرعباً ، والملاريا منتشرة ، ولم يكن أحد يحضر إلى المنطقة إلا بدافع الاضطرار . وقام المسئولون البريطانيون — المندوب السامى والمندوبون السياسيون ، والبحرية وضباط البوليس — بواجبهم . ولم يكن الحال بالغ السوء فى أيام الشتاء المشمسة . فقد كانوا يركبون الخيول ، ويصيدون ويلعبون الكريكيت .

وكان الأمر يبدو كما لو كان المرء لديه وكلاء ماهرون مستعدون للمساعدة فى داخل البيت . فكان هؤلاء يحتفظون بالبيت منظماً ليس لأنهم يعتزون به بصفة خاصة ، ولكن لإدراكهم أنهم لو أهملوه فسيحتله محتل آخر بوضع اليد . وقد سمحوا لملاكه باستخدام القبو وأحياناً كانوا يدعونهم لتناول الشاى فى الدور العلوى ، ولكنهم تركوهم يحيون حياتهم كما يشاؤون شريطة ألا يحدثوا أية ضجة أو يتدخلوا بأية صورة فى الترتيبات التى يعدها هؤلاء المندوبون ؛

الفصل التاسع

امتيازات البترول الايرانى ــ عبدان ــ تدخل تشرشل ــ الحكام المحليون ــ الوحدة الاسلامية ــ مجالات المصالح فى ايران ــ تدهور العلاقات ــ الحرب الدعائية الالمانية ــ تركيا تعان الحرب ــ قوة « د » ــ الاستيلاء على البصرة ــ تدعيم الوجود البريطانى فى الخليج ــ البصرة فى عام ١٩١٤ ــ سير برسى كوكس ــ المخربون الألمان ــ مؤامرة فى البحرين ــ الاحتلال البريطانى لبوشير وازموس ــ نشاطه فى حرب العصابات جنوب غرب ايران ــ ارتباك بريطانيا ــ اسرى اهرلم ــ ابطال تونجستان ــ القبض على واسماس ــ عودته الى تونجستان ــ وفاته ــ تأثيره على المواقف البريطانية الرسمية ــ اعادة تشغيل الخطوط الجوية الامبراطورية ــ آثار بعيدة المدى .

* * *

فى عام ١٩٠١ منحت الحكومة الإيرانية امتيازاً يغطى مساحة قدرها ٥٠٠,٠٠٠ ميل مربع من الأرض ، إلى مستر و . ك . دراسى ، للبحث عن البترول ، وفى عام ١٩٠٨ تم اكتشاف البترول فى مسجد السليمان فى جنوب غرب إيران ، وفى عام ١٩٠٩ أسس دارسى شركة البترول الأنجلو ــ إيرانية التى كانت بريطانيا خالصة ، لاستغلال الامتياز ، وذلك بمساعدة لورد فيشر ، أمير البحر ، الأول فى الأدميرالية .

ومع حلول عام ١٩١١ أصبح حقل البترول الذى كان يقع فى المنطقة المجاورة لبشوستار الواقعة على نهر قارون الأعلى ، يتصل بمصفاة التكرير الموجودة فى جزيرة عبدان بواسطة خط أنابيب طوله ١٤٠ ميلا . كان يمر عبر أراضى شيخ محميرة شبه المستقل والحاكم الأعلى المسيطر فى عربستان الجنوبية . وفى عام ١٩١٣ ، كما رأينا ، أرسلت الأدميرالية بعثة للتقصى لتبحث فرص شركة البترول الأنجلو ــ إيرانية وفى عام ١٩١٤ قبل نشوب الحرب مع ألمانيا ،

أصبحت الحكومة البريطانية من كبار حملة الأسهم فى الشركة عن طريق شراء ماقيمته ٢,٢٠٠,٠٠٠ جنيه استرلينى من الأسهم العادية .

ولم يتم عرض هذه الصفقة ، التى قام بها أمير البحر الأول فى الأدميرالية فى ذلك الوقت ، ونستون تشرشل ، على البرلمان للتصديق عليها إلا بعد استكمال شراء الأسهم ، تماماً كما اشترى ديزرائيلى بصفته وزيراً للخارجية على مسئوليته الخاصة فى عام ١٨٧٥ بما قيمته ٤,٠٠٠,٠٠٠ جنيه استرلينى من أسهم شركة قناة السويس من خديو مصر .

وقد ثبت أن اشتراك وكالة حكومته فيما كان فى الأصل مشروعاً تجارياً أضر بوضع شركة البترول الأنجلو ــ إيرانية فى المفاوضات التى جرت بعد ذلك ، وأثار المخاوف من أن تكون الشركة مجرد طعم أو ستار يخفى المطامع السياسية البريطانية ، ولكن إذا نظرنا إلى الأمر فى ضوء الموقف الذى كان سائداً عندئذ ، نجد أن تصرف تشرشل اتسم بالذكاء الشديد والبراعة ، نظراً لأنه كان قد شرع لتوه فى تنفيذ برنامج لتحويل سفن البحرية البريطانية من استخدام المراجل التى تستخدم الفحم إلى المراجل التى تستخدم البترول ، وكانت الشركة هى مصدر إمداد البترول الوحيد المتاح أمامه والذى تسيطر عليه بريطانيا .

وقد أصيبت العلاقات الأنجلو ــ تركية بأضرار شديدة نتيجة لنجاح قيصر ألمانيا فى أن يحصل من تركيا على معاهدة تتعلق ببناء خط سكك حديدية القسطنطينية بغداد ، والتى استبعدت فعلا اشتراط الفرنسيين والبريطانيين التجارى . إذ اعتبر فى بريطانيا تهديداً لموقفها فى الشرق الأوسط ، وإشارة مشئومة إلى الخطر الذى يحتمل أن تتعرض له الهند ، وكذلك احتكار بريطانيا لحقول البترول الإيرانية .

وتلاشى التهديد الروسى للهند فى ضوء هذا التطور الجديد ولاسيما أن بريطانيا وروسيا أبرمتا اتفاقية فى عام ١٩٠٧ تقضى بتقسيم بلاد إيران إلى مناطق نفوذ شمالية وجنوبية . . مع وجود منطقة إيرانية محايدة فى الوسط . ولم يتم استشارة الإيرانيين بشأن هذا الأمر ، وأصابهم الرعب الشديد عندما وجدوا أن عدوهم التقليدى روسيا ، قد تحالف مع حاميهم المزعوم بريطانيا ، وكلاهما يستخدمان بلادهم بلا حياء فى تعزيز أهدافهما الحربية ضد الأتراك والقوى المركزية .

وأسفرت الثورة التى قام بها حزب تركيا الفتاة فى عام ١٩٠٨ عن ظهور حركتين سياسيتين – دينيتين هامتين هما : الحركة الإسلامية الشاملة ، الموجهة إلى بلاد إيران وأفغانستان والهند ، والحركة الطورانية الشاملة الموجهة إلى آسيا الوسطى : وكلتاهما تتميزان بالمشاعر المناهضة للامبريالية وبالتالى تعتبران مناهضتين للبريطانيين . وكان حزب تركيا الفتاة يلقى المساعدة من جانب المستشارين الألمان الذين طوروا فكرة الوحدة الإسلامية الشاملة بواسطة الدعاية الذكية ، ونجحوا بواسطتها فى إزعاج حكومة الهند بشدة ، وأثاروا رد فعل لا يتناسب حجمه ، بصورة أرضتهم ، مع الموارد التى أنفقت .

وكانت السياسة البريطانية المتبعة فى السنوات السابقة لعام ١٩١٤ ترمى إلى الحفاظ على هيبة بريطانيا عند رأس الخليج . ومن الناحية الاستراتيجية انصب اهتمامها الوحيد فى المنطقة على الآبار التابعة لشركة البترول فى شوستاد وخط الأنابيب البالغ طوله ١٤٠ ميلا ، وعبدان نفسها مع مدخلها المؤدى إلى الخليج ، والتى تشرف عليها القوة البحرية البريطانية .

وبعد أن أصبح قيصر ألمانيا يطلق على نفسه اسم صديق العالم الإسلامى وحاميه ، ونظراً لبراعة ألمانيا فى إبراز المظالم التى تعرضت لها إيران ، فإن تخوف الهند القديم من تعدى روسيا على حدودها حل محله تخوف مماثل من حدوث هجوم تركى – ألمانى عبر شمال شرق بلاد إيران إلى داخل أفغانستان ومنها إلى الهند . وسواء أكان هناك تخطيط لذلك أم لا ، فإن التهديد به ، وكذلك فكرة الجهاد ضد الكفار التى كانت الدعاية التركية ترددها دون كلل ، كانت كافية لإقناع الحكومة فى بداية الحرب بضرورة القيام باستعراض القوة فى الخليج . فقررت إرسال لواء من الهند إلى البصرة فى نفس موعد إعلان الحرب المتوقع من جانب تركيا .

وعرفت هذه القوة العسكرية الأولى باسم القوة « د » وقد أبحرت وهى تحمل أوامر مختومة مع قافلة متجهة من بومباى إلى أوروبا . وبعد أن قضت ثلاثة أيام فى البحر ، فضت الأختام وقرأت الأوامر واكتشفت أن وجهتها هى بلاد مابين الرافدين . فقد كانت مهمتها تأمين إمدادات البترول من عبدان ،

وأن تظهر للكويتيين وابن سعود أن بريطانيا تعتزم الاحتفاظ بوجودها فى الخليج ، وحرمان الألمان من استخدام البصرة كقاعدة للغواصات وسد الطريق البرى المؤدى إلى الهند .

وقد دهش أهل البحرين عندما استيقظوا صبيحة أحد الأيام ليجدوا حملة عسكرية ترسو أمام شواطئهم . وكان الأتراك أكثر دهشة عندما وجدوا القوة « د » تبحر يوم ٥ نوفبر ، وهو اليوم الذى أعلنت فيه تركيا الحرب ، وتنزل خمسة آلاف جندى و ١٢٠٠ حيوان . وتم الاستيلاء على فاوبوم السادس من نوفبر (ومعها بساتين النخيل المملوكة لشيخ الكويت) ، وفى يوم ٨ نوفبر نزلت قوات المشاه وراء عبدان . وتم الاستيلاء على البصرة يوم ٢٢ نوفبر :

وقد انبهر السكان العرب انبهاراً شديداً بظهور القوات البريطانية المفاجىء بصورة تثير الدهشة فى نفس اليوم الذى تم فيه إعلان الحرب ، والسرعة التى تم بها التغلب على الأتراك . وتم تجنب أى احتمال لقيام تحالف تركى – عربى فى الخليج ، وأصبحت آبار البترول فى أمان وتحققت الأهداف السياسية والاستراتيجية للحملة فى مقابل خسارة عدة مئات من الأرواح :

وكانت البصرة فى عام ١٩١٤ على نفس الحال الذى كانت عليه فى عهد راتيسلو فى بداية القرن . وكانت ولاية البصرة تشكل مركز الإدارة التركية فى دلتا شط العرب وامتدت سلطتها شمالا حتى وصلت إلى المستنقعات الموجودة عند التقاء نهرى دجلة والفرات فى القرنة .

وكانت زراعة النخيل تمثل النشاط الوحيد فى المنطقة الذى يعود بالثراء على صاحبه . إذ انتشرت حدائق النخيل أميالا عديدة إلى جانبى النهر بحيث تغطى رمال الصحراء وتكسو ضفاف النهر بخضرة ممتدة إلى مسافات بعيدة فى شكل صفوف ظليلة ، وخلال شهرين من العام ، فى نهاية الصيف ، تستوعب تجارة البلح جهد كل رجل وامرأة وطفل فى المنطقة ، حيث يجتمعون لحصد المحصول وتعبئته .

وكانت البصرة مرسى مفتوحاً ليس بها أرصفة أو عمال ميناء أو تسهيلات لإنزال الجنود أو المدافع أو المؤن ، وليس بها أيضاً أماكن لتجمعها بعد إنزالها .

وكان يتم تفريغ السفن التى اقتصرت على تلك التى لايزيد غاطسها عن ستة عشر قدماً من الماء ، فى وسط الماء فى المراكب الشراعية المحلية الصغيرة ثم يتم توزيعها على شبكة القنوات الصغيرة الممتدة بين المستنقعات وحدائق النخيل وكان المناخ سيئاً والعمال قليلين والرعاية الصحية منعدمة ، والذباب والبعوض ، منتشراً بكميات لايمكن تصديقها إلا إذا شاهدها المرء بنفسه .

وكان المسئول السياسى الملحق بالقوة « د » هو الكولونيل بيرسى زكارياس كوكس ، الذى أصبح فيما بعد سير بيرسى كوكس ، أول مندوب سامى فى العراق الواقعة تحت الانتداب . وقد خدم قبل ذلك فى الخليج ، فعمل مندوباً سامياً من عام ١٩٠٤ إلى عام ١٩١٣ ، تحت إدارة حكومة الهند للمناطق الساحلية من الخليج الفارسى . وقد لقى تقديراً كبيراً ، كخبير محلى ، بين المستشارين السياسيين العاملين مع نائب الملك فى الهند ، وتحت سلطته تمت حادثة الاستيلاء على البصرة .

وكان محور الاهتمام الرئيسى لدى الحكومة البريطانية يتمثل فى تأمين حقول البترول الإيرانية وخط إمداداتها إلى عبدان ، وبدا أن هذا الاهتمام قد تحقق بعد نجاح عملية الإنزال التى قامت بها القوة « د » والاستيلاء على البصرة ، وتلقى شيخ محميرة والزعماء المحليين (الخانات) لقبائل بختيار تأكيدات باستمرار إمداداتهم من الأموال البريطانية وظلوا على علاقاتهم الودية مع بريطانيا .

ولكن ماكاد ذلك يتحقق حتى كان كوكس يرسل برقية سرية إلى نائب الملك يحث فيها على التقدم فوراً نحو بغداد الواقعة على بعد خمسمائة ميل . وهذه كانت الدفعة الأولى من الاهتمامات « السياسية » التى تدخلت فيما بعد بصورة قدرية فى الاستراتيجية العسكرية للعملية . وكان أمن الهند يمثل الاهتمام الرئيسى لدى كوكس ، تماماً كما كان بالنسبة لجميع من هم على شاكلته من حيث النشأة والتعليم ، وقد اعتبر أن الأهداف المحدودة التى حققتها القوة « د » ليست كافية لاحتواء احتمالات التهديد التى رآها بخياله وبصيرته .

وحثت الدعاية التركية على إبرام تحالف بين الدول الإسلامية وهى تركيا وإيران وشبه الجزيرة العربية وأفغانستان . وتلقت مساعدة علماء المخابرات

وخبراء الدعاية الألمان لكى تعزز من أهدافها . وكان الألمان جندوا ذوى الخبرة فى المنطقة من بين مواطنيهم وفيهم جيولوجيون وعلماء نبات ، وجعلوا من ويلهلم وارموس ، القنصل الألمانى الشاب فى بوشتير ، مخرباً وأداة لإثارة الاضطرابات القبلية ، من نفس معدن ت . ى . لورانس .

وشكلت حقول البترول الموجودة فى جنوب إيران ، وهى المصدر الوحيد الذى تحصل منه البحرية على البترول ويخضع لسيطرة بريطانيا ، هدفاً واضحاً للعمل العسكرى من جانب الأعداء . ولكن بالإضافة إلى ذلك التهديد الملموس القائم هناك ، كان الخوف يسيطر على أذهان المسئولين الهنود خشية نشوب ثورة إسلامية واسعة النطاق ضد الحكم البريطانى فى الهند ، ويخشون أيضاً خطر حدوث تمرد فى الجيش وسيطرة الخيانة على موظفيها .

وقد تفهم جهاز المخابرات التابع للدول المركزية هذا التخوف تماماً واستغله أيضاً . وكان المنسق الرئيسى على حملة الدعاية فى المنطقة هو الوزير الألمانى فى طهران الأمير هنرى فون روس الذى كان قد مهد لمهمته هذه بقضاء عدة سنوات فى كلكتا حيث عمل قنصلا عاماً لألمانيا ، فى حين تدفق من بغداد سيل من الشائعات والوعود والمواعظ الدينية التى كانت تروجها مصلحة الإعلام التركية ، والتى كانت تعدها بحيث تلائم الاحتياجات الخاصة بكل قبيلة كما كانت تلهب مشاعر التعصب الدينى والتخوف المرضى من الأجانب فى حركة الوحدة الإسلامية الشاملة .

وقد نبع تلهف كوكس على الوصول إلى بغداد من هذه الأنشطة . فقد كان يريد تحقيق نجاح مثير آخر يتبع النجاح السابق ، كما أراد إسكات جهاز الدعاية التركى ووقف تسلل المخربين الألمان من بغداد عبر الحدود الإيرانية إلى أفغانستان والهند . وانتقلت عدوى قلقه إلى الهند فى فبراير عام ١٩١٥ عندما حملت قبيلتان من قبائل عربستان هما باوى وشعب ، السلاح وهددتا خط الأنابيب الممتد إلى عبدان وكان العميل الألمانى وازموس هو المحرض على هذه الاضطرابات والأعمال العسكرية .

ولعل الإمبراطورية ، كمؤسسة كانت مزعزعة بالفعل بدرجة أكبر مما كان يبدو عليها . فربما كان الانشغال بمسألة « الهيبة » ، الذى طغى فيما بعد على الحيطة العسكرية التى تمليها الفطرة السليمة ، كان يمثل الجانب العكسى للقلق الكامن بشأن استمرار السيطرة البريطانية على الهند ، والذى كان الإقرار به يعد هرطقة ، وكان يغطيه قناع من التظاهر بالعلم بكل شئ والغرور من جانب المسئولين البريطانيين وعلى أية حال كان التمرد الهندى مايزال بعيداً .

وأدى ظهور القوة « د » خارج ساحل البحرين إلى اكتشاف شبكة جاسوسية راسخة فى الجزيرة . وتم الكشف أيضاً عن مؤامرة لقطع خطوط التلغراف الهندية ـ الأوروبية ينفذها موظف فى شركة فونكهاوس الألمانية ، وأعقب ذلك صدور الأمر للبحرية فى عام ١٩١٥ بالاستيلاء على ميناء بوشير من الإيرانيين ، واعتقال الرعايا الألمان المقيمين فى المدينة وترحيلهم . على أن قنصلهم وازموس استطاع تجنب الاعتقال وتسلل من المدينة على قدميه متجهاً إلى التلال . وسار خمسين ميلا حتى حصل على جواد وسار به بسرعة كبيرة حتى وصل إلى شيراز قبل وصول فرقة الفرسان الهندية التى أرسلت وراءه واحتمى فى القنصلية الألمانية هناك .

وكانت إيران دولة مستقلة من الناحية الإسمية ، وأعلنت أنها تقف على الحياد ، ولهذا لم يكن هناك أى مبرر لقيام أحد الأطراف المتحاربة بخطف عضو من الطرف الآخر . ولكن عندما دخلت بريطانيا وروسيا فى تحالف عام ١٩٠٧ ضد الدول المركزية ، قامتا بتقسيم إيران إلى ثلاث مناطق للنفوذ ، وسيطرت روسيا على الجزء الشمالى وبريطانيا على الجنوبى ، وظل القسم الأوسط فى أيدى الإيرانيين من الناحية الإسمية فقط . وقد حدث ذلك قبل اكتشاف البترول بعام واحد فى القطاع الإيرانى . وبعد الاستيلاء على بوشير تم إبرام اتفاق سرى مع الروس ، عن طريق المفاوضات وأصبحت بمقتضاه المنطقة المحايدة بأكملها داخل منطقة النفوذ البريطانية .

وانتاب الغضب الشديد الإيرانيين بسبب سير الأحداث هكذا ، ولكن لم يكن بمقدورهم القيام بأية خطوة ضد مموليهم الأقوياء . وعبر الأتراك

إلى داخل البلاد فى اتجاه كرمان شاه واشتبكوا فى حملة غير حاسمة مع القوات الروسية التى دخلت البلاد من القوقاز . ولم تتوقف هذه الحملة إلا بنشوب الثورة الروسية فى عام ١٩١٧ وانسحاب الجنود الروس إلى داخل حدودهم .

وفى تلك الأثناء وجد البريطانيون أنهم يتعرضون لحملة منظمة من حرب التخريب يشنها الألمان فى إيران . إذ عبرت بغداد مجموعات من الألمان والنمساويين والأتراك تحت قيادة أوسكار فون نيدرماير الذى كان عالماً جيولوجياً ، إلى داخل إيران ، وشكلت وحدات لرجال العصابات بالتعاون النشط من جانب المثقفين الإيرانيين وهم أعضاء بالحزب الديمقراطى الذى نشأ أثناء اضطرابات عام ١٩٠٥/١٩٠٦ عندما حصلت إيران على دستور للمرة الأولى فى تاريخها ، وتكون صلب الديمقراطية من اتحاد ثورى للمجاهدين أو المتعصبين الدينيين فى أزربيجان ومعظمهم تلقى العلم إما فى روسيا أو تلقى التعليم الماركسية على يد اللاجئين الماركسيين الفارين من ثورة « دوما » عام ١٩٠٥ وكانت هذه هى المادة الأولى التى كون منها جسون بوكان « جرين مانتل » وكانت قيادة حملة نيدر ماير قد عرضت فى أول الأمر على وازموس ولكنه رفضها مفضلا العمل بنفسه بين قبائل جنوب إيران وسواحل الخليج ، وكان يتلقى إمدادات وفيرة من الأموال بموجب تعليمات شخصية من القيصر نفسه ، وشرع فى ممارسة عمله كمخرب وهو يحمل ١٤٠ ألف مارك ذهبى ونسخة من القانون الدبلوماسى الألمانى رقم ١٣٠٤٠ فى حقائبه .

وكان وازموس مدبراً ناجحاً بصورة غير عادية لحرب العصابات ولم يكن من الممكن مطلقاً أسره أو خيانته حتى عندما تحول التيار ضده وعاش حياة المطارد فى جبال جنوب إيران . وأدت قدرته على تجنب الأسر إلى خلق كثير من القصص المثيرة عنه وجعلت البريطانيين يكرهونه بشدة إذ كانوا يحملونه مسئولية جميع النكسات التى أصيبوا بها فى جنوب إيران .

وتمثلت المهمة التى حددها لنفسه فى إثارة قبائل المناطق الداخلية الواقعة بين بوشير وشيراز وهى فضح النوايا البريطانية أيضاً . وقد قدم

البريطانيون إسهامه الشخص فى قيمة نجاحه بما يساوى مجهود فرقتين من فرق الجيش وعرض كوكس مكافأة قدرها ٣٠٠٠ جنيه إسترلينى زيدت فيما بعد إلى ١٤ ألف جنيه إسترلينى – أى مائتى ألف روبية وهو مبلغ هائل بالنسبة لفرد مقابل تسليمه حياً أو ميتاً . وعندما سمعت وزارة الخارجية بالعرض الذى قدمه كوكس أعربت عن شعورها بالصدمة والتقزز وتبرأت منه .

وقد حقق وازموس نجاحه عن طريق تضخيم مشاعر العداء الموروثة لدى زعماء القبائل حيال الحكومة المركزية فى طهران وحيال أى تهديد بانتهاك الاستقلال الذاتى لقبائلهم سواء من جانب مسئولى الحكومة أو من جانب القوات البريطانية الغازية . وأدى احتلال البريطانيين لبوشير إلى وقوع سلسلة من الهجمات شنتها قبائل تونجستان بلغت خسائر البريطانيين فيها ١٥٠ قتيلا وفى أكتوبر عام ١٩١٥ قامت العناصر الديمقراطية فى شيراز بتمرد وقامت هذه العناصر بالاتفاق مع الشرطة الإيرانية باعتقال جميع السكان البريطانيين فى المدينة . وتم اقتياد القنصل البريطانى ومدير بنك إيران الإمبراطورى وعمال التلغراف وواحد أو اثنين من رجال الأعمال وزوجاتهم من شيراز إلى الخليج بواسطة حشد هائل من رجال القبائل وتم احتجاز الرجال فى قلعة من الطين تقع فى « أهرام » على بعد ٢٠ ميل من بوشير فى حين أرسلت النساء سالمات إلى المندوب السامى فى بوشير .

أمضى المسجونون الستة عشر حوالى عام فى أهرام القذرة وتوفى أحدهما نتيجة لأزمة قلبية وتم دفنه خارج الحائط . وقوبل طلب وازموس بالجلاء عن بوشير وإطلاق سراح المسجونين الألمان والتونجستانيين ، بتعزيز ذلك الميناء وتحويل القوات اللازمة للدفاع عن بلاد ما بين الرافدين حيث كانت مسألة نجدة كوت تشغل بال الجميع . وتم الرد على التهديد بإرسال حملة من بوشير لإنقاذ الأسرى بإصدار تهديد بشن مذبحة على الفور . وكان هذا التهديد مقنعاً إلى حد أن أحد المسجونين وهو مستر بيتى جرو مات عند سماعه .

وفى أواخر عام ١٩١٦ تم مبادلة الأسرى الستة عشر مسجوناً تونجستانياً وصمد البريطانيون أمام الضغوط المفروضة عليهم لكى يجلوا عن بوشير وهو عمل كان سيسفر حتماً عن وقوع تمرد ضخم ضدهم فى جميع أنحاء إيران الجنوبية مما يؤدى بالتالى إلى تهديد أمن خط الأنابيب على أن نجاح وازموس فى تحريض القبائل على شن حرب ضد البريطانيين أسفر عن تعرض القبائل لمصاعب اقتصادية متزايدة إذ مع إغلاق أسواق الميناء بدأوا يجدون صعوبة فى إعالة أنفسهم، كما نفذت أموال وازموس نفسه . وكانت الأنشطة التى قامت بها جماعة نيدر ماير أكثر خطورة إذ تماثل هدفهم فى التحرك فى جماعات مستقلة عبر إيران والتغلغل داخل الهند بعد أن أثاروا وسلحوا قبائل الحدود التى تعيش على حدود أفغانستان وبلوخستان . ولكن نيدر ماير وعدداً ضئيلا من أتباعه هم فقط الذين نجحوا فى الوصول إلى كابول على أن المؤامرات الألمانية فى إيران أودت بحياة العديد من المسئولين والموظفين فى القنصليات البريطانية والروسية وحققت الانهيار التام للنفوذ البريطانى فى إيران الجنوبية . ومع حلول عام ١٩١٥ لم يعد هناك بريطانى واحد فى المدن الرئيسية الواقعة فى المنطقة البريطانية وهى أصفهان وشيراز وأزد وكرمان وبدا كما لو أن نوبة من التعصب ضد البريطانيين ستجتاح إيران وتصل إلى الهند . وبدا أن كارثة ما بين الرافدين التى وقعت فى أبريل ١٩١٦ ، عندما استسلم الجنرال تاون سند للأتراك فى كوت وتم أسر حامية مكونة من ٢٧٥٠ جندى بريطانى و ٦٥٠٠ جندى هندى ، تثبت صحة الوعود الألمانية حيث كانوا يمهدون الطريق لعبور جيش تركى عبر أراض إسلامية صديقة إلى الهند بعد تجريدها من قواتها المسلحة وجعلها ضعيفة بصورة مؤلمة أمام أى هجوم .

وكان هذا كله مجرد دعاية بالطبع . إذ أن الحقائق الفعلية لم تدعم هذا التهديد على الإطلاق . ولم تكن هناك أراضى إسلامية صديقة فى إيران ليعبرها الأتراك – ولم يقوموا بغزو للهند – وفى النهاية استولى البريطانيون على بغداد بالفعل ، وإن كان أحد لم يعد يهتم فيها كثيراً فى ذلك الوقت ، وتحركت

المعركة صوب الشمال وكان عام ١٩١٧ قد حل وتلاشى الاندفاع الروسى من القوقاز . وهكذا لم تتحقق مطلقاً عملية انضمام القوات المتحالفة فى الموصل، وانتقل الاهتمام الاستراتيجى إلى فلسطين وهناك تقررت الحرب ضد تركيا عندما شن الجنرال اللنبى هجومه . واندفع الجيش الميدانى الهائل الحجم والباهظ التكاليف الموجود فى بلاد ما بين الرافدين إذ بلغ عدده حوالى ٦٤,٨٠٠ بريطانى و ١٥٦,٠٠٠ هندى بالإضافة إلى ٧٣,٠٠٠ حيوان . اندفع الجيش بإصرار شديد نحو الموصل وأصبح على بعد اثنى عشر ميلا من تلك المدينة يوم أول نوفمبر عام ١٩١٨ عندما أعلنت الهدنة مع تركيا .

وفى تلك الأثناء كان وازموس يقوم بنشاط كبير بالاشتراك مع زميل ألمانى واحد يدعى سيللر ، فى إثارة مشاعر الكراهية والاستياء ضد بريطانيا فى جنوب إيران . ويشجع على الفرار من القوات المجندة التى تشكلها سير بيرسى سايكس وتم ضمها إلى كتيبة الرماة فى جنوب إيران ، وكان للبريطانيين حوالى عشرين ألف جندى فى بوشير ، وكانوا عازمين على فتح الطريق إلى شيراز ، وفرض سيطرتهم على البلاد . وقد اتسمت الحكومة الإيرانية بميول موالية للألمان وتمثلت خطة وازموس فى إثارة جميع القبائل الجنوبية ضد البريطانيين وإدخال إيران الحرب إلى جانب الدول المركزية .

ولم تصل أنباء الهدنة إلى وازموس ورفيقه فى قلب بوشير إلا فى أواخر نوفمبر . إذ أرسل البريطانيون رسالة تحمل النبأ ويعرضون فيها إعادتهما إلى ألمانيا إذا ما سلما نفسيهما خلال سبعة أيام ، وإلا فإنهما سوف يعاملان معاملة أسرى الحرب إذا ما تم أسرهما .

وقد شك وازموس فى صدقهم بشأن اعتقاله وترحيله من دولة محايدة، وظل مطلق السراح ، وإن كان قد أصبح واضحاً الآن أنه لابد وأن يعتقل فى نهاية الأمر . وفر وازموس مع سيللر برفقة حرس من رجال قبائل تونجستان عبر البلاد إلى الشمال الشرقى ، وهو يعتزم العبور إلى داخل تركيا . وفى كاشان أخطأ وازموس بحضوره احتفال بمناسبة العام الجديد أقامه الحاكم حيث تعرف عليه موظف تلغراف أمريكى وقام بإرسال النبأ برقياً

إلى المفوضية البريطانية فى طهران . وبعد ذلك بثلاثة أيام باغتت وازموس ورفيقه مجموعة من رجال الشرطة الإيرانيين فى قم ، وتم نقل وازموس وزميله إلى طهران ومنها تم تسليمهما إلى المفوضية .

ولم يصل وازموس أخيراً إلى ألمانيا إلا فى خريف عام ١٩١٩ . وقد طالب الكثيرون فى إيران والخليج بمحاكمته بسبب الأنشطة التى مارسها خلال الحرب ، ولكن الوزير الذى كان يعرفه ويحترمه أعد الترتيبات لنقله تحت حراسة إلى كازفين ثم استقل السفينة إلى كولونيا عن طريق باتوم ومارسيليا . وبعد محاكمات ومصاعب عديدة ، وقضاء فترات سجن مؤقتة ، تم توصيل وازموس ورفيقه سيللر تحت الحراسة إلى كولونيا حيث اندمج مرة أخرى فى الحياة الألمانية .

وأصبح وازموس رئيساً للإدارة الشرقية فى وزارة الخارجية الألمانية ولكنه استقال من منصبه فى عام ١٩٢٤ لكى ينفذ مشروعاً خيالياً يهدف إلى الوفاء بالوعود التى كان قد قطعها لقبائل تونجستان بمنحهم مكافآت مالية وكان مديناً لهم بمبلغ خمسة آلاف جنيه إسترلينى .

وأصبح وازموس يرى أن الشرف يحتم عليه تنفيذ هذا الإلتزام . وفى ديسمبر عام ١٩٢٤ عاد وازموس إلى بوشير مع زوجته . وأقام وازموس مزرعة نموذجية فى شاغوداك أنفق عليها مبلغ خمسة آلاف جنيه إسترلينى كانت الحكومة الألمانية قد منحته إياها على مضض . وكان هدفه هو إدخال وسائل الزراعة الحديثة عند القبائل ويتمكن عن طريق تأهيلهم من دفع دينه خلال خمسة أعوام . ولكن مشروعه فشل . إذ أن زعماء القبائل الذين كان وازموس قد حرضهم على القيام بعمل وطنى كانوا قد أصبحوا متقدمين فى السن وحل محلهم آخرون ، أو ماتوا ، وكان أبناؤهم ومن خلفوهم لايريدون سوى المال ولذلك أعاقوا عمله ودبروا له المؤامرات فى كل خطوة .

ومع حلول عام ١٩٢٨ كان وازموس قد أفلس . ورفع زعماء القبائل قضية ضده وحكم ضده أولا فى بوشير ثم فى شيراز . وكان زعماء قبائل

تونجستان وأتباعهم المسلحون يتكمسون فى قاعات المحكمة ، ويحدقون فى حقد صامت فى القضاة ، وحيث أن القانون لم يكن مستتباً فى البلاد كان من المستحيل محاكمته محاكمة عادلة . وكافح وازموس وتم إلغاء الحكم فى الاستئناف الذى قدمه فى طهران ، ولكنه كان قد أصبح مريضاً ومنهكاً . ومات فى برلين فى نوفمبر عام ١٩٣١ عن عمر بلغ واحداً وخمسين عاماً .

لقد كانت شخصية وازموس الملهمة بصورة خيالية — شأنه فى ذلك شأن ت . س لورانس الذى قلد وازموس أنشطته فى كثير من المجالات — كانت شخصية غير متلائمة مع حقائق الحياة السياسية ومع صفة الحرص على المصلحة الشخصية الكامنة فى التفكير السياسى . وكانت الأعمال الجريئة التى قام بها بين قبائل تونجستان السبب فى عدم ثقة المسئولين البريطانيين فى الخليج بعد ذلك فى سكان جنوب إيران الذين كانوا يصفونهم بأنهم من جنس مهجن، ومما أبرز مشاعر عدم الثقة هذه ، المشكلات التى نشأت فى تلك البلاد بعد ذلك والتى جعلت من المستحيل تسيير الخط الجوى البريطانى الرائد إلى الهند عن طريق الساحل الإيرانى للخليج .

وكان هذا الخط ، الذى افتتحته شركة الخطوط الجوية الملكية بتسيير رحلة فى مارس من عام ١٩٢٩ ، يقطع الرحلة فى أسبوع ، وإن كان بعض الطيارين الذين يتنافسون لتسجيل رقم قياسى فى زمن الرحلات ، يستطيعون قطعها فى خمسة أو ستة أيام . وقد حذت شركة الطيران الفرنسية « أورينت » والشركة الهولندية ك.ل.م حذو البريطانيين فى عامى ١٩٢٩ و ١٩٣١ بتسيير خطوط للركاب ونقل البريد بين أوروبا ومستعمراتهم فى الشرق الأقصى . ولكن العمل الرائد الذى قام به البريطانيون فى هذا المجال أصيب بنكسة عندما اضطرتهم مشاعر الاستياء السائدة لدى الإيرانيين نتيجة لسنوات الحروب ، إلى التخلى عن محطاتهم فى بوشير وغسق على ساحل بلوخستان المطل على خليج عمان .

وكان يتعين إيجاد ترتيبات بديلة على الجانب الخاص بشبه الجزيرة العربية المطل على الخليج ، وإن كان تحيز الوهابيين ضد الأجانب وابتكاراتهم

جعل ابن سعود يرفض التعاون معهم ، مهما كانت آراؤه الخاصة بشأن هذه المسألة . ولم تكن الطائرات ستصبح آمنة على الأرض . واستقر الخيار على الكويت والبحرين والشارقة ، مما عاد بالفائدة الدائمة على اقتصاد البحرين . فقام المندوبون الساميون بإبرام هذه الاتفاقيات فى عام ١٩٣٢ ، ولم يتم استكمال الاتفاق المبرم مع الشارقة إلا بصعوبة بالغة ، نظراً لأن حاكمها فى ذلك الوقت الشيخ سلطان بن صقر كان يتسم بالمراوغة وكان من الصعب إرضاؤه .

وهبطت أول طائرة بريد تقل ركاباً فى البحرين فى أكتوبر عام ١٩٣٢ فوق أرض السباق القديمة بالمنامة بالقرب من قصر الضيافة ، وقد غاصت فى مجرى مائى غير مستخدم أثناء إقلاعها . وتكاتف مئات العمال حتى تمكنوا من تخليصها باستخدام الحبال . ثم أقلعت الطائرة على الفور إلى محرق التى لم يربطها بعد بالجزيرة الرئيسية طريق ممهد ، وبذلك أصبحت تلك الجزيرة مهبط الإمارة حيث أصبح مطارها الحديث الضخم يتسع الآن لطائرات الجامبو النفاثة والكونكورد .

وقد أحدثت الأنشطة التى قام بها وازموس بين سكان جنوب إيران آثاراً أخرى على منطقة الخليج . إذ أصبح العاملون فى دار المندوب السامى والمندوبون الساميون ينظرون بارتياب إلى الجاليات الإيرانية المحلية ، باعتبارها غير جديرة بالاعتماد عليها من الناحية السياسية ، ومن المحتمل أن تأوى عناصر ساخطة أفسدت تفكيرها الآمال القومية وتكفل لها الحماية وبالرغم من أن أعضاء فئة الصفوة التجارية الثرية من تجار اللؤلؤ والرأسماليين كانوا يشكلون أقلية من السنيين المسلمين كانت قد رحلت عن إيران فى بداية القرن سعياً وراء فرص تجارية أفضل ومستقبل أكثر أمناً تحت الحماية البريطانية إلا أن أعداداً ضخمة من المهاجرين الفقراء كانت تعمل فى مرافئ وأسواق الموانى البحرية فى الخليج .

وكان معظم هؤلاء من الشيعة وهم متعصبون للدين ويقاومون بعناد حركة الإصلاح العلمانى التى بدأها الشاه رضا بهلوى فى أواخر العشرينيات .

وفضلوا الاستمرار فى أسلوب حياتهم المحافظ الذى تحيا به المجتمعات المقيمة على الجانب العربى من الخليج ، ولكنهم لم يقطعوا صلاتهم التجارية مع موطنهم الأصلى ، ومازالوا حتى اليوم يمارسون بنشاط تجارة تهريب الذهب والسلع الفاخرة إلى الهند وباكستان وإيران .

وكان المسئولون البريطانيون فى عهد الانتداب ، يرون أن هذه المجتمعات توفر الفرصة الكريهة للمخربين والساخطين لدخول ما كان يعتبر حتى ذلك الوقت بحيرة بريطانية وقد ظهرت فى أعقاب مؤتمر السلام المنعقد فى عام ١٩١٩ ، موجه من المشاعر المناهضة للاستعمار فى آسيا ، لعب فى إثارتها الثوريون الروس وعملاؤهم من البلاشفة دوراً كبيراً ، وقد تم إضافة هؤلاء إلى القائمة للأشخاص غير المرغوب فيهم والذى يتعين على مصلحة الجمارك الهندية أن تنتبه إلى وجودهم . وكان لإعلان هؤلاء الثوريين عن رغبتهم فى رؤية جميع الدول المحتلة وقد تحررت ، ونبذهم للمعاهدات والاتفاقات السرية التى أبرمها القياصرة ، تأثير السحر على إيران كما مهدت الطريق لتحطيم هيبة بريطانيا بعد ذلك وامتيازاتها فى تلك البلاد .

ولم ينج الخليج من تيارات المشاعر هذه ، وإن اقتصرت على العنصر الإيرانى بين السكان المحليين أو أولئك الذين لهم صلة بالعراق . وتميز الإيرانيون بالمقدرة والبراعة التجارية ، وقد سكنوا فى الأحياء الخاصة بهم بالمدن ، وأداروا مدارسهم الخاصة وتعاملوا بلغتهم الخاصة ، وتزاوجوا فيما بينهم ، وحتى هذا اليوم لا يتكلم جميعهم العربية وأحياناً تجد مواطناً فى منتصف العمر يتحدث الألمانية الركيكة ، وهذا من تأثير التدريب والتعليم الألمانى ومن بقايا عصر بدا فيه أنه من الممكن أن يسفر النفوذ الألمانى عن الإطاحة بالسيطرة البريطانية فى الخليج ، ووجدت فيه الفئة التجارية أنه من الحكمة أن يكون لها صلة بكلا المعسكرين .

وقد نشأ اعتماد البريطانيين على المواطنين الهنود فى جميع جوانب أنشطتهم فى الخليج ، عن هذه الظروف ، وقدم الوقود اللازم لإثارة مشاعر الاستياء التى عبرت عن نفسها بعد جيل كامل فى شكل تحيز مواطنى الخليج

واضطهادهم للجاليات الهندوكية والمسيحية . وكانت وحدات الجيش الهندى توفر فرق الحراسة للمندوبين السامين البريطانيين وتحرس الوكالات والقنصليات كما عمل الخدم الهنود فى منازل البريطانيين ، وتم استخدام الكتبة الهنود فى المكاتب الحكومية والتجارية ، وقد احتكروا فعلا الوظائف الكتابية الراقية بسبب تمكنهم من اللغة الإنجليزية وحلت الروبية محل دولارات ماريا تريزا الفضية ، إلى حد أن بعض التجار العجائز مازالوا حتى اليوم يجرون حساباتهم بتلك العملة المنقرضة . وملأ التجار الهنود بأعداد متزايدة (الأسواق) وعمل رجال من الأجناس المحاربة فى شمال الهند كمرتزقة فى قوات البوليس المحلية ونظراً لانعزال هؤلاء فى تلك الدولة التابعة السهلة الانقياد . تمكن الحكام البريطانيون من الاحتفاظ بسطوة مغرورة على مجموع السكان ، وهى سطوة لم يبلغها إلا عصر البترول :

* * *

ورد فى الكتاب بعض الصور لكبار الشخصيات التى لعبت دوراً هاماً فى المنطقة وكذا بعض الأنشطة البارزة وتعليق عليها . ومن بين هذه التعليقات :

١ – الشيخ راشد حاكم دبى ، والشيخ زايد حاكم أبو ظبى .. إن العرب عندما لا يتدخل أحد فى شئونهم يصبحون شعباً مرحاً واجتماعياً يتسم بالحيوية.

٢ – الشيخ حمد حاكم البحرين فى عام ١٩٢١ وقد صوره الكابتن تشيزمان وكان ابنا للشيخ عيسى ولاه البريطانيون السلطة فى عام ١٨٦٤ وتم خلعه فى عام ١٩٢٣ . والشيخ حمد هو جد الحاكم الحالى للبحرين الذى يملك إسطبلا ضخماً للخيول العربية الأصيلة . والكلب السلوقى اسمه هوشا ، وكان لا يفارق الشيخ حمد مطلقاً .

٣ – جاءت التكنولوجيا مبكرة إلى ساحل شبه الجزيرة العربية وقد أجرى اللفتنانت هينز (١٨٥٧) أول عمليات مسح للمنطقة وهى أكبر إنجاز باق للتدخل البريطانى الأول فى الخليج .

٤ – السفينة « سفينكس » التابعة لجلالة الملك : هذه السفينة البخارية التى تسير بالبدال وكانت تقوم بجميع الأعمال فى الخليج . وقد صممت أصلا لتكون سفينة نزهة رطبة وجيدة التهوية للضباط الذين يقومون بدوريات فى الخليج ، ابتداء من الثمانينيات حتى عام ١٩١٩ عندما أصبحت تستخدم فى عمليات مكافحة الرق وتهريب السلاح وغيرها من الأعمال العامة .

٥ – الخطاب الذى ألقاه اللورد جيرزون نيابة عن الملك أمام حكام الإمارات المتحدة على ظهر السفينة فى الشارقة فى عام ١٩٠٣ ولابد أن مظاهر العظمة والفخامة التى اتسمت بها بطانة نائب الملك ، الجالسون على المنصة المرتفعة ، أثارت دهشة الحكام الجالسين على الأرض ، إذ أن مفهوم العرب بخصوص الكياسة يرفض مثل هذا التمييز غير المهذب .

٦ – الشيخ مبارك حاكم الكويت فى عام ١٩٠٣ يراقب نزول بعثة نائب الملك إلى البر فى الخليج . ويتناقض مظهر الشيخ البسيط الخالى من التفاخر كعادته مع وضع الرجال البريطانيين المضحك .

٧ – اثنان من جماعة الإخوان الشديدة التزمت من عائلة ابن سعود ، وهما من البدو المجندين ، وقد تم تصويرهما فى الكويت :

٨ – الحاج محمد البسام ، رائد عبور الصحراء بالسيارة . وقد كان يدير مؤسسة لتهريب الذهب من سوريا إلى الخليج إلى أن منعه الفرنسيون من ذلك . وعندئذ وضع كل معلوماته عن التضاريس وقبائل البدو تحت تصرف البريطانيين .

٩ – سائقو شركة نايرن للنقل على طريق دمشق – بغداد فى العشرينيات :

١٠ – طائرة تابعة للخطوط الجوية الملكية تتزود بالوقود فى « رطبة ويلز » وهى فى طريقها إلى الهند . وقد تم بناء القلعة هناك لكى توفر مكاناً آمناً للراحة أثناء الليل لشركة الطيران وشركة نايرن للنقل :

١١ – أبو النفط ، الماجور فرانك هولمز فى الكويت فى عام ١٩٣٤ .

١٢،١٣ – العصر الحديث يفرض نفسه بالقوة على الإدارة العثمانية المتداعية لبلاد ما بين الرافدين فى عام ١٩١٦ . لورى من طراز فورد يجر عربة جنرال تركى مهزوم . أول قاطرات للسكك الحديدية يشهدها عرب الخليج وهى تهبط فى البصرة لتعمل فى الخط الجديد المؤدى إلى بغداد .

١٤ – قصر على رضا القديم فى البحرين . كانت العائلة تملك وكالة كيروسين الأنجلو إيرانية وهى تعيش الآن فى بيت خاص حديث مكيف الهواء . وهذا المشهد يدل تماماً على عدم النظام السائد فى المدن : لاحظ الصهريج المستخدم كمحل لحام . وبرج الجرس الطويل ليس سوى برج للريح ، وهى آلة كانت منتشرة فى جنوب إيران ذكرها ماركو بولو – فى مذكراته وتقوم بشفط الهواء البارد وتنشره فى المكان .

١٥ – شركة للمقاولون الهنود تسارع بإظهار ولائها للسلطان الجديد قابوس عندما أطاح بنظام حكم والده فى عام ١٩٧٠ وكانت الجالية التجارية الهندية المقيمة قد تكونت منذ أكثر من ١٥٠ عاماً .

١٦ – الفن الشعبى الشيعى . وهذه الصور المطبوعة المبهرجة التى تطبع غالباً فى الهند . يمكن شراؤها فى أسواق الخليج ، وإن كانت العناصر الوهابية التى تعارض التماثيل الدينية وكذلك السنيون المتزمتون من أعضاء الطبقات الطبقات الحاكمة يعتبرونها من المحرمات صورة للإمام الثامن وهو مدفون فى مشد .

١٧ – متحف قطر الوطنى .

* * *

الفصل العاشر

فترة الانتداب – جاشانمال جهانجيانى – آثار التقسيم على الهند – رودن سبايني – اخوان نيرن – شركة نيرن للنقل اخدود الصحراء – اول عبور بالسيارات للصحراء من دمشق الى بغداد – الطريق – وقت الرحلة – حراس القبائل – عربات عبر البريد الصحراء – الطرق الرئيسية العربية الحديثة – تغيير اتجاه الشحن – وسائل نقل شركة نيرن – حصن آبار الرطبة – الخطوط الجوية الامبراطورية – وسائل المواصلات بين الخليج والبحر المتوسط – الجامعة الامريكية فى بيروت اهميتها للجاليات الموجودة فى الخليج – ادخال نظم التعليم الحديثة فى الخليج – البعثات الامريكية – دكتور زويمار – العيادات المتنقلة – المقابر المسيحية واليهودية فى البحرين – البعثة الامريكية فى البحرين – نفوذها – عائلة يتيم .

* * *

بعد الحرب ، عندما اجتمع ضباط الأركان فى كامبرلى لتحليل حملة العراق ، رأوا أنها كانت باهظة التكاليف ، والواقع أن الموظفين العسكريين استعرضوا بمزيد من الشك دور « الساسة » منذ الاستيلاء على البصرة ، ورأى أولئك الموظفون أنه كان فى الإمكان شراء تركيا أو نصف آسيا بنفس تكاليف الوصول إلى بغداد ..

ولكن « الساسة » ظلوا يحتفظون بالتفوق فى الخليج ، وأخذت الإدارة فى الإقليم الذى تم الاستيلاء عليه تسير على خير أسلوب هندى ، وتم أيضاً إرساء الأسس الضخمة .. ولم يكن تمييز البصرة إلا بجهد كبير .. فقد رفعت من حول المدينة نحو عشرين ميلا من الأعمال الترابية لاستصلاح خمسين ميلا مربعاً من الروافد الراكدة والمستنقعات .. وعلى الأرض المستصلحة أقيمت معسكرات الإيواء والمستشفيات وورش الإصلاح والمخازن والمستودعات . كذلك تم تطهير مجرى النهر عند الميناء . وبنيت الأرصفة وأقيمت الأوناش. وبطول شاطئ النهر بنيت الطرق ومدت خطوط السكك الحديدية الخفيفة من المدينة إلى كل من « العمارة » على نهر الدجلة و « الناصرية » على الفرات .

وأسفرت الحملة عن سبعة وتسعين ألف ضحية وتكلفت آلاف الجنيهات من الذهب التى وزعت على رؤساء العشائر من أجل ضمان صداقتهم ..

وتعويضاً لبريطانيا عن هذه الخسائر ، حصلت على الانتداب لتقيم حكومة وطنية فى العراق . وكان شأن إعادة البناء الاقتصادى للدولة الجديدة أن اجتذب التجار والمقاولين ، وعم الازدهار من وراء الجيش الظافر ، ودب النشاط لإمداد قوة الحملة باحتياجاتها ، الأمر الذى جذب إلى المنطقة الشبان المغامرين المتحمسين للمخاطرة ..

ومن بين من اجتذبتهم هذه الفرص رجلان ، أصبح إسمهما مألوفاً فى الخليج ، وكان أولهما موظفاً هندياً صغيراً يعمل بمصلحة الأشغال العمومية بالهند ، أما الثانى فكان إنجليزياً ، وأصبح تاجر بقالة فيما بعد ..

كان جاشانمال جهانجانى ، وهو من حيدر أباد فى السند ، يختلف عن معظم أبناء طائفته الذين يميلون لأن يصبحوا مدرسين أو كتبة أو عاملين بالمكاتب .. لقد كان يحلم بأن يفتح دكاناً صغيراً لتوريد إحتياجات الجنود البريطانيين فى العراق حيث كان على دراية بمثل هذه الاحتياجات منذ كان يعمل بمصلحة الأشغال العمومية . وفى عام ١٩١٩ قرر أن يبدأ مخاطرته ، وسافر إلى العراق فى صحبة بعض الشباب من أمثاله . وأقام لنفسه متجراً صغيراً فى حجرة ذات باب واحد ، حيث عمل كتاجر تجزئة ..

أما زملاؤه فقد دخلوا فى أعمال المقاولات وسرعان ما حققوا أرباحاً كبيرة بين طائفة محدثى الثراء من الأرض والهنود واليهود والشرقيين الذين أفادوا من التضخم العنيف فى ذلك الوقت .. وتقدم جاشانمال جهانجانى فى بطء وحذر ، متجنباً ما أخذ بيديه شركاؤه السابقون من مظاهر التباهى البراق وهو ما وصفه لى ابنه بقوله : « إنهم كانوا يشعلون سيجارهم بأوراق البنكنوت » .. كما نجا أيضاً من ذلك الجزاء الذى حاق بهم عندما رحل حكم الانتداب لتحل محله إدارة عراقية .. وشعر الانتهازيون بالضغط فرحلوا عائدين إلى الهند . وفى الوقت الذى لم تتعرض فيه تجارة جاشانمال لأية مضايقات ، واستطاع بسياسة استثمار أرباحه من التوسع ليمد نشاطه إلى الكويت والبحرين.

وفى عام ١٩٥١ اعتزل جاشانمال جهانجانى إلى بيت بناه فى ديولالى ، وكانت أسرته إلى حين وفاته تزور الهند بلا انقطاع .. ولكنهم ، شأن الكثيرين من أبناء الطائفة الهندية الذين بدأوا وجودهم فى الخليج نتيجة الارتباط بالبريطانيين ، وجدوا أن تقسيم الهند قد أضعف من روابطهم ببلدهم الأصلى بدلا من أن يقويها ..

وفقدت أسرة جاشانمال بيتها فى كراتشى بكل ما يحويه من أثاث خلال اضطرابات التقسيم .. وبانقطاع الروابط القديمة لم يجددوا أى شئ منها فى الهند الحديثة .. ولم يكونوا هم الوحيدين فى ذلك ، فهناك فى الخليج أناس ولدوا فى الهند القديمة ، وقضوا حياتهم العملية فى الخارج ، ثم جاءت أحداث عام ١٩٤٧ فتركتهم مشردين دون وطن حقيقى يعودون إليه .. إنهم أناس شردوا مرتين ، ثقافياً وسياسياً ، وقل من بينهم من وافاه الحظ ليصبح مواطناً فى البلد المضيف ..

وليس الفلسطينيون وحدهم الذين يتملكهم القلق من جراء إفتقارهم إلى الأمان فيما يتعلق بوضعهم ، بل يشاركهم فى ذلك الآسيويون أيضاً .. فالخوف الذى يتهددهم بفقد تراخيص الإقامة وحق العمل إنما هو فى الواقع جد خطير بالنسبة إلى رب أسرة مسؤول ، تواق لتعليم أولاده وتأمين وضعهم فى الحياة . وفى كلتا الطائفتين ، يتركز الاهتمام الأكبر على التعليم ، ففى الوقت الذى لا يمكن فيه للدخيل أن يقتنى أى شئ من الأملاك ، يتيح التعليم خير فرصة للطفل للاحتفاظ بمنزلته أو وضعه الموروث وتنميته ..

إنها تلك الأسر المهنية من الطبقة الوسطى التى تلقى آباؤها خبرتهم التقويمية وتدريبهم على يد البريطانيين ، وهى التى لا تزال تعيش على خير تراث لذلك الحكم .. والفارق الكبير بينهم وبين أولئك البريطانيين الحديثين المغتربين الذين يتولون أعمالا مؤقته وتتركز أعينهم على هدف مادى خاص . هو أن أولئك الناس الهادئين الجادين يعكسون تقاليد عهد الاستعمار ، سواء فى ملبسهم أو حتى فى الغليون الذى يستعملونه ..

واشتركت أسرة جاشانمال فى مباريات التنس والبريدج فى البحرين ، وكان أحد المحترفين من الهنود يقوم بتدريب بعض النسوة المترفات من ذوات الثراء .. وتسود الروح الرياضية تلك المناسبات حيث يتم تناول الشاى والشطائر ، وحيث تقدم النسوة المبتسمات الكؤوس الفضية وهن يرتدين أبهى الثياب .

ولكن ازدياد الاهتمام الثقافى وتطلعات الأمل وشعور الفخر بالإنجاز ، هو الذى يذكر فى أكثر من غيره بأسلوب الخدمة فى عهد الاستعمار ..

وبينما كان جاشنمال جهانجانى يسير بخطوات وئيدة وحذرة على الطريق الذى يؤدى به إلى احتكار توزيع الصحف الإنجليزية فى الخليج ، كان هناك على الجانب الآخر من شبه الجزيرة شاب لديه توكيل مستحضرات التجميل الفرنسية التى تدر عليه ربحاً طيباً ، كان يحاول زيادة رأس ماله لتمويل مشروعه الخاص بفتح مجال للبقالة والأغذية فى الأراضى التى كانت من قبل تابعة للامبراطورية العثمانية .

وفى إحدى ليالى الصيف الحارة من عام ١٩٢٤ وفى مدينة بورسعيد ، وجد رودن سبينى التحويل المنشود وذلك من جانب فريق من رجال الأعمال كانوا مدعوين إلى حفل قران فى القاهرة ، وقدموا له كأساً من الشامبانيا .

لقد كان بحاجة إلى عشرة آلاف جنيه .. وحصل عليها بالفعل . وعلى ورقة من فندق « إيسترن اكتشينج » تمت كتابة التفاصيل الموجزة للعملية المقترحة وتم التوقيع عليها من جانب كل من الممولين الثلاثة ، وسبينى .. وقد تمخضت عن ذلك مشروعات استيراد الأغذية والتجارة بالجملة التى تعمل على توريد الأطعمة إلى شركات النفط ومشروعات البناء ، وتقوم لهذا الغرض ببناء وتشغيل مخازن لحفظ الأغذية فى كافة أرجاء الخليج ، كما تقيم الأسواق المركزية الكبيرة التى تعتبر نموذجاً بالمنطقة حيث كان الواحد منها يحوى أربعة عشر ألفاً من مختلف السلع ..

كان الطريق فى بدايته ، حيث كان الإقبال على الأغذية الأجنبية محدوداً ، ولكن نجحت المغامرة فى عام ١٩٢٩ بافتتاح مخزن كبير فى بغداد.

ولما ابتدأ عمل خط أنابيب شركة النفط العراقية من كركوك إلى البحر المتوسط أخذ هذا المخزن الكبير يوفر مورداً حيوياً للإمداد لعدة آلاف من الإداريين والمهندسين المهرة والعمال الذين يشتغلون فى هذا المشروع : ووقع الاختيار على شركة شبينى كمتعهد وحيد لتوريد الأغذية إلى كل القوة العاملة فى المشروع . ومع نمو وتطور صناعة النفط بدأ تنفيذ مشروعات البناء على نطاق أوسع ، وأصبحت عملية تقديم الأطعمة إلى جيش العمال الذين تستوعبهم هذه المشروعات عملية متزايدة التعقيد .. وكان أكبر منافسى « سبينى » فى هذا الميدان هم إخوان « أبيلا » من بيروت و « جراند متروبوليتان» بلندن . وأصبحت تغذية الرجال على اختلاف أجناسهم وعاداتهم وإدارة معسكراتهم مهمة كبرى ، وبدأ إبرام العقود بملايين الجنيهات :

وفى أواخر حرب ١٩٤٥/٣٩ تمت تصفية الشركة الأصلية ، ثم أعيد تكوينها فى قبرص تحت اسم « سبينى — شركة مساهمة — ١٩٤٨» وفيها تسهم شركة « إخوان ستيل » بنسبة خمسين فى المائة ، وعرض نحو المائتين من بين حملة الأسهم العرب فى الشركة المصفاة أن يساهموا فى هذه الشركة الجديدة بنسبة معادلة لمساهمتهم السابقة ، فوافقوا على ذلك :

وفى عام ١٩٦٧ اشترت مجموعة « ستيل » أسهم القليلين من البريطانيين والكثيرين من العرب من حملة الأسهم . وفى عام ١٩٧٣ توفى رودن سبينى ولكن ظل نشاط مشروعاته قائماً بالمشاركة مع رجال الأعمال من العرب المحليين فى كل أرجاء الخليج ..

وبانتهاء الإمبراطورية العثمانية تدفق سيل من المشروعات والمبادرات على مستوى دون ذلك الذى كان يثير قلق الدول المنتظرة وممثليها .

وكانت الحرب قد استخدمت وطورت التكنولوجيا التى كانت قائمة ، ثم اتجهت بعد ذلك إلى استغلالها فى الأغراض المدنية . كان المسئولون من دول الانتداب منهمكين بتدعيم استتباب الأمن فى أقاليمهم ويقومون على تنفيذ برامج طموحة للإصلاح السياسى . وفى نفس الوقت بدأ تنفيذ

بعض المشروعات العملية المتواضعة على أيدى رجال لا يستندون إلى أى رأس مال ؛ بل يستندون إلى نشاطهم وقدرتهم المبدعة .

وكان من بين هؤلاء « الأخوان نيرن » نورمان وأخوه الأصغر جيرالد ، وكلاهما من نيوزيلاندا ، وكانا قد عملا مع القوات البريطانية فى سلاح الخدمات بالجيش الملكى فى الشرق الأدنى . وبعد تسريحهما فى فلسطين إشتغلا بتجارة السيارات . وبالاشتراك مع أحد الآشوريين من حيفا ؛ واسمه ناصر ، إفتتحا خطاً بين حيفا وبيروت ، وحصلا على عقود لتسليم البريد من الحكومات المصرية والسورية والفلسطينية ، وهو ما كان حتى ذلك الوقت تحت إشراف القوات البريطانية والفرنسية ..

وفى خلال ما يقرب من السنة تمت تصفية هذه الشركة ، ثم أعيد تشكيلها من جديد كشركة بريطانية بأكملها . « شركة نيرن للنقل » وتم اختيار جميع العاملين بها من العسكريين السابقين . وقامت الشركة بتشغيل خط ركاب يومى بين فلسطين وسوريا . وفى عام ١٩٢٢ اكتسبت الشركة شهرتها فى نقل البريد المصرى من حيفا إلى بيروت فيما لا يزيد على أربع ساعات ..

وبعد أن وضعت الحرب أوزارها أخذ الناس يفكرون فى إمكانية ربط الغرب بالشرق بوسائل نقل حديثة عبر صحراء سوريا . وكان هذا تحقيقاً لحلم الذى كان يراود الكولونيل « شيسنى » فى أن يتم به ربط البحر المتوسط بالخليج عن طريق نهر الفرات . وكانت العربات المصفحة قد جازفت باقتحام الصحراء خلال الحرب حيث تبين لها أن سهولها المكسوة بالحصى تصلح لمرور السيارات ، كما اكتشفت أيضاً الخطوط الجوية . وفى عام ١٩٢١ افتتح السلاح الجوى الملكى خطاً نظامياً بين القاهرة وبغداد . وفى إحدى المناسبات عندما كان الميجور « هولت » يقوم بأول عملية مسح أرضى للطريق ، ضل الطريق وتاه هو وفريقه فى الصحراء .. وظلت سبع طائرات من السلاح الجوى الملكى تبحث عنهم طوال يومين قبل أن تعثر عليهم ..

ومن المشقة التى عاناها قائدو تلك الطائرات فى سبيل العثور عليهم كآثار عجلات السيارات الفورد التى كان يستقلها الميجور هولت ورجاله . تبعت

فكرة شق أخدود تسهل رؤيته من الجو .. وبعد إتمام عمليات المسح تم شق أخدود مزدوج ، واستخدم فى ذلك جرار « فورد سون » ومحراث عادى ، ويمتد من « رمادى » على نهر الفرات إلى أبار « الرطبة » بوادى حوران ، أى منتصف الطريق إلى دمشق .. وعند كل منعطف على الطريق تم حرث خط على هيئة سهم للدلالة على زاوية المنعطف ..

وعبر الأرض البركانية الصعبة على الطريق بين أبار « الرطبة » وعمان ، تم حرث أخدود مفرد يبلغ طوله نحو المائة ياردة ، تليه على التوالى إمتدادات طول كل واحدة منها مائة ياردة أيضاً فكانت تبدو من الجو كأنها أخدود متصل أما مساحات الهبوط ، فقد تم تحديدها بخطوط متتالية من ١٥ إلى ٣٠ ميلا يفصل كل واحد منها عن الآخر دائرة محروثة قطرها ثلاثون ياردة .. وفى نهاية عام ١٩٢٢ أعيد تخطيط الطريق ، وأقيمت مراكز للإمداد بالوقود بصهاريج غائرة وموحدة حتى لاتصل إليها أيدى البدو .. وكان الطيار الذى يستعمل هذا الطريق يحمل معه مفاتيح تلك الصهاريج ..

وبعد هذا المشروع الجوى ، ولإمكان إمداد قوة الحملة البريطانية بإحتياجاتها ، تعاون الكثيرون فى القيام برحلة تجريبية بين دمشق وبغداد .. وسار العمل قدماً فى الجزء بين البصرة وبغداد لخط الحديدى « برلين — القسطنطينية — بغداد — البصرة » وهو الخط الذى كان قد أثار قبل الحرب الكثير من التوتر الدولى .

وفى عام ١٩٢٠ ، بدأ فعلا تشغيل هذه الوصلة من الطريق .. وفى الثانى من أبريل ١٩٢٣ انطلق من دمشق فريق من اثنى عشر شخصاً ، منهم أربعة من الإنجليز ، فى ركب من ثلاث سيارات ليفتحوا طريقاً عبر الصحراء إلى بغداد . وكان يقود الركب القنصلى البريطانى فى دمشق مستر بالمر ، والميجر ماك كالوم ، ضابطا الاتصال البريطانى مع المندوب السامى الفرنسى فى بيروت ، وكانوا يستقلون ثلاث سيارات (بويك — أولدزموبيل ، لانشا) وهى السيارات التى أعارهم إياها إخوان نيرن ، ورافقهم فى الرحلة نيد لوفيل وهو كبير المهندسين الميكانيكيين فى شركة « نيرن » للنقل .

ولعل أهم راكب فى القافلة ، إلى جانب تيد لوفيل ، تاجر ثرى من بغداد اسمه محمد البسام . كان عليما بالصحراء ، وكان صديقاً شخصياً لمعظم مشايخ قبيلة « عنيزة » الذين تربطهم صلات قربى بعيدة بعائلات « عتوب » بالكويت والبحرين ، وتفرقوا فى نجد فى هجرة القرن الثامن عشر . ومنذ أوائل القرن التاسع عشر أصبحت عشيرة « عنيزة » هى القبيلة الرئيسية المتحكمة فى الصحراء السورية ، وكان على من يريد عبور هذه الصحراء أن يحصل منهم على « جواز المرور بأمان » ..

وكان الحاج البسام يقوم بالاشتراك مع أحد التجار السوريين بتهريب الذهب إلى العراق إلى أن قام ضباط الانتداب الفرنسى بوضع خاتمة للتهريب من سوريا . وكانوا ينقلون الذهب أصلا بالجمال عبر الصحراء عن طريق بالميرا إلى دير الزور على نهر الفرات ، ومنها عن طريق النهر إلى فلوجة وهى أقرب نقطة إلى بغداد ..

وكان من شأن التدخل فى نشاط البسام أن يدفعه للتطلع إلى طرق بديلة ، وهداه التفكير إلى استخدام السيارات . وبعد العديد من الرحلات الناجحة ، وافق على أن يرشـــد « بالمر » إلى ما كان يعتقد أنه أقصر طريق بين دمير — خارج دمشق — ورمادى على مقربة من بغداد ..

حملت القافلة من الطعام والماء ما يكفيها لمدة عشرة أيام ، ومن الوقود والزيت ما يكفى لمسافة ألف ميل إذا قدر عليهم أن يعودوا ويترسموا معالم الطريق قبل أن يصلوا إلى النهر ..

وفى اليوم الثانى عثروا على أخدود السلاح الجوى الملكى . وبعد ثلاثة أيام وصلوا إلى رمادى على نهر الفرات . وفى مساء اليوم الثالث خرج أهالى بغداد يرحبون بمقدمهم فى حماس . كان عبور الصحراء خلوا من الحوادث الهامة باستثناء حادث وقع للسيارة « لانسا » وقام تيد ليفيل بإصلاحه .

كان الميجور دوجلاس جمبلى ، مدير عام السفريات بالعراق ، شديد الاهتمام بتطوير طريق برى جديد ، وطلب من شركة « نيرن » تنفيذ ذلك ،

وفى أكتوبر من عام ١٩٢٣ افتتح « نيرن » خطاً أسبوعياً من دمشق إلى بغداد على أساس الارتباط مع الخدمة الأسبوعية لخط « ب .أو » عن طريق مصر إلى لندن وإليها . وألزمه العقد المبرم مع الحكومة العراقية بتسليم البريد بين بغداد وبورسعيد خلال ستين ساعة ، ولم تفلت منه أية سفينة وحرصت برامجه على أن تكون المسافة الزمنية بين لندن وبغداد تسعة أيام ، وأن تكون ثمانى وأربعين ساعة من بورسعيد ، مع توفير ما يزيد على ثلاثة أسابيع فى السفر بحراً من بومبى إلى السويس ..

أخذ طريق « نيرن » يسير متبعاً نفس طريق البسام متجهاً من دمشق إلى آبار الرطبة ، وطوله ٢٦١ ميلا عبر الصحراء ، ووصل إلى المصدر الوحيد للمياه قبل الوصول إلى النهر ، ومن هناك يتتبع الأخدود الجوى إلى رمادى، ثم الطريق بطول شاطئ الفرات إلى فلوجة حيث كانت السيارات قبل بناء الكوبرى الذى أقيم فى عام ١٩٣٢ تعبر النهر فوق الكبارى العوامة أو الطوافات، ومن هناك كانت المسافة إلى بغداد ٣٥ ميلا ، وإجمالى مسافة الرحلة ٥٣٤ ميلا، أو ٦٠٦ من الأميال لو حسبنا المسافة ابتداء من شاطىء البحر فى بيروت .

وباستثناء القطاع المعدنى بين الساحل ودمشق ، حيث يعبر المسافر جبال لبنان وما حولها التى ترتفع إلى أربعة آلاف أو خمسة آلاف قدم ، لم يكن هناك أى طريق آخر ..

وقيادة السيارة عبر الصحراء ممتعة فى موسم الجفاف ، فالطريق أملس ومتماسك لعدة أميال ، والأرض المنبسطة يكسوها الحصى والنباتات الصحراوية والشجيرات الشائكة..

وكان من أثر مرور المئات من سيارات النقل الثقيل حدوث أخاديد عميقة فى الأرض فجعلت منها طريقاً لسيارات شركة « نيرن » . أما فى موسم المطر ، فقد كانت المياه تتجمع فى هذه المنخفضات مما يتسبب عنه غرس العجلات فى الوحل ، كما أن الطبقات الطينية القرب من النهر كانت هى الأخرى خادعة ، ولذلك كان من الضرورى عند فيضان الفرات تحويل المرور لمسافة تقرب من ثمانين ميلا حول بحيرة الحبانية ..

وتعاقدت شركة « نيرن » مع الحاج البسام لتأمين سلامة المرور لسياراتها عبر الصحراء ، حيث كان هذا الأسلوب لايزال قائماً منذ القرون الوسطى حتى أوائل العشرينات وكان البدو فى أغلبيتهم يقدسون قوانين الضيافة ويحترمون أى تعاقد ارتبطوا به بمحض حريتهم .. غير أنه لوحظ أنه لم تعد هناك مراعاة للتقاليد بالدقة المألوفة ..

وإذا كان « المرافقون » ، وهم الذين تعهدوا بتوفير الأمان للمسافرين ، لم يعودوا يضمنون الأمن بين نفس رجال قبائلهم ، فإن جانباً من اللوم هنا يقع على الذهب الذى كان البريطانيون ينفقون بسخاء أثناء الحرب ، وكان من نتيجة ذلك انهيار أخلاقيات التقاليد ، وحيازة الأسلحة النارية التى أصبحت فى أيدى البدو بوفرة لم يكن لها نظير من قبل . .

ولضمان سلامة المرور عبر الصحراء خصصت شركة « نيرن » للحاج البسام ثلث العقد الخاص بنقل البريد ، ويقدر بنحو ألفين من الجنيهات ، وكان عليه هو أن يمد مشايخ القبائل بجزء من هذا المبلغ ليحصل على العدد اللازم من « المرافقين » للرحلة .

وما أن تم التوصل إلى هذا الترتيب ، لم يعد سائقو « نيرن » ومرشدو القوافل بحاجة لحمل الأسلحة النارية . .

واستمر هذا الترتيب قائماً طوال الثمانية عشر شهراً الأولى ، وبعدها أخذت الحكومة العسكرية العراقية تفرض تدريجياً نظامها الخاص بالنسبة للأمن . . ولم يسمح لأية سيارة بأن تسير بمفردها ، بل فى قوافل يحوى كل منها اثنتى عشرة أو أربع عشرة سيارة ، كل منها فى الموقع المخصص لها ، وبذلك انتهى عهد البحث عن الطرق بالأساليب الارتجالية والعشوائية . .

وكانت السيارات (وهى كاديلاك وبويك) تحمل على جوانبها المتحركة صهاريج خاصة للمياه والوقود ، وكان لزاماً عليها أن تحمل أيضاً قطع الغيار والإطارات والحبال والجواريف ،مع مؤونة أسبوع من الطعام وماء الشرب . وعندما يحل المساء تقام المخيمات على نظام القوافل، وكانت السيارات تصطف

على هيئة مربع تقام داخله أسرة النوم ، ويتناوب الذكور من المسافرين الحراسة مع السائقين والمرشدين .

وبعد شهر من افتتاح الخط البرى عبر الصحراء أعلنت شركة « ميساجيرى ماريتيم » عن إنشاء خط مشترك مع « نيرن » للنقل من لندن عن طريق مارسيليا إلى بغداد ، بأجر شامل قدره سبعون جنيهاً للدرجة الأولى ، وتستغرق الرحلة عشرة أيام . أما اجتياز الصحراء بالقوافل فيستغرق أربعاً وعشرين ساعة تقريباً ، وأحياناً أقل من ذلك . وفى مارس سنة ١٩٢٤ قاد نورمان نيرن بنفسه السيارة التى كان يستقلها « سير أرنولد ويلسون » طوال الطريق من بغداد إلى بيروت ، وذلك فى رهان على أن يقطع المسافة فى أقل من سبع عشرة ساعة ، والواقع أنه قطعها فى ست عشرة ساعة وثلاث وخمسين دقيقة . .

وتوقف استخدام تلك الرحلة البحرية الطويلة إلى الهند ، ثم الرحلة بالزوارق البطيئة إلى الخليج كوسيلة للوصول إلى شرقى شبه جزيرة العرب ، وأصبح المسافرون إلى الخليج يعبرون الآن الصحراء من البحر المتوسط ويستقلون القطار إلى البصرة من بغداد . .

وفى السنة الأولى من تشغيل الخط نقلت شركة « نيرن » ١٤٧٦ راكباً ، و ٣٥٠٠٠ رطل من البريد . .

وفى أقل من خمسة أشهر بعد افتتاح خط « نيرن » قام أحد السوريين وهو من أصل فلسطينى ، اسمه فرنسيس كتانة ، الذى كان شريكاً لنيرن فى استغلال خطه ، بتأسيس خط صحراوى منافس تحت اسم « شركة النقل الشرقية » . ويسير هذا الخط من دمشق إلى بالميرا ، ثم يتجه متتبعاً مسار الطريق الرومانى الذى كان يذكره البدو باسم « دربة الكفرة » عبر الصحراء ، إلى حيث على نهر الفرات ومنها إلى الطريق المألوف المؤدى لبغداد ، وكانت هذه أول محاولة لاجتذاب اهتمام السائحين للآثار المحلية ، وأقيم فندق فى بالميرا ، وتولت إدارته سيدة فرنسية غريبة الأطوار ، هى مدام داندوران التى انتهت حياتها المليئة بالعاطفيات والمغامرات فى طبخه فى أواخر الحرب العالمية الثانية عندما لقيت

مصرعها فى يختها الخاص على يد اثنين من الشبان الألمان كانت قد اصطحبتهما للعمل كطاقم لليخت فى محاولة تهريب . .

وقامت شركة « كتانة » بتسيير خط فرعى من بغداد إلى طهران . . وبالرغم من وجود وكيل يتقاضى مائة جنيه شهرياً لنقل البريد الدبلوماسى البريطانى بين العراق وإيران فإن المشروع لم ينجح ، وسرعان ماباعت الشركة هذا الخط إلى أحد اللبنانيين . . وبعد سنتين تحت تصفية « شركة النقل الشرقية » ، واندمجت فى شركة « نيرن » وأصبح الاسم الجديد هو « شركة نيرن الشرقية للنقل » وانتقلت ملكيتها إلى مجموعة من الممولين الإنجليز والفرنسيين ، رغم احتفاظ نورمان نيرن بالإشراف الإدارى على نشاط الشركة وأصبح هو العضو المنتدب..

وفى عصرنا هذا ، عندما نشحن طرداً من « كنت » ، ويتم تسليمه بعد أسبوع واحد فى قطر ، أوعندما يقوم سائقوا اللوريات البلغاريون بتفريغ شحناتها من الأغذية المحفوظة وتسليمها إلى محلات « سبينى » (وقد تم تسليم ٢٤٣ شحنة من الحلوى إلى الكويت وحدها فى عام واحد) ، نشعر كيف يتضاءل أمام مايحدث اليوم النشاط الذى كان الرواد الأوائل يقومون به . . وباستثناء ثغرة صغيرة طولها عشرون كيلومتراً على الحدود بين قطر والإمارات والتى لا تزال موضوع نزاع ، وهى الثغرة التى تمثل الجزء غير الممهد من الطريق ، فإن جزيرة العرب ترتبط بأوروبا بنظام طريق رئيسى سريع يتيح للسائقين المغامرين من الخليج ، ممن هم على شاكلة الموظفين الجنود أو الضباط الذين يعودون لبلادهم عبر الطريق الصحراوى الكبير ، أن يقودوا سياراتهم إلى تركيا أو شواطىء البحر المتوسط ويعبرون البوسفور إلى دول البلقان . .

والمزايا التجارية لذلك التغيير فى طريق النقل واضحة خاصة فيما يتعلق بنقل الفاكهة والخضر السريعة العطب من قبرص وسوريا ولبنان ، والتى عليها إقبال شديد فى بلاد الخليج ، ولاتزال الفاكهة هى السلعة الشهية لدى أغلبية الأهالى الذين يفضلون شراءها من سوق الخضر بدلا من السوق المركزى الكبير . . ويرحبون هنا بالمانجو فى باكورة موسمها والتى ترد من الهند ، وكذلك التمر من العراق والمشمش الإيرانى والتفاح والبرتقال والبطيخ والعنب من الشمال . .

ويشترى رب الأسرة المتوسطة هذه الفواكـه فى موسمها والتى ينتقيها فى حرص شديد كمتعة لأفراد أسرته . .

ولتقييم أهمية مشروع « نيرن » وما يتبع المشروع من شركات عربات نقل وسيارات أجرة ، على المرء أن يفكر على ضوء انتقال الأفراد ومدى ما كان لذلك من تأثير على أفكارهم . . . فبين عام ١٩٢٧ وعام ١٩٣٢ ارتفع عدد الركاب الذين يستخدمون هذا الخط إلى ثلاثة آلاف فى السنة . كانوا يسافرون بالدرجة الأولى فى سيارات مأمونة ذات ست عجلات من صنع إحدى الشركات الأمريكية فى فيلادلفيا بالمواصفات التى طلبتها شركة « نيرن » وتتسع السيارة لسائقين إنجليزيين وخمسة عشر راكباً خصصت لهم مقاعد وثيرة فكان فى وسعهم القراءة أثناء الطريق . . واستبدلت بها فى عام ١٩٣٦ سيارات كبيرة معدنية من الصلب ، ذات خط إنسيابى ، وأمكن بهذا النوع المتطور من السيارات الاستغناء عن التوقف ليلا بالصحراء ، بل كان الركاب ينامون ليلا وهم فى مقاعدهم الوثيرة . .

وخصصت السيارات الكاديلاك والبويك لركاب الدرجة الثانية ، أما ركاب الدرجة الثالثة فقد خصصت لهم اللوريات مقابل أربعة جنيهات للفرد . أما أجرة الدرجة الأولى والتى كان يدخل فيها أجر المقعد « البولمان » ، والفندق فى كل من دمشق والرطبة وتناول الغداء فى الصحراء إلى جانب نقل مائة رطل من الأمتعة ، فقد كانت عشرين جنيها فى عام ١٩٢٧ وخفضت إلى ١٦ جنيهاً فى عام ١٩٣٢ دون أى خفض فى الخدمات . .

وأقامت حكومة العراق حصناً ومستودعاً للوقود عند آبار الرطبة ، كما أنشأت محطة لاسلكية وممراً لهبوط طائرات السلاح الجوى الملكى والخطوط الجوية الإمبراطورية ، وأقامت استراحة داخـل الحصن وعهدت إلى « نيرن » بإدارتها ولتستخدمها كل من الخطوط الجوية الإمبراطورية وشركة النقل البرى الصحراوى لنقل البريد . وكانت الاستراحة مزودة بالإضاءة الكهربائيةوالمراوح وجهاز لصنع الثلج ، ومجموعة من الخدم . . . وكانت القوافل تعد برامجها بحيث تصل إلى الحصن فى موعد العشاء . .

كانت الخطوط الجوية الامبراطورية قد اقتصرت على خط لنقل البريد والركاب من انجلترا إلى الهند وافتتحته برحلة جوية من كرويدون إلى كراتشى فى مارس من عام ١٩٢٩ ، ولكن شركة « نيرن » توسعت فى خدمتها إلى أكثر من ذلك حيث افتتحت بسياراتها خطاً إلى الشمال لنقل الركاب من الخليج إلى البحر المتوسط . وكان الخط الجوى – يستخدم فى البداية المحطات الإيرانية فى « بوشير » و « جاسك » للهبوط ليلا ، ولكنها اضطرت إزاء – الانتفاضة القومية الإيرانية ومشاعر الاستياء ضد تصرفات البريطانيين أثناء الحرب ، لأن تنقل عملياتها إلى الجانب العربى ، وأقامت المحطات الجوية فى الكويت والبحرين والشارقة ، متبعة فى ذلك مشروعات السلاح الجوى الملكى بعد الحرب مباشرة . .

غير أن السفر جواً كان لايزال شيئاً مستحدثاً ومخيفاً وباهظ التكاليف ، بينما كانت سيارات « نيرن » توفر رحلات معتدلة النفقات ومأمونة وسهلة ، ولا تبعد كثيراً عن الخبرة المألوفة فى السفر ، بل كان مافعلته أن أصبحت الرحلة أقصر وميسورة . وأصبحت العراق مفتوحة أمام التجار من الخليج الذين أخذوا يفدون إليها بحثاً عن فرص التعامل ، ويتبارون فى ذلك الازدهار المحموم فى أرض الانتداب مع مايتطلبه من استيراد الآلات ومواد البناء . . وجىء بالزوجات اللاتى كن يعتبرن أكثر نشاطاً وقوة فى العمل أكثر من تلكن فى بلاد الخليج .

وكان الموسرون من الشباب يرقصون على موسيقى الحاكى (الفونوغراف) الذى يدار باليد فى الأندية والملاهى الليلية بالبصرة وبغداد وبيروت ، حيث كانت تفد إليها الفرق الفنية من أوروبا الوسطى للغناء والرقص مما كان يثير الذهول والافتتان لدى الشباب الذى نشأ فى ظل التزمت الوهابى . .

وأصبحت سيارات « نيرن » جزءاً من خبرة الإسراف المتطورة فى الخليج التى كانت تواقة إلى أن ترى وتجرب شيئاً من العالم الخارجى . وكان بعض الأزواج ، مثل حسين يتيم الذى ينحدر من عائلة أحد كبار التجار العرب ، وزوجته الإيرانية خريجة جامعة كمبردج ، يقومون برحلة شهر العسل مستخدمين سيارات « نيرن » . ولكن كان على هذين الزوجين أن يعانيا فيما بعد من جراء

الاستعداد لقبول التجربة الجديدة ، حيث أن ابنتهما الكبرى التى كانت أول فتاة تتلقى تعليما حديثاً ، قد لقيت مصرعها عندما تحطمت فى إيطاليا الطائرة الكوميت التى كانت تستقلها فى عام ١٩٥٢ . .

وكانت العائلات من أمثـال تلك العائلة تبعث بأبنائها إلى المدارس الصغرى الملحقة بالجامعة الأمريكية ببيروت قبل ذهابهم إلى المدارس العليا . . وكانت رحلة طويلة فى تلك الأيام ، إذ كانوا يستقلون الباخرة إلى البصرة ثم القطار إلى بغداد ، وبعده يعبرون الصحراء بسيارات « نيرن » إلى دمشق ، ومن هناك يبدأون المرحلة الأخيرة فوق سلسلة الجبال ، الأمر الذى لم يألفوه من قبل ، وينتهى بهم المطاف إلى بحر أشد زرقة وعواصف من مياه الخليج الضحلة ذات اللون الفيروزى البراق . .

ولكنها تجربة يشارك فيها اليوم معظم جيل العرب من المثقفين فى الخليج ، وتنطوى على شىء من قوة وتأثير إحدى مراحل التعليم بالمدارس الإنجليزية العامة .

إن الرجال الذين هم الآن فى الخمسينات أو الستينات من العمر ، والذين هم على درجة من الثراء وموضع الاحترام كأعضاء فى الطبقة المتوسطة المتعلمة ، كانوا فى مناوأتهم للأسر الحاكمة بميولها البدوية وما تلقته من تدريب سياسى على يد مستشاريهم البريطانيين ، قاموا وهم شبان برحلة فى صحبة بعض من هم على شاكلتهم . لقد كانوا أصغر من الصبية الذين يلتحقون اليوم بالجامعات ، وكان الكبار منهم ممن هم على معرفة ودراية يتعهدون من هم أصغر منهم سناً .

لقد قص على رشيد زيانى كيف أنه وقف مشدوهاً أمام منظر القطار فى البصرة وكان أول قطار يراه فى حياته ، وسرعان ماجذبه رفاقه ليجد نفسه أمام ناظر المحطة ليتفحصه . . كان صغير الجسم ، نحيلا ، وطالب رفاقه أن يدفع نصف أجر التذكرة ، ووافق ناظر المحطة . . واستولى أولئك الرفاق على فرق الثمن دون علم المشرف على الرحلة ، إلى أن حكم أحد الكبار من بينهم — والذى أصبح فيما بعد قاضياً شهيراً — بإعادة المبلغ إلى زيانى الذى كان يذكر فى احترام وبعد قرابة نصف قرن نزاهة ذلك الرفيق .

كان البديل لهذه الرحلة الطويلة إلى لبنان رحلة بالباخرة إلى بومباى حيث كانت توجد طائفة كبيرة من التجار العرب والإيرانيين ، ممن تربطهم صلات تجارية بالخليج . . وكان كثيرون من أفراد هذه الطائفة التجارية يفضلون هذا البديل ، إذ كان يتيح لأبنائهم أن يلموا منذ نعومة أظفارهم باللغة الإنجليزية كأداة فى التعامل التجارى والاتصالات . . لقد كان هذا البديل فى صورة ما نوعاً من التنشئة المحدودة الضيقة ، وأكثر حذراً من أى نوع آخر ، لأن أولئك الذين يعبرون الصحراء إلى لبنان تركوا من ورائهم عالم المحيط الهندى ليدخلوا عالماً جديداً من الأفكار والأمانى وأسباب اللهو أكثر حيوية وإثارة من كل شيء ألفوه فى ظل الحكومة الهندية فى بيتهم الخاصة .

إن السؤال المحير يدور حول من له الفضل فى إدخال الأفكار الحديثة فى التعليم بالخليج . لقد كان قرار البحرين بفرض رقابة حكومية على مدارسها فى أوائل الثلاثينيات قراراً هاماً ، ولكن كان ذلك العمل مجرد ادماج وتوحيد للتجارب القائمة فعلا أكثر منه استحداثاً .

وفى عام ١٩١١ شيد الشيخ مبارك ، أمير الكويت ، أول مدرسة حديثة فى الخليج ، مع تيسير تعليم اللغات وغيرها من العلوم ، وكذلك القرآن . وفى قطر أقام الحاكم الشيخ قاسم آل ثانى ، الذى توفى عام ١٩١٣ عن مائة وإحدى عشر سنة — محتفظاً بكامل قواه الجثمانية والعقلية حتى آخر يوم فى حياته — أقام مدرسة خاصة لأولاده وأحفاده (وأسماء عشيرة آل ثانى تحتل اليوم سبعة أعمدة ونصف فى دليل التليفونات المحلى) . ولكنها كانت مدرسة تقليدية لتعليم القرآن كأداة لنقل العلم والدرس . وكانت هناك مدرسة مماثلة ومعروفة فى جفحوف عاصمة الحسا ، وهو إقليم فى السعودية الحديثة ، وقد التحق بها القادرون من أبناء دول الخليج المجاورة .

وفى البحرين ، أقيمت فى عام ١٩١٩ مدرسة حديثة فى محرق ، وذلك بالتبرعات والإعانة الحكومية ، وفى عام ١٩٢٦ فتحت مدرسة أخرى فى المنامة ، وكانت كلتاهما تحت الرعاية الكاملة للعائلات السنية ، وهى النخبة الموسرة فى الطائفة ، بينما حيل بين الأهالى الشيعة ، وهم السكان الأصليون للجزر ، وبين

الالتحاق بالتعليم الحديث . ولكن عولج هذا الموقف بتعيين شقيق الشيخ وزيراً للتعليم ، وبتولى الحكومة شئون المدارس القائمة على أسس غير طائفية ، وبافتتاح مدارس أخرى ، وبحلول عام ١٩٣٧ أصبح عدد المدارس الجاهزة لاستقبال التلاميذ ثمانى مدارس ، وأصبح عدد الأطفال الذين يتلقون العلم فيها نحو الألف .

أما الكويت ، فيرجع إليها فضل الانفتاح على الخارج . فى عام ١٨٩١ أسس صمويل زويمر بعثة شبه الجزيرة العربية فى البصرة ، والتى هى الآن جزء من الكنيسة الهولندية البروتستانتية بأمريكا ، وبالرغم من معارضة السلطات العثمانية — ووجود الكثير من العقبات والصعاب المحلية ، تمكنت من فتح مكتبة فى السوق حيث كانت تباع فيها ترجمة عربية للانجيل والتوراة وغيرهما من البحوث الإنجيلية .

لقد كانت البعثة تطوراً لذلك الحافز لحماسة الإنجيلية فى القرن الماضى التى كان لها أثرها البعيد على مواقف الغرب تجاه الشرق . وفجأة أخذ عدد كبير من خريجى الكليات البروتستانية الكبرى والجامعات الواقعة على ساحل أمريكا الشرقى يتركون وطنهم لكى « يدخلوا العالم فى المسيحية فى زمن جيل واحد » . . وكانت هذه الحركة تسير موازية لحركة الإنجيليين فى انجلترا ، ولما نشروه عن تجارة الرقيق داخل منطقة الخليج الهندى . وكان لكلتا الحركتين أثرهما العميق فى شبه الجزيرة العربية نفسها .

ومهما كان من فضائل أو معايب البعثات ، فإنه كان للمثل العملى لتلك الإرساليات صلته الوثيقة بفتح المنطقة للأفكار الغربية ، ولعل من الصعب أن نترسم خطوات تطور المجتمع الحديث فى الخليج دون الإشارة إلى تلك الإرساليات .

لقد بدأ وصول الإرساليات من أمريكا إلى الإمبراطورية العثمانية فى عام ١٨١٩ فى أعقاب حركة الإصلاح والمثالية التقدمية التى أسسها السلطان محمود . وبجهود هذه الإرساليات فتحت مئات المدارس والمستوصفات . فى عام ١٨٦٣ أسست كلية روبرتس فى استامبول ، والكلية البروتستانتية السورية فى بيروت فى عام ١٨٦٤ وهى المعروفة حالياً بالجامعة الأمريكية ببيروت . . وبهذه المدارس

تخرجت الأجيال الأولى من مثقفى الشرق الأوسط ، وكان للجامعة الأمريكية ببيروت أثرها المستمر على معظم القادرين والأذكياء من كلا الجنسين فى العالم العربى ، فتقدمت بذلك على كل ماعداها من المدارس الشهيرة .

وسرعان ماتكشف أن محاولة تحويل المسلمين إلى المسيحية كان عملا شاقاً لاجدوى من ورائه ، ولكن قد يوجد من بين ملايين اليهود وبعض الطوائف المسيحية كالأرثوذكس والروم والأرمن الجريجوريين والأهوريين والنسطوريين ، ممن قد يستجيبون للتسفيرات الكالفينية للمسيحية . . . وعلى هؤلاء المواطنين من الدرجة الثانية فى الإمبراطورية العثمانية ، الذين كانوا يتطلعون إلى تحسين أحوالهم ، قام بنجاح هذه الإرساليات . . الأمر الذى لم يكن ليخفى على موظفى القنصليتين البريطانيتين ، وكان موضع ألم بالنسبة لهم .

ولعل الذى كان أكثر أهمية من هذا النشاط الإنجيلى تلك المساعدة الطبية التى أحضرها الأمريكيون معهم . وكانوا بناء على نصيحة الدكتور « بوستيس » وهو المبعوث الطبى الإنجليزى الذى فتح عدة مستوصفات فى إيران ويعمل الآن كطبيب مقيم لطائفة التجار فى البصرة وكانوا قد أحضروا الأطباء والممرضات لمنطقة تكاد تكون مفتقرة تماماً إلى أى نوع من العلاج الطبى الحديث . . وقد تسنى لهم دخول الكويت بعد رضاء الشيخ لنجاحهم فى علاج أحد أفراد أسرته ، وتمكنهم من التسلل التدريجى إلى بيوت أصحاب النفوذ ، واستطاعتهم التغلب على كل أذى أو إجحاف عن طريق مهاراتهم الطبية ، ومما عزز من موقفهم إتقانهم للغة العربية وإدراكهم للتعاليم الإسلامية .

وكان مؤسساً البعثة بشبه الجزيرة العربية ، وهما صمويل زويمير وأخوه بيتر ، طالبين ممتازين درسا اللغة العربية فى جامعتهما قبل مغادرة أمريكا ، وفى الكلية البروتستانتية ببيروت قبل أن يصلا وهما فى مقتبل العمر إلى الجزيرة العربية . وقد قرر مؤسسو الكلية أن يكون التدريس باللغة العربية ، وباهتمامهم أثناء الدراسة باللغة أثاروا بين الطلبة اهتمامهم بآداب اللغة العربية وخاصة بالنسبة لفترة ما قبل الإسلام ، مما ساعد بطريقة غير مباشرة على إيقاظ أفكار القومية العربية فى الأجيال اللاحقة . وكانت الإدارة العثمانية تمارس عملها باللغة التركية ، وكان

التمكن من اللغة والتحدث بها بطلاقة خطوة ضرورية للترقية فى المناصب ، كما كان التمكن من الإنجليزية كتابة وقراءة إجبارياً للتعيين فى أية وظيفة رسمية . وقد بدأ الأمريكيون فى غرس مبدأ ثقافة دنيوية تختلف عن ثقافة الطبقة الحاكمة وجديرة بالتطوير وكانوا فى ذلك يمتازون عن منافسيهم فى ميدان التعليم وهم الفرنسيون الجزويت الذين كانوا يقومون بالتدريس باللغة الفرنسية والذين كان اهتمامهم بآداب اللغة العربية وتاريخ العرب فى المقام الأول اهتماماً بكل ماهو عتيق .

كان نفوذ الأخوين زويمير وزملائهما نفوذاً شخصياً ، نابعاً عن طابعهم الخاص ومسلكهم . كانت مواردهم هزيلة ، وكانوا يقيمون فى حجرات متواضعة فى السوق تعلو بعض الدكاكين على مقربة من اتصالاتهم المحلية . كانوا يقومون برحلات شاقة خطيرة ، يسافرون سيراً على الأقدام أو فوق ظهور الجمال إلى مناطق نائية فى الباطنة على ساحل عمان . وقد سافر زويمير مرتين إلى صنعاء اليمن فى عام ١٨٩١ ممتطياً بغلا ، وقد عين بعد هذه الرحلة زميلا بالجمعية الجغرافية الملكية .

لقد بدأوا فى أوائل عام ١٨٩٠ ، فى تقديم الكثير من المشاريع بالنسبة إلى العيادات المتنقلة والجراحة الفورية فى أحوال بدائية . . لقد جعلوا الأعمى يبصر ، والأعرج يمشى ، ويأوون الطفل اللقيط الذى يجدونه على عتبات بابهم .. لقد أنقذوا الرقيق . وكانت استقامتهم وبساطة معيشتهم وتواضعهم وما يتطوعون به من مهاراتهم العملية مدعاة لاحترام الأهالى الذين كانوا يعيشون بين ظهرانيهم ، كما غرست فى عقول الأهالى بعض الانطباع عن الأجنبى يختلف عن مظهره المألوف كرجل يمثل القسوة أو رجل متى حل بأرض يستحيل إخراجه منها . .

أما عملهم بين النساء فكان عملا نافعاً بوجه خاص . . لقد كانت الوفيات بين الأطفال ووفاة الأجنة أمراً مألوفاً . واكتسب الأطباء والممرضات الكثير من النفوذ داخل « الحريم » ، فكانوا الطريق الذى من خلاله يمكن أن تتغلغل الأفكار والمبادرات الجديدة إلى العالم النسائى المغلق والذى له نفوذه وقوته الإقناعية من وراء حجاب المرأة .

إنها خدمة لم تسلم من التضحيات ، فبين عام ١٨٩٨ وعام ١٩٠٦ أزهقت أرواح سبعة من الأمريكيين ، ومن بينهم بيتر زويمر ، بسبب الحمى والضعف ، وكذلك طفلتان لصمويل زويمر حيث ماتت إحداهما ولحقت بها أختها بعد أسبوع واحد ، وذلك فى عام ١٩٠٤ .

فى منطقة تتوالى فيها الأيام كلمح البصر ، تصبح الطبيعة العابرة للنشاط الفردى للأجنبى واقعاً ضمنياً يعمل كثيراً ليسهم فى مشاعر الإحساس بالكآبة وعدم الجدوى التى كثيراً ما تتغلب على أكثرهم تفكيراً . . وقد أصبح مرور معظم الناس بالمنطقة فى عصرنا هذا قصيراً جداً إلى الحد الذى أصبحت معه السنوات الخمس وكأنها فترة طويلة ، والعشر السنوات كأنها مدى العمر .

وحتى فى الموت ، لايبقى سوى القليل أو لاشىء : فوكالة الشحن البحرى « جراى ما كنزى » تحمل مخزوناً من التوابيت ، وتنقل الطائرة المطيعة الجثمان وتحلق به بعيداً . . والموت حقيقة كلما يمعن الناس التفكير فيها أو يذكرونها : فبالنسبة للمسلم أو المسيحى ، على السواء ، يجرى الدفن وينتهى خلال أربع وعشرين ساعة . . والمقابر غير شخصية ، وهى للمسلمين منبطح من أرض غير مستوية ، حيث ترعى الماعز ، ومن مكان إلى آخر تبرز بلاطة مثلثة الشكل من فوق القبور فتبدو وكأنها مجموعة من أسنان سمك القرش .

ويمتلك الأثرياء أضرحة لهم ، ذات قباب وأعمدة ، يزينها البلاط الأبيض والملون من نوع ما نراه فى المطابخ . إنها أماكن بعيدة عن مرور السيارات ، ويخترقها التلاميذ فى ذهابهم إلى المدارس ، أو يجلسون على رمالها وهم يلعبون . ويتخذ الناس من أرضها طريقاً مختصراً للجهة التى يقصدونها ، وترى فيها الكلاب وهى تنام شتاءً دون أن يزعجها أحد أو تتمرغ صيفاً تحت ظل جدران الأضرحة ، وأحياناً يجلس بعض الناس فى البحرين يحتسون الجعة تحت أفرع أشجار الصبار بمنأى عن صخور الصحراء الجرداء .

إن مثل هذه المشاهد من الحياة اليومية لا وجود لها عند مقابر الأجانب فهى محاطة بالأسوار ، وتقع فى أرض خصصها الحاكم لهذا الغرض ، وهى اليوم بعيدة

على حافة الصحراء . وفى السعودية ، لا توجد تسهيلات لدفن المسيحيين ، ولذلك ينقل جثمان الموتى عادة إلى البحرين لحرقه أو دفنه أو لنقله إلى الوطن الأصلى للمتوفى .

والمقابر فى البحرين مكان معزول ، وصفوف الشجيرات هناك يعلوها التراب الذى تحمله الريح من مصنع الأسمنت المجاور لها ، ولها بوابات حديدية لحمايتها من أى دخيل .. ومن الصعب تمييز هذه المقابر عن المصانع التى تزحف من حولها . . أما فى الكويت فقد أزيل الموقع الأصلى للإرسالية بالقرب من قصر السيف ، لأن الحكومة أرادت استعادة الموقع لأغراض التوسع ، وأغلقت المقبرة الصغيرة المحاطة بسور ولم يعد يدخلها أى زائر ، وفقد مفتاحها ولايدرى أحد أين مكانه .

وتضم هذه المقبرة جثمان الدكتور « ميلبرى » ، الذى كان من أشهر وأحب الأطباء الأمريكيين فى الإرسالية ، قضى معظم حياته فى الخليج حيث توفى عام ١٩٥٢ . لقد كان مستشرقاً يتحدث العربية بطلاقة ، وانضم إلى الإرسالية بالبحرين فى عام ١٩٠٧ ، ثم انتقل إلى الكويت فى عام ١٩١١ ، حيث بنى أول مستشفى فى نفس العام ، وكانت له مسئوليته الكبرى فى إقامة مدرسة الشيخ مبارك الحديثة وإدارتها ، وكان عملا محفوفاً بالصعاب حيث كان التجار الأثرياء يعارضون فى دفع ما كان الشيخ يطالبهم به من تبرعات لهذا المشروع ، وانتقلوا إلى البصرة تحدياً لهذا العبء المفروض عليهم .

كانت جنازة الدكتور ميلبرى أمراً فذاً ، حيث ودعه إلى مثواه الأخير آلاف من العرب ، فكان مشهداً قد لاترى له اليوم نظيراً . . وبالقرب من قبره أقيم نصب تذكارى للكابتن شيكسبير ، ذلك الموظف السياسى الذى لقى مصرعه فى القتال بين السعوديين وقبائل شمره . إن مثل هذه الآثار التى نراها من مخلفات الماضى أصبحت اليوم نادرة ، وسرعان ما تختفى . . إنها لاتعنى شيئاً بالنسبة للجيل الجديد . . وما يكتب له البقاء فقط هو شرود الذهن أكثر من غريزة الولاء للأسرة .

إن القليلين جداً من أهل البحرين ، حتى من بين الطائفة المسيحية ، هم الذين يعرفون أين توجد مقابر ذويهم ، بالرغم من أن دفن موتاهم بها قد استمر حتى عام ١٩٦٠ . . لقد أصبحت أبعد من أن تصل إليه ذاكرتهم . . فالمقبرة تقوم فى موقع مهدم فى المنامة على مقربة من دور السينما والمطاعم ، حيث تحتشد الجموع كل مساء لتتجول دون هدف فى الشوارع والطرق غير الممهدة ، ولتناول العشاء فى المطاعم الصغيرة المنتشرة على طول الطريق . . إنهم العمال المهاجرون من الجزيرة ، والأسيويون الذين يفدون للعمل بعقود ، ونزلاء المهاجع غير الصحية ، والذين لايجدون وسيلة للترفيه غير هذه الجولات .

هناك حديقتان للنخيل يحيط بهما سور مرتفع من الطين ، هما كل ماتبقى للدلالة على المنطقة القروية التى كانت قائمة ، وهى التى كانت مخصصة للطائفة المسيحية فى نهاية القرن عندما كان مجموع سكان الجزيرة خمسين ألف نسمة ، كلهم من المسلمين ، باستثناء حوالى الستين من التجار الهنود المقيمين بها وجالية من اليهود . ويمتد زقاق ضيق بين الحديقتين إلى ميدان صغير حيث يلعب فيه الأطفال ألعابهم المزعجة ، حيث تتدلى الملابس المغسولة من الشرفات .

وعلى اليمين سياج مقبرة اليهود ، وهى موصدة الأبواب ، وتطل عليها مجمعات سكنية حديثة . . وبابها الخشبى موصد بسلسلة مما جعلنى أبذل جهداً لكى أستطيع أن أحدق ببصرى إلى داخلها من خلال فتحة ضيقة بالباب ... وكانت المقابر التى على شكل التوابيت قريبة من بعضها فى صفوف منتظمة كتلك التى نراها فى فناء كنائس الريف فى إنجلترا ، وكانت الأشجار المتسلقة تغطى بعض جدرانها .

ومنذ جيل مضى كانت تقيم بالجزيرة ما يزيد على مائتى عائلة من اليهود الوافدين من العراق ، ويتحدثون العربية كلغة أولى .. ولكن لم يبق منها الآن سوى خمس عائلات .. وأكبر سمسار فى الجزيرة ينتمى إلى تلك الطائفة التى تضم حفنة من أصحاب المتاجر ورجال الأعمال الذين يعيشون فى هدوء ، لا يتعرضون إلى أية مضايقات أو تفرقة ويتمتعون بكل امتيازات مواطنى البحرين .

أما المقبرة المسيحية فهى مفتوحة .. وبوابتها الحديدية التى يعلوها الصدأ مفتوحة على مصراعيها ، وفى الإمكان الدخول إلى فنائها الظليل .. ولكن يبدو أنه ليس هناك من يأتى إلى هذا المكان رغم وجود بستانى عجوز ليتعهدها ، وما يسود المكان من نظام .. والنخيل الذى انحنى بمرور السنين قد تعانقت رؤوسه وتشابك منه السعف فأحدث هذا السكون الظليل . وبعض القبور تحمل علامات حفرتها عليها لجنة مقابر الحرب على ألواح من الحجر المصقول ، وعلى البعض الآخر صلبان خشبية تآكلت وحال لونها فتعذرت قراءة الأسماء عليها .. وهناك مقابر أخرى مجردة من أى دليل .

إنه تجمع لعناصر من كافة أنحاء العالم التى ترقد تحت أشجار النخيل المتربة مع مجموعة من أشجار الزنبق التى لا تزهر أبداً والتى تحف بمنحدرات هزيلة على جانبى مجارى الرى إن كل شىء هنا مترب وجاف وهش ، فإذا لم يكن المرء حذراً فى خطوه غاصت قدمه فى طبقة متداعية من الطين المجفف.

إنه مكان حزين ، منسى ، عديم القيمة ، لا يتصل فى شىء بالتجمعات السكنية الحديثة التى أخذت تغزو المنطقة .. ومن الذى يفكر الآن فى أولئك الشبان الذين ماتوا فى العاشرة أو فى العشرين من عمرهم ، والذين كانوا فى يوم من الأيام يحتشدون بالجزيرة ، وكونوا الكثير من أساس ثروات السوق ؟ وما الذى قتل أولئك الملاحين الهولنديين واليونانيين والإسكندنافيين والأمريكيين ، والذين لا تخلد ذكراهم سوى أسماء وتواريخ وأسماء سفنهم بالخط العريض كما لو كان التخليد هو للسفينة وليس للرجال .

اتجهت بى الذاكرة إلى التأمل ، واستمددت العزاء والسلوى من ذلك المعزل الهادئ الذى يتوارى خلف أسوار الطين العالية .. لقد كان له جوه الخاص .. فهو شىء نادر فى الخليج الحديث .. ولكنه فيه أيضاً ما يبعث على السعادة ، فالطير وخاصة العصافير اعتادت أن تغرد فيه وترفرف بأجنحتها فوق الأغصان المتربة مما يجعل له وقعاً غريباً وسط ذلك السكون المخيم على المكان . وفوق بعض المقابر كانت تتدلى أطباق قديمة من الصفيح معلقة بخيط من الشجيرات المطلة عليها ، وفيها بقايا مجففة من الطعام والحلوى ،

فلعل الموتى لايزالون موضع خدمة خفية . ولما ذكرت ذلك للأب يوجين ، القس الكاثوليكى ، أبدى استياءه لذلك الافتراض .

إنها صحبة تعددت فيها العناصر والجنسيات ، واستقرت فى هذا المكان الصغير المتواضع ، والذى اجتمع فيه : مختلف الملاحين ، ضحايا تحطم الطائرات : ماثيوبول لوبو وزوجته كافيديد مارى . وطفلاهما ونسيسلوسى وتوماس ، وبريدجيت وميرزا أكبر الذى توفى بعد أعياد الميلاد فى عام ١٩٤٧ ، والميجور توبتيس .

ولكن كيف نحدد المسئول عن صغار الأطفال ، الذين لا يتجاوز سنهم عدة أسابيع ، أو أشهر أو سنوات ؟ . هناك لوح خشبى تغطى الأغصان المدلاة نصفه ، ولذا يتعين على الزائر أن ينحنى ويزحف كى يستطيع قراءته .. لقد كتب عليه : « أطفال يتامى » وتحتها قائمة بالأسماء : حبيب ، جميلة ، عبود ، سمير .. وهكذا .. إنهم أطفال لقطاء ، انتشلتهم الإرسالية وحاولت عبثاً إنقاذهم .. وعلى مقربة منهم قبر فوقه حجر يحمل اسمى طفلتى دكتور زويمير اللتين ماتت أولاهما فى سن الرابعة والأخرى فى السابعة .

ويرجع الفضل بلا شك إلى الإرساليات فى تخليد ذكرى كل من « مدينة » وهى من الرقيق التى تم تحريرها ، و« سليمة » . وقد توفيت « مدينة » عام ١٩٦٠ فى حياة أولئك الذين كانوا يرون قيام الرق فى عصر اقتصاديات البترول أمراً لا يمكن تصوره ..

ولاتزال الإرسالية الأمريكية تعمل بنشاط فى البحرين ، حيث لها هناك كنيسة ومستشفى حديث ، ومستوصف ، ومدرسة ودار حضانة ومكتبة ، وهى مقامة على أرض أعطاهم إياها الشيخ الحاكم عندما قدم الأمريكيين إلى الجزيرة لأول مرة فى عام ١٨٩٠ . ويقيم بعض الأطباء والمدرسين فى البيوت الرحبة ذات الطابق الواحد التى كانت الإرساليات الأصلية قد بنتها هناك ، ولها حدائقها الظليلة الضيقة والمليئة بالشجيرات المزهرة والأشجار المنحنية فوق الأسوار ، والأشجار المتسلقة فوق السلالم الخارجية والشرفات .

وهذا الموقع الذى كان من نصيبهم فى المنطقة السكنية ، حصلوا عليه بمساعدة الموسرين من التجار العرب والإيرانيين الذين كانوا فى أغلبيتهم يقيمون فى قصور ذات أبراج هوائية ومساحات كبيرة ، وبها حدائق النخيل كما تحف بها أسوار عالية من الطين . وأقامت الإرساليات علاقات منذ البداية مع بعض هذه العائلات التى كان لها نفوذها المتواضع ، وكانوا يمتازون بجدية المقصد مهما كانت درجة ثرائهم .

ومن بين الأوائل الذين ناصروا الإرساليات مدير مكتب البريد ، وكان برتغالياً ، وقد دبر لأسرة زويمير مسكناً فوق الصيدلية بالقرب من المسجد ، وأسرة يتيم : محمد يتيم وهو أحد أعمام كبير الأسرة الحالى حسين يتيم ، وكان قد أوفد إلى الكلية البروتستانتية فى بيروت بينما كان حسين الصغير من أوائل الصبية بالجزيرة الذين التحقوا بمدرسة الإرسالية قبل إرساله إلى كلية بريتون بانجلترا .

وعندما نشبت حرب (١٩١٤/١٩١٨) حاول محمد يتيم العودة لوطنه عن طريق بيروت ، ولكن الأتراك اعتقلوه بينما كان يمر ببغداد ، فقد ارتابوا فيه لتمكنه من اللغة الإنجليزية وحسبوه جاسوساً إنجليزياً .. وقد أفلت بشق الأنفس من إعدامه رمياً بالرصاص ، ولم ينقذه سوى شبابه ونشأته الإسلامية السنية .. وأودع أحد المعتقلات ، وبعد الحرب فقط تلقت أسرته نبأ بتوقيع ونستون تشرشل بوصفه وزير المستعمرات ، يبلغهم فيه بأنه تم العثور على ابنهم وسيتم ترحيله إلى البحرين .

* * *

الفصل الحادى عشر

الميجور فرانك هولمز — وصوله الى الخليج — الشركة الشرقية والعامة — الآبار الارتوازية — بدء ظهور النفط فى بورجان — مصالح الحكومة البريطانية — هولمز يحصل على امتياز للتنقيب عن البترول من ابن سعود — هولمز يوفد محمد يتيم لبدء المفاوضات للحصول على امتيازات الكويت — هولمز يتحدى شركة النفط الانجليزية الايرانية — اسلوب هولمز فى التعامل — سياسة وزارة المستعمرات بشأن الامتيازات — مهارة الشيخ احمد — رفعه للاسعار — هولمز ياتى بالامريكيين — الاستعانة بسياسة « الباب المفتوح — شركة نفط الكويت — شخصية هولمز — الحاج وليامسون — تاريخه — استخدامه كمفاوض المنافسة مع هولمز — المنافس الاخير — الاتفاق النهائى .

* * *

فى عام ١٩٢٢ وصل إلى البحرين مهندس تعدين مخادع وفظ ، وهو النيوزيلاندى فرانك هولمز وقد جاء فى صحبة الدكتور مان ، فى طريقهما إلى شبه الجزيرة العربية بدعوة من ابن سعود .. وكان الميجور فرانك هولمز قد جاء إلى الخليج من قبل حيث زار البصرة فى عام ١٩١٨ بوصفه كبير ضباط الإمداد والتعيين الذى يقوم على تنظيم توريد اللحوم وغيرها من أثيوبيا وعدن إلى قوات الحملة البريطانية فى العراق .

كان فى الثامنة والأربعين من عمره ، وكان متقلباً ، بدأ نشاطه بوجه خاص مع الشركات التى تشتغل بتجارة الذهب وتعدين القصدير فى عديد من البلاد بما فيها روسيا ونيجيريا وأوروجواى وكذلك جنوب أفريقيا واستراليا .. ورغم أنه لم تكن لديه دراية سابقة بصناعة البترول ، إلا أنه كمهندس تعدين كان له اهتمام طبيعى بمعامل التكرير التابعة لشركة النفط الإنجليزية الإيرانية

فى عبدان ، وبصناعة النفط فى إيران ، وكذلك بما سمعه عن ظهور النفط وعن مشاكل المياه على شاطئ الخليج العربى .

وبعد تسريحه فى لندن ١٩١٩ انضم إلى شركائه السابقين فى التعدين ، وفى أغسطس عام ١٩٢٠ تكونت شركة صغيرة هى « الشركة الشرقية والعامة » بقصد الحصول على امتيازات التنقيب . ولبحث إمكانيات العمل فى شبه الجزيرة العربية . وعين هولمز فى هذه الشركة ، وكان رأس مالها خمسين ألفاً وثلاثمائة جنيه ، وكان أهم حملة الأسهم فيها شركة « شارتر لاند والشركة العامة للتنقيب » و شركة « ألن وهانبوريز » وهما كيماويان فى الصيدلة ، ومستر ميسا ، وهو تاجر من عدن وشركة تاربوت للمهندسين الاستشاريين ، وهى التى كان هولمز يعمل بها من قبل .

وبدأ أول نشاط لهم فى عدن ، حيث أسسوا فى عام ١٩٢٠ وتحت إدارة أوروبية شركة كيمائية ، (باعوها بعد ذلك فى عام ١٩٢٥) . وفى عام ١٩٢٢ انتقل هولمز إلى البحرين بقصد الحصول على امتياز للنفط من ابن سعود ، وظلت هذه قاعدته للسنوات الحادية عشرة التالية .

وعن طريق الدكتور مان اتصل هولمز بطائفة التجار فى البحرين ، وكان الممثل التجارى لابن سعود فى الجزيرة هو عبد العزيز القصيبى ، وهو سليل أسرة الأشراف التى كانت تشتغل بصناعة اللؤلؤ منذ قديم ، وكان أيضاً الوكيل الذى كان ابن سعود يحصل عن طريقه على كثير من الإمداد والتموين .. وقد توفى فى عام ١٩٧٦ ، واعتبرت طائفة التجار موته نهاية لعصر كان وضعهم فيه ومكانتهم بعيدة عن أى منازع ، وأنهم كانوا يتقاسمون تجارتهم على أساس راسخ من التفاهم والاحترام .

وعن طريق هذا الاتصال السريع المباشر مع نخبة طائفة التجار استطاع هولمز أن يتخطى الميجور دالى ، الرهيب ، وأن يقيم علاقات مع العرب بصورة أسرع مما كان فى وسعه أن يعمل فى أى مكان آخر .. وكانت عائلة يتيم من بين من اتصل بهم ، وأصبح محمد مترجماً له ومساعداً فى سلسلة المفاوضات العديدة التى قام بها .

لم يتعلم هولمز العربية إطلاقاً ، ولم يحاول أن يفعل ذلك ، بل كان يعتمد على يتيم .. لقد كان ذا طابع مشوق وجذاب ، ولديه رصيد من القصص والحكايات استمده من رحلاته وخبراته ، كان عادياً فى مسلكه دون غرور أو خيلاء رغم أنه كان داهية ومتمرساً ، وله حصيلة ضخمة من الاهتمامات بتاريخ التوراة والتاريخ الطبيعى والجيولوجيا وآداب اللغة وما شابه ذلك من موضوعات . وكان يتجول فى البحرين فوق حماره الأبيض تحت مظلة كبيرة مبطنة باللون الأخضر ، وعلى رأسه قبعة هندية من الفلين تحمى وجهه الذى لوحته الشمس وعينيه الزرقاوين ، ويحف بها حجاب أخضر فكان أشبه برحالة من عصر الملكة فيكتوريا . أما ملابسه فكانت عتيقة الطراز وغريبة إلى حد ما ، كما لو كان أسلوبه فى ارتداء ملابسه قد تبلور فى عام ١٨٩٠ ولم يتغير منذ ذلك الوقت .

كان البريطانيون الرسميون ينظرون إليه بعين الشك ، ولم يهتم به سواء سير برسى كوكس أم الميجور دالى ، وكانا يظنان أنه قد اختط لنفسه مسلكاً مستقلا ، وفى ذلك ما قد يخلق لهما المتاعب .. وكان العرب يحبونه كثيرا ، وكانوا يحبون فيه صراحته وبساطته واستقامة تعامله واستعداده لأن يدفع ثمن ما يريد .

كانت شركته فى السوق من أجل الحصول على امتيازات بترولية ، وبين عامى ١٩٢٢ و ١٩٢٦ حصـــل هولمز لشركته على امتيازات فى إقليم الحسا بالسعودية وفى البحرين ، وفى المنطقة المحايدة بين الكويت والسعودية وهى المنطقة التى خطط حدودها سير برسى سكوكس بين البلدين فى عام ١٩٢٢ . وكان هولمز موجوداً هناك كعضو فى الطرف السعودى ، حيث كان يتفاوض من أجل امتياز للنفط ، ورأى كوكس فى وجوده فرصة لتقديم امتياز لابن سعود لتعويض إعانة الحكومة البريطانية أثناء الحرب ، وقدرها ألفا جنيه سنوياً . . وبارك اقتراح ابن سعود بمنح شركة هولمز امتيازاً ، مع دفع ألفى جنيه مقدماً للتنقيب عن البترول فى الإقليم الشرقى .

وفى ذلك الوقت ، لم يكن هناك من الرسميين البريطانيين من ينظر إلى هولمز نظرة جدية . . لقد كانوا يرون أنه دخل من الباب الخلفى ، وأنه لم يكن سوى باحث يجرى وراء الامتيازات ، ومضارب لا يملك رأس مال أو مهارات ليعمل بها فى امتيازه الذى لابد أن يسلمه إلى شركة نفط لتشغيله .

أما هولمز ، فقد كان يقوم بحفر الآبار الارتوازية فى البحرين للشيخ ، ويتفحص بدقة ساحل الحسا بمنظاره المقرب ، وهناك رأى وسمع الكثير مما أقنعه بوجود النفط هناك رغم تقارير الجولوجيين التى تنفى وجوده ، وهم الذين كانوا قد زاروا الساحل العربى قبل الحرب وأثنائها . . إنهم يذكرونه اليوم بالعرفان فى البحرين ، لا من أجل النفط فقط الذى تم العثور عليه نتيجة الامتياز الذى حصل عليه فى ديسمبر عام ١٩٢٥ من جد الحاكم الحالى ، ولكن أيضاً من أجل الماء الذى يزود الجزيرة به والذى كان الشعب يعتبره أثمن بكثير من النفط فى ذلك الوقت .

لقد ظل هولمز يسعى حوالى ستة أشهر قبل أن ينفرد بالحصول على امتياز من جانب ابن سعود على حقوق التنقيب عن البترول والتعدين فى إقليم الحسا . . وتم التوقيع على ذلك فى السادس من مايو عام ١٩٢٣ . . وبعد ثلاثة أيام تلقى شيخ الكويت برقية من هولمز فى البحرين ، يلح عليه فيها ألا يدخل فى أى اتفاقات بشأن منح امتيازات لأية شركة أخرى قبل أن يطلع على الشروط المقدمة من « الشركة الشرقية والعامة » . . وكان من المفروض أن يحملها محمد يتيم فى أول باخرة تبرح البحرين إلى الخليج .

وكانت هذه أول طلقة فى معركة استمرت عشر سنوات ، ثم انتهت بالتعادل ، وفى أوائل ١٩١٧ ، وقبل أن يظهر هولمز على المسرح ، كانت شركة النفط الإنجليزية الإيرانية قد أمنت وضعها كشركة نفط وحيدة تعمل فى الخليج ، بأن طلبت من الخارجية البريطانية إدماج الكويت فى الامتياز الذى يغطى كل مستودعات البترول فى العراق والتى قد تصبح تحت السيطرة البريطانية بعد الحرب ، وهو الامتياز الذى كانت الشركة ترغب فى الحصول عليه . وحتى نهاية عام ١٩٢١ لم يصل أى رد من وزارة المستعمرات التى أصبحت الآن بعد

أن – تولاها ونستون تشرشل هى المسئولة عن الكويت . . وتم الاتفاق على المفاوضات ولكن اشترط أن يتولاها المندوب السامى الذى يعمل وفق التعليمات الحكومية البريطانية . وفى أكتوبر عام ١٩٢٢ تم تعديل ذلك إلى « المساعدة » من جانب المندوب السامى لممثل الشركة الذى يشترك فى المفاوضات ، وبوصول هذه المعلومات اقترح سير أرنولد ويلسون المدير المقيم فى إيران لشركة الإنجليزية الإيرانية التوجه مباشرة من عبدان إلى الكويت لبدء المفاوضات مع أحمد شيخ الكويت والذى كانت تربطه به معرفة شخصية :

غير أن المركز الرئيسى فى لندن أحبط هذا الاقتراح حيث لم تكن الشركة متعجلة للدخـــول فى مشروعات ضخمة فى منطقة يعتبرها الخبراء غير مضمونة ومن غير المحتمل أن تستحق أى عناء . . إن ما كانت تريده هو إحباط أية محاولة لاقتحام الغير ما كانت تعتبره منطقة محظورة ، وأن تربط الحاكم بامتياز حتى يتسنى لها أن تنال لنفسها الاختيار عندما يكون ذلك ملائماً .

لقد بدأ الشيخ أحمد عقب تنصيبه ، يشعر بالآثار الأولى لتحويل ابن سعود لقبائل الصحراء على طول حدود العراق للرعى الموسمى بعد أن كانوا يتجهون فى الماضى شطر الشمال . وأخذ الكساد يسود الأسواق التى كانت القبائل تتزود منها بمقادير ضخمة من المؤن . . لذلك رحب الشيخ بأولى الأنباء التى استطلع بها المندوب السامى الرأى حول امتياز النفط . . والشىء الوحيد الذى لم يكترث له الشيخ هو الأتاوة المعروضة عن كل طن من النفط الخام ، واقترح بدلا منها نسبة خمسة وعشرين من مائة كأتاوة على صافى النفط الخام .

وكان جده الشيخ مبارك قد التزم باتفاق سبق أن قدمه كتابة إلى المندوب السامى البريطانى فى أكتوبر من عام ١٩١٣ بمناسبة الزيارة الاستكشافية التى قام بها الجيولوجيون من البحرية لبئر النفط فى بورجان ، وارتباطاً بهذا الالتزام وافق الشيخ أحمد على ماكان يبدو كحتمية حصول شركة النفط الإنجليزية الإيرانية على امتياز من جانبه ، وكان مقيداً بمقتضى الاتفاق بألا يعطيه لأى شخص إلا من تختاره وتزكيه الحكومة البريطانية وكان هذا يدعو للانتباه إلى أية منافسة محتملة ، ويترك شركة النفط حرة فى وضع شروطها الخاصة .

وكان من شأن عرض هولمز ، الذى قدمه محمد يتيم ، ومن بعده هولمز أن أدخل عنصراً جديداً فى الموقف ، خاصة وأن هولمز قد بادر بتأكيد أن شركته بريطانية ذات مركز ممتاز ، وليس هناك ما يدعو للتعجيل بتمييز الغير فى المعاملة طالما أن رؤساءه فى لندن قاموا بعمل الترتيبات اللازمة مع الحكومة البريطانية لحصول على موافقتها الرسمية على عرضه الذى كان أنسب عرض قدمته الشركة حتى ذلك الوقت .

وما أن علم أن هولمز قدم عرضاً فى الكويت طلب مكتب لندن إلى سير آرنولد ويلسون فى إلحاح أن يبذل كل جهد كى يوقع الشيخ على مسودة عقد الشركة .

كانت شروط التشغيل التى عرضها هولمز مماثلة تماماً لشروط الشركة . . ولكن كان يفضلها من الناحية المالية حيث يعرض ألفى جنيه عند التوقيع ، بينما تعرض شركة النفط الإنجليزية الإيرانية سبعمائة وخمسين جنيهاً ، كما يحدد أدنى دخل سنوى بمقدار ثلاثة آلاف جنيه بينما الشركة الأخرى تعرض ٢٢٥٠ جنيهاً . وكانت الشركة الإنجليزية الإيرانية فى موقف غير موات حيث أنها اختارت الإجراءات البطيئة بالتفاوض المترادف مع المندوب السامى ، بينما قام هولمز باتصالاته المبدئية مع الشيخ كفرد عادى قدمه إليه أعضاء حاشية الشيخ ، وسانده خطاب شخصى من ابن سعود الذى قام بعد منح امتياز الحسا للشركة الشرقية والعامة بالكتابة إلى الشيخ أحمد مقترحاً عليه أن يشتركا فى منح هذه الشركة امتيازاً فى المنطقة المحايدة . . وقد حصلت الشركة فعلا على هذا الامتياز فى ١٧ مايو عام ١٩٢٤ .

وتوصل هولمز لتكوين أصدقاء فى البلاط عن طريق علاقاته بكل من الغصيبى ويتيم ، ولكن شخصيته وطريقته فى مزاولة عمله هما اللتان أكسبتاه ثقة العرب وائتمانهم له . لقد أخبرهم بأنه يعتقد بوجود النفط فى أرضهم وأنه على استعداد لأن يدفع مقابل اختياره ليستخرجه لهم ، وبسرعة ، وبذلك يتسنى للحكام أن يجنوا فوائد مايجدونه بأسرع مايمكن بدلا من أن يعتمدوا على برامج شركات النفط .

كانت هناك نقطتان أخريان ساعدتا هولمز ، أولاهما أنه عندما منح ابن سعود امتياز الحسا لهولمز نص فى الاتفاق على أنه لايجوز له أن يبيع كل الإنتاج أو بعضه لشركة النفط الإنجليزية الإيرانية حيث أن امتلاك الحكومة البريطانية لبعض أسهمها جعلها موضع الشك فى نظر العرب . . لشعورهم بأنه قد توجد روابط سياسية بأى عقد يبرم مع الشركة . أما النقطة الثانية فهى أن الشيخ لم ينس كيف أن السير بيرسى كوكس استبعد شطراً كبيراً من الصحراء ، كان الكويتيون يعتبرونه جزءاً من منطقة نفوذهم الموروثة ، وذلك عندما قام بتخطيط الحدود فى نوفمبر / ديسمبر عام ١٩٢٢ ، وكان استبعاده لهذا الشطر من الصحراء دون استشارة أو إنذار . وكان من شأن هذا العمل المنافى للذوق إثارة حفيظة الكويتيين ، وجعل الشيخ ينفر من أى عرض صادر عن الحكومة البريطانية ، حتى ولو كان بالتلميح ، وذلك عندما كانت تعرض له أية مشروعات بديلة .

إن أمام الشيخ أحمد الآن الملتمسين للامتياز ، وكذلك كان شيخ البحرين ، حيث كان هناك موقفان متوازيان : فمن ناحية ، يتعامل هولمز مع الحكم مباشرة ومن الناحية الأخرى تلتزم شركة النفط الإنجليزية الإيرانية بالقواعد التى وضعتها الحكومة البريطانية والتى ادعى هولمز بأنه كان يجهلها عندما بدأ اتصالاته بالحاكم . وكان من شأن امتياز الحسا الذى حصل عليه هولمز من ابن سعود فى السادس من مايو عام ١٩٢٣ أن جعل ابن سعود يربح سبعة آلاف وخمسمائة جنيه ، دفعت له نقداً فى أحد بنوك بغداد ، كما أن سرعة وسخاء شركته ونظامها المتحرر من القيود قد أقنع الشيخ أحمد بمقاومة أية محاولات لدفعه إلى الموافقة على مسودة العقد المقدمة من شركة النفط . وقد قال سير أرنولد ويلسون : « أعدك بشرفى أننى لن أبرم أى عقد مع أية شركة دون إبلاغكم أولا بالشروط التى يقترحونها » .

ولم تكتشف شركة النفط إلا فى أغسطس تفاصيل عرض شركة هولمز المقدم للكويت ، والتى لاحظ نفس المندوب السامى أنها كانت ظاهرياً أكثر ملاءمة بكثير من تلك التفاصيل التى تمت مناقشتها حتى ذلك الوقت بين شركة النفط ووزارة المستعمرات مما يجعل من غير المستغرب أن يبحث الشيخ عن المعاذير لتبرير تفضيله للشركة الشرقية والعامة . :

ولكن المندوب السامى كان يرى أن الشيخ قد يغير رأيه إذا ما قامت شركة النفط بتعديل عرضها حيث أنه كتب إلى الكويت يبلغ الشيخ بأن الحكومة البريطانية لن توافق على مقترحات شركة هولمز ولن ترخص باتفاق امتياز معها .

وأخذ النشاط الآن يدب بين الأطراف المعنية فى غدوها ورواحها الذى استمر طوال عشرة أعوام . . وانقسمت الكويت إلى فريقين ، بين مؤيد لمقترحات هولمز ، ومساند لعرض الشركة الإنجليزية الإيرانية . وأيدت أسرة الغانم تحت رئاسة كبيرها أحمد محمد الغانم ، شركة النفط الإنجليزية الإيرانية . . لقد كان يتولى وكالة الشركة فى الكويت منذ عام ١٩٢٥ ، وكان الذى زكاه لشركة الشيخ أحمد شخصياً إلى جانب المركز الممتاز لعائلته ونظامها الراسخ منذ بعيد كواحدة من العائلات الأصلية من هجرة « عتوب » فى القرن الثامن عشر . . . لقد بذل محاولة كبيرة ليجتذب قوة مؤيدة لترشيح شركة النفط .

أما هولمز ، فكان يتمتع بتأييد عائلة الإمام صالح ، وكان عميدها « خان بهادور مولاى صالح » وزير البلاط لدى الشيخ ، كما كان ابنه سكرتيراً خاصا للشيخ ، وتعتبر عائلة صالح ، مثلها مثل عائلة الغانم ، أسرة كويتية عريقة ، وتضم أعضاء نفس الفريق الأصلى الذى كان قد هاجر مع عائلة الصباح من نجد منذ حول المائتين وخمسين عاماً . وكان عبد الله مولاى صالح صديقاً لمحمد يتيم ، وكان فى مركز قوى يجعله يضع يتيم — وبالتالى هولمز — فى خير وضع أزاء التطورات بالنسبة لشركة النفط .

كان أسلوب هولمز فى مزاولة نشاطه يتسم بالبذخ والسخاء ، وعند وصوله لأول مرة إلى الخليج ، فى طريقه لزيارة ابن سعود ، جلب معه الكثير من الهدايا ، من بنادق ونظارات مقربة وصناديق وعلب من الجلد مليئة بالكثير من الأشياء لتسلية عملاء المستقبل وإدخال السرور عليهم . . كان هذا أسلوبه طوال سير المفاوضات ، وكان هذا إلى جانب حديثه الممتع الشيق ماجعله ضيفاً محبوباً وموضع الترحيب من جانب العرب الذين تعامل معهم . . وكان مساعده ، محمد يتيم ، معروفاً بكثرة إقامته للمآدب ، ويحضر الراقصين والموسيقيين وغيرهم

من المضيفين فى مآدب العشاء التى كان يقيمها ليلا بمنزله بالكويت ، وكان الشيخ وغيره من الشخصيات الكويتية الهامة — يحضرون هذه المآدب بسرور .

وفى وسعك أن تقول إن هولمز كان بالنسبة للعرب تجربة فى إضفاء الجمال على الحياة ، ويفوق فى ذلك أولئك الرسميين من البريطانيين فى إدراكهم للنظام وإيمانهم بفعالية البروتوكول فى إرهاب الحكام الوطنيين .. وكثيراً ما كنت أفكر كم كان متعباً للعرب ، الذين هم بطبيعتهم مرحون ، عندما كان يتعين عليهم أن يلتزموا خير مسلك عندما تكون شؤونهم بين يدى المندوب السامى وعندئذ ليتصرفون وفق ما تمليه عليهم توقعاته .

فى سبتمبر من عام ١٩٢٣ حددت وزارة المستعمرات سياستها بخطاب إلى جميع الأطراف المعنية فى مسألة امتيازات النفط . وذكرت أن هدفها من وراء السعى إلى تعهدات من جانب شيوخ الكويت والبحرين وغيرهم من حكام الخليج بالامتناع عن منح أية امتيازات لتنمية النفط فى أراضيهم إلى أى شخص غير معتمد من جانب الحكومة البريطانية ، إنما هو لحماية الحكام أنفسهم من « النشاط الضار من جانب من لاذمة لهم من صيادى الامتيازات من طراز من نجحوا فى الإضرار بالامبراطورية العثمانية قبل الحرب ، كما أننا أردنا بهذه الطريقة قصر منح الامتيازات على الشركات البريطانية حسنة السمعة ، وبذا يمتنع تسلل النفوذ الأجنبى إلى الخليج الفارسى الذى يعتبر غير مرغوب فيه سياسياً » .

ولتفادى استغلال فرصة عدم خبرة الحكام الوطنيين فى هذه الأمور ، تقرر هنا التدبير الذى يقضى بأن يحصل طالب الامتياز على إذن الحكومة أولا ، ثم يتم فحص مقترحاتهم بعناية قبل تزكيتهم ، كما أن الأمر يتطلب أن يكون إجراء المفاوضات على يد المندوب السامى أو وكيله .

ولما كانت هناك شركتان بريطانيتان تتنافسان ، فإنه لايسع حكومة المستعمرات الآن إلا التمسك باتباع الإجراءات ، ونظراً لأسبقية شركة النفط الإنجليزية الإيرانية فى تقديم الطلب ، فقد أبدت الوزارة أنه إذا تساوت مع عرض شركة هولمز وكانت تعديلات الشيخ لشروطها مقبولة ، كان الامتياز من نصيبها . . ولكن إذا أخفقت شركة النفط فى الاستجابة لمطالب الشيخ

وقامت شركة هولمز بتعديل مقترحاتها تمشياً مع متطلبات الحكومة البريطانية وكانت شروطها مقبولة لدى الشيخ كالشروط المطروحة لشركة النفط ، فعندئذ تم الموافقة على منح الامتياز لهولمز ورؤسائه .

وبعد ذلك ، صرح الشيخ بأنه يحتاج إلى ستة أشهر على الأقل لدراسة مشروع الامتياز الذى اقترحته شركة النفط الإنجليزية الإيرانية التى تم إبلاغها عن طريق وزارة المستعمرات أنه فى حالة عدم عقد اتفاق مع الشيخ أحمد قبل الحادى والثلاثين من مارس عام ١٩٢٥ سيكون لشركة هولمز حق الدخول فى مفاوضات ومن المستحيل مد أسبقية شركة النفط إلى ما بعد هذا التاريخ .

وعند هذه النقطة ، قررت شركة النفط أن تتبارى وتتفوق على الشروط التى اقترحها هولمز على الشيخ ، بمجرد أن يستطيعوا حمله على إعادة فتح المناقشة . أما الشيخ ، فقد أدرك فى دهاء أن موقفه فى المساومة بعد الحادى والثلاثين من مارس عام ١٩٢٥ سيزداد قوة بدخول شركة هولمز فى العملية ، فرفض أن يستدرج للافصاح قبل الأوان عن رأيه ، وعاد للاعتذار بأنه يجب استشارة الرأى العام فى بلاده وأنه لايريد أن يفعل شيئاً يضايق المجلس الاستشارى الذى تشكل عند تنصيبه فى عام ١٩٢١ .

وكان هذا المجلس الذى يرأسه أحد كبار التجار وهو محمد بن عبد الله الصقر يتكون من اثنى عشر عضواً ممن ينتمون إلى العائلات الكبيرة بالمدينة . وكان كثير من التجار يمقتون فكرة امتياز النفط ، إذ يدركون أن أى مصدر بديل للعمل قد يعرض للخطر احتكارهم لليد العاملة فى صناعة اللؤلؤ وبناء السفن ، وأعلن الشيخ ، الذى كان تنصيبه مشروطاً بقبوله لهذا المجلس ، أنه لايستطيع أن يضرب بآرائهم عرض الحائط .

ولاحاجة بنا لسرد تفاصيل المفاوضات التى أدت إلى منح امتياز نفط الكويت فى عام ١٩٣٤ ، حيث قد سجلها شيسهولم ، وهو من بقى على قيد الحياة من أعضاء الفريق المتفاوض ، وذلك فى تقريره المفصل عن الأحداث منذ عام ١٩١١ ، وتم نشره فى عام ١٩٧٥ تحت عنوان « أول امتياز للنفط الكويتى » .

إننا عندما نتصفحه نجده وكأنه رواية « درامية » مبسوطة أمامنا . . إنها إنتاج تم بروية وتمهل ، وأحياناً تنقضى السنوات قبل أن يتحرك الأداء قدماً على نحو له مغزاه . . ويتوارى الممثلون ذوو الأدوار الرئيسية من المسرح ليحل محلهم ممثلون ثانويون . . وأحياناً يدوى الرعد فوق خشبة المسرح ، ويضيئها من وقت لآخر ، ولكن فى الغالب تستمر حبكة الرواية بشىء من البطء المهيب للمسرح الفرنسى الكلاسيكى . . إن المكيدة مروعة ، وفى النهاية يبدو كل فرد وقد مسه شىء من العظمة الكاذبة ، باستثناء فرد واحد ، هو الملقن .

البطل بلاشك هو الشيخ ، وهو رجل انتخبه أقاربه حاكماً وهو فى السادسة والثلاثين ، وتحمل فى مستهل حكمه خسارة جانب كبير من أرضه . . كان عليه أن يرى أهم دعامتين لاقتصاد شعبه تهويان تحت أقدامهم ، فانهارت صناعة اللؤلؤ وأدى سد الطريق أمام تجارة الكويت عبر الصحراء إلى فرض حالة من الكساد بالمدينة . ولكن كان عليه أن يبرر اختياره بعرض كفاءة فى التفاوض بحكمة من أجل المنفعة الدائمة لشعبه ، وهو مايتوقع من زعيم فى مجتمع قبلى .

لقد بدأ من موقف ضعف وتشكك ، حيث كان جميع خبراء الجيولوجيا العالميين يرتابون فى مقدرة شبه الجزيرة العربية على إنتاج النفط بكميات تجارية . . وكان دكتور جورج ليس ، كبير الجيولوجيين فى شركة النفط الإنجليزية الإيرانية يقول « سأشرب أى نفط يعثر عليه فى البحرين » . . ورغم ذلك ، فإنه بالصبر والحرص فى إيقاع المتنافسين ضد الآخر ، تمكن من رفع السعر للامتياز من المبلغ الذى كانت وزارة المستعمرات قد اقترحته أصلا وهو خمسة وسبعون جنيهاً إلى خمسة آلاف وستمائة وخمسة وعشرين جنيهاً عند توقيع العقد (بالإضافة إلى مالا يقل عن سبعة آلاف ومائة وخمسة وعشرين جنيهاً سنوياً) إلى أن يتم الإنتاج ، ومالا يقل عن ثمانية عشر ألفاً وسبعمائة وخمسين جنيهاً سنوياً بعد ذلك ، وذلك إلى جانب العديد من المزايا الأخرى بما فى ذلك هدية شخصية من شركة النفط مقدارها ألف وثمانمائة وخمسة وسبعون جنيهاً كتكاليف لزيارة لندن .

وتبدو هذه المبالغ اليوم ضئيلة ، ولكن فى الفترة التى نحن بصدد الحديث عنها — عندما كانت كل ميزانية أسرة الشيخ ألفاً وثمانمائة جنيه سنوياً — كانت

هذه المبالغ تمثل إنجازاً كبيراً ، وقد تضخمت كثيراً عندما اتضح المدى الكامل لقدرة النفط الكويتى وبدأ الحصول على الأتاوات .

ولكن إذا كان الشيخ هو البطل ، فمن يكون الوغد اللئيم ؟ إذا كان هناك من هو كذلك ، فيبدو أن الاختيار يقع بالتساوى بين وزارة المستعمرات التى كانت قدرت أجراً أصلياً للترخيص قدره خمسة وسبعون جنيهاً مما كان مثيراً للدهشة ، وشركة النفط الإنجليزية الإيرانية التى ظلت « تنفخ وتلهث » بصورة عجيبة ثم دفعت بامتيازات هولمز خلسة إلى يد الأمريكيين .

إن شركة النفط ، التى كانت فى عام ١٩٢٦ قد ضربت بعرض الحائط عرض امتيازاته الأربعة بشبه الجزيرة العربية ، وجدت فى عام ١٩٣٥ من الملائم لها أن تقترح اتفاق مناصفة مع الشركة الأمريكية لنفط الخليج ، وانتهى هذا التغير فى الجبهة الذى جاء متأخراً عن أوانه بتكوين شركة نفط الكويت .

كانت حماية الحكومة البريطانية للمشايخ تبدو أحياناً ماكرة مخادعة . ولكن لم يكن المشايخ همجيين إلى حد مقايضة حقوقهم الموروثة بزجاجة شراب، كحولى قوى بل كانوا تجاراً ذوى دهاء وخبرة يدركون قيمة النفط ، كما أنهم كانوا يرقبون فى اهتمام مايجرى من أحداث فى البلاد المجاورة ، فى العراق وإيران .

لقد كان على الساسة أن يعملوا الكثير فى هذا الشأن . . وعندما فشل هولمز فى أن يتصيد امتيازات له فى لندن ، وحصل على صفقة تتفق مع المصالح الأمريكية النفطية ، عندئذ بدأ يظهر اهتمام الحكومة ، وبذلت المحاولات على مختلف المستويات للحيلولة دون اشتراك الأمريكيين فيما كان يعتبر بمثابة دائرة اهتمامهم غير أن الخارجية الأمريكية استندت إلى مبدأ تجارة « الباب المفتوح » وحصلت لرجالها المشتغلين بالبترول على حق دخول الشرق الأوسط والمشاركة فى امتيازات البترول العربى .

وإذا كان هذا قد تم بفضل مبادرة من جانب هولمز ، فإن ذلك لايخفى حقيقة أن العرب كانوا تواقين للتوصل إليه . لقد كانوا يخشون السيطرة الاحتكارية من جانب شركة النفط التى تبلغ نسبة الاستثمار الحكومى فيها ٥١٪ ،

ورغم ما كان هناك من حجج حول فعاليتها التجارية ومقدرتها المالية ، فإن العرب كانوا يفضلون بالغريزة هولمز .

وأعتقد أن هذا ماينم عن طبيعتهم . . لقد كان التجار يشمئزون من مجرد فكرة الاحتكار . . إنهم يعلمون أن الأسواق تفيد من المشاركين ، . . وأن الحياة التجارية تعتمد على اشتراك الكثيرين فى العمل والاتجار . . إن كلمة « الرياح الموسمية » التى كان يتوقف عليها الكثير من تجارة المحيط الهندى ، لم تكن تعنى بالنسبة لهم فكرة « الريح العاصفة » ، بل كانت تعنى أصلا « السوق » أو « العيد » ، ولكنهم كانوا يعنون بها فى الهند كلمة « الموسم » — ومنها اشتق الأوروبيون تسمية هذه الرياح — فقد كانت ظاهرة موسمية تحدث فى فترات محددة ثابتة . . ومنذ قديم الزمن كانت شعوب المحيط الهندى تستخدمها فى نقلهم إلى بعض الأسواق الثابتة مثل سيلان وعدن حيث يمكن أن يلتقى التجار من الشرق والغرب ويتبادلون شراء السلع . . وكان المنتفعون يتقاسمون التجارة ، وهذا ما كانت تفرضه المسافات الجغرافية . . وكانت السلع تنتقل إلى مقصدها الأخير مارة بالعديد من النقاط المرحلية . . وفى كل تبادل تجارى ، يدور المال أو البضائع دورتها من جديد فى الاقتصاد المحلى عن طريق البيع . . وبهذه الطريقة انتشرت التجارة كالفيضان الجارف على طول الخطوط التجارية . . لتروى وتزود كل أنواع الطوائف المنعزلة بما تحتاجه وتعطى كل فرد نصيبه من المساعدات والخدمات والفوائد .

ومن الأمور المغروسة فى طابع الشرقيين أنه من المفروض أن تتدخل مجموعة من الوسطاء والسماسرة بين المنتج والمستهلك وأن كلا يأخذ نصيبه المتواضع فى الصفقات .

لقد فشلت محاولة « السياسيين » تشويه سمعة هولمز وشركته والتنديد بهم كمجرد « متصيدين للامتيازات » مع عجزهم عن مباشرة الامتيازات بأنفسهم . . وكذلك فشلت المحاولات فى جعل الشيخ يتحامل على الاستثمار الدولى على غرار شركة النفط العراقية فى العراق . . إنه لم يكن ليكترث لجنسية من يتولون إدارة المشروع طالما كان المال شرعياً وسليماً .

فإذا كان الشيخ هو البطل ، فالبريطانيون هم الأوغاد ، فما هو الدور الذى يمكن إسناده إلى الميجور فرانك هولمز ؟

لعل الإنسان قد يتصوره مثل « دولكامارا » فى مسرحية دونيزيتى الغنائية ، والذى استطاع بما لديه من « أكسير » أو « جرعة الحب » فيما أن يمكن البطل من تحقيق انتصاره النهائى . . ومن المؤكد ، فيما يتعلق بالعرب ، أن هولمز هو النجم . . إنه « أبو النفط » ، كما كانوا يصفونه . . ومع مرور السنين ما زالت شخصيته تزداد قوة . . وكان إذا سئل عن رأيه كخبير يضع أصبعه على أنفه ، ويقول « هذا من اختصاص الجيولوجى» محاولا فى رقة أن ينتحل لنفسه صفة « جامع الفراش » مثل ما كان يفعل ديكسونس المريب فى عام ١٩٢٢ عندما جاء إلى شبه الجزيرة العربية لجمع نوع من الفراش الأسود .

وكان يحمل عصا ، ينخس بها سائقه إذا أسرع فى قيادته أو أبطأ . . وكان يقول إنه يضاعف من أجر خدمه حتى يمكنه استخدام عصاه على هذا النحو . . ومن المؤكد أنهم كانوا جميعاً شديدى الولاء له . . كان لايعرف التكلف ، مرحاً وغير معقد ، وذلك إلى جانب كبير من حب الاستطلاع الثقافى . ويبدو أنه كان قد سمع من أحد التجار العرب فى أثيوبيا فى عام ١٩١٨ عن ظهور رشح بترولى على الشاطىء العربى بالخليج ، ووجه نشاطه فى حفر الآبار الارتوازية بالبحرين والكويت من أجل اختبار حدسه بإمكان وجود النفط هناك رغم تكهنات النظريين فى هذا الشأن .

كان مسرفاً فى وعوده ، وتنبئاته ، وهداياه ، وكان نشيطاً لايكل رغم بدانته ورغم أولى الدلائل على مرضه بالسرطان الذى أودى بحياته فى عام ١٩٤٧ . كان مضيافاً ، ومفاوضاً ماهراً ، مرناً ، ذا جلد وقوة احتمال .

وإذا كان البعض يظن أنه كان يعمل بتحريض ضد هيبة الحكومة البريطانية وسلطتها ، فإننى أشك فى ذلك . . لقد كان من الذكاء بحيث لم يكن ليصطدم بأى موقف . . وليست غلطته أن البريطانيين أبدوا الشح وقصر النظر فى تعاملهم مع العرب . . ولكن يمكن أن يقال بحق أنه لو لم يكن قد ظهر ، يوم أن ظهر ، لكانت شركة النفط الإنجليزية الإيرانية قد نالت فرصتها وبشروطها . .

وفى خلال مفاوضات الكويت ، التى ضربت رقماً قياسياً فى سرعتها ، أخذ كثيرون من الممثلين الثانويين يؤدون أدوارهم ، ومن بينهم إنجليزى يدعى وليام ريتشارد وليامسون وهو من مواليد بريستول فى عام ١٨٧٢ ، وينحدر من أسرة محترمة لها صلاتها بالصناعات البحرية .

وعندما كان فى الثالثة عشرة والنصف من عمره أبحر على ظهر سفينة رباعية الصوارى كصبى تحت التدريب ، وذلك فى رحلة إلى استراليا ، ولكنه قفز من السفينة فى « سان دييجو » ، ولم يرجع بعدها إلى وطنه . . كان يكره أباه ويحقد عليه لاستبداده وغطرسته ، ورغم أنه ظل على علاقة واهية بأسرته وأنه كان يكتب إلى أهله بين الفينة والفينة ، إلا أنه عاش مستقلا عن أبويه منذ فجر صباه .

عمل راعياً للبقر ، وكعامل متجول بالحقول ، وفى مناجم الذهب فى كاليفورنيا الجنوبية منذ عام ١٨٨٠ ، ثم اضطر للعمل على إحدى سفن القطب الشمالى ، وعندما بلغ الثامنة عشرة من عمره أبحر إلى المحيط الهندى كربان لمركب شراعى . وتعرض للمتاعب مع السلطات الأسبانية فى الفيلبيين ، وأفلت من السجن فى مانيلا ثم سافر إلى هونج كونج . . وهناك عينته شركة « بى . أو » للملاحة للعمل على الباخرة « سيام » التى أبحرت من بومباى إلى عدن .

وفى مكتبة الباخرة « سيام » عثر ويليامسون على كتاب من تأليف أحد المحامين فى ليفربول اسمه « كويليام » الذى اعتنق الإسلام . . قرأ ويليامسون هذا الكتاب الصغير الذى يشرح الدين الإسلامى لغير المسلمين ، واعتنق لفوره الديانة المحمدية . . وعندما وصل إلى عدن عين عضواً فى شرطة الميناء التى كانت فرعاً من الشرطة الهندية . . ووجد فى ذلك فرصته لزيادة معرفته باللغة العربية ، وليزداد قرباً من العقيدة التى اختارها .

كان وقتئذ فى العشرين من عمره . . وما كانت السلطات البريطانية لتتقبل بارتياح حماسه الدينى وتحمسه لمعتقده الجديد ، وأصبح موضع الارتياب لازدياد صداقته مع السلطان فضل بن على ، حاكم لحج التى تقع بلاده على

مسافة عشرين ميلا عن المستعمرة البريطانية ، داخل المحمية . . وقامت السلطات دون ضجة بترحيله إلى بومباى .

وبوصوله إلى الهند كان من الصعب عليه العودة إلى شبه الجزيرة العربية نظراً للرقابة الفعالة فى الموانىء . . ولكن ويليامسون ارتدى زياً عربياً ، وسافر كأحد ركاب . « ظهر المركب » مع مجموعة من تجار الخيول العرب الذين كانوا فى طريق العودة من رحلة إلى الهند ، مستقلين إحدى سفن الخليج التى تحمل البريد . . واكتشفت الشرطة أمره فى بوشير فألغت ترخيص نزوله ، ولكنه أفلح فى أن يقفز من السفينة إلى البحر عند الكويت بمساعدة تاجر صديق من المدينة ، هو الشيخ يوسف إبراهيم من أقارب أسرة الصباح .

وفى ليلة من الليالى الدافئة بخليج الكويت ، هبط إلى الشاطىء حيث « توارى» فى الحياة العربية بالمدينة . . كان قوياً ، قصيراً ممتلىء الجسم ، أسود الشعر واللحية ، ويكاد يكون أسمر البشرة . . مارس شعائر دينه مسلماً سنياً ، وأصبح لكافة الأغراض والنوايا عربياً .

وكان حاميه ، وهو الشيخ يوسف ، يمتلك حدائق نخيل كبيرة ، على الشاطىء الأيمن من شط العرب ، قد بعث به على ظهر مركب شراعى إلى « فاو » ، ومنها بباخرة صغيرة إلى البصرة ، مع رسالة لتقديمه لأسرة بسام من التجار الأثرياء ، فأنزلوه بدار الضيافة . . غير أن الأمر لم يكن سهلا فى هذه الفترة نظراً لأنه بريطانى مرتد . . فالأوروبى « المنحرف » — أو « المتسكع » ينظر إليه على أنه عنصر يؤثر فى رفعة الأنجلوساكسون . . وما أن علم القنصل بوجوده حتى عمل على ترحيله ، كما أن الأتراك حاولوا اعتقاله . . فرحل عن البصرة ، واتجه عائداً إلى الكويت ، وإلى أول صديق له وهو الشيخ يوسف .

ومنذ ذلك الوقت هجر المدن ، وعاش عيشة عرب الصحراء ، يقيم مخيمه كل شتاء وربيع مع الشيخ ، وتعلم الإتجار فى الخيل والجمال . وأدى فريضة الحج مرتين ، فى عامى ١٨٩٥ و ١٨٩٨ ، وعاش زهاء أربعة عشر عاماً مع قبائل البدو ، وأصبح اسمه الحاج عبد الله فضل زبيرى وكرس نفسه لحياته الجديدة كان يشترى الخيل من قبائل عنيزة وشمر ، ويشحنها إلى

بومباى من زبير بالقرب من البصرة وهى النقطة الأخيرة فى طريق القوافل السورى ، حيث كانت له هناك قاعدة . . وكان عند الضرورة يشترك فى غارات القبائل ، وكان له عبد ، وكثرت أسفاره فى أواسط شبه الجزيرة العربية كتاجر خيل وجمال ، ولكن لم تكن له صلة بمن كانوا مواطنيه بالأمس .

ويبدو أنه كان رجلا قليل الاهتمام بالاطلاع للثقافة ، ولم يترك أى أثر يسجل حياته غير العادية اللهم إلا ذلك الحديث الذى حصل عليه منه صحفى زائر نشره بعد ذلك فى عام ١٩٥٢ مع تاريخ حياته .

لقد كيف حياته تماماً مع بيئته الجديدة ، وأصبح مسلماً ورعاً وتقياً ، وهذا ما اعترفت به جموع العرب ، تزوج عدة مرات ، وكان يطلق ويتزوج ثانية حسب العرف القديم ، وأنجب عدة أطفال : وقد عمل أحد أولاده كملاحظ لضخ البترول فى الكويت . . وبطريقته المتواضعة حقق لنفسه النجاح ، وعاد فى عام ١٩٠٩ إلى الكويت حيث استقر كتاجر لؤلؤ وصاحب سفن شراعية ، وهكذا انخرط فى سلك أعيان المجتمع حيث كان يتمتع بالاحترام تقديراً لخبراته وسمعته الشخصية بين القبائل من حيث شجاعته ونزاهته .

وعندما أعلنت الحرب مع الأتراك فى نوفبر من عام ١٩١٤ قام بتسوية خلافاته مع البريطانيين الذين عينوه فى مجال الأمن وما شابه ذلك من الواجبات حتى عام ١٩١٩ ، وبعودة هذا الولاء استعاد هويته الإنجليزية ، وأصبح اسمه الحاج عبد الله فضل ويليامسون ، وظل يحتفظ بهذا الإسم حتى مماته .

وفى عام ١٩١٩ أصبح مساعداً لمدير الجمارك فى البصرة ، ثم انتقل إلى شركة النفط الإنجليزية الإيرانية حيث ظل يعمل بها إلى أن اعتزل العمل فى عام ١٩٣٧ وهو فى الخامسة والستين .

كانت الشركة تقدر فيه تمكنه من اللغة العربية ومعرفته الوثيقة بالحياة فى الكويت ومشيخات الساحل العربى ، فعينته مفاوضاً فى الاتصالات المتعلقة بمشروعاتها فى المنطقة ، ومنذ عام ١٩٢٣ ، ونظراً لصلات الصداقة التى تربطه منذ قديم بعائلتى الصباح والغانم ، وقع عليه الاختيار لمساندة أسرة الغانم فى دفاعها وتأييدها لعرض شركة النفط الإنجليزية الإيرانية بشأن امتياز النفط .

وقد أدى ذلك إلى وقوفه فى وجه كل من هولمز ويتيم .. وكانت المنافسة بينه وبين يتيم مريرة قاسية ، فقد كان الحاج ويليامسون يبغضه ويرى فى مجونه إهانة للدين الذى اعتنقه هو نفسه بكل مشاعره القلبية .. وكان ويليامسون ذا خبرة فى تجارة الخيل والإتجار عامة ، وكان رؤساؤه يرون فيه الند القدير ليتيم فى المنافسة بين شركة هولمز وشركة النفط نظراً لما يتمتع به من تعاطف من جانب العائلات الكبرى فى الكويت ..

كانت المناقشات طويلة وجادة ، كل يحاول أن يسبر غور الآخر ، ويعرض مزايا عرضه ، كل هذا بين يدى هذين الرجلين .. وكل ذلك فى مجتمع لا توجد به من أجهزة الراديو سوى القليل ، ولاتوجد أية دور للسينما لتخفيف الملل ، وتكاد تكون فيه المساجد والحريم هى التسلية الوحيدة التى يمكن أن يتمتع بها الإنسان .

لقد وقف ويليامسون فى مواجهة هولمز فى مناطق أخرى بالخليج وبخاصة فى « الإمارات المتحدة » وفيها أدى نشاط شركة هولمز فى البحرين إلى تعويق زيادة نشاط النفط على طول الساحل . وقد أخفق هولمز بشكل ملحوظ فى الحصول على امتيازات إضافية جنوبى الخليج ، فقد نصح المندوب السامى حاكم قطر بألا يندفع فى مراعاته لمصالح نفط كاليفورنيا ، بل عليه أن يتفاوض مع البريطانيين ، كما أن حقوق التنقيب فى « أبو ظبى » كانت من نصيب ويليامسون على حساب هولمز .

وواضح أن الحكام كانوا خائفين من أن يتعرضوا لغضب البريطانيين ، فقد أصبح للمنتصرين فى الحرب وجود قوى ، ولم تكن هناك قوة بديلة فى الخليج لإمكان الإيقاع بينهم .. وكان من شأن انحياز الهند للإدارة البريطانية أن وضع أمام أعين الحكام تاريخ توسع سلطة بريطانيا فى هذه القارة ، كما أن مصير الأمراء الثائرين والولايات المتمردة كان معروفاً تماماً .. كان موقف الكويت مهتزاً بوجه خاص حيث يقوم نزاع الحدود على كلا جانبيها ، كما أن نشاط « الإخوان » قد يعجل بالتدخل البريطانى فى أى وقت .

ويبدو أن ابن سعود وحده كان فى مأمن مما ينطوى عليه وجودهم من خطر أو أذى .. لقد كان يشعر بأن أى قائد لن يجازف بوضع قواته بالمتاهات

الجرداء على حدوده ، أو أن يتحدى على أرضه تحمس الشعب للوهابيين ..
لقد ظل يطالبه بأسعار مرتفعة لامتيازاته ، وكان يحصل على ذلك فعلا ، فقد طلب من الأمريكان فى عام ١٩٣٣ مبلغ خمسين ألف جنيه نقداً ، وإيجاراً سنوياً مقداره خمسة آلاف جنيه ، تدفع ذهباً ، وذلك عن امتياز الحسا الذى كان هولمز قد حظى به قبل عشر سنوات ولكنه فقده عندما عجزت شركته عن العثور على مشترٍ لإنتاجها بين شركات النفط البريطانية .

لقد كان موضوعه مثالا ينطوى على تشجيع خفى للآخرين ممن هم أقل قدرة منه على الوصول إلى الاستقلال السياسى .. وهنا نجد الشيخ أحمد يثبت على ميوله نحو هولمز منذ البداية رغم ما تعرض له من ضغوط من جانب المندوبين الساميين المتتابعين وما كان يكتنف المفاوضات من قلق ومتاعب .

وجدير بنا أن نسجل له عنايته بأمر صديقه : ففى الاتفاق الذى وقعه فى النهاية مع شركة نفط الكويت حصل على حق تعيين ممثل فى لندن والكويت ، على أن تدفع له شركة النفط مرتباً سخياً .. وعرض على هولمز منصب الممثل فى لندن — ووافق من جانبه — وقد ظل يشغله حتى توفى فى عام ١٩٤٧ .

وعرض منصب الممثل فى الكويت على محمد يتيم ، ولكنه رفضه ، وتولاه بدلا منه عبد الله بن مولاى صالح . . لقد شعر محمد يتيم بشىء من خيبة الأمل فى النتيجة النهائية للمفاوضات ، إذ اعتقد أنه لم يتم الوفاء بالوعود التى كان هولمز قطعها له قبل أن يتحد الأمريكيون والبريطانيون لتكوين شركة واحدة. وباعت الشركة الشرقية والعامة كل حقوقها بأية إتاوات ناتجة عن حقل الكويت فى نوفبر ١٩٣٣ قبل تكوين شركة نفط الكويت ، وذلك مقابل ٣٦,٩٩٩ جنيها ، وبإلغاء حصتها ضاعت على يتيم مساهمته . . وفى عام ١٩٣٥ فكر فى إقامة الدعوى ضد هولمز لعدم وفائه بوعوده له أثناء المفاوضات ، ولكن فى النهاية لم يحدث أى شىء من ذلك .

كذلك لم يحدث أى شئ أيضاً من تهديدات أولئك الذين جاءوا متأخرين للمفاوضات ، وخابت آمالهم ، وهم مؤسسوا شركة تريدرز من شارع

ليدنهول بلندن ، الذين أرادوا مقاضاة الشيخ بسبب فسخ العقد .. وكانت مجموعة الشركات من تجار المدينة وأصحاب ناقلات البترول ومعامل تكرير النفط تضم أيضاً لورد جلينكونير وكثيرين من أعضاء أسرة يتنافت .. ولم تدرج أسماؤها رسمياً فى القوائم إلا فى نوفبر عام ١٩٣٤ حيث كانت قد تفاوضت قبل ذلك سراً مع الشيخ عن طريق وكالة اجوب جابرييل ، وهو محام أرمنى بالبصرة ، يتعهد حدائق النخيل الخاصة بالشيخ وغيرها من المصالح التجارية .. إن تحدى هذا « الجواد » الذى كتب له الفوز على نحو غير متوقع ، وفى اللحظة التى كان الآخرون يعتقدون أنهم كسبوا السباق ، عجل بإنهاء المفاوضات ، واستطاع الشيخ أن يحصل على جميع الشروط التى كان يتناور فى إصرار من أجل الحصول عليها .. وتم التوقيع على الاتفاق مع شركة نفط الكويت فى الثالث والعشرين من ديسمبر عام ١٩٣٤ ، ووجه الحاكم تعنيفاً لاذعاً لجابرييل الذى قيل له أن العناية بحدائق نخيل الشيخ هى واجبه وشاغله الأول وأن عليه أن ينصرف للاهتمام بها ..

وظل هولمز على اتصالاته الوثيقة وصداقته مع الكويت وحاكمها طوال بقية حياته ، وكان يزورهم بين وقت وآخر ، ويداوم مراسلتهم . . واشترى ضيعة بالقرب من شيلمسفورد فى أسيكس ، وكان يقوم مع زوجته التى ظلت على قيد الحياة بعد وفاته ، بزراعة حدائقه وتربية الماشية ، وكان يجد فى ذلك ما يبعث على رضائه ومتعته .. وفى جنازته ، كان هناك إكليل ضخم من شيخ الكويت فى مقدمة ماكان يحف بالجنازة من تعبير عن التقدير والاحترام .

أما شيسهولم ، ذلك المفاوض الشاب المرح الذى كانت شركة النفط الإنجليزية الإيرانية قد بعثت به فى عام ١٩٣٢ ليتنافس إلى جانب الحاج ويليامسون ضد هولمز ويتيم ، فقد بقى لإتمام المفاوضات بالاشتراك مع هولمز .. وبعد ثمانية عشر شهراً استقال من شركة النفط الإنجليزية الإيرانية وعاد إلى لندن ليلحق بصحيفة « فينانشيال تايمز » .. التى أصبح رئيس تحريرها فى عام ١٩٣٧ .

وأما الحاج ويليامسون فإنه لم يستمر إلى نهاية الشوط .. كانت كراهيته ليتيم ، وكذلك هولمز ولو بصورة أقل كراهية كبيرة إلى الحد الذى لم يستطع معه أن يكيف نفسه مع العلاقة الجديدة مع من كانوا منافسيه بالأمس ، وهى العلاقة التى أحدثها تكوين شركة نفط الكويت .. فانتقل إلى جنوب الخليج ليتفاوض باسم شركة النفط الإنجليزية الإيرانية فى بعض الدول الأخرى .

وهو الآخر ، شعر بسرور وهو يحزم متاعه ليعود لوطنه ، بعد أن قضى حياته فى عزلة هادئة فى « قوات الحجاج » بالقرب من البصرة ، مع زوجته البدوية ، حيث أخذ يتعهد حدائقه المزروعة بالنخيل والموالح ، تحيط به أسرته وتابعوه .. وفى النهاية انسحب تماماً من المجتمع الأوروبى .

ويستطيع من يكتب تاريخ حياته أن يكتشف أنه ما كان يرغب فى أن يكون سوى ما كان عليه : الرجل الهادىء ، المسن ، له ضيعة صغيرة لطيفة ، ولديه ما يكفيه ليعيش به ، والسلم التى اقتنع بنصيبه من الحياة . كان يرتدى زى العرب ، وعاش كما يعيش العرب .. ولم يكن يختلف عن جيرانه وأصدقائه إلا فى شىء واحد ، هو أنه كان يقرأ ، ليستمتع بالقراءة ، وهذه على أية حال عادة شائعة حتى بين العرب المتعلمين .. وكان لدى الحاج رف ملىء بالكتب ، ومعظمها عن الأقاليم الغربية فى أمريكا خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، ولعله كان يطلق فيها العنان لذكرى أول عهد لكاليفورنيا بالحرية فى عام ١٨٨٠ ، وحياة توم سوير المليئة بالبراءة والمغامرة والتى جذبته بلا وعى أو شعور إلى عالم أشد قسوة فيه الصراع وفيه البقاء بعد زوال الغير ، وهو ما كون رجولته .

« ما الذى حل ببوارتيج ، بعد أن أقلت منا ؟ » ..

أريد أن أفكر فى هذا الصبى ، الذى أدار ظهره أولا لأسرة لا تلائمه ، ثم أدارها ثانية لهوية إجتماعية لا تلائمه .. لم يكن بيته بعيداً عن الخليج ، المزدحم بالزوارق البحرية ، حيث تكثر المقاهى العربية التى يرتادها الرجال من المدينة ، ومن الصحراء ، وهناك يجلسون للتدخين واحتساء القهوة .. وفى ذلك الوقت كانت بساتين النخيل متكاثرة بالقرب من الميناء ، وتحت الأشجار

الشاهقة بالخلجان الصغيرة ، وتمد ظلها فوق الأسواق وفوق الأرصفة .. أما غابة النخيل التى تبدو وكأنه لا نهاية لها فتتخللها فى كل مكان البرك والقنوات تشع فى نضارة تحت أشعة الشمس وتعكس زرقة السماء .

إن هناك فتنة وراحة حول هذه الأماكن المنعزلة الهادئة فى الحياة العربية لا يجوز لنا أن نقلل من شأنها .. فهديل الحمام يتردد فوق الساحات بينما يتجمع حول أبراجها المصنوعة من الطين .. كما أن أصوات الضربات المكتومة لذلك المحرك الصغير وهو يضخ المياه ليملأ به صهريج الرى ، لها فى إطرادها المتناسق أثرها المهدىء ، إنها تشبه نبض القلب .. وهناك شىء حول حدائق النخيل ، يفرض الهدوء والسكون .. إذ لا يتردد عليها سوى القليل من الناس باستثناء موسم الحصاد عندما يقطعون عناقيد الثمار الذهبية اللون .. وتمتد الممرات بين الأشجار حيث لا يسمع فيها سوى غزل البلابل وعصافير الوروار ، وأحياناً الببغاوات المتنبية ذات اللون الأخضر الناصع التى فرت من أسرها وجاءت لتستوطن المنطقة ، ويرتفع صفيرها فوق الرؤوس وكأنه أزيز سهام انفلتت من أقواسها .

* * *

الفصل الثانى عشر

الخليج الأدنى – التحضر – شخصية الساحل – المدن الخليجية – حواف الطرق – جبال الحجر – ساحل الباطنة – خور فكان – نظم الطرق الحديثة – عربات النقل المزدانة .

* * *

عندما زرت الخليج لأول مرة فى عام ١٩٦٧ فكرت فى مدى الشبه بينه وبين الهند ، فالمبنى العام من نوع ما كانت تقيمه مصلحة الأشغال العامة فى الهند فى العشرينات ، وحتى قصر الضيافة القديم التابع لحاكم البحرين فهو الآخر كما يقال قد وضع تصميمه على نمط محطات السكك الحديدية فى الهند .

لقد تلاشى هذا المنظر الآن وأصبح شيئاً عتيقاً .. وأن ما يدعو للأسف أكثر من غيره هو تلك الأشجار التى كانت تحيط بالمبانى .. لقد أزيلت وحل محلها ما يشبه المواقف الفسيحة فى أوروبا ، وكانت عنصراً محيياً وسط المناظر القاتمة اللون لأسوار الطين المتداعية وتلك الحشود التائهة بالسوق .

والمدن الحديثة فى الخليج الأدنى من مدن كبرى ، والعاصمة وحدها تفرض نفسها شامخة أمام أعين الزائرين .. والوصول إلى هذه الأماكن عن طريق الجو يعتبر تجربة صعبة ، فالمطارات أحياناً صغيرة ، وبالقرب منها محطة لسيارات النقل الريفية .. وهناك مطارات أخرى كبيرة وحديثة ، ولكن على المسافر أن يقطع بضعة أميال للوصول إليها – وعليه أن ينتظر وقتاً طويلا لاستلام أمتعته فيها .

إن الغريب هنا هو مظهر التباين : فالمسافر جواً فوق شبه الجزيرة يرى كتلة الأرض تمتد بين البحار المتألقة وكأنها صفحات من أطلس جغرافى ،

وتشق الوديان الهضبة الصخرية فتبدو وكأن شجرة عملاقة انبسطت تحت أعيننا ، ومدت أغصانها وفروعها وجذورها بيضاء وسط الأرض السمراء .. وأحياناً نشاهد بقعاً من الخضرة الظليلة وأحواض الرى .. ولكنها فى أغلبها تمثل فراغاً فسيحاً يبدو عارياً أمام الهواء الصافى ، وفيه تبدو الطرق وكأنها خطوط مرسومة بالقلم .. أما المدن على قلتها فتلوح وكأنها نماذج مجسمة من الورق المقوى التى يستعملها المعماريون لتمثيل أفكارهم .

وإذا ما تحول البصر عن مشهد هذا الفراغ الخالم ، أثار اشمئزازه ما يبدو وكأنه الطرف القبيح من شارع أوكسفورد أو القلب التجارى بمدينة أمريكية لا طابع لها ، فالمبانى رديئة ، والمكان يزدحم بالسيارات السريعة زاهية الألوان تنفث دخانها وقودها فتعكر به الهواء العاطر .

والكآبة الشاملة تميز هذه المراكز السكنية ، وذلك يرجع من جانب إلى ذلك الوهج الذى ينزع اللون من كل شىء ، ومن جانب آخر ، إلى الرمال والأتربة .. والصحراء ترحف عنوة بشكل ملحوظ ، وهذا ما نلمسه فى كل مكان غير ممهد بالأسفلت ، حيث تهب الرمال على الطرق الحديثة ، ويتخلف عنها الكثير من البقع الجوفاء .

وفى الانتقال بالسيارة من دبى إلى أبو ظبى عبر الطبقات الملحية ، يبدو المنظر فوق الواقعى (سورياليا) فالهواء نير مضىء ، والمبانى ترتفع فوق البحيرات الضحلة كالسراب المتألق تحت الضوء البراق .. إنها مشاهد لا أثر للتآلف بينها ، إنها مجرد أشكال مرسومة ، ولكن لا شكل لها ، وتحتاج إلى مجموعة من « التوافقيات » فى المسافة والزاوية لتجعلها متماسكة فيما بينها ، وبدون ذلك تكون مجرد تكديس وتراكمات لخطوط لا معنى لها .

إن الذى تراه العين هنا زائف ومتكلف ، يعكس الإحساس بالوهم والتكلف وعدم الواقعية .. إنه لغز أو لعبة أو تمثيلية كبيرة كلنا مشتركون فيها .. وهناك عنصر خداع فى الحجم الحقيقى للدول الفردية ، وباستثناء « أبوظبى » التى لها منطقة خلفية صحراوية شاسعة ، فإن المجال يبدو وكأنه أبرشية أكثر من كونه دولة ذات سيادة .. إنها سلسلة من المبانى المتراصة

على طول الشوارع والطرق المبنية من الأسمنت المسلح والزجاج والألمونيوم ، حيث توجد مقاطعات بمبانيها من الطين فى انتظار وصول جرارات البولدوزر لإزالتها .. وينتقل الإنسان من دبى إلى الشارقة وإلى عجمان دون أن يدرك أى تغير ، فكل هذه المناطق جزء من تحضر عمرانى واحد ، تشارك الساحل فى قطاع ضيق من التنمية والتطور يمتد بضعة أميال إلى الداخل .

والاتجاه فى هذه التنمية والتطور يتجه كله شطر البحر ، وبدا بناء الموانىء بطول السواحل والأحواض الكبيرة على غرار سوثامبتون وليفربول ، ومرافىء لرسو ثلاثمائة سفينة ، وقد وضع تخطيط ذلك على أساس تشغيلها فى عام ١٩٨٠ . وعبر شبه الجزيرة أمام خليج عمان يجرى تطوير مزيد من الموانىء ، مع نظام من الطرق السريعة لربطها بالداخل . كذلك يجرى بناء مزيد من المطارات لمواجهة الحركة المتزايدة من نقل البضائع جواً ، كما يجرى أيضاً بناء مزيد من الفنادق لاستقبال رجال الأعمال الذين يحضرون فى نشاط وهمة كعصافير الصيف فى أواخر شهر أكتوبر من كل عام .

ومتى ابتعدنا عن المدن الحديثة ، يلمس الإنسان مدى المظهر الخداع الذى جلبته ثروة البترول . . وتبدو ضواحى المدينة سيئة المظهر مجردة من الجمال وهذا أيضاً شأن مدن الخليج .

وبعيداً عن شواخص الإعلانات ، ومحطات البنزين ، وباعة المشروبات الغازية ، يفرض فضاء الصحراء نفسه من جديد .. وإذا اقتربنا من المدن فى الداخل زاد إدراكنا لها .. فهناك تقدم طبيعى ، وأقلمة مرئية وتكيف واضح وكل ذلك يجرى على مساحة واسعة لأميال كثيرة الأمر الذى يخلق جواً متوقعاً بصورة أكثر من الصورة الضحلة التى يخلقها الوصول إلى المطار .

ومتى تركنا من ورائنا الطبقات الملحية بالسهل الساحلى ، تبدو المنطقة الخلفية فاتنة على غير ما هو متوقع .. فشريط الرمال فى « ظفره » يمتد فى حزام ضيق بين شاطىء البحر والامتداد الشرقى لجبال « الحجر » .. وللرمل لونه الجميل ، وفيه يبدو العشب الأخضر براقاً لامعاً .. وترتفع الأرض تدريجياً وتنتهى إلى هضاب صغيرة مستديرة ومنحدرات تكسوها الشجيرات الخفيضة ،

وأشجار صغيرة كشجر الزيتون تنمو فوق الروابى ، أو تتكاثف فى مجموعات متلاصقة فى أروع منظر جذاب . وترتفع الكثبان فوق الطريق ، وهى شديدة الانحدار فى أحد جوانبها ، أما الجانب الآخر فيبدو مليئاً بالنتوءات والتموجات من تأثير الرياح .. وتنتشر الحشائش عند سفح هذه الكثبان ، كما تتسلقها بعض الشجيرات .. أما قمتها فهى جرداء ..

إن هذا الموقع ذا المنظر الطبيعى البهيج هو المرعى لقبائل مناصر وبنى إياس ، البدوية ، وفيها تروح وتجىء قطعان إبلهم وحميرهم وماعزهم فى حرية تامة .. وأحياناً نرى رجلا قصيرا ، قوياً ، أسمر اللون ، يرتدى مئزراً ذا مربعات يحمل عصا من الخيزران وينطلق فى هذا الفضاء بخطى سريعة تثير العجب .. أو نرى فتاة بالقرب من الأكواخ المتداعية من سعف النخيل ، ترعى ماشيتها فى وحدة وهى ترتدى زيها القبلى البراق .

وتمر وسط هذا المنظر الطبيعى الساحر الطرق الجديدة المؤدية إلى ساحل الباطنة وخليج عمان ، وكانت هذه الطرق قد مهدت أصلا لنقل الأحجار ومواد البناء من الجبال إلى المشاريع الصناعية بساحل الخليج .. وتندفع اللوريات مثيرة سحباً من التراب ، وهى تحمل كتلا من حجر الجير ، وتخترق هذا المرعى الهادئ .. وترى السائقين ، وعلى أعينهم نظارات الشمس التى تجعلها تبدو كتجاويف الجمجمة ، وقد غطوا رؤوسهم وأفواههم بالشيلان يعصبون بها وجوههم بإحكام لحمايتها من التراب ، وجلسوا جاثمين فوق مقعد القيادة فى عزلة وكأنهم تماثيل للموت ، وكثيرا ما هم كذلك .

ومع القيادة بسرعة على الطرق الأسفلتية الطويلة المستقيمة يكون من السهل على السائق ألا يكترث .. ولذا أصبح حطام السيارات أمراً مألوفاً فى شبه الجزيرة ، حيث تنتشر هياكلها على جانبى الطرق الصحراوية .. ومن النادر بذل المحاولات لإنقاذها . فالسيارة متى انحرفت عن الطريق تركت مكانها ، كما أن الأملاح التى تهبط بعمر السيارة العملى إلى النصف تنشر الصدأ تدريجياً فى هيكلها فتتحول إلى ركام من المعدن الذى فقد لونه .

أما الجمال التى تنطلق كيفما تريد بطول جانبى الطريق فإنها تمثل خطراً

سواء بالنسبة للسيارة أو بالنسبة لها هى نفسها . وفى النهار يلاحظ الحرص والحذر .. ويدرك البدوى قيمة ماشيته ، ويسارع بطلب التعويض . ولايوجد أى متعاقد على استعداد لأن يضحى برخصته بالدخول فى نزاع مع رجل قبيلة يمارس حقوقه السحيقة فى منطقة الرعى ، وبالرغم من أن التشريع حاول إلقاء المسئولية على صاحب الماشية إذا ضلت ، إلا أن ذلك سيكون تحدياً خطيرا بالنسبة للدخيل ، وأغلب الدخلاء يفضلون الدفع .

ومن الممكن تفادى الاصطدام نهاراً باستعمال جهاز التنبيه أو بتهدئة سرعة السيارة ، وذلك طبعاً بالحكمة والبصيرة من جانب السائق .. لا من جانب الحيوان .. أما فى الليل فإن الخطر يزداد ، وقد وقعت وفيات كثيرة بسبب دهم السيارات للجمال والماشية فى الظلام .. فالجمل بطوله يندفع بسرعة نحو السيارة متى صدمته ، متجهاً نحو زجاجه الأمامى فيقتل نفسه والسائق معه .. وعلى جانبى الطريق ، وفى مواقع عديدة بالقرب من مخيمات القبائل ، يرى الإنسان أكواماً من جثث الجمال وقد جفت وأصبحت كأنها سجاجيد داكنة قديمة مطوية فى شبه حزمة .

ووراء الكثبان تظهر السهول التى يكسوها الحصى ، وقفار مترامية صخرية ، حيث تنمو أشجار النخيل وتتكاثف الشجيرات القصيرة .. إن أول مشهد للجبال يبدو غريباً : فهى ترتفع بصورة غامضة فوق الأفق ، فى شكل مثلثى كأنها أسنان سمك القرش ، يكسوها ضباب خفيف .. حتى إذا ما اقتربنا منها وجدناها صخرية جرداء ، ذات لون بنى ضارب للحمرة مع بعض عروق بركانية .. وكلها تتقد تحت الحر الجاف .

وبعد الرقابة التى لا ملامح فيها فى السهل الساحلى ، يستمتع المرء بمشاهدة التلال من جديد .. فالهواء صاف كالبللور .. والاتساع والعزلة توحيان بالجمال الموحش والمتقشف والأجوف .. وعلى كلا الجانبين تمتد سلسلة الجبال بلا نهاية ، وتحمل معها العين إلى مشاهد أحالتها الحرارة المرتفعة إلى اللون الباهت .. ومن خلالها تمتد الوديان عبر الطبقات الحصبائية إلى مشاهد نائية ، بينما تطل القمم المثلثية للجبال ، الواحدة بعد الأخرى ، إلى المدى الذى يصل إليه البصر .

وينمو نوع من الأشجار الشوكية على السهول الحصبائية ومنحدرات التلال حتى سفوح الجبال التى تمتد كأنها شوك التنين .. ونجد أحياناً أشجاراً منعزلة ، رمادية اللون ، وجافة ، وكتلا متشابكة من الشجيرات الجافة ، ولكنها ما تزال على قيد الحياة ، وتكون فى مجموعها مظلات كما لو كانت الطبيعة قد أعدتها خصيصاً لهذا الغرض .

وتعتبر المنحدرات الصلصالية والوديان الفسيحة والصخور المختلفة درساً جيولوجيا مبسطاً .. وكانت أوراق الجيولوجيا الخاصة بأطفالى فى مدرستهم تطوف بذاكرتى وأنا أراقب الصخور وهى تبرز من أديم الأرض وكيف كانت الأجزاء الأشد صلابة تقاوم تقلبات الجو والنحر ، وكيف كان الحصى يزداد حجماً كلما صعدنا نحو الممر حتى يبدو كالصخر الجلمود . . كما كنت أرقب الأحداث الطارئة فى ذلك الموقع الفسيح الممزق .. فخيمات مهندسى الطرق ، وعمليات البناء والجرارات بألوانها الزاهية ، تبدو كلها طارئة على مشهد لا يزال يحتفظ بعظمة البصمات الطوبوغرافية للقرن التاسع عشر . فحتى الألوان فيها كاملة ، واللون البنى السائد متدرج والجبال شاحبة ، واللمسات الصغيرة التى تعبر عن نشاط الإنسان لامعة براقة ، ولكنها جميعاً تتضاءل فى قيمتها أمام جمال المنظر الطبيعى .

ويوجد الماء فى هذه البقاع الصخرية ، فى البرك العذبة التى تتدلى من فوقها الصخور وتحت أفرع « الدفلى » الذى ينمو على حافة الماء .. ويتموج الماء فوق الأجزاء الضحلة ، ويتلألأ بين الصخور ، ثم يغور فى بحيرات كبيرة الحجم حيث تنطلق فيها الأسماك الصغيرة . إن جمال هذه الرقع المائية التى تنعكس فيها زرقة السماء وإن كان جمالا قصيرا وعرضيا ، يظهر للإنسان فى ذلك المكان الموحش الفسيح كما لو كان ابتسامة غير متوقعة وودودة تبهر العين بتأثيرها ..

ويقوم أهالى هذه البقاع النائية فى كد ومثابرة بتطهير قاع الوادى من الأحجار ، ويكومونها فى مصاطب منتظمة يقيمونها بدقة وعناية .. وفى بعض الأحيان تكون هذه المصاطب فسيحة وكريمة كرقعة فسيحة من الأرض

المحروثة تنتظر من يبذرها بالحبوب .. والبعض الآخر متماسك وصخرى ، ملىء بالبرسيم الحجازى والذرة وأوراق التبغ العريضة الذى ينمو شجيره بقوة فى أفنية حدائقهم التى تغذيها ترع الرى المنسابة على طول منحدرات التلال .

وعندما شاهدتها فى أواخر أبريل كانت قيعان الوادى جافة وصخرية وتبدو باهتة الخضرة تحت أشعة الشمس .. حتى إذا جاء الشتاء غمرتها مياه الفيضان التى تشق طريقها بين صخور الوادى ، مكتسحة كل ما يعترضها .. وتشهد الحصون الطينية ، التى أصبحت شبه مهدمة بتأثير الحروب القبلية القديمة ، إلتقاء جداول الوادى ، بينما تتوج بعض الأبراج والقلاع الصغيرة قمم الجبال ، فتزيد من روعة المنظر .

وحتى الآن لم تتوغل الحياة الحديثة إلا قليلا ، باستثناء سيارات نقل البضائع اليابانية الصغيرة المنتشرة فى كل مكان ، وكذلك عربات «لاندروفر» ومعدات المقاولين .

والناس هنا يجمعون الأحجار من الجبل : ويقوم بعض اللبنانيين باستخراج الرخام ، والقبارصة ببناء الطرق ، ولكن يبدو أن نشاطهم لا يمس الأهالى فى قراهم الرثة حيث يتجول الماعز والدجاج بين الأكواخ . والمسجد هو المبنى الوحيد الذى يحتفظ بحالة معقولة من الصيانة . إن العشش المقامة من سعف النخيل ، والأماكن المغلقة التى كان الأهالى يقيمون بها إلى عهد قريب، تحولت الآن حظائر لتربية الماشية ، وانتقل أصحابها للسكنى فى مبان ذات أسطح من الأسمنت دون طلاء أو زخرف ، وفى الليل يحبسون ماشيتهم بالقرب منهم ، وتسير أحياتهم اليومية كما كانت قبل أن تصلهم هذه التحسينات .

وتمتد الإمارات فى الركن الجنوبى الشرقى من شبه جزيرة العرب ، وطرفها المطل على مضايق هورموز يشكل المقاطعة البدائية الصخرية لسلطنة عمان.

وهنا نجد تفسيرا له فى الجغرافيا : فعلى أحد الجانبين يوجد منعطف شاطئ الخليج الذى ينتهى بجزء من جبال قطر الممتد إلى البحر وجزر البحرين ،

التى تحجب الساحل السعودى بمشروعاتها الصناعية الواسعة حول جبيل ودمان .. إنها – بوضوح – المنطقة التى تتركز فيها الثروة النفطية لشبه الجزيرة العربية ، فالحقول الكبرى تبدأ فى « أبو ظبى » وتستمر شمالا إلى الكويت .

وإذا اتجهنا جنوباً نرى أن النفط موجود على نطاق أقل ، ولم تظهر هناك اكتشافات كبيرة .. وتستفيد الإمارات الصغيرة فى الطرف الأقصى لشبه الجزيرة من أمطارها الموسمية ، إنها ذات طابع استوائى عنيف ، حيث تطوف الرياح الموسمية بسلاسل جبالها وتنفجر فى عواصف رعدية ووابل من المطر الغزير . وساحل الباطنة على الجانب الجنوبى الشرقى المواجه لخليج عمان خصيب وملىء بالحدائق ومزارع الموالح ، ومعظمه مملوك لسلطنة عمان ، ويمتد حتى سلسلة جبال (الحجر) التى تفصله عن الصحارى الكبرى التى تمتد إلى الداخل من شواطىء الخليج .

وبين راس موساندام وحدود مسقط فوق شيناس ، تتقاسم الساحل إمارتا الشارقة وفجيرة ، وتوجد بالداخل مقاطعة صغيرة لإقليم عجمان ، تكاد تكون خصبة حيث تنمو فيها الفاكهة وتكثر فيها مراعى الماشية . وتمتد هذه الأراضى عبر الجبال لتربط السهول الحصبائية والطبقات الرملية فى ساحل الخليج بشواطىء المحيط الهندى عن طريق الوديان التى تكتنف سلاسل الجبال .

كانت هناك دائماً تجارة بطول هذه الطرق ، ولعلها كانت أكثر بطئاً ومشقة من المرور بحراً عبر مضايق هورموز ، ولكنها أكثر أماناً من خطر القراصنة وتدخل السفن الأجنبية المتطفلة . وعن طريق هذه الوديان كان يرد إلى الخليج العبيد والبنادق ، حيث كان يتم الإنزال فى زوارق صغيرة على ساحل الباطنة ، ثم تنقل سراً لتسليمها بعد ذلك إلى إقليم الحسا ، أو إلى إيران .

والآن ، حلت الطرق الحديثة محل طرق القوافل التقليدية ، وبدىء فى مد الكبارى فوق الوديان . وبدلا من العبيد الأفريقيين ، بدأ تشغيل اليد العاملة الآسيوية للعمل فى إقامة زراعات الرى ، وغرس أشجار البساتين

والحدائق المسورة بالمبانى بدلا من مصدات الرياح التقليدية . ويتم الآن ضخ الماء بالمعدات الحديثة إلى صهاريج المياه التى تستخدم أيضاً كحمامات سباحة فى حدائق الأثرياء .. ووسط قطعة الأرض الزراعية يقوم أصحاب الأملاك الذين يستهويهم هواء الجبال المنعش الصافى ببناء بيوت حديثة كما تستهويهم سهولة وسرعة المواصلات بطول الطرق الجديدة . وأصبحت الرحلة من شواطىء المحيط الهندى إلى دبى أو الشارقة تتم فى ساعتين فقط .

ويجرى الآن تطوير الموانى الصغيرة على شاطىء الباطنة ، وتعرض مجموعات الشركات من رجال الأعمال الأجانب والبنوك مشروعات طموحة للسياحة العالمية .. ولكن هذا السحر والجمال الاستوائى الحالم لهذه الموانىء الصغيرة ومدنها الصغيرة البيضاء وحدائق الموز وأشجار النخيل ، أصبحت وقد حكم عليها بالإعدام . . فى خورفكان ظهر رجل البنوك الغربى . وبعدها أصبحت واجهة المرفأ الصغير بحديقته والأريكة الخرسانية التى كان يجلس عليها الحاكم فى زياراته النادرة ليستمع إلى التماسات شعبه ، محوطة الآن بلوحات الإعلانات الضخمة تحمل أسماء البنوك العالمية الكبرى .

إن اللوحات المثبتة على الدكاكين الرثة تعنى أن هناك نشاطاً محتملا أو نشاطاً فعلياً .. ولكن المكاتب سجلت بالفعل ، وأصبح وجودها فى أى نشاط فى المستقبل مضموناً .. إن الأمر كما لو كان المستقبل يعلن عن ظهور عالم القرن التاسع عشر الذى ولى وانقضى بلا طلب عليه فى هذه المرافىء غير المعروفة كثيراً وسادها الإهمال لفترة طويلة .

وخورفكان ، وهو يشبه بعض قرى كالابريا يعتبر كاملا فى تماثله معها ، بل وأيضاً على نفس القدر . فخليجه الأزرق الجميل يفتح صدره على اتساعه لامتدادات من النتوءات الغامضة والجبال الفخمة التى تتلاحق فى صفوفها نحو الأفق . . وهناك حصن صغير من الطين على قمة الجبل يطل على القرية ، والسوق المتربة ، ومساكن الأعيان التى لا تزال واجهاتها تحتفظ ببعض ملامح لونها الأصلى ، تعلوها الأوراق الخضراء اليانعة وأغصان أشجار الفاكهة التى يزرعونها فى ساحات بيوتهم .

ولايزال يسود المكان الإحساس بالراحة والهدوء ، والحياة الخاصة . وترسو السفن الشراعية والزوارق التجارية فى راحة وهدوء على سطح الخليج الساكن – ويبدو أنه لا تحدث أمور كثيرة فى هذا المكان .

تناولنا الغذاء فى إحدى الحدائق التى تتخللها القنوات ، حيث يقوم بستانى عجوز من عمان بتعهد ما يزرعه من بصل وطماطم وباذنجان وفلفل .. وكان عدد كثيف من شجر « الدلنى » يملأ المدخل ، وكانت أزهارها البيضاء والحمراء والقرمزية تختلف كثيراً فى وفرتها عن نظيراتها الشاحبة الضعيفة التى تنمو فى الجبال .

وتحت حرارة الظهيرة القائظة أخذت أسبح فى صهريج صغير ، كانت تظلله شجيرات الخوخ .. وكانت تسبح فى الجو فراشات كبيرة ، لونها أزرق داكن جميل مع بقع بيضاء .. وكانت هناك أيضاً أنواع أخرى سمراء اللون ، أو سوداء أو حمراء ، كبيرة فى حجمها .. ومن أشجار التوت المتشابكة التى كنا نجلس تحتها كانت الفاكهة تتدلى من أغصانها كالعقد .. وكانت شهية فى مذاقها .. ومن وراء ساتر من شجر الموز بدت جوانب الجبل وكأنها فى إطار من أغصان الشجر ، وكانت تبدو وقد لفحتها حرارة الشمس ، بينما كنا فى الحديقة نحتسى زجاجات « السنجرى » المثلج ونتناول السلطة الفرنسية الموضوعة فوق صوان كبيرة مستديرة .

لم يكن رجال البنوك وحدهم هم الذين وصلوا إلى ساحل الباطنة ، بل أيضاً المهندسون المدنيون ، وبناة الطرق ، ومستثمرو الأملاك ، ورجال الأعمال . .

لقد دقت الطبول فعلا لميناء الشارقة ، فمن حول خورفكان أوشك العمل على الانتهاء من إنشاء ميناء عميق سيكون فى مقدرته استقبال أكبر الناقلات التى تستخدم حالياً رصيفاً من ستة مراسى مزود بونشين قوة أربعين طناً .

إن محاولة الشارقة محاولة خيالية تستهدف إدماج النقل البحرى والبرى والجوى ، تحت نظام واحد موجه للتسليم للناقلات . إنها تأمل فى أن تجتذب

الملاحة من الخطوط الملاحية الرئيسية بين الشرق والغرب ، وهى فى ذلك حريصة على تجنب استخدام مضايق هورموز المزدحمة والتى هى الآن بعيدة عن الاستقرار السياسى ، وكذلك وقفات الانتظار الطويلة بموانىء الخليج .

إن الإمارات مرتبطة فيما بينها بطرق أسفلتية من الدرجة الأولى ، والكثير من هذه الطرق مزدوجة .. ومن الطرق ما يمتد من عمان إلى قطر ، ولو أن الوصلة الأخيرة من الطرق والتى تخترق قطر إلى الطريق الرئيسى عبر شبه الجزيرة العربية قد توقفت نظراً للنزاع على الحدود بين السعودية وأبوظبى حيث تطالب كل منهما بالقطاع الأخير وطوله ٢٥ كيلو متراً . ولكن الطريق رغم عدم إكمال هذه الوصلة صالح للاستعمال ، وأصبح منظر اللوريات من السعودية منظراً مألوفاً فى دبى .. ويمكن التعرف عليها بسهولة من لون هيكلها الأزرق الناصع والفيروزى ، وتزينها ألوان بدائية ناصعة وفقاً لنمط هندسى .. ولذا تبدو بمنظر بهيج ، وأسقفها مطلية باللون الأحمر والأصفر ، كما نقشت على جوانبها مناظر ريفية بسيطة من ألمانيا .. وزين مصدها بأشكال تمثل الأكف والعيون .. وعبارات النقل العمانية مطلية هى الأخرى ، وغالباً ما يكون باللون الأحمر مع أنواع الزخارف المماثلة . . ويبدو أن الغريزة التى كانت تدفع البدوى لزخرفة سرج جمله قد وجدت الآن متنفسها فى صناعة عربات النقل .

* * *

الفصل الثالث عشر

الامارات المتحدة — الشيخ راشد حاكم دبى — المدينة — أصول الدولة — عشيرة المكتوم — ظهور الشارقة فى وقت مبكر — الضغط الوهابى — المنافسة مع ابو ظبى — بعث القرصنة — الانتقام البريطانى — انهيار الشارقة وظهور دبى — مستوطنات القواسمى على الشاطىء الفارسى من الخليج — الحكومةالايرانية تفرض المركزية على الساحل — الهجرة الى دبى والبحرين — تآكل لينجه — التجار الهنود — زوارق الشركة البريطانية العالمية — دبى تجذب الاضواء — المهاجرون الاسيويون — اليونان — النشاط البحرى — تجارة المركز التجارى لتوزيع السلع — الاسواق السرية — الصراع على الحكم بين دبى وديره — السوق السوداء فى زمن الحرب — نمو الرخاء — المدينة الحديثة — بائعو اللحم المتجولون — هجرة النساء .

* * *

تطل صورة الشيخ راشد بن سعيد المكتوم عليك بابتسامة مشرقة من على جدران كل الحوانيت والمكاتب وجميع مكاتب الحكومة فى دبى . وأحياناً ما تعلق صورته جنباً إلى جنب مع صورة الشيخ زايد حاكم أبو ظبى ورئيس جمهورية الإمارات المتحدة ، وهناك فروق واضحة معينة فى مظهريهما المتناقض .. فأحدهما فارع الطول بالغ النبل تطل من عينيه الواسعتين المعبرتين نظرة أشبه بنظرة غزال جريح ، والآخر يشع بالحيوية من إطار صورته وله عينان كالخرزتين قريبتان من بعضيهما البعض وتتربعان فوق أنف ضخم مكتنز .

والشيخ راشد رجل يناهز السبعين من عمره ، جم النشاط ، يقظ الحواس معتدل المعيشة فى غير إفراط ، ويتصدر اسمه واسم أقربائه اللوحات الضخمة التى ترتفع بكل موقع بناء وتشييد ، تذكر بالتفصيل أسماء المشتركين فى المشروع . وهو يقوم فى ساعة مبكرة من صباح كل يوم عقب صلاة الفجر بالتجول ليشهد بنفسه كيف تسير مدينته ، وذلك قبل أن يتوجه إلى مكتبه فى الساعة الثامنة صباحاً حيث يقضى فترة أطول بكثير وببساطة أشد مما تفعل الغالبية العظمى من الحكام الآخرين . وفى المساء بينما هو فى طريقه إلى حديقة صغيرة قريبة تطل على ساحل البحر لأداء صلاة العشاء يقوم بزيارة مشروع « جبل على » الذى يقع على مسافة خمسة عشر ميلا من الساحل ، وهو يصل بدون إعلان مسبق عن مقدمه لتفقد سير العمل .

وتحظى فطنته فى مجال الأعمال بالإعجاب الشديد من جانب مجتمع المغتربين الذين ينزعون للارتباط العاطفى بأماكن إقامتهم . ولكنها لا تلقى نفس القدر من التقدير من جانب مجتمعات أخرى للتجار فى الخليج ، إلا أن حركة التطوير فى دبى نشطة إلى الحد الذى استحال فيه ألا يكون لأى تاجر كبير بالخليج ممثل له فيها ، وتظهر أسماء مألوفة من أماكن بعيدة من الساحل فوق المبانى التجارية وصالات العرض التى ترتفع على طول الطرق المؤدية إلى المطار .

والمدينة عبارة عن تجسيد حى لما حققه منذ اعتلائه كرسى الحكم عام ١٩٥٨ ، وهى أكثر مدن الخليج شبهاً بمدينة عصرية . تبدو للمرء وللوهلة الأولى مثبطة للهمم وفى عجلة شديدة من أمرها ، فاترة المشاعر للغاية حيث يكون المواطنين فيها مشغولين للغاية والأصوات مختلطة تماماً . وفى الغسق وحينما يحل الظلام وكذا فى ساعة مبكرة جداً من الصباح وقبل أن تشرق الشمس تبدو ذات سحر حضرى من خطوط وزوايا ، وتظهر النوافذ المضاءة بتدرج منظم فوق واجهة المبانى الضخمة وتتوهج أضواء النيون وتومض على طول الشوارع وعبر واجهات المبانى ، ويشع بساط ضخم من أضواء النيون بنوره المتألق من فوق قمة أحد المبانى العملاقة فيبعث بأشعة حمراء فى لون العقيق

إلى ظلمة الليل كما لو كان يعلن مقدم سندباد . أما فى المبانى المجاورة التى لاتزال فى طور التشييد حيث تعمل الروافع فى ضوء مصابيح تشكل قوساً كهربائياً ، وتغرق قاعدة البناء فى بحر من الظلمات . ويكتنف هذه الجزر الغارقة فى النشاط يتعذر تصوره ظلام الليل الحالك وتبدو كما لو كانت طوفاناً يعلو فوق الظلام الذى ينتشر تحتها .

وتبرز الأضواء الأولى للنهار اللون الأبيض الساطع للمبانى الجديدة المرتفعة بلون الأسمنت الأصلى ، وتتجمع عند سفحها المئات من السيارات الملونة كما لو كانت لعب « دينكى » متناثرة فوق حفرة من الرمال . وثمة صوت مستمر : الزئير الحضرى للمواصلات التى لا تتوقف طوال الليل . ولا يسود الهدوء المؤقت إلا قرب ساعات الفجر حينما يوشك المؤذن أن يطلق آذانه الأول يدعو فيه الناس لأداء الصلاة ، ثم يعلو بعد ذلك صوت مطارق العمال الذين يدكون أساسات المبانى ، والأصوات الصارخة لأبواق السيارات والدوى الذى يطلقه نفير بعض السفن فى الخليج الصغير . وينادى الرجال على بعضهم البعض من فوق السقالات التى تمتد من قمم المبانى كما لو كانت منحدرات شاهقة شديدة الانحدار تتناثر بصورة غير منظمة ، وتتأرجح الأوناش فى هذا الاتجاه أو ذاك عبر صفحة الأفق وبحركات رقيقة ودقيقة تصطبغ بطابع التعاقب الرتيب كما لو كان ما يمر أمام ناظرى المرء أشبه بالحلم .

أما سيارات النقل الواقفة فى الانتظار وأكوام الحجارة وأكوام الرمال المتناثرة هنا وهناك فإنها تجعل من الطرق مساراً محفوفاً بالمخاطر . وتجرى حركة المرور بمشقة فى أنحاء المدينة حيث تقلقها دائماً صعوبة العثور على مكان للانتظار . وتكد جماعات من العمال من البنجاب والباثان بسراويلهم الفضفاضة فى السير وهى تحمل حفارات الطرق العالية الصوت وخلاطات الأسمنت وعربات يدفعونها باليد محملة بالأسمنت الذى يغذون به أسطوانات آلاتهم الدائرة ، فى الوقت الذى يسير فيه رجال آخرون جيئة وذهابا وهم يدفعون أمامهم عربات أخرى محملة لتبيان التنافس سواء فى التخفف من حدة السأم أو بغرض الوفاء بموعد نهائى ولم أعرف أيهما أرادوا .

وهذا النشاط المتواصل الذى لا يتوقف يضفى على دبى ذلك الطابع الذى لا تخطئه العين لمدينة عصرية . فهى متعة للعين حينما يحل المساء : فى الصباح تمتص أشعة الشمس ألوان واجهات الحوانيت ، ولكن ما أن تبدأ ساعات الغسق ويأتى الليل حتى تظهر ألوانها على نحو ملفت للنظر تحت ضوء لافتات النيون التى تبدو رائعة فى تنوع خط اليد العربى الذى كتبت به . أما فى ديرا مركز المدينة التجارى فثمة حركة تطور مستمرة لمسافة ميل أو نحو ذلك على طول الخليج الصغير ، تشمل الفنادق والمبانى السكنية والمكاتب وصالات العرض وثلاثة مبان تبنى فى الداخل ويسير المواطنون للنزهة كما فى الغرب ، وتبدو ظلالهم على مداخل الحوانيت المضاءة بنور خافت وهم يستعرضون معروضات واجهاتها .

وترجع أصول دبى كدولة مستقلة إلى عهد قريب نسبياً . فقد قام فرع آل بوفالاصة من قبيلة بنى ياس بالنزوح من جزيرة أبوظبى التى كانوا مستقرين بها وانتقلوا إلى موقع آخر جرياً على عادة العرب المألوفة حينما يشعرون بعدم الرضا ، وحملوا معهم عائلاتهم وحيواناتهم وممتلكاتهم .

وانفصل نحو ٨٠٠ رجل بهذه الطريقة واختاروا مستوطنة دبى موطناً لهم يمتد على جانبى خليج صغير يبعد بمسافة ٧٠ ميلا عن ساحل أبو ظبى . وكانت دبى جزءاً من الأراضى التابعة للشيخ أبو ظبى ويحكمها إدارياً حاكم باسمه ولكن القادمين الجدد شنوا هجومهم فى فصل الصيف خلال موسم صيد اللؤلؤ حيث كان جميع الرجال فى المستوطنة بعيدين عنها عند المنحدرات فى قاع الأنهار التى يوجد بها اللؤلؤ ، وسرعان ما حققوا هدفهم بسهولة .

وخضعوا بادىء ذى بدء لحكم مشترك من جانب زعيمى المشروع ، عبيد بن سعيد ومكتوم بن بوتى ، ولكن بعد وفاة عبيد عام ١٨٣٦ حكمهم مكتوم بمفرده ، ومن نسله انحدر الحاكم الحالى لدبى وعشيرة المكتوم .

ولم يكن ساحل الإمارات المتحدة فى هذه الفترة قد تكيف بعد بصورة كاملة مع التغيير فى عاداته التى فرضتها المعاهدة العامة المبرمة عام ١٨٢٠ ، وتنبأ سلطان بن صقر حاكم الشارقة — بدقة شديدة — عقب تدمير قلعة

رأس الخيمة ، فى ديسمبر عام ١٨١٩ وما حدث من إزالة أو إحراق لسفن القراصنة بالجملة . تنبأ بأنه من الحماقة مواصلة العيش بالطريقة القديمة . وأمكنه بدأب — وهو المبجل وطيب المعشر دائماً — أن يتقرب من العاملين البحريين بشركة الهند الشرقية معرباً عن رغبته فى تبادل التجارة السلمية مع الهند . وهو المسئول إلى حد كبير عن التقارب الذى تم مع الشركة وترتب عنه أولا إبرام المعاهدة العامة ثم الهدنات البحرية ومعاهدة السلام الأبدية ، وهى معاهدات وقعت فى أعوام ١٨٣٥ ، و ١٨٤٣ ، و ١٨٥٣ على التوالى .

وكانت الشارقة قد أصبحت بحلول الوقت الذى مات فيه السلطان ابن صقر رجلا كهلا عام ١٩٥٦ المتحدث المعترف به لإمارات الخليج الأدنى ولم يكن رجال قبيلتى بنى ياس ومناصير قد انغمسوا فى القرصنة المحترفة لقبيلة القواسمى حيث أتاح لهم وضعهم الجغرافى خيارات بديلة . إذ كانت تترامى خلفهم صحراء شاسعة على عكس جيرانهم فى شبه جزيرة رأس مندم ، وكان رعى الجمال هو عملهم الرئيسى . كذلك كانت واحة ليوا تحت أمرتهم ، وبالتالى كانوا يعيشون بالتناوب بصورة منتظمة بين الساحل حيث تقوم مستوطنات صيدهم للأسماك ويشاركون فى صيد اللؤلؤ بالخليج ، وتقوم حدائق النخيل بالواحة .

وأمكنهم تفادى الضغط الذى تعرضت له الإمارات الأصغر على يد الوهابيين فى اندفاعهم نحو حدود عمان ، غير أنهم كانوا فى خلاف مستمر مع الشارقة التى وضع رجال قبيلة آل بوفالاصة فى دبى أنفسهم تحت حمايتها . وجرى قتال بين الحين والآخر على شواطىء اللؤلؤ كما حدثت غارات وهجمات متبادلة على المستوطنات إلى الحد الذى جعل تجارة صيد الأسماك تتوقف لعدة مواسم .

وهذه الخسائر سببت إحياء القرصنة بدافع اليأس الاقتصادى ، وانضم رجال بنى إياس وآل بوفالاصة بدبى إلى هذا النشاط الآن ، وبدأت الهجمات ضد الملاحة البريطانية فى الخليج . وانتقم البريطانيون من ذلك على الفور حيث أرسلوا طراداً لتدمير أسطول بنى ياس وفرضوا غرامة باهظة على حاكم أبو ظبى علاوة على استيلائهم على خمس عشرة سفينة وحصولهم على غنائم ضخمة وأسرهم زعيمين من زعماء القراصنة .

وتتيجة الجزية التي فرضت عام ١٨٣٥ على عدد كبير من السكان في أبو ظبي في اتجاهات متفرقة ليتحاشوا دفع مساهماتهم الفردية . هاجر فرع القبيسات من قبيلة بني ياس إلى « العديد » ومكانها على القاعدة الشرقية لشبه جزيرة قطر الواقعة على مسافة مائتى ميل تقريباً من أبو ظبي . وسرعان ما أصبحت ميناء يلجأ إليه القراصنة الذين يمارسون نشاطهم من شبه جزيرة قطر ، ثم تعرضت لهجوم عام ١٩٤٧ — وبتغاضى من البريطانيين — من جانب أبو ظبي ، ودمرت المستوطنة عن آخرها وملئت الآبار بالأنقاض وبحث نحو خمسين رجلا ذبحوا . وهرب عدد من أبناء قبيلة القويسات ولجأوا إلى دبي ثم عادوا في النهاية واستقروا بوطنهم السابق بأبو ظبي . ولاتزال طبيعة المستوطنة التي دمرت على وجه التحديد موضع خلاف بين أبو ظبي والسعودية ، ولها تأثير على نزاع الحدود الذي يحول دون استكمال أداة الربط المتمثلة في شق طريق رئيسي بهذه المنطقة .

وتضاءلت أهمية الشارقة بعد وفاة السلطان بن صقر . وقام أبناؤه الأربعة بتقسيم الميراث فيما بينهم ، وبدأت نذر اضمحلال سياسي واقتصادي تسود ولم تخرج منه الإمارة بصورة كاملة قط . وانتقلت صدارتها السياسية إلى أبو ظبي في الوقت الذي احتلت فيه ربيبتها دبي مكانتها في ميدان التجارة .

وغرست بذور المنافسة — التي لاتزال قائمة حتى الآن — في هذه الفترة . وقامت عائلة المكتوم بتطوير هذه اليقظة لاقتناص فرصة تجارية أثمرت عن ظاهرة دبي الحديثة ، وأكسبهم سعيهم الحماسي لتحقيق مصالحهم إعجاب أنصار اقتصاد السوق الحرة .

وكان وجود سكان مستقرين من التجار العامل الحاسم في نشوء دبي وتطورها من مجرد مستوطنة صغيرة فقيرة تقع على اللسان الجنوبي لخليج صغير يمتد إلى داخل الأراضي لمسافة عدة أميال ، حيث قاموا بتحويل المدينة إلى مركز تجاري . ولم يكونوا عرباً . بل كانوا مهاجرين من الشاطىء الإيراني لخليج وغالبيتهم من الهنود .

من الذي جاء إليها أولا ؟ كان لأفراد قبيلة القواسمي في ذروة عهد قرصنتهم موانىء ومستوطنات على الشاطىء الإيراني ، وكان أحد شيوخ هذه القبيلة يحكم جزيرة لينجة على أساس وراثي . ولكن الإيرانيين خلعوه من منصبه عام ١٩٨٧ ، واقتيد في الأصفاد إلى طهران . وخضعت لينجه لإدارة إيرانية جنباً إلى جنب مع موانئ أخرى بالخليج ، وبدأت هجرة المسلمين السنيين في المنطقة إلى الشاطىء شبه الجزيرة العربية .

ويفخر المجتمع التجاري في الخليج بقدرته على التحرك . ويدعى أفراده أن بوسعهم ممارسة نشاطهم التجاري في أي مكان لأنهم ميالون بالوراثة للاستقلال عن الأدوات المادية المساعدة . وحينما أصبحت لينجة عام ١٩٠٠ — وهي آنذاك أكثر المراكز التجارية بمنطقة الخليج الأدنى ازدهاراً — ضمن إدارة جمارك الإمبراطورية الفارسية بعد إدخال إصلاحات عليها نقل تجارها نشاطهم إلى الشاطىء العربي حيث استوطنوا دبي وكذلك استوطنوا البحرين بدرجة أقل . وجلبوا معهم لغتهم وعادة تفضيل تناول أطباق الأرز ونمطهم في العمارة واستقروا بأحياء معروفة حيث قام عمال البناء والنجارون منهم ببناء منازل لهم ذات أبراج لصد الرياح وساحات فسيحة أمامها كتلك المنازل والساحات التي خلفوها وراءهم . هذا هو ما آل إليه وضع قبيلة العوازر في البحرين وباستاقية في دبي ، وتستمد الأخيرة اسمها من مدينة في داخل البلاد تقع على مقربة من لينجة وينحدر منها عدد كبير من العائلات الغنية اليوم .

وكان المهاجرون الأوائل مواطنين مستقرين باعتبارهم من مستوردي السلع من الهند التي تمثل السوق التجارية وكان التجار يحصلون منها على سلعهم الاستهلاكية ومنسوجات وسلع عصرية . وجلبوا هذا النشاط معهم . وحدث تدفق آخر للمواطنين الإيرانيين الأفقر حالا في الثلاثينيات حينما ألغى التشريع الذي وضعه الشاه رضا الحجاب وجذب البلاد قسراً من التخلف إلى إيران الحديثة .

وكان من الصعوبة بمكان أن يحتمل ذلك عدد كبير من المسلمين من الطراز القديم .. وبالتالي لم يجدوا مناصاً من النزوح إلى دبي مما أدى إلى

ازدياد كبير فى أعداد تجار المركز التجارى الذين يقومون ببيع السلع القادمة من الهند وإيران إلى المناطق العربية الداخلية وبالأخص عمان . واضمحلت لينجة بدونهم ، وتدهور بها الحال من مدينة غنية وهامة ومركز تجارة اللؤلؤ فى عهد الاحتلال البرتغالى فى القرنين السادس عشر والسابع عشر إلى مدينة أشباح وتداعت أبراجها العالية المضادة للرياح والتى كانت سمة مميزة لها تماماً ، وحل بها الخراب الآن .

اقترن العنصر الثانى المميز لشعب دبى التجارى ببدء الخدمات التى تقدمها السفن التجارية بانتقالها بصفة منتظمة من بومباى إلى الخليج . وكان الركاب الذين يتكدسون فوق ظهر المركب ينقلون بأجر زهيد للغاية ، وتمكنت الجالية التجارية الهندية بهذه الوسيلة من ترسيخ وجودها فى عمان ثم فى دبى بعد ذلك . وكانت الشارقة هى أول ميناء ترسو على شاطئه زوارق شركة الملاحة بالسفن البخارية بين بومباى وإيران — أصبح يطلق عليها حالياً خط المغول — فى زيارات قصيرة بصفة منتظمة ، ولكن هذه الزوارق كفت عن القيام بزياراتها قرب التسعينيات من القرن الثامن عشر . وكانت ملكاً للهنود ومن المحتمل أن زيادة الرقابة من جانب مصلحة الجمارك الهندية والاتفاق الخاص بتجارة الأسلحة الذى استخلصته السلطات البريطانية من الإمارات المتحدة جعل التوقف فى هذه الموانئ أمر لا يستحق الجهد الذى يبذل فى سبيل تحقيقه .

ومع هذا كان خط الشركة البريطانية العالمية حريصاً على ضم منطقة الخليج الأدنى إلى نشاطه المنتظم فى نقل البريد ، وجاء وكيلها المحلى من لينجة لمناقشة المشروع مع حاكم الشارقة . وقام جاره حاكم دبى بتفويض أحد أبناء عائلة بن شالبان — وهو صديق مشترك لكلاهما — بمهمة بث الشكوك فى عقله فيما يتعلق بحكمة هذا التحرك ، وفى الوقت الذى كانت فيه عشيرة بن صقر تقلب الرأى فى القرار من كافة وجوهه ، أعلن آل مكتوم بوضوح أنهم سيرحبون بزيارة زوارق الشركة البريطانية العالمية .

وسرعان ما تم التوصل إلى اتفاق مع الوكيل ، وأضحت دبى ميناء تزوره الزوارق بصفة منتظمة مما ترتب عنه مكسب لتجارتها ولم تستعد

الشارقة مكانتها كميناء يتمتع بأى قدر من الأهمية إلا خلال القرن الحالى ، ولاشك فى أن بدء عهد التجارة الجوية واستغلال شركة الخطوط الإمبراطورية للشارقة كنقطة تتوقف عندها الطائرات فى أوائل الثلاثينيات من القرن الحالى هو الذى أعاد إلى الشارقة قدراً من أهميتها السابقة المحدودة .

ودخول أحد الأسواق بالإمارات أشبه بدخول سوق شرقية هندية من حيث أن الوجود الآسيوى يغلب عليها . ويدير الإيرانيون أسواق الفاكهة والخضروات وكذلك أسواق السمك واللحوم . وهم يخبزون أرغفة الخبز . أيضاً فى أفرانهم المستديرة والمصنوعة من الطمى فتخرج من داخلها أرغفة الخبز الساخنة اللذيذة الطعم التى لا تدخل الخميرة فى خبزها . وبوسع المرء أن يرى فى ساعات الغسق الخبازين بقلنسواتهم البيضاء المخرمة وهم يطرحون عجينتهم فى الفرن وقد احمرت وجوههم من وهج الحرارة فى الوقت الذى تنتظر فيه النساء والأطفال للحصول على نصيبهم الوفير من الفطائر المحلاة لوجبة العشاء .

والتجار بصفة عامة ، تجار المنسوجات وتجار الحبوب والسلع المنزلية من الهنود . . من أبناء السند فى المنطقة المحيطة بكوتش ومن أبنـاء جوجيرات الذين وفدوا على الأمارات أصلا تحت جناح الوجود البريطانى وثمة حالات عدة منهم استقرت فى الخليج منذ أجيال شتى . وسوق الذهب حكر عليهم بصفة خاصة ، وهم يجلسون القرفصاء وراء منضدة عملهم بحوانيتهم الصغيرة المفتوحة الواجهة حيث يعكفون على صياغة حليهم الدقيقة بمساعدة اسطوانات غاز كالتى تستخدم فى المعسكرات ومجموعة قديمة الطراز من الملاقط وقوالب الأشكال .

ويجوب الرجال الجبليون الطوال القامة من قبائل الحدود من باكستان وأفغانستان السوق فى جماعات أو يقفون ليتبادلوا الرأى بجدية بشأن شراء جهاز ترانزيستور يمكن حمله من مكان لآخر أو ساعة أو مروحة كهربائية ، وهم يشتركون جميعاً فى إبداء الرأى بشأن شرائها . وهى مهمة جادة بالنسبة لهم ولذلك يجلسون القرفصاء فى الطرق المفتوحة المتربة التى تسلكها السيارات

ويفحصون السلع بعناية ويقلبون الرأى فى قرارهم . وتزدحم أزقة الشوارع ، مع حلول نهاية اليوم بأعماله المنهكة بحشود من الرجال المتمهلين فى سيرهم وهم يتجاوزون بصورة عابرة واجهات المحال المضيئة وقد لفهم الصمت واستغرقهم التفكير . ولا يرى المرء عدداً كبيراً من النساء رائحات غاديات . وقد تقع العين أحياناً على إمرأة بالوشستانية تسير الهوينا فى ثيابها الزاهية الألوان وهى ترتدى قلائد وخواتم من الفضة والفيروز أو على مجموعات من نساء المدينة المحجبات وهن فى أرديتهن السوداء وقد احتشدن فى حى الصاغة لشراء أو لاستبدال حليهم الذهبية التى تعتبر بنكاً لمدخراتهن الشخصية .

ويمتد سوق ديرا إلى الداخل من ذلك الخليج الصغير الذى يفصله عن السوق المقابل له فى دبى على الجانب الآخر . وهو أهم السوقين ويبدأ من أماكن الفضاء المتربة غير المنسقة والمتصلة بطريق البحر حيث تقف عربات النقل المطلية فى الانتظار . ولا يهدأ صخب حركة المرور عبر الشارع العريض الذى يخطف بريقه الأبصار ، ويظل الخطر قائماً طالما تنتقل هذه السيارات إلى ذلك القطاع المترب غير المشذب من الأرض الواقعة بين المياه ونهر الشارع . وتشق سيارات الركوب وعربات النقل والشاحنات التى جاءت لتحمل البضائع والدراجات البخارية طريقها على نحو متعرج عبر بالات البضائع المكدسة على رصيف الميناء فى انتظار تحميلها على ظهر عربات النقل الضخمة التى تسير بست عجلات لنقلها براً إلى عمان والسعودية أو لرصها فوق ظهر مركب شراعى بخارى لشحنها إلى إيران .

إن الخليج الصغير هو الذى يجعل دبى أكثر من مجرد كابوس وقد تولد ذلك عن التمسك بإخلاص بمبادىء اقتصاد السوق الحرة . إذ يكتسب ذلك القطاع العريض من المياه طابع بحر يجرى فيه سباق زوارق بحرية بمرح حيث ترسو سفنه البخارية فى العمق على طول رصيف الشحن وتتمايل الأعلام ببهجة من فوق مؤخرتها . وترسو بعدها السفن البخارية العاملة والسفن الساحلية العتيقة الطراز والقاطرات ومراكب رفع الرمال والأوحال من قاع النهر حيث يوجد نشاط بحرى دائم يعبر عن نفسه فى شكل أصوات رنانة صاخبة وتصاعد بخار السفن ودوى السفن الكبيرة وهى تبحر .

وبوسع المراكب الشراعية التى تسير بمحركات بحرية حمل بضائع يبلغ وزنها مائتى طن . ويقوم نحو خمسمائة مركب من هذا النوع بإعادة تصدير ثلثى واردات المدينة إلى موانىء الخليج المجاورة ، وهذه هى التجارة التى يعتمد وجود الأمارة الأساسى عليها .

ويتم تحصيل ضريبة على الواردات من جميع السلع بنسبة ٣ فى المائة وتنشر أرقام الاستيراد الرسمية . ولا تزال هذه الأرقام موضع تكهن يحظى باهتمام شديد . ولكن إذا عقدنا مقارنة لما يجرى استيراده بنداً بنداً ولما يمكن أن يستهلكه سكان البلاد المقيمون على نحو معقول لتوصلنا إلى فكرة ما عن حجم العملية . وإعادة التوظيف المستمرة لهذه البضائع – على كل المستويات – وهى التى تكسب دبى جوها الخاص من النشاط المرح .

ويجرى شحن مجموعة متنوعة مذهلة من الأشياء ليس فقط حول الساحل ولكن أيضاً لإيران حيث تمارس سوق حرة سرية نشاطها على شاطىء البحر خارج ميناء بندر عباس تماماً ، وخلف جزيرة قشم وتتداول فيها سلع أمدتها بها دبى . وتأتى إلى الخليج الصغير سفن شراعية قادمة من أماكن بعيدة مثل بنجالاديش ، ويمكن رؤية أطقم البحارة فى المساء وهم يطهون عشاءهم على ظهر السفن فى الوقت الذى تصطف فيه مجموعات من الدراجات البخارية الجديدة ، والدراجات اليابانية التى تعمل بمحرك ، وحزم من المراتب الأسفنجية وربما سيارة أو اثنا عشر رأس ماشية أو عائلة بأطفالها ومؤنها ومتاعها فى باطن المركب الفسيح الذى تم استئجاره بمقتضى عقد للقيام بوظيفتين يقضى العمل فى الوقت الإضافى .

كانت دبى إبان الأربعينات من القرن الحالى مجرد مكان متواضع يفتقر تقريباً إلى سبل توفير الحياة المريحة الحديثة . . والطبيب الوحيد الموجود كان يعمل بالعيادة العسكرية التابعة للسلاح الجوى الملكى البريطانى . ولم تكن هناك أية مبان شاهقة . . وكانت المبانى ذات الأبراج المضادة للرياح بحى التجار الإيرانيين هى أبرز معالم دبى علاوة على ذلك الحصن الطينى البنى اللون على جانب دبى .

وتسبب انهيار صناعة اللؤلؤ ووجود نزاع داخل العائلة المالكة فى فقرها : وكان الشيخ منيع حاكماً لدبى فى فترة ماقبل الحرب ، وكان هو نفسه ابناً لحاكم سابق . كما كان رجلا يميل لاعتناق أفكار تقدمية . . حتى أنه سرت شائعات عن تزويده بناته بتعليم حديث . وقد أدى فقدان الدخل الذى كانت تدره صناعة اللؤلؤ إلى حالة من الكساد التدريجى مثلما حدث بكل مكان آخر فى الخليج ، وعانى الشيخ منيع من جراء ذلك كالآخرين تماماً بما أنه كان يحصل على رزقه من عمله كتاجر لؤلؤ . غير أن دبى أصابها كسب غير مرتقب بظهور الماجور فرانك هولمز والحاج عبد الله ويليامسون فى منطقة الساحل للتنافس على الحصول على امتيازات النفط . ووقع الشيخ منيع عام ١٩٣٨ جنباً إلى جنب مع حكام الشارقة ورأس الخيمة على عقود امتياز مع شركة البحث عن البترول ليتد بساحل الإمارات المتحدة . وهى فرع من شركة البترول الدولية البريطانية الأصل ، وأصبحت الشركة تقدم لهم إيجاراً سنوياً .

وأدت محاولة رامية إلى تشكيل مجلس استشارى وغيره من الأفكار الليبرالية عامى ١٩٣٩ و ١٩٤٠ إلى وقوع انقسامات شديدة بين العائلة المالكة ونشوب صراع أهلى بين دبى وديرا وطرد المجموعة الإصلاحية . وكانت الشيخة حصة بنت المور والدة الشيخ راشد الحاكم الحالى هى العنصر الرئيسى فى الحركة المناهضة للإصلاح . وكان ابنها الأصغر متزوجاً من ابنة الشيخ منيع .

ودمرت هذه السيدة المتسلطة بالفعل زوجها الشيخ سعيد بن مكتوم فى معرض تصميمها على الإطاحة بالشيخ منيع وتنصيبه شيخاً حاكماً . وكانت تمارس عملها بنجاح كتاجرة فى اللؤلؤ بحيث كانت تجلس فى مدخل بيتها خلف ستار لأداء عملها . . وهو أسلوب يماثل اليوم فى دبى الحديثة نشاط النساء بالعائلة المالكة اللاتى يقمن بأداء أعمالهن الخاصة بالاستيراد والتصدير من خلال سماعة التليفون ولا يتفاوضن فقط وجهاً لوجه مع وكلائهن .

وهؤلاء النساء لسن فريدات فى نوعهن فقد جرت العادة على قيام قدر معين من الأعمال التجارية داخل الحريم ، ويجرى بينهن فقط وكانت النساء الأكثر إقداماً يتاجرن فى المشغولات المطرزة والمنسوجات وأشياء ذات طابع نسائى

بحت . ولم يكن لأية امرأة محترمة أن تظهر بالسوق فى هذه الأيام . . لأن العبيد هم الذين كانوا يقومون بأداء العمل المنزلى داخل البيوت . . وكذلك التسويق إذا لم يقم به الزوج لسبب من الأسباب .

وكان الملل مروعاً بالنسبة للمرأة القادرة والمفعمة بالنشاط . إذ لم يكن هناك من سبيل أمامها لكسب الأموال إلا الحياكة أو ربما بيع لبن وبيض ، فيما عدا داخل الطبقات الأكثر ثراء حيث كان بوسع المرأة الغنية المضاربة برأس مال ورثته على قيمة عقارات واستثمار أموالها فى رحلات التجار وعمليات التهريب .

وقد استعادت الشيخة حصة لزوجها مكانته عن طريق القيام بعملية موسعة فى السوق السوداء بالاتجار بالإمدادات التى كانت توزع بنظام الحصص وقت الحرب ، حيث كانت الإحصائيات الخاصة بالسكان متضخمة وكانت هناك إمدادات فائضة عن الحاجة تدخل السوق وتكفى لأن تجعل الأمر جديراً بقيام حتى عائلات البحرين التجارية حيث كان يسود نظام التوزيع الصارم بالحصص تحت إشراف سير شارلس بيلجريف مستشار الحاكم — بإيفاد أفراد منها لدبى إبان فترة الحرب للشراء والبيع فى هذه الأسواق .

ويقال إن الحاكم الحالى لدبى تعلم عن هذا الطريق أساسيات التجارة من التجار الذين دأب على صحبتهم فى تلك الأيام حينما كان مجرد مواطن عادى معسر . وتمكنت والدته إبان سنوات الحرب ومن خلال التعامل الصارم والعدوانى وتنمية العقارات من تكوين رأس المال الذى استثمر فيما بعد بنجاح تام فى تهريب الذهب إلى الهند خلال فترة مابعد التقسيم . . ويقال إن عدد الرجال الذين كانوا يترددون على مجلسها لتبادل الرأى معها فى الأعمال كان يفوق عددهم بمجلس زوجها .

وقد دأبت على العبور جيئة وذهاباً بين ديرا ودبى عبر الخليج الصغير راكبة الزوارق السريعة التى تروح وتغدو بين المكانين عبر الشريط من المياه يكاد يبلغ عرضه اتساع نهر التايمز بحى ويستمنستر ، ومقابل بضع بنسات . وهناك بطبيعة الحال لراكبى السيارات جسران ونفق بناهم البريطانيون بلا جدال

ويشيون المدخل المؤدى إلى هيثرو . ولكن الأناس العاديين ينزلون من رصيف الميناء إلى الزوارق التى تتحرك بصخب فى المياه أثناء بحث أصحابها الإيرانيين عن زبائن .

كان النسيم عليلا فى وسط المياه ، ولم يكن هناك مناص من الشعور بقدر من الحيوية الدافقة والبهجة ، وكان هذا الشعور يسود حتى الموظفين الهنود الذين تلوح على قسماتهم دلائل الجد ، والعمال القادمين من باكستان وكان الجو المنعش يصيبهم بما يشبه الذهول . وتندفع الزوارق البخارية السريعة فى طريقها وسط رذاذ متصاعد من المياه وهى تشق لها ممراً وسط دوامات المياه ولطماتها التى أطلقتها وراءها زوارق القاطرات والزوارق الآلية ذات المحركات . والأجرة المعتادة – أصغر عملة فضية يمكن استخدامها – هى ٢٥ فلساً – وبلا شك كان هذا هو العمل الوحيد الذى يمكن أن يؤدى فى هذا المكان الرخيص والكفء والبهيج .

ويصعد الركاب فوق ألواح خشبية ويمسكون بأيديهم المظلات التى تغطى الزوارق قبيل استقرارهم فوق صندوق المحرك وظهورهم فى ظهور بعض كما لو كانوا يركبون « الجوتينج » (وهى عربة إيرلندية ذات عجلتين ومقعدين مستطيلين جانبيين) . وهم يحملون حزماً وطروداً وحقائب صغيرة للأوراق . ويقوم المراكبى بإحصاء عددهم بدقة وهو يشق طريقه بينهم وكل واحد منهم يقدم له أجرة ركوبه بامتثال ، لم أكن أفهم هذا النظام فى البداية وبالتالى كنت أعرض عليه بصمت راحة يدى وهى ملأى بالنقود فيختار منها جارى فى المركب أو المراكبى نفسه الأجرة المناسبة بكياسة تتسم بالحلم .

وكان هناك من يدفع الأجرة لى فى مرات كثيرة خلال هذه الأيام الأولى . وكان رجلا أنيق الملبس حسن الهندام يتقبل شكرى على هذه اللفتة بروح الزمالة بين غرباء ونحن نتكيف مع وضع لايطاق على قدر استطاعتنا .

قال لى أحدهم رداً على سؤالى له عن المدة التى قضاها فى دبى : « آه ياسيدتى . . إنى هنا من أسبوعين فقط ولايسعنى سوى الشعور بأنى ارتكبت خطأ فادحاً . وسوف أطلب من شقيق زوجتى ألا يجىء إلى هنا . . ومع هذا فأنا سعيد الحظ . .

إذ أعمل بشركة أمريكية أرسلتنى إلى هنا من بومباى ووفرت لى محل الإقامة ولكن آه ياسيدتى أن ثمن الأشياء جد باهظ . . الإيجار . . صاحب المسكن . . تكاليف المعيشة . . ولا أعرف كيف يمكننى تدبير أمرى » .

وهذه مشاعر سائدة . فمع تجولى عبر أنحاء المدينة بنفسى وتدافعى مع الآخرين لركوب الزوارق وجدت نفسى فى معظم الأحيان أتبادل حواراً عارضاً ، وبدا المواطنون مسرورين لتبادل الحديث مع شخص لم يعرف بلادهم بل وربما يتعرف على الأحياء التى نشأوا بها . وحدث لى هذا الأمر فى كافة أنحاء الخليج حيث ذكرنى بأوقات الحرب وابتهاج المجندين المحرومين من الهوية الشخصية حينما كانت بعض الذكريات المشتركة عن مكان ما أو حدث ما تثير فيهم شعوراً مؤقتاً بالتعرف عليه .

اندفع من بين الحشود المجتمعة على مقربة من درجات الهبوط عدد من الهنود الشبان ذوى القامات النحيلة وهم يرتدون بأناقة سترات شعر وسراويل ضيقة وغطت قبعات من القش نظاراتهم الشمسية وتدلت آلات التصوير من حول أعناقهم . وشقوا طريقهم بسرعة وخفة حيث اكتشفوا وجود وكلائهم المهاجرين وهم واقفون فى ظل خلفية من المراكب الشراعية والمبانى المرتفعة . ووقف شاب – يرتدى ملابس عصرية جديدة من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ومن بينها قبعة ذات حافة عريضة – مرتبكاً أمام دراجة بخارية يابانية ضخمة تلمع فى الضوء ودفع رسمياً إضافياً على هذا الامتياز الذى حصل عليه . وساورنى إغراء شديد بالتقاط صورة لى وأنا واقفة متعانقة الذراعين بين رجلين تلوح على وجهيهما دلائل البدائية الوحشية وتوحى به قلنسوتاهما السوداوتان وصديرتاهما المطرزتان بالعظمة كما لو كنت صياداً من عهد الملك إدوارد أقف بين تذكار إنجازاتى فى مجال الصيد ، ولكنى قاومت هذا الإغراء لخشيتى من احتمال سوء تفسيره .

ووقف طوابير طويلة من الرجال خارج مكاتب البريد فى انتظار تحويل أموالهم إلى بلادهم . ولكتبة الخطابات المحترفين هنا أساليبهم الملحة فى كتابة الرسائل ويجلس رجال – تنم ملامحهم عن القلق – القرفصاء بجانبهم للنضال من أجل صياغة عبارات تناسب التعبير عن تجاربهم فى هذه البيئة الأجنبية .

ويستغرق الصاق طابع بريد على خطاب أو شراء بطاقة لإرسالها بالبريد الجوى ساعات طوال . ويحدث نفس الشىء فى جميع مناطق الخليج الأخرى وبالتالى من الأفضل للحكماء منهم شراء طوابع البريد بالفرخ إذا استطاعوا لتجنب التأخير المضجر والخدمة الفظة التى يقدمها الكتبة .

واعتدت وأنا أطل من شرفة مبنى الشيخة لطيفة أن أرقب جماهير المواطنين وهى تسير الهوينا تحت الشرفة والعمال الذين يغسلون العربات يقومون بعملهم بين السيارات الواقفة فى أى مكان خال يمكن العثور عليه . وكان المبنى فى حالة تداعى منذ عشر سنوات مضت بالفعل وشاع التكهن بموعد إعادته إلى حالته الأولى . ويعد هذا المبنى الخرسانى الضخم غير الأنيق الذى يرتفع مابين تسعة وعشرة طوابق أول مبنى من نوعه فى دبى ، وقد تم بناؤه وإطلاق اسم زوجة الحاكم الوحيدة عليه .

ويسود المبنى الطابع العملى الكئيب ، مثله فى ذلك مثل بعض الأماكن الموحشة فى وسط المدينة بالقطاع الشرقى ، ويربط الواجهات المقابلة طريق للنقل السريع تتناثر فيه النفاية وتلقى الأضواء الساطعة من أعلى بأنوارها على المكاتب الضيقة لاستئجار السيارات ، وتحتل مكاتب المتعاملين فى تحويل العملة وبائعى الأقلام وبائعى الأدوات المكتبية والحوانيت التى تبيع الحلى المبتكرة الشكل المشكوك فى قيمتها بالمداخل الداخلية فى الطوابق الأرضية . وكل شىء مخصص للاستخدام العام قذر ومبصوق عليه ومتهدم .

وبعد أن كان المبنى يحتل موقعاً رئيسياً يواجه الخليج الصغير تضاءل موقعه إلى مجرد حيز ضيق عبر تقاطع طرق وأصبح يمثل شرخاً فى واجهة من التطور المستمر الممتد على طول المجرى المائى . وكنت قادرة أثناء تطلعى من الشرفة على النظر يميناً إلى البحر الأزرق اللون البعيد والسفن الضخمة الراسية وهى تبرق بوهن وسط وهج الشمس الضبابى وقد نال وهج منتصف النهار الشديد لون مداخنها وجسمها الذى تجرد من لونه . أما من ناحية اليسار فقد كان موقعاً مرتفعاً بما يكفى لإلقاء نظرة على واحة خضراء تضم قصر وضيعة حاكم قطر المخلوع . . زوج إحدى بنات الشيخ راشد ، وتمتد من وراء ذلك صحراء قاتمة اللون موحشة تتداخل فى وهج الشمس وتضيع وسطه .

ويقع فى مواجهة مبنى الشيخة لطيفة مبنى آخر فسيح ، وتجعل واجهته من الشرفات الخرسانية المزينة بالغسيل المنشور من المتعذر رؤية الخليج الصغير . ويمكن أحياناً رؤية إحدى ربات البيوت وهى ترتدى ملابس الخدمة فى البيت بينما تنشر الملابس الداخلية لأفراد أسرتها . ونجح فتى ما فى توجيه رسالة من الشرفة المقابلة لنا . وهى رسالة تقول بغموض « سعدت صباحاً » وذلك من خلال إعلان مشرق عن عصير برتقال .

وامتدت المدينة على كلا جانبى الخليج الصغير على شكل مبان خرسانية شاهقة الارتفاع ذات لون بنى داكن . واستصلحت الأراضى التى تقع على ضفة « ديرا » لتشكل أرضاً عريضة مستوية تقع بين طريق البحر المسفلت وحافة المياه ولكنها لاتزال أرضاً غير مملوكة لأحد ، وهى من رمال جافة صفراء اللون تنتشر فوقها أكوام من بقايا الفحم وكذا السيارات المنتظرة .

ويقع فى المبنى التالى فندق برج كارلتون حيث يضىء لونه الأبيض وتكتسب نوافذه لوناً برونزياً كما لو كانت نظارات شمس تزين واجهته . ولاشك فى أن جيل السبعينات من المبانى الشاهقة الارتفاع يجعل التطور الذى حدث فى السنوات العشر السابقة يبدو قديم الطراز وثقيل الوطأة . وفى الساعات المبكرة من الصباح وقبل أن يطفىء وهج الشمس الحارقة لون كل شىء ويجعل من المتعذر وصفه تكتسب بعض المبانى التى ترتفع فوق أساسها الأنيق بريقاً كما لو كانت همسة تأتينا من عالم آخر تطلعنا على مدن تستمد أناقتها الحضرية من مشروعات كهذه .

وكان بوسعى من موقعى المناسب هذا أن أنظر إلى أسفل حيث مدخل المبنى وهو عبارة عن نفق كئيب يتردد فى جنباته وقع الأقدام وتبادل حديث بصوت أجش بين الحارس وأصدقائه . ويخدم مصعدان — جنباتهما مكونة من شبكة من القضبان الصلبة التى ينبعث صوت أزيزها نتيجة لاحتكاك بعضها بالبعض — الشقق والمكاتب بأعلى المبنى . ونادراً ما يعمل المصعدان فى وقت واحد ، ولايمكن تشغيلهما إلا بتجربة استخدام أزرار الطوابق المطلوبة على نحو من الحذق اليدوى . وحينذاك يبدأ المصعد فى التحرك ببطء ويقف الركاب

المتعددو الجنسيات فى صمت وعزلة لايقطعها سوى الإقدام على منع أية علاوة لتحميل المصعد فوق طاقته بقوة بالغة ، وذلك خشية تعطله عن العمل . وفى معظم الأحيان يكون استخدام درجات السلم وسيلة أسرع للوصول إلى الطابق عدد .

ودأب بائع فاكهة على الجلوس على الرصيف ليلا ونهاراً وبضاعته من التفاح والبرتقال اللبنانى مكومة أمامه على شكل أهرامات . وتبدو على يمينه النوافذ المغلقة لمبنى الصحراء الليلى الذى لا أهمية له بالنهار ولكن مظلته وسجادته الخضراء اللون تتحول ليلا بفعل الإضاءة إلى وعد بقضاء وقت ممتع ، ويبدو دهليزه الداخلى معتما كرحم امرأة . ولم أستطع قط رؤية نشاط كبير يدور عبر السجادة الخضراء ولكن المكان المجاور للملهى على الجانب الآخر من المدخل كان يعج بالنشاط حتى ساعة متأخرة من الليل . وكنت أتساءل عما يمكن أن يجتذب مثل هذا النشاط وما الذى يدفع ذلك الفيض من السيارات إلى إفراغ حمولتها من رجال ونساء كانوا يسرعون الخطا إلى الداخل ثم يعودون وهم يحملون حقائب ورقية بيضاء . وحينما علمت أن المخبز اللبنانى يصنع أفضل خبز فى المدينة بدا لى أن هذا ينطوى على دلالة ورمزية تفسر سبب نجاح دبى : فالخبز العادى يوفر احتياجات زبائنه المحليين ويحقق ازدهاراً . . والملهى الليلى الذى يعتمد على عادة غير مألوفة بالمدينة وظاهرة مستوردة لايرتاده الكثيرون فيما يبدو .

وفى كل مساء وتحت مصباح الشارع بأحد أركان بار ومبى كان رجل هندى يجىء وينشر أمامه حزمة من ريش الطاووس ويجلس صامتاً لايتحرك من مكانه وسط بضاعته بينما يجلس على مبعدة منه فى ركن على الرصيف رجل آخر وقد وضع أمامه صينية ملأى بالسجائر .

وكان هناك شىء ما يتعلق بهذين الرجلين الصامتين اللذين كانا يجلسان فى عزلة عن الوجود وسط وقع الأقدام الوئيدة ، وقد هزنى ذلك تماماً . إذشعرت بفقر وبؤس الروح التى تجتاح الغريب فى هذه الأرض الفارغة المتحضرة ، ونوعية الحياة الغربية فيها ، وحد السكين الذى تتسم به الرغبة فى البقاء . وهو شعور سيطر على فى أحيان كثيرة خلال جولاتى بالمدينة وإدراك بطول المسافات

التى يتعذر تذليلها وتفصل بين المهاجرين القلقين المكافحين من أجل لقمة العيش من جميع الأجناس عن أبناء البلاد الأثرياء والذين يتمتعون بامتيازات .

بل إنه حتى رؤية مواطن عربى أمر جد نادر إلا إذا كان فى طريقه ليستقل سيارة ، وفى معظم الأحيان يكون آنذاك سائق سيارة أجرة . وكنت أحياناً أثناء قيادتى سيارتى عبر طريق السيارات المزدوج القائم بين الواجهات الزجاجية المضيئة بأنوار النيون لصالات عرض السيارات أو وقوفى عند إشارة مرور ، ألمح عربياً أنيق الهندام حليق الوجه نحاسى البشرة أسود العينين داخل سيارة فارهة ألمانية أو إيطالية الصنع . وتنم ثيابه البيضاء وغطاء رأسه عن النضارة والجدة فى أى وقت من أوقات النهار ، وكذلك دائماً يكون شاربه القصير مشذباً وأحياناً مايحلى أكمام ملابسه الناصعة اللون بأزرار من الذهب ذات فصوص من المرمر أو اللازورد وتلتف حول معصمه ساعة عبارة عن كتلة ثقيلة من الذهب .

وهو هنا يجلس وسط مكان مريح به تكييف هواء خلف نوافذ معتمة تعمل بالكهرباء وقد أمسك سيجاره بيده الجافة الشاحبة غير مبال بذلك الحشد من المارة حوله . وقد أضفى العرب الموسرون على أنفسهم طابعاً من الغموض أو تركوا الآخرين يضفونه عليهم ، شأنهم فى ذلك شأن العائلة المالكة . ويتسم أسلوب حياتهم بخلفية مستمدة من ثرائهم تفصل بينهم وبين الناس الآخرين جميعاً فيما عدا من هم على شاكلتهم . واجتذب معدل الاتجاه السريع نحو عملية صنع المال التى تخضع لعنصر المضاربة عقولا كان من المحتمل أن تتطور بدون ذلك وفقاً لأسس أوضح . ولايستطيع أى عنصر دخيل التصدى لهم فى مجال القدرة على الإنفاق . . ليس هناك أى معيار آخر لبراعتهم غير ذلك .

وشبه الجزيرة العربية مفتوحة أمام التطور الجديد إلى الحد الذى جعل الاستخدام السريع للأفكار وأساليب التقنية المتطورة فى الخارج والتخلص بقسوة من المبانى والمنشآت التى لم تعد بذات فائدة يطغى على ما كان يعتقده الغرب من توقع مرور وقت طويل قبل إرساء عمد التطور .

وتنوى الأمارات العربيـــة – التى بدأت من نقطة الصفر – استخدام التكنولوجيا الحديثة فى عمليات قائمة إلى الحد الأقصى . وليس لديها تضخم

سكانى يفتقر لفرص العمل ما يتعين معه عليها إعالة العاطلين ، كذلك لايعتمد بقاؤها السياسى على الاحتفاظ بمراكز تتطلب كثافة فى الأيدى العاملة مع كل ما بها من أوجه عدم إنصاف والافتقار إلى الكفاءة .

ولايتعرض العرب لضغوط المجتمع الصناعى الخبيث مع قلة عدد سكانهم الوطنيين . ويمكنهم التخلص بسهولة من القوة العاملة فى بلادهم : إذ أنها تستورد بمقتضى عقود من شبه القارة الهندية ومن بلاد بعيدة مثل كوريا والفيليبين ويمكن إعادتها إلى موطنها وفق هواهم .

فالعالم المتخلف بالمحيط الهندى موطن تجمع رحب للغاية للقوة العاملة التى تتوق للعمل ، وبوسع العرب اختيار مايريدون . وتسرى العقود لمدة عامين . ومن حق العامل العودة إلى بلاده فى أجازة لمدة شهر فى خلال هذه الفترة . وليس من المسموح للعائلات أو للأفراد الذين يعولهم العامل اللحاق بجيوش العمال المهرة وغير المهرة ، ومن المعتاد أن يعود العامل بعد انتهاء فترة سريان العقد إلى مسقط رأسه إلا إذا تم مد أجل العمال بالعقد أو إذا عثر على كفيل له آخر يكون وضعه كمواطن من أهالى البلاد أو المقيم بها إقامة دائمة .

إن عملية تجنيد العمال المباشر من جانب صاحب عمل مغترب محدودة نظراً لأن تأشيرة الدخول الجماعية لاتسمح بسفر أكثر من خمسين عاملا كحد أقصى . ولا بد من جمع السواد الأعظم من العمال عن طريق متعاقدين محليين أو تجار الرقيق بلغة المغتربين ، وجميعهم من أبناء البلاد الذين يحاصر مكاتبهم فى مناطق التجنيد رجال ونساء يتلهفون على العمل فى أرض الأحلام حيث الفرص والأجور المرتفعة .

والحاجة ليست قاصرة على العمال فقط . فالفنادق والمستشفيات بحاجة إلى موظفين مهرة يتم الاستعانة بهم إلى حد كبير من المسيحيين الهنود . وتحتاج العائلات العربية الثرية والجاليات المغتربة إلى خدم وبالتالى يتم انتقاء سائقى السيارات الخاصة والطهاة وخدم المنازل من الغلمان ومربيات الأطفال والخادمات اللاتى يقمن بتنظيف وترتيب المساكن من جزر سيشيل والهند وأفغانستان وباكستان .. بل وحتى من الشرق الأقصى . ويتم دفع أجور سفرهم وتنتزع منهم جوازات السفر فور وصولهم ويحتفظ بها الوكيل أو صاحب العمل . وتحبط تكاليف المعيشة

فى أحيان كثيرة رغبتهم وتخيب أملهم فى توفير أكبر قدر ممكن من الأموال أو تفرض عليهم العيش داخل حدود ضيقة جداً .

ووضع الخادمات على وجه الخصوص ضعيف . فعادة مايكن قد تلقين تدريبات فى الإرساليات الدينية ويتزوجن ويتركن أبناءهن مع أزواجهن أو أقربائهن فى بلادهن ويأتين على أمل كسب هذا المبلغ الإضافى الكفيل بمساعدة عائلاتهن على ارتقاء درجة أخرى فى السلم الاقتصادى . وغالباً ما تكون الرغبة فى تعليم طفل لهن هى الدافع على إغرائهن بالرحيل عن بلادهن . ولايتحقق لهن الكثير . ويشرع قناصل بعض الدول الآسيوية — على نحو متأخر وبعد عدة فضائح — فى التحرى عن ظروف عملهن ويطلبون توفير ضمانات بعينها لهن ، ولكن فى مجتمع لايحظى فيه الفرد بأهمية كبيرة لابد وأن ترعى الجاليات المهاجرة أعضاءها على أفضل نحو ممكن فيما بين أنفسهم .

وليس هناك مكان فى مجتمع إسلامى للمرأة التى لاتتمتع بحماية ، ولاتعمل النساء عموماً فى الخدمة التى تستلزم الإقامة فى المنزل لهذا السبب . ويجرى حالياً تجنيد المربيات والوصيفات — اللاتى كان يتم اختيارهن من قبل من بين العبيد فى منازل العائلات الموسرة — من بين الجاليات المسيحية . ويسقط بعضهن فور وصولهن فى حبائل الدعارة داخل شبكات تدار بتواطؤ مع أبناء بلدتهن . وترغم أخريات على تحمل مستويات من العمل الشاق الحقير الذى لايمكن أن يعوضه السلوك المنزلى المتسامح بصفة عامة من جانب أصحاب أعمالهن وهم مع هذا ليسو جميعاً من العرب .

وليس هناك مكان يقضين به يوم راحتهن سوى الكنائس . أما الأجور التى بدت سخية بالنسبة لبيئتهن المحلية فإن قيمتها تنخفض كثيراً لدى وصولهن حيث أنهن حالما يرسلن مبالغ التحويل الإجبارية التى من المفروض إرسالها إلى بلادهن لايتبقى الكثير الذى يمكن أن تنفقه المرأة على نفسها . ويعتمد أمانها واحتمالات توفر سبل معيشة معقولة بالنسبة لها بصورة مطلقة على طبيعة أصحاب عملها وعلى القسس فى جاليتها الذين يفتحون أبواب كنائسهم فى الأماكن المسموح بوجودها — أمام رغبتهن لاستخدامها كمراكز لقضاء وقت فراغهن نظراً لعدم وجود مكان بديل آمن آخر .

الفصل الرابع عشر

أبو ظبي – أولئك الأماكن التي تستحق المشاهدة – المدينة الجديدة – مستويات معيشة المغتربين – ارتباك وفوضى في التوجيه – بيت انجليزي – مركز البحوث الزراعية – علماء مواليون – كيفية تحويل الصحراء الى جنة خضراء – أسلوب الحياة العصرية – اللاجئون القادمون – حفلة عائلية .

* * *

سألني سائق السيارة التي كانت تقلني وهو يطلب مني بحسم الجلوس على المقعد الأمامي بسيارته .. « هل تعرفين مسز أدنا ؟ » وأردف يقول على نحو من الرضا عن الذات « لقد طفت بها بسيارتي . وأخذتها إلى كل مكان وأريتها الأشياء . إنها إنسانة لطيفة للغاية » .

وأدركت بعد تفكير استغرق دقيقة أنه كان يعني أدنا أوبرين التي وصلت إلى منزلنا في البحرين قبل ذلك ببضعة أسابيع وهي خائرة القوى وشديدة الاضطراب نتيجة التجارب التي مرت بها في الخليج .

وأجبته وقد أثار فضولي – « أوه .. بلى أعرفها » . وكان وهج الحرارة والصدمة الثقافية التي تعرضت أدنا لهما قد أنهكاها إلى الحد الذي عجزت فيه عن عمل أي شيء سوى الأنين برفق كتعبير عن الشكوى من غرابة كل شيء واستحالة إيجاد أرضية مشتركة من الخبرة .

قال السائق : « لقد أريتها عرساً بدوياً . وبوسعي أن أريك مثله إذا رغبت . وجعلتها تشاهد كل شيء مثلما أفعل معك » .

كان رجلا شاباً ضخم الجثة يرتدي ثوباً أبيض اللون ناصعاً وغطاء رأسه مائل إلى الأمام بشكل أنيق مثلما يفعل البدوي الأصيل ويتدلى فوق ظهره

خيطان طويلان لونهما أسود . وكان مواطناً من عدن يسكن هو وعائلته وعائلة شقيقه ووالدته بشقة مكونة من ثلاث حجرات تقع بمبنى حديث يقع وسط أبو ظبي .

وبدا كمن خاب رجاؤه حينما رفضت عرضه ولكنه انطلق في طريقه بهمة ليقودني في جولة بسيارته في المدينة . وذهبنا إلى السوق ، وهو قطاع حديث من المدينة مقسم إلى مبان على شكل أقواس للبيع ومربعات خرسانية صغيرة تتناثر فيها الأزهار . وكان نظيفاً وإن كان يتسم بالكآبة . ويغلب طابع التخطيط على النمو العضوي للمكان . وكانت أدوات المطبخ المصنوعة من النايلون والبلاستيك معروضة في كل مكان حيث يبدو أن أبناء أبو ظبي يعيشون للتمتع بمطابخهم ، ولكني عثرت على مكتبة تجتذب الاهتمام تبيع بطاقات البريد المصورة المخصصة لسكان البلاد من المهاجرين لإرسالها إلى أوطانهم : وهي من البلاستيك أيضاً .

وتصور الآثار الغريبة ذات الأبعاد الثلاثة لحكماء السيخ الإلهات الكريشناه ذات اللون الأزرق الباهت وإلهات أخريات لهن عدة أذرع بل وحتى تصور قلوب مسيحية تنزف دماً ، ومخلصين تغطي الأشواك أجسادهم ، وكلها بطاقات مستوردة من بومباي . وهرولت لشراء بطاقات كهذه ، حيث انحشرت في حشد من المسيحيين الهنود والباكستانيين الصامتين ، وأمكنني في النهاية شراء بطاقة عليها صورة حكيم يرتدي سترة صفراء وله لحية بيضاء مرسلة كان يحملق من بطاقته بنظرة متفرسة قوية كانت تتحول إلى حول إذا أملت البطاقة إلى أحد جوانبها . وجال في خاطري أن هذه البطاقة ستكون مبعثاً لسرور ابني .

وسرت في أثر دليل على نحو من الطاعة فوجدت نفسي أعبر ممراً مكوناً من أقواس إلى حانوت لبيع عصير الفاكهة ، وجلست على مقعد خارج الباب وقدم لي شراب مانجو طازج ، وكان لذيذ الطعم . وكان صاحب الحانوت فلسطينياً . وجاء مواطنان من باتان متشابكي اليدين وبعد بحث مرتبك دقيق في حقيبة بلاستيك كان يخفيانها في مكان ما بين ملابسهما قدما بحذر ورقة

مالية حصلا بمقتضاها على عصير تفاح اشتركا فى تناوله . ولم يتفوه كلاهما بأية كلمة خلال عملية التبادل التجارى : ثم شرعا فى السير بعد ذلك لقتل الوقت – وعلى غير هدى – فى هذه المدينة الجديدة الغربية حيث لا يمكنهم التخاطب سوى مع بنى جلدتهم .

قال لى حارسى : « هل رأيت قصر زايد ؟ لقد ذهبت بأدنا إلى هناك » ولكن كان على أولا التفرج على سوق الفاكهة والخضروات وسوق السمك . وتجنبت زيارة سوق اللحم على الرغم من أنه بدا غاية فى النظافة وليست أكثر بشاعة من أسواق اللحم فى كل مكان آخر وقادنى رفيقى إلى سوق السمك حيث كان حشد صاخب يساوم بنشاط على شراء السمك . وكانت بائعات السمك من النساء محور الاهتمام فى نظر عبد الله : كن نسوة لهن صوت أجش ووجهن يختفى وراء أحجبة سوداء اللون لها بروز مدبب كالمنقار وأخذن يلتقطن الأسماك بخفة وينزعن عنها الرءوس والزعانف ببراعة كئيبة . وكنت قد رأيت نسوة مشابهات فى سوق دبى مسنات وبشعات المنظر بالمثل ، ولم أستطع فهم السبب فى اعتبارهن مصدراً لاجتذاب السياح إلا من خلال فكرة مضللة عن تحرير المرأة .

ولكن ما لفت نظرى بدرجة أكبر كان مجموعة من النسوة السوداوات اللون الطوال القامة غير المتحجبات ، يرتدين ملابس فضفاضة طويلة تلمع فى الضوء وتتأرجح على أجسادهن أثناء السير . وكان مما يذهل المرء أن يتطلع إليهن . كن صوماليات من القرن الأفريقى . كن يشترين آنية زجاجية من صنع تشيكوسلوفاكيا وأخذن يقلبن فى البضاعة بهدوء وتؤده شديدة وقد طالت قاماتهن عن قامة صاحب المحل الهندى .

أشار إليهم عبد الله قائلا : « إنهن مواطنات فقيرات » مشيراً بيده فى اتجاه المجموعات التى تسير فى غير انتظام من نسوة يحاولن شق طريقهن عبر أرض غير مستوية . وكنا نعبر ببطء طريقاً تتوسطه حفرة عريضة عميقة وحيث تمتلىء المنحدرات ببرك مياه راكدة وأحياناً توجد مثل هذه البرك فى الضواحى . واصطفت بيوت مربعة صغيرة على طول الشارع وقد

أغلقت تماماً أبوابها الخشبية ولكن أمامها تم شق طريق جديد مخترقاً البرارى واستطعنا أن نلمح مدرسة بنين جديدة تماماً ومحددة الزوايا .

وكنا فى طريقنا لرؤية مقر الأمير . وكانت هناك حلبة سباق لخيل بها مواقع على طول السياج ذات لون قرمزى مرح بدلا من ذلك اللون الأبيض المعتاد الذى يحيط بحلبات السباق فى إنجلترا . ثم بدا القصر للعيان .. جدران مرتفعة وانطباع بنمو شجيرات خلفها وحرس على البوابة ثم اجتزنا مدخلا آخر للحديقة وقيل لى آن هذا هو قصر زوجة زايد .

وكان شريط المناظر فى أبو ظبى يمر أمام عينى كما لو كان فيلما مصوراً سيئاً عن رحلة . وكنا نسير بسرعة كبيرة .. لم يكن هناك أى شئ متماسك ومع هذا لم يكن هناك أى إحساس بالتجديد ، بل بدا الأمر فحسب أشبه بإعادة ترتيب مجموعة من ورق اللعب .. إعادة توزيع لنفس العناصر المنتشرة فى كافة أنحاء الخليج من رمال داكنة اللون وسماء زرقاء باهتة اللون ومبان عصرية مجردة وحدائق مروية لم تحقق قط الأثر الكامل منها .

ويمتد طريق البحر العريض على طول الاتجاه المطل على البحر . وتكثر به الحدائق وقد غرست فيه أشجار نخيل وشجيرات يانعة .أما على الجهة الأخرى منه فترتفع عمارات شاهقة وفنادق ذات واجهات من الزجاج ومر بذهنى تصور أن هذا المكان أشبه بفلوريدا الرجل الفقير حيث أثارت مشاعرى تلك المناظر المنعشة والأفق العريض والحدائق بمزروعاتها الأساسية والشجيرات المشذبة والمدينة قائمة على أساس نظام مستطيل الشكل به ميادين فسيحة تقطعها حدائق تحتل مساحات رئيسية واسعة حيث يقوم العمال المستوردون من باثان بقص الأعشاب الخضراء بسهولة ويسر بالآلة المحورية الخاصة بذلك ، وفى هذا مشهد متنافر بالنسبة لمرء لديه ذكريات عن الهند تحت الحكم البريطانى وإقليم الحدود الشمالية الغربية .

وملحق بكل طريق ضيق ملتو حديقة يكثر بها النخيل وشجيرات مورقة وتزين الميدان الرئيسى أوانى ضخمة فخمة لنبات البطونية الأمريكى حيث كانت تحيط بمسجد غريب جدا – قيل لى إنه من باكستان – مظاهر

غير معتادة داخل الإطار المسطح الجانب لتطور عصرى لمبان عبارة عن مكاتب . ويتناثر رزاز مياه النافورات أحياناً .. وفى هذا عنصر اسمى لاستعراض مشهود فى أرض لايزال لاكتشاف المياه فيها وقع المفاجأة . وتتألق الطرق الفسيحة والخالية من المارة تحت وهج الشمس وتنتهى فجأة بمشهد لممر تحيطه إطار من أشجار النخيل وتبدو فيه سماء صافية وبحر شاحب اللون لا يكاد يتمكن المرء من التمييز بينهما وسط تلك الغمامة التى يصنعها وهج الشمس .

وتوجد الجرارات فى كل مكان ، وجلس زوجان وحيدين فوق أرض غير محروثة من رمال فى لون القشدة حيث تتدفق مياه البحر الواهنة فى موجات صغيرة على شاطىء ضيق ووقف رجل وسط المياه التى غمرته حتى خصره ليثبت شبكة صيده المصنوعة من الخيرزان وقد أوقف سيارته اليابانية فى الطريق الملىء بالأخاديد بجوار الشاطىء يدخل التطور على هذه المنطقة من الأرض التى لا تزال خالية بسطحها الرملى ورقعتها المتفرقة من الأعشاب التى لا تهتز فى ذلك الهواء غير الطلق . وتعتبر الجرارات الصفراء اللون المؤشرات الدالة على ذلك وهى تستوعب المناطق غير المستوية بطريقتها المتمهلة شأنها فى ذلك شأن الفلاحين فى ديارهم وهم يعملون فى حقولهم وقد انطووا على أنفسهم وسط الضجة التى تحدثها آلاتهم .

وعجبت من رؤية جمال تسير فى طريق بأحد الضواحى وهى تتمايل على غير هدى وسط البرارى حيث تختفى البيوت السكنية الخاصة وراء جدران اكتست بعناقيد أزهار الدفلى العطرية السامة والأزهار الخطمية الوردية وكان لكل بيت حافته الضيقة من الخضرة والتى تعزله عن العالم الخارجى وتضفى على سكانه عزلة لها طابع الخوف من الأماكن المغلقة . وقد شاهدت النموذج المتطرف لهذا فى دبى حيث توجد بضاحية جميرا مساكن خاصة تغطيها كلها النباتات الخضراء المتسلقة التى تتدلى من السقف حتى الأرض خارج جدران البيت الخاص مما يعطيها شكل الخيمة . وشعرت بأنه لابد من وجود فكر نضر مفعم بالحياة مختفى داخل نطاق هذه الظلال الخضراء ولكن ما من أحد استطاع إخبارى بقاطنى هذا المكان .

وليس هذا أمر فريد من نوعه بالنسبة لأبو ظبى : فهو المعيار السائد فى كافة أرجاء الخليج حيث قيمة الأرض مرتفعة جداً إلى الحد الذى يجعل كل بيت ينحصر داخل نطاق جدرانه بصورة محدودة قدر الإمكان ، ويحقق المهندسون المعماريون الأجانب معجزات من الإبداع بحصرهم تصميمهم داخل نطاق حيز ضيق من المكان على نحو لا يمكنهم الأمل فى تحقيقه داخل بلادهم . وتخضع المنازل لتصميم مناسب حيث تلحق بها مطابخ وحمامات عصرية ، ويبدو كل شىء أشبه بإعلان تليفزيونى ولم أكف عن التعجب من مستوى توفر مستلزمات الراحة التى يعتبرها العاملون المغتربون وشركات الاستشارة والتجارة الكبرى أمرا مسلماً به ، حيث تعود بى الذكريات عن تدبير شئون المنزل فى الشرق إلى ثلاثين عاماً مضت حيث مطابخ القاهرة القذرة المخيفة ومواقد الغاز التى تعمل بالكيروسين والثلاجات التى تعمل بألواح الثلج ملفوفة فى خرقة ويوزعها على المنازل غلمان يتصبب منهم العرق مستخدمين فى ذلك الدراجات ، والليالى الطويلة الخانقة من حرارة الجو حينما كان الجو يضغط على أعصاب المرء وكانت حتى ملاءات السرير ساخنة إذا أراد المرء أن يرقد فوقها .

وقلت فى نفسى يالروعة أن يتمتع المرء بمستوى معيشة كهذا .. وحسدت الحمامات والمطابخ المبنية من القرميد والتى تتلألأ من رونقها وتعتبر سمة معيارية فى بيت كل مغترب زرته .. وما تقترن به من سيارات أنيقة نظيفة . وليست هناك مشكلة فى المحافظة على مظهرها . إذ يقطن جيش من المهاجرين بكل مدينة حيث لا يكفون عن إزالة الأتربة من السيارات التى تتناثر على ساحات الانتظار على نحو أشبه بتلك الأوراق الصغيرة الملونة التى يتم نثرها فى الاحتفالات وشعار تجارتهم الذى يرمز إليها هو ما يحملونه من أوان من البلاستيك للتنظيف ومنافض لإزالة الأتربة .

وتكتسب الجمال الشاردة بين تجهيزات مبنى فى طور الإنشاء صفة الملوسة . وظننت أنى سأصاب بالجنون حينما سار سائق السيارة الأجرة التى تقلنى مرة أخرى فى نفس القطاع العريض من الطريق بحثاً عن بعض المارة

الذين يمكن أن نسألهم عن الطريق . ولكن دون جدوى . فالشبكة المستطيلة التى تقوم المدينة على أساسها تجعل كل شىء يبدو متشابهاً بين أماكن متماثلة . فالمنازل بدت جميعاً متشابهة .. وكذلك الطرق . وكنت أمسك فى يدى بالاتجاهات المطبوعة فى خريطة : كانت هناك الرابية المصطنعة وعلى قمتها صهريج المياه كما جاءت بالوصف تماماً .. ولكن أين موقع مركز « النهار » لإطفاء الحرائق ؟

لم يكن سائق السيارة يعلم . كان لبنانى الأصل .. رجل بدين الجسم شاحب الوجه من طرابلس على استعداد للخدمة ولكنه مضطرب . كذلك كان البستانى الباكستانى الذى جيئناه والخادم الهندى . وكان مجرد الضغط الذى تسببه وسيلة الاتصال اللغوى مضنياً . وشعرت بنوبة من الهستيريا تتصاعد داخلى ونحن نعطى ظهورنا مرة أخرى للبحر ونشق طريقنا عبر مناطق الضواحى المترامية الأطراف .. وهى مناطق تبدو واضحة وتحتوى على عناصر توضيحاً ذاتياً بلا أدنى شك وهى على الخريطة ولكنها تبدو محيرة تماماً وغير قابلة للفهم فى الواقع . فلا أسماء للشوارع ولا أرقام للمنازل .. كل شىء مجهول الهوية .. وبدا أن المرء يسلك طريقه فى هذه النواحى من خلال استخدام البوصلة أو يتقدم لمدق فى الطريق إلى مدق آخر كالبدو . ولم تستطع ربة بيت إنجليزية شابة دمثة الأخلاق – ثرثرت معها بلا جدوى عند باب منزلها المكسو بستار من السلك لمنع دخول البعوض إلى البيت – لم تستطع تقديم يد العون لى . فهى لا تعرف مواطنى بلدى . وشعرت بأنه قد قضى على بقضاء ساعات الظهيرة الحارة مثل الهولندى الطائر الذى أخذ يتنقل بلا جدوى عبر ساحات من الأراضى لا طابع لها ، حتى أصبح ضحية لهذه المشاعر السلبية التى يمكن أن تولد من عذاب المرء وكراهيته المتأججة للمنظر .

وأقنعت الرجل بقيادة السيارة ببطء أشد ، إذ أن أثر السرعة بدأ يثقل حتى عليه حيث أنه لم يثمر عن أى نتيجة ملموسة . وأخذت أتفحص بعينى بدقة تلك المساحات المتفرقة من أراضى البناء وقد غلب على الاهتمام . لقد

كنت على كل حال فى هذا المكان صباحاً ولذا ينبغى أن أتعرف على شىء ما هنا حتى إذا كنت قادمة من اتجاه آخر . وأخيرا وقعت عيناى على زورق بخارى سريع فوق عربة مقطورة وفى الحال احتل كل شىء مكانه فى ذاكرتى. أجل لقد كان هناك الطريق والسور الفردى المصنوع من أوتاد وذلك السور الآخر المكون من شجيرات الياسمين . وتبخرت مشاعر اليأس التى استبدت بى وتبادلت التهنئة مع سائق السيارة لنجاحنا ، وتغلب النظام على الفوضى ، وانتصرت بذلك روح البحر الأبيض المتوسط .

وبدا لى داخل المنزل الإنجليزى الهادىء والبارد باعتدال أن مشاعر يأسى التى أصابتنى بالذعر لا علاقة لها بالواقع . فها هو المرء يرسو ثانية على شاطىء طريقه مألوف فى الحياة .. وهنا كتب وصور وكلب مدلل ساحر . ودار الحديث عن المدارس وعن مشكلات الآباء فى الخارج وأيضاً عن مدرسة الجالية البريطانية المحلية هنا . واصطحبنا الكلب بعد ذلك فى نزهة على ذلك اللسان من الأرض غير المحروثة حيث كانت الجرارات تؤدى عملها يومياً.

وكانت المعدية – وهى سفينة خشبية عتيقة قوية تعمل بمحرك ديزل راسية أمام حاجز مياه الميناء فى عهدة عربيين لهما قامة نحيلة وقد خلت أفواههما من الأسنان وأرسلا لحية هزيلة . وكان كل واحد منهما يرتدى صديرية من قماش مربعات التفت حول خصره وعمامة غير محكمة الرباط التفت حول رأسه فيما يشبه رباط القراصنة ، وهى علامة بارزة للبحارة فى هذا الساحل . وسلمنى عبد الله لعهدتهما .. الأمر الذى تقبلاه برحابة صدر .. وجلسنا فى ضوء الشمس الساطعة فى انتظار حدوث شىء ما .

وكانت هناك ميزة مرضية لا يبليها مرور الزمن فى هذا التعهد . إذ ظهر شاب أنيق يرتدى سروالا من قماش قطنى متين وركب المعدية .. ثم جاءت امرأة بدينة تغطى وجهها بحجاب وهى تهرول من سيارة أجرة تصحبها صيحات عالية لطاقم البحارة بعدم الإقلاع . وكان صوت المحرك يدوى تحت الألواح الخشبية والبحارة يقومون بنشاط متفرق بإلقائهم الحبال حينما دلفت إلى سطح المعدية وجلست السيدة حالما صعدت إلى ظهر المعدية على

كومة من الأشياء وبدأت تحل الرباط عن مشترواتها : مصفاة طهى من البلاستيك وبالونات منفوخة لامعة حمراء وصفراء انفجرت منها ، وكان كل شىء بهيجاً وشعرت باسترخاء وبتعايشى مع المكان ثانية . أسررت إلى نفسى قائلة : « يجب أن يكون الوضع كذلك وإلا أصيب المرء بانفصام فى الشخصية » .

وحينما عدنا رأيت كلباً أجرد يرتجف وهو ينتظر عند الباب الخلفى وقد سلخ الجرب جلده . وكان الكلب المدلل الأصيل لشخص ما فى أحد الأيام ولكن أصحابه نبذوه الآن وأصبح يعيش على الإحسان فى انتظار نتيجة العلاج البيطرى الذى يتلقاه وبدا وجوده المستكين بما يوحى به من شعور بالوداعة والامتنان أشبه برسالة آتية من عالم آخر .. عالم أكثر حناناً وأقل قسوة ولا مبالاة من ذلك الذى أشق طريقى فيه بألم .

وركبت سيارة عبد الله فى اليوم الثانى مرة أخرى . وقادنى إلى رصيف ميناء خشبى يقع بعد مدخل الميناء بقليل : وكان على ركوب معدية لأصل إلى الساديات ، وهى جزيرة تقع بالقرب من الشاطئ حيث يوجد للحكومة بها محطة أبحاث زراعية . وتنمو عينات من الخضروات منتقاه بعناية على مساحة خمسة أفدنة من بيوت زجاجية مشيدة بداخلها الهواء وتروى بمياه البحر بعد إزالة ملوحتها .. وهذا مشروع باهظ التكاليف حينما نتذكر أن هناك ٧٠ ألف جالون من المياه يستهلك اثنتان وهى تفعل ذلك . وانطلقت ضحكات مجلجلة من الرجال ولم نكف منذ اللحظة التى وطأت فيها قدماها ظهر المعدية عن تبادل الحديث مباشرة وبدون أن يمنعها بوضوح أى عائق من السلوك مع البحارة الشاب الذى سخر منها بدون إفراط بسبب البالونات التى انفجرت .

كانت امرأة متقدمة فى السن ، تتزين بتطريز مكثف بخيوط فضية عند معصمها وكاحلها (رسغ القدم) وصدرها ، كما كان يزين المنطقة التى تحيط برقبتها من ردائها القطنى الشفاف الأحمر والأصفر خياطة دقيقة بخيوط حريرية . ولايبدو أنها تأثرت على الإطلاق بفقد بالونتيها .

وجلست بصورة مريحة على صندوق وانحنيت على السياج الخشبى . كان جمال البحر ذى اللون الأزرق المشوب بالخضرة مذهلا ورائعاً ومثيراً للمشاعر بشدة . وحينما كنا نبتعد عن الشاطىء اكتسبت المدينة البعيدة شكلا وسط الهواء المنعش حيث بدت المبانى الطويلة شامخة بصورة أشبه بالخيال وصهاريج تخزين البترول المصنوعة من الألومنيوم والمبانى البيضاء وهى تتألق فى الضوء القوى .. وهكذا بدت أشبه بمنتجع خرافى فى هوليود .

ومضينا فى طريقنا وسط السفن الراسية والسفن الساحلية العتيقة الطراز المخصصة للتجارة بين الموانىء وسفن الشحن . وكانت هناك معديات أخرى تشق طريقها عبر الممر المائى وعرب يرتدون العمامة يمخرون عباب البحر الرائع على ظهر زوارق آلية من البلاستيك ويخلفون وراءهم آثاراً منتشرة من المياه والرذاذ الأبيض . كان كل شئ يوحى بالبهجة ويتألق لمعاناً ويعج بالنشاط ويرفع الروح المعنوية . واندفعت سفينتنا فى طريقها قاصدة هدفها وانطلقت حولنا الزوارق الآلية الصغيرة وربابنتها يوجهون دفتها ببراعة شديدة كما لو كانت سيارة أجرة . وبدت على مرأى الأفق الحفارات وهى تشق طريقها كخنفساء مائية غريبة الشكل تعلو سطحها أبنية كما لو كانت أطراف جراد .

وشعرت بالأسى الشديد حينما بلغنا مقصدنا وتطلعت إلى رحلة العودة . واتضح أن الشاب الذى كان بالمعدية هو المشرف على بيت النباتات الزجاجى ، وهو بحرينى تدرب لمدة ست سنوات على الوسائل التقنية (التكنولوجيا) المستخدمة فى علم زراعة الأشجار والنباتات فى موسكو وركبنا سيارة لاندروفر إلى محطة الأبحاث الواقعة فوق أحد الكثبان الرملية على مسافة قصيرة من الشاطىء .

واكتسبت المناظر الطبيعية بعيدا عن المدينة طابعاً أكثر ألفة . فقد ظهر لنا الخراب والتهدم المألوف فى الشرق مرة ثانية فى كل منعطف دلفنا إليه وضم معسكر من خيام أقيم خارج موقع عمل أناساً ليسوا من البدو ولكنهم عمال من الباكستانيين يعيشون فى الموقع بين هياكل أسرتهم الحديدية وعليهم

الصفيح ولا يقيهم أى شيء آخر بخلاف مظلات خيامهم المصنوعة من قماش القنب .

وقد أنشأت جامعة أريزونا مركز الأبحاث عام ١٩٦٩ بناء على طلب من الشيخ زايد واستكمل العمل به عام ١٩٧٢ وخضع منذ أربع سنوات لإدارة محلية ، وغادره آخر أمريكى كان يعمل به فى ديسمبر عام ١٩٧٦ .

وهو ليس مشروعا يستهدف المنفعة تماماً على الرغم من أن طناً ونصف الطن من إنتاج الخضروات يطرح للبيع بالسوق البلدية كل يوم فى الساعة الرابعة بعد الظهر . ولكنها محطة تجريبية معنية أساساً بأداء النباتات وتشارك فى اكتشافاتها مشروعات أخرى بدول الخليج . ويجعل التمويل السخى الذى تحظى به جزيرة « الساديات » منها مكاناً يحتل الصدارة من حيث الموارد وإمكانيات إقامة التجارب ، ويزورها أخصائيون فى النباتات من كافة أنحاء العالم .

وتنمو المحاصيل فى الأرض الرملية وتروى بنظام تقطير خاص بكل نبات على حدة مع إضافة مواد مغذية إليه . وثمة رقابة دقيقة فى معرض محاولة إقامة توازن بين صحة النبات وصيانة المياه والمواد المغذية . ومن الممتع السير بين البيوت الزجاجية الضخمة المقامة من البلاستيك وتخضع لتكييف هواء حيث تمتد محاصيل الطماطم والباذنجان والسبانخ وحبوب اللوبيا والفاصوليا والفول فى صفوف متراصة داخل البيوت الزجاجية الهادئة وتلقى رعاية من جانب مواطنين باكستانيين ذوى لحى كثة وتحت إشراف الهيئة العلمية بالمشروع وتعكس هذه الهيئة العلمية الخليط العالمى المميز بمنطقة شبه الجزيرة العربية . فمدير المشروع من أبناء أبو ظبى ، وهو رجل جاد وخجول يحمل درجة علمية من جامعة أريزونا ، والمشرف على المعمل بحرينى تعاونه فتاة إنجليزية مولودة فى الخليج من نسل عائلة عسكرية لا تزال مقيمة فى أبو ظبى . وكبير الأخصائيين فى النباتات يمنى يحمل شهادة الماجستير فى العلوم وتلقى تدريبه فى القاهرة وكولورادو .

ونطبق نتائج أبحاث مركز أبحاث الساديات داخل البلاد . . فى القرى الصغيرة بالواحات حيث تتوفر المياه العذبة واستخدام المياه بعد إزالة ملوحتها وتعتبر وسيلة غير عملية على نطاق واسع جداً .. ويقتضى أى مشروع تجارى استخدام إمدادات معقولة من المياه العذبة . وليس ساحل البحر بأفضل مكان لنمو النباتات حيث لا يمكنها النمو إلا حينما تتم وقايتها من الرياح التى تبعث على الجفاف والعواصف الرملية والنسمات المحملة بالأملاح والقادمة من البحر . وأنشئت محطة أبحاث أخرى تعمل على مساحة عشرة أفدنة تحت إشراف فرنسى على مقربة من مدينة العين ، وقد نجحت فى إنتاج محاصيل لمدة ثمانية أشهر فى العام باستخدام الرى بمقادير بسيطة ، وهو استخدام للموارد الطبيعية أكثر اقتصاداً من الطريقة التقليدية الخاصة بالرى المستفيض من مصارف المياه المفتوحة . وتنمو هنا أيضاً النباتات – وجميعها أصناف متنوعة من الخضر التى تباع فى السوق – داخل أنفاق طويلة من البلاستيك أو تحت مظلات للوقاية من الشمس وهى عبارة عن شبكة من البلاستيك تمتد عدة أقدام فوق النباتات وترش بقطرات صغيرة من المياه للاحتفاظ بالرطوبة والبرودة .

ولا يمكن لأى كيميائى يبحث عن حجر الفلاسفة أن يكون أكثر لهفة من هؤلاء الباحثين العصريين عن وسيلة لتحويل الصحراء إلى أرض منتجة . ويعتبر حجم التكاليف فى الوقت الحاضر مسألة تحتل أهمية ثانوية ، فالمهمة تنحصر فى توفير هذه السلالات من النباتات التى يمكنها الصمود على أفضل الوجوه أمام الحرارة اللافحة لهذه الأراضى الصحراوية والخلق الاصطناعى لبيئة مناسبة لنموها ، وقد تم غرس أربعة آلاف شجرة من نوع « أوكالبتوس » بالمحطة الفرنسية كحاجز واق من الريح لحماية النباتات .

وحان مطلع عطلة يوم الجمعة فى نهاية الأسبوع ، ودلفنا جميعاً إلى سيارة ركاب صغيرة لتقلنا إلى حوض السفن . وجاء المدير أيضا وعدد شتى من السكرتيرات فتيات من الجاليات الهندية والفلسطينية المتحررة . وكن جميعاً يحملن باقات كبيرة من القرنفل المزروع بالبيوت الزجاجية ، وأعطونى باقة أيضاً .

وحينما وصلت إلى رصيف السفن أصبت بخيبة أمل قليلا ، إذ لم نكن سنعبر المياه بالمعدية ، ولكن المدير نفسه سينقلنا معه فى زورق آلى كبير مطلى باللونين الأزرق والأبيض ، وبالتالى دلفنا إلى المركب نحن مجموعة النساء وجلسنا على المقاعد المبطنة العريضة خلف الحاجز الزجاجى المهيب للزورق والمصنوع من الزجاج والألومنيوم . واحتل المدير مقعد القيادة وبدأ الزورق يسير مندفعاً عبر المياه مخلفاً وراءه ذيلا مروحياً من المياه والرزاز الأبيض . وتلاحقت أمام عينى المتطلعة إلى باطن نفسى صور لمدينة ميامى وإعلانات عن شراب فوار ومحلات البلاى بوى ؛ إذ كنا نسير بسرعة بالغة على نحو جعلنى عاجزة عن التفكير فى أى شىء سوى ما يرد على الذهن فى لمحات متقطعة ، حيث كانت التجربة الفعلية للحياة الغنية تجتذب جل اهتمامى .

وحينما بلغنا الحاجز المائى هبط الجميع من الزورق كل بطريقته ، واستقل المدير سيارته متجهاً إلى منزله لتناول طعام الغذاء . ونظراً لأنى وصلت قبل الموعد الذى كان محدداً لوصول المعدية بنصف ساعة فقد جلست فى انتظار ظهور عبد الله بالسيارة الرسمية . وساورنى القلق على حياة باقة القرنفل معى التى أخذت تذبل فى غلافها المصنوع من ورق السيلوفان ووجدت صعوبة فى استعادة ذلك الشعور المريح الذى خالجنى فى رحلة الصباح وتوقفت فيه ساعة الزمن .

وكان حاجز المياه مجاوراً لميناء رسو اليخوت ، ووقفت صفوف من السيارات فى الانتظار تحت سقف مفتوحة لحمايتهم من حرارة الشمس المحرقة التى يمكن أن تجعل من لمس سيارة رابضة والجلوس فيها تجربة غير سارة . وجاءت سيارة مرسيدس غالية الثمن وخرج منها رجل يرتدى زياً عربياً . ووقف بجانبها حيث أخذ يخلع بطريقة منهجية منظمة غطاء رأسه ورداءه الطويل ثم طواهما ووضعهما داخل السيارة وأغلق بابها وسار ببنطلون رجالى قصير نظيف خاص بالسباحة « مايوه » ونظارة شمس فى اتجاه زورقه وهو يحمل معه حقيبة رحلات ويبدو للعالم كله كما لو كان أحد السكان، من الإيطاليين أو الفرنسيين ، للريفيرا .

وتهادت سيارة عبد الله أخيراً عبر الطريق الرملى ، وبدا شاحب الوجه وشكا من قطع بسيط فى المنطقة المحيطة بأحد أظافره ، وكان الجرح يؤلمه . وبحلول منتصف فترة ما بعد الظهر كان الألم قد زاد كثيرا إلى الحد الذى جعله يجد مشقة فى القيادة ، ولذلك جاء ليقلنى إلى المطار بصحبة صديق له جلس على عجلة القيادة .

وكان الصديق شاباً عدنياً آخر حسن المظهر يرتدى زياً نظيفاً ضيقاً من قماش قطنى متين . وهو يعمل فى معمل تكرير البترول ويتحدث بطلاقة وانطلاق وكلاهما سعيد بالحياة فى أبوظبى ، فالمكان يطيب لهم ويوسعهم العمل والحصول على أجر طيب . والمكان أفضل بكثير من عدن حيث مستويات المعيشة جد منخفضة . وتطرقنا للحديث عن السياسات أثناء سيرنا : فمن رأيهم أن العاهل السعودى يحتل المكانة الأولى ، وليست هناك قوة أخرى منافسة له فى شبه الجزيرة العربية ، وأيا كان ما حدث فى هذه المنطقة فقد حدث لأنه اتفق مع رغبته . قالا « انظرى إلى ما حدث فى مسقط ، إن هذه الحرب التى اندلعت فى ظفار لم تكن لتستمر لولا أن السلطان قابوس جلب قوات إيرانية إلى الأرض العربية . وحينما استوعب الدرس كفوا عن تقديم أموال للمتمردين » .

وتبادلنا تحية الوداع بمرح وقفلا عائدين ليأخذ عبد الله حقنة بنسلين ليخفف ألم إصبعه الذى جعله يشعر بالوهن والمرض . وكان المطار شبه خال ، إذ وصلت مبكرة فى وقت الأصيل الذى يقل فيه النشاط . وجلست على مقعد مستطيل وأخذت أقرأ جزءاً آخر من كتابى « أنتونى باول » الورق الغلاف . وكان العمل المستمر فى هذه السلسلة أثناء رحلاتى بدول الخليج مبعث ارتياح شديد لى : فقد كنت أخلق جذوراً مصطنعة حول جذورى — مثلما يحدث بجزيرة « الساديات » تماماً — بتطعيمها بكائنات حية دقيقة جاهزة غير موجودة فى الرمال .

وفى الحال وصل مسافر آخر يابانى ، ولابد من وجود مسافر يابانى دائماً فى كل مطار . وأمكننى أن أرى خارج الردهة ذات الواجهة الزجاجية

عدداً من عمال الحدائق الباكستانيين فى سراويلهم الفضفاضة وهم يرعون مروجاً خضراء وأحواضاً من زهور يانعة ، أما فى داخلها فكان هناك أفراد يمنيون نحيلو القامة وإن كانوا أقوياء البدن ، ويرتدون زياً كاكى اللون نظيفاً على الطراز البريطانى يسيرون جيئة وذهاباً وأحذيتهم برقبة تحدث طرقعة عالية ، وكانوا يحملون قطعاً متعددة من العتاد الحربى الأسود اللون المتألق والمسدسات حول وسطهم . وكان الضابط رئيسهم وقحاً وغير متفاهم حيث صدنا بغضب ونحن نحاول ولوج صالة المسافرين ثم سار مختالا يدق الأرض بقدميه ليثرثر بصوت عال مع عضو آخر بقوة الدفاع .

ولذلك قفلت عائدة إلى مقعدى وأخذت أقرأ فى كتابى ممارسة بذلك الحياد الصبور والمنفصل الذى يعتبر أفضل حلفاء المسافر . وكان الشاغلون الآخرون فقط للقاعة هم رجل متقدم فى السن له لحية خطها الشيب ويرتدى سروالا رثاً وفتاة بدوية متألقة خدودها وردية تحمل طفلا صغيراً بديناً أخذ يسعى للفت الأنظار إليه بجموح تحت أنظارهما الشغوفة . هل هو الجد .. الأب .. الزوج .. من يستطيع حسم هذا الأمر ؟ وبدا أن الفتاة لا تتجاوز الستة عشر ربيعاً وكانت ترتدى بمرح ملابس من حرير مخمل وبرزت بطنها من تحت ردائها وقد أخذت فى التكور إيذاناً بحمل آخر .

وأياً كانت العلاقة بينهما فقد بدا أنهما متوافقان تماماً ويتبادلان الحديث بمرح ويدللان الطفل . وكان الطفل يجد نفسه بين الحين والآخر فى أحضان أحدهما بنشوة شديدة ويفرق قبلاتهما . ووجدت نفسى أفكر فى لوحات الإله العظيم ومريم ويوسف والطفل المقدس .. وكلهابلوحات محددة فى صورة الإيمان المسيحى العذبة الحزينة مع ما تنطوى عليه من وعى وثنى بالموت والبعث .

ولم تطغ على هذين الشخصين سحابة كهذه من المخاوف المعتمة . ولم يكن فى وسعى بأى حال تخيل تواجدهما داخل هذا الإطار . كان كل شىء عاجلا ومليئاً بالحيوية وواثقاً من نفسه .. نوع من الاستيعاب فى اللحظة التى منح فيها الفتاة السحر المتألق لحيوان جميل ، لعوب وواثق من وضعه الآمن .

الفصل الخامس عشر

الماضى القبلى — صعوبة التكامل — تربية الجمال — مجتمع المهجر — الحساسية العربية — حفل الكوكتيل — وسائل التسلية الايرانية — نمو الادارة — آثار التضخم — الحساسيةالمفرطة للنقد — صناعةالعلاقات العامة — أمثلة تاريخية مشابهة .

* * *

لم أكف عن التساؤل وأنا أتطلع إلى تلك المبانى الضخمة التى ترتفع بكثافة غير منسقة عبر الأراضى المسطحة الملحية على طول السهل الساحلى للإمارات ، عما إذا كان المسئول عن وجود هذه المبانى يتميز برؤية تعجز عيناى عن استشفافها حيث تطمس على مشاعر تحيز غريبه .. أو ما إذا كانت هناك حقاً ملائكة تعيش بيننا وأن العرب هم أكبر المحسنين فى عهدنا ، حيث يبنون مدناً ليسكنها آخرون ويخلقون فرص عمل للآخرين .

ومن المستحيل ألا يتساءل المرء على هذا النحو حينما يكون السكان من المهاجرين إلى بلاد الخليج قد تضاعفوا خلال فترة لا تتجاوز عشرين عاماً أضعاف أضعاف آخر رقم إحصائى معروف لهم بصورة لا يمكن التحقق منها ، وفى الوقت الذى يشكل فيه السكان الأصليون أقلية — بنسبة ما يقرب من مواطن أصلى واحد مقابل خمسة من الأجانب — إلى الدرجة التى أصبح فيها التحفظ فى تناول هذا الموضوع هو الموقف الرسمى السائد .

ولا يزال ما يقرب من ثلاثين فى المائة من السكان الأصليين بالإمارات السبع التى تشكل دولة الإمارات المتحدة يعيشون فى أوضاع تتسم بالبساطة البدائية التى يطرأ عليها تحسن هنا وهناك بفضل توفر تسهيلات عصرية ولايبدو أنهم يريدون عمل أى شىء آخر ، فلا تزال العائلات القبلية تتمسك

بطريقتها فى الحياة حيث تقوم بالرعى فى الشتاء وتربية بعض الماشية لتقيم أودها ليس إلا ، ولا تفى بأى مطلب حقيقى فى سوق تتكدس فيها الذبائح من اللحوم المجمدة المستوردة وتتعهد هذه العائلات برعاية حدائقها الموسمية ونخيل البلح فى قراها الصغيرة بالواحات .. وتتولى أحياناً عملا فى البيئة العصرية بالمدن أو بصناعة البترول ثم تعود ثانية إلى تلك الحياة التى تفضلها على كل ما عداها .. شأنها فى ذلك شأن المتقدمين فى السن الذين يتصفون بصعوبة المراس والعناد الذى قضى على أفضل المحاولات التى بذلتها ذريتهم لتحويلهم إلى مواطنين عصريين .

وهذه ليست مشكلة فريدة من نوعها بالنسبة للعرب ، فأرصفة السفن الصخرية الهائلة فى ليفربوره بجزر هيربيدس الاسكتلندية ليست سوى تذكار باق ليدل على الإخفاق فى إقناع سكان الجزيرة بالاستجابة السريعة لصفير مصنع تعليب السمك . وبالنسبة للمخطط الذى يطمع فى فرض تطور تقدمى معترف به على عنـــاصر قديمة من العسير أن تستوعبه فإنه من الأمور التى لا تحتمل مع ما تعانيه القوة البشرية الأصلية من مثل هذا العجز نرى أن نسبة مئوية كبيرة جدا من السكان تدير ظهرها للفرص المتاحة أمامها أو على أفضل الأحوال تقبل ما هو متاح أمامها بنوع من الازدراء الشديد بحيث تأخذ ما تريد وتتجاهل الباقى .

وتحتفظ العائلات الحاكمة التى تنحدر من صلب مؤسسى المنطقة الوسطى بشبه الجزيرة العربية ، برباط يجمعها بماضيها القبلى . فشبابها يذهبون لصيد الصقور فى أشهر الشتاء ويسافرون لمناطق بعيدة مثل باكستان وإيران بصحبة بطانتهم ، من صائدى الصقور وأفراد حاشيتهم الشخصيين محاولين بذلك استعادة لمحة من الحياة المتحررة والسهلة فى المخيمات كالتى عاشها أجدادهم وإن كانوا يتنقلون حالياً بالطائرات أو سيارات الرينج روفر وفى عربات مصنوعة وفقاً لمواصفاتهم . وهم يشرعون فى أداء هذه الرياضة بنفس التكريس الذى كانت تبديه أجيال سابقة من صائدى الثعالب البريطانيين وبقدر من نفس مشاعر الاحتقار الشديد لهؤلاء الذين لا يلمون بتجربتهم .

وبعد أن كانت الجمال فى يوم من الأيام المصدر الرئيسى للاقتصاد القبلى ، أضحت حالياً عنصراً مساعداً يكمل صورة الحياة الرياضية بالقصور . وتزين الجمال بحبال مجدولة ذات ذوائب وكسوة مطرزة من الجلد ويجثم خلف سنامها أصحابها من ذوى البنية النحيلة على نحو ينطوى على مجازفة ، يسوقونها للاشتراك بها فى سباقات تقام أيام الجمع خلال أشهر الشتاء . وتشرئب أعناق الجمال إلى عالياً وتتدافع أرجلها الطويلة إلى الأمام فى علو سريع سرعان ما تزداد حدته وتمر خطفاً أمام المشاهدين تحت وطأة لسع العصى التى يستخدمها راكبوها فى عملية استثارة بربرية لما يجب أن تكون عليه العادات القبلية وذلك فى نفس الوقت الذى يسير فيه آلاف من راكبى الجمال وهم يحملون رماحهم أمام هذا الراكب فى صفوف ممتدة غير منتظمة وحول الأعلام الحريرية المرفوعة فى وسطهم .

وقبل استخدام السيارات ذات المحرك وقدومها إلى البلاد ، وقبل شق الطرق الرئيسية السريعة الحديثة كان يجرى تربية هذه الحيوانات بالآلاف لتوفير إحتياجات القوافل التى تتحرك بصورة دائمة عبر المسافات الشاسعة بين شبه الجزيرة العربية وسوريا . وكان هناك منها نوعان ، جمل الركوب الخفيف أو الجمل العربى الوحيد السنام والذى يقوم بدو المهرا برعى أفضل أنواعه وهؤلاء يعيشون فى أعماق جنوبى شبه الجزيرة العربية تحت الربع الخالى غربى ظفار ، والنوع الآخر من الحيوانات الأثقل وزناً والتى تحمل متاعاً وكانت تربى فى إقليم الحسا وصحارى عمان . وفى كل عام كانت قافلة من الجمال غير المقيدة تتجه من البصرة إلى حلب ، وكان عددها يتراوح بين ثلاثة أو أربعة آلاف جمل ليبيعها بدو المنطقة الشرقية من شبه الجزيرة العربية مقابل مبالغ نقدية وليقايضوا أيضاً أى عدد لم يتم بيعه منها ببضاعة سورية . ودأبت قوافل التجار المنتظمة على استخدام مئات الحيوانات لنقل المواد الغذائية والمياه خلال رحلاتهم الطويلة بصرف النظر عن الدواب وجمال الركوب المخصصة للاستخدام الشخصى للتجار . وكان بوسع قوافل الحج المتجهة إلى مكة استخدام عدد يتراوح بين عشرين وثلاثين ألف جمل .. لنقل المؤن والخيام والحجاج أنفسهم والتجار المرافقين لهم والذين كانوا يشكلون نوعاً من أنواع الأسواق الشرقية المتنقلة التى تمد المسافرين باحتياجاتهم من السلع من كافة الأصناف .

وكان فقدان هذه الصناعة الهائلة الخاصة برعى الماشية ضربة نفسية شبيهة بفقدان تجارة اللؤلؤ ، ولكنها أكثر شيوعاً وربما كان هبوط الروح المعنوية هو المسئول عن إحجام العناصر القبلية عن التكيف مع حقائق الخليج العصرى . ولم تحرز محاولات توطينهم واستقرارهم نجاحاعلى وجه الخصوص وعلى الرغم من أن صناعة البترول تمتص عدداً كبيرا من الرجال فإن النساء اللاتى حرمن من الحياة الحرة والمعيشة فى المخيمات حيث كن يعشن حياة مفتوحة بين أقربائهن يشعرن بالانحدار إلى مستويات من الحياة أقل إرضاء لهن.

ويجرى على قدم وساق تنفيذ مشروعات خاصة باستيراد معلمين أجانب للحرف اليدوية لقيام صناعات منزلية بين النسوة اللائى يعشن حالياً داخل مبانى خرسانية صغيرة بها صنابير مياه ونور كهربائى ، كتلك التى رأيتها حقيقة أثناء تجولى فى أنحاء أبو ظبى . وقد شعرت باكتئاب على وجه الخصوص حيال فكرة الاستعانة بسيدة سويدية لتعليمهن كيفية صنع حقائب يد جلدية ، ولا أعلم لماذا . وهذا الشعور يماثل تماماً ما كنت أشعر به حينما أجد هناك ما يبعث على تشجيعى لمشاهدة دليل على حياة بدائية ، وكما حدث خلال زيارتى لأحواض ميناء أبو ظبى حينما شرح العاملون به لى الكيفية التى كان يجرى بها الشحن بسفن الصهاريج فاختلست النظر داخل إحدى هذه السفن الخالية ووجدت عاملين غير بارعين يعيشان بهدوء داخلها .

ومن العسير أن يطول أمد الرؤية الخيالية البراقة لاقتصاد دول الخليج الذى يندفع الكثيرون للانخراط فيه طلباً لتحقيق الثروة التى تنتظر كل شخص جسور ومغامر إذا ما قورنت بالحقيقة . فمعظم الأجانب يعملون بشركات وبنوك أجنبية توجد مكاتبها الرئيسية فى أوروبا وأمريكا . وهم يأتون للعمل بعقد لفترات محددة لا تتجاوز عامين عادة مع تضمين الاتفاق شروطاً خاصة بتوفير المسكن لهم وحقهم فى الإجازة وتوفير التعليم لأبنائهم والعلاج الطبى أيضاً .وهم يعيشون فى مساكن يتم توفيرها لهم ، وغالباً ما يقوم أصحاب العمل بتأثيثها وتجهيزها لهم . وهم يتسوقون سلعهم من محال سوبر ماركت تكتظ بالسلع المستوردة من جميع قارات العالم ، وينفقون ساعات عمل

منتظمة ويستمتعون قدر استطاعتهم بالذخيرة المحدودة جداً من وسائل التسلية المتاحة لهم .

ولا تثمر الجهود التى يبذلها أصحاب العمل فى اجتذابهم لبيئة غير جذابة إلا عن تواكل شديد من جانبهم — تجعلهم غير مستعدين وبصورة غريبة لتحمل أى مسئولية عن رفاهيتهم الشخصية . وهم يضنون بإنفاق المال فيما عدا ماينفقونه منه على حاجات المعيشة . ويخلق هذا موقفاً سلبياً مع قصر النفقات على ما يمكن حمله إلى الوطن لدى العودة إليه ، ومع عدم توفر الشعور بالدوام. وتقول تلك القلة الباقية من العاملين القدامى : « إن الناس غير مستعدين لخلق حياة لهم هنا . فحينما نأتى يكون مقدمنا بغرض ممارسة حياتنا فى العمل ونشرع بعد ذلك فى تحقيق أفضل الأوضاع لأننا نعلم أن مستقبلنا يعتمد على هذا » .

وسوف تقول لك الغالبية العظمى من المواطنين أنهم أتوا إلى دول الخليج لتكوين ثروة أو من أجل سداد قيمة رهن أو لجمع رأس مال أو لدفع نفقات تعليم الأبناء . ويتراوح متوسط سن البريطانى ما بين ٢٨ و ٣٠ سنة وترافقه زوجة من عمره وابنان صغيران . ويقتصر طموحه على الحصول على مرتب أعلى مما يمكن أن يحصل عليه فى بلاده ويكون معفياً من الضرائب والادخار، وسوف تجد زوجته تطهى الطعام بنفسها وتنظف البيت وترعى أطفالها وتحظى بمساعدة هزيلة من جانب خادم هندى أو بالوشستانى ، هذا إذا توفرت لها مثل هذه المساعدة بحق . وهو فى أى الحالات لن يبقى عندها لأكثر من ساعتين فى كل مرة ، لأن لديه أعمالا منزلية فى بيوت أخرى . وهو لا يأتى يوم الجمعة وفى العطلات العامة ومن شأن تكاليف المعيشة المرتفعة والفرص المحدودة لقضاء وقت الفراغ أن تجعل من حياتهم روتيناً رتيباً . فبوسع المرء السباحة والإقلاع بحرا بمراكب شراعية ولعب التنس والبريدج وحضور حفلات ، وإذا تصادف إن كان المرء لا يحب أيا من هذه الأشياء فسوف يواجه حياة صعبة .

وسوف يستثير موضوع تعليم الأبناء قدراً كبيراً من القلق . وتنزع القوميات المختلفة إلى إنشاء مدارس خاصة بها .. فهناك مدارس إيرانية ومدارس

أردية وأخرى إنجليزية وأمريكية ونرويجية وهولندية ولديهم نوعاً من أنواع البرامج بلغتهم .

وتمارس المدارس نشاطها على أساس من الحظوة والقبول ، شأنها فى ذلك شأن جميع الأنشطة الأخرى المصرح بها للأجانب ، بمعنى أن ثمة تسامحها فى أنشطتها ولكن مع اعتمادها فى البقاء على النوايا الطيبة لمضيفيها . وهناك مخاوف دائما داخل هذه الجاليات من احتمال أن يعرض حادث ما مزايا نشاطها للخطر . وبما أن اللغة الإنجليزية تستخدم كلغة مشتركة بمنطقة الخليج باعتبارها فى معظم الأحيان الوسيط الوحيد الذى يمكن لأصحاب العمل الأجانب من خلاله التخاطب مع العاملين الأجانب المتعددى الجنسيات ، فمن اليسير شغل جميع الأماكن بالمدارس البريطانية وتثير النقد سياستهم الخاصة بتفضيل أبناء جنسيتهم وممارستهم نظام الاختيار فى الالتحاق بالمدارس.

ويعيش المواطن البريطانى العادى فى مجتمع ضيق جدا محاولا التكيف عقلياً مع الأوضاع السائدة به . ونظراً لحرصه على الابتعاد عن الاهتمام بالسياسة فإنه يجد نفسه منعزلا عن الحياة حوله بصورة أكبر نتيجة افتقاره إلى معرفة اللغة العربية ، إذ لم يبذل سوى جهد جد طفيف من جانب المجتمعات البريطانية – على عكس المجتمعات البريطانية والأمريكية – فى اكتساب ولو حتى معرفة يسيرة باللغة العربية العامية ، ولا يوجد حافز على هذا لأنه فى وضع تقتصر فيه صلتهم غالباً على كاتب آسيوى أو خادم مسئول عن نظافة البيت أو مواطن عربى متعلم يتحدث الإنجليزية . وهذا الافتقار إلى الفضول الثقافى الذى يجلبونه معهم هو سمتهم الخاصة ويمكن أن يخلق إحساساً بالتبلد الراضى عن النفس والذى يمـكن أن يحدث أضراراً لو كانت الأدوار التى يقومون بها أقل ثانوية .

ومع ذلك لا يزال أى تصرف من المحتمل تأويله بأنه غطرسة استعمارية يلقى امتعاضاً شديدا . فقد تمخض نقد وجهته إلى رئيسة منظمة الروتارى للنساء مجموعة من الأعضاء الإنجليزيات بها عن رد فعل لم يكن تتوقعه السيدات البريطانيات الواثقات بشدة من استقامة موقفهن .

وجاء رد فعل النساء العربيات بالمجموعة اللاتى ينتمين إلى الطبقة العليا فى المجتمع على هذا النحو « كيف تجرؤ أى منهن على مخاطبة سيدة عربية بدولة عربية بهذه الطريقة ؟ » فهن يشعرن بألفة مع المصرية الأنيقة أكثر من شعورهن بذلك إزاء النساء الإنجليزيات غير التافهات . وأدى نداء موجه إلى الوزير المعنى بمثل هذه الأنشطة إلى إغلاق المنظمة فجأة وسحب ترخيصها .

وجاء وصف وزير التعليم فى البحرين ، وعضو عائلة خليفة الحاكمة – لإدارة المدرسة الناجحة التابعة للكنيسة الإنجيلية فى حديث أدلى به لجريدة (جلف ميرور) الناطقة باللغة الإنجليزية عام ١٩٧٧ على هذا النحو « أنهم أناس يتصفون بضيق الأفق والغرور والعقلية الاستعمارية التى تعامل التلاميذ البحرينيين وأطفال الجاليات الآسيوية بطريقة مهينة » .

ويوجد بهذه المدرسة ٦٣١ تلميذاً – ٤٨٦ منهم من أبناء البريطانيين وتبلغ الرسوم المدرسية ٢٢٠ ديناراً بحرينياً للفصل الدراسى الواحد . وإلحاق الطفل بمدرسة كهذه يتكلف ١٠٠٠ جنيه سنوياً تقريباً ، وعادة ما تكون تكاليف تعليم الطفل تعليما خاصاً المحك الذى يحدد ماإذا كان الأب سيواصل العمل فى الخارج أم لا . ويتم إرسال الأطفال من سن عشر سنوات إلى مدارس داخلية فى بريطانيا ، ويشرع الآباء فى الدوران فى طاحونة تعذيب مالية من المستبعد أن يفلتوا منها طيلة عشر سنوات أخرى ، وهى مبالغ لا يمكنهم سدادها ، إلا بالاستمرار فى العمل بالخارج .

وللأمريكيين مدارس خاصة بهم يتلقى فيها تلاميذهم تعليمهم حتى مرحلة التعليم الثانوى ، ويشكل أبناؤهم فى سن المراهقة جزء لا يستهان به من مجتمعاتهم إذ يكونون نواة هذه المجموعات من الفتية والفتيات الذين يؤثرون بأفكارهم ذات النمط الجامعى بخصوص قضاء وقت الفراغ بطريقة عصرية على الشبان العرب المراهقين الموسرين . وتجتذب هذه الثقافة الفرعية للمراهقين أطفال المدرسة الداخلية للجالية البريطانية لدى قضائهم عطلاتهم المدرسية المدفوع أجر سفرهم خلالها ، كما أنها مصدر قلق لآباء فتيات جميلات فى سن الزواج يعتبرن ملهاة للغلمان المحليين فى سياراتهم الرياضية أو زوارقهم السريعة الغالية الثمن .

ويبدو حفل الكوكتيل فى دولة إسلامية مثل البحرين عملا يستبعد أن يخدم مسألة تعزيز العلاقات بين الشرق والغرب ، ولكنها تعتبر فى منطقة الخليج الوسيلة المقبولة التى يمكن من خلالها التقاء أبناء الجاليات المختلفة فهى بالنسبة لشركة تود التعريف بنفسها . ولبنك يحتفل بمديرية الزائرين ولمتعهد حفلات رياضية حريص على أن يترك انطباعاً طيباً فى النفوس حلا باهظ التكاليف ولكنها تجربة تتم بنجاح ولم يشك أحد بعد فى مدى فعاليتها .

وتحصل الفنادق على مبلغ خمسة جنيهات تقريباً عن الفرد فى حفلات الاستقبال هذه بدون مشروبات ، وعادة ما يحضر مثل هذه الحفلات مئات من المدعوين . وينتشر العاملون فى خدمة المدعوين (الجرسونات) من الهنود بالحجرة وهم يحملون أمامهم صوانى كبيرة تمتلىء بأقداح الويسكى والجين وعصير الفاكهة والطماطم ، ولا يكفون عن الدوران بها على المدعوين . ومن المألوف أن يغطى القدح بمنديل ورق كما لو كان يحمى بذلك الأصابع من شدة كثافة المشروبات ، ويمكن رؤية العرب المبجلين الذين تعلو سيماهم دلالات الرزانة بعباءاتهم الصوفية البنية أو السوداء وهم يطوفون بين المجموعات من الضيوف الذين يتبادلون الحديث وهم يمسكون بأيديهم أقداحاً كهذه بصورة لائقة .

وعادة ما تكون النساء الحاضرات أوروبيات .. وأحياناً توجد بضع سيدات هنديات رشيقات القوام وهن متلفات بالسارى ، ويتصادف بين الآن والآخر وجود مدعوة يابانية أو من جنسية أخرى نادرة وغريبة الزى . وهؤلاء قلما ينصب عليهن الاهتمام .. ولامرية فى أن وجودهن يبدو وسيلة لاسترضاء الحساسيات الغربية ومظهراً يرمز لوضع المساواة للزوجة أكثر من كونه إضافة لأى بعد بعينه من الجاذبية الأنثوية للتجمع المدعو .

وهى مناسبات اجتماعية غير حية . ويقوم المرء الخجول الذى لا يشعر بارتياح فى مثل هذه الاجتماعات بإطالة التفكير فى نوعية عدد كبير من المشتركين فيها .. ولعل هذا أثر من آثار الماضى الاستعمارى حينما كانت مثل هذه التجمعات تعد بناء على الإدارة الحازمة من جانب السكرتارين

الاجتماعيين الملحقين بدار المندوب السامى البريطانى . والأمر كله مشوب بحذر شديد فتحت ستار الاختلاط الاجتماعى يجرى تبادل الأخبار وعقد صلات عمل وإبرام عقود ولكنى لم أر أحداً يغازل أية سيدة . وتقف المضيفة فى ثوب السهرة الطويل إلى جوار زوجها عند الباب ، باذلة قصارى جهدها لإضفاء طابع الود والترحيب الشخصى ، ولكنها مهمة شاقة لطالما تساءلت عن سبب محاولتها القيام بها .

فالعالم العربى عالم الرجل .. وهو أيضاً فى الخليج عالم رجل الأعمال . والهدف من الاستضافة ليس هو التسلية ولكنه العمل .. وينتشر بين حشد المدعوين وزراء ومسئولون حكوميون وتجار كبار وأصحاب مصارف ودبلوماسيون وصحفيون . وبوسع السكان المحليين البارزين الالتقاء كما يحلو لهم على أرض محايدة ووجودهم يقترن بالهيبة ورفعة المقام وبدون أن تعرقل خطواتهم زوجاتهم أو تلهيهم مسئولياتهم المنزلية ، وبإمكانهم تبادل بضع كلمات خاصة وقد تقاربت رؤوسهم سوياً على نحو من الثقة بالنفس وعين كل منهم تتفحص عين الآخر ، والسمة الغالبة لها هى أنها نظرة هادئة غير معبرة .

أما بالنسبة لمسألة مشاهدة الرجال بصحبة نسائهم علناً فإن الجالية الإيرانية تختلف عن العرب . فهم يصحبونهن فى زياراتهم ويشبهون أبناء الساحل الشمالى من البحر الأبيض المتوسط فى اتجاهاتهم الاجتماعية حيث يقومون بتعليم بناتهم فى الخارج ويشجعونهن على تقلد أعمال مسئولة . وهم جنس حيوى بطبيعته . فهم يحبون الحديث واجتماعيون بطبعهم . والزوجات منهم بارعات فى إدارة شئون البيت ، ويمكن أن تقوم حتى بنات عائلات المليونيرات بالمساعدة فى أعمال المطبخ وإعداد طبق طعام وإرشاد خادمهن وقيادة سياراتهن .

إن حضور حفلة يقيمها الإيرانيون لأمتع بكثير من معظم ضروب المتعة التى تحقق إبان أشهر الشتاء . وربما كان سبب ذلك هو صخب المحادثات الدائرة وعبارات التعجب التى يتم التعبير عنها حول تلك الوفرة السخية من ألوان الطعام المقدمة للحاضرين أو وجود عدد كبير جداً من النساء الجميلات وفى إحدى

الحملات التى حضرتها قام ثلاثون عازفاً من فرقة البوليس المحلى وهم يرتدون سترات قصيرة ضيقة بيضاء اللون ناصعة وقمصاناً مقلمة باللون الأحمر قاموا بعزف موسيقى صاخبة لها جرس همجى طنان تختلط فيه الأصوات العالية ذات النبرة العسكرية وكان هذا الاحتفال بمناسبة مرور الذكرى الخامسة عشرة على حكم السلالة الحاكمة لآل بهلوى ، وكانت هذه الموسيقى الإيرانية . وصوت الآلات الصاخب والمتنافر مع هبوب الرياح الأكثر عنفاً ، تغاير تماماً لصوت الموسيقى العربية الأكثر اتساقاً . وبدا أنها لاتترك أثراً كبيراً حتى فى نفوس الضيوف الذين ضاقوا من سماعها بصورة تثير الحرج باعتبار أنها شىء عتيق وغريب ولايمت بصلة للحياة الحالية .

وأخذ النساء يتبادلن الحديث سوياً فى مجموعات تضم ثلاث أو أربع سيدات خلال فترات انقطاعهن عن تناول الطعام . وكان بوسع المرء رؤية عدد كبير من ذوات البشرة البيضاء والعيون البراقة والحواجب الرفيعة المنسقة المرسومة بالقلم بصورة متقاربة بين العينين . أو بالأحرى ذلك الشكل الهلالى الشهير لصورة فارسية مصغرة مترجمة فى هذا الحفل على شكل فتيات متجملات على أحدث صورة وهن يرتدين ثياب سهرة جميلة أنيقة ومطابقة للموضة .

وكن جميعاً يرتدين ملابسهن بهدف ترك أكبر أثر فى النفوس . . ويتحلين بالحلى بإفراط ويلبسن أثواباً منطبقة تماماً على مقاييس أجسامهن من أنواع الحرير والتيل على أحدث طراز . وكان بوسع المرء أن يرى فى هذا المكان أو ذاك رجالا بصحبة زوجات أوروبيات شاحبات الوجوه يحرصن على البقاء قريباً منهم وقد انعزلوا على نحو ما عن المجموعات العائلية المحكمة الوشائج والتى كانت تتكون ويعاد تكوينها من جديد حول أكثر أفراد عشيرتهم أهمية ، وبالتالى كانت هناك دوائر أو مجموعات صغيرة حول أبرز رجل فى الصحبة .

وعلى الرغم من أن الفتيات قلما يبتعدن عن الرجال فى مجموعتهن أو ينفصلن عن صديقة أو قريبة لهن فإن وجودهن أضاف بعداً من الحيوية والاهتمام للأمسية : فأعينهن كانت تنطلق هنا وهناك . . وكن يضحكن . . ويلاحظن كل شىء ، ومع هذا فإنهن متلاصقات مع بعضهن البعض فحسب ، وحينما كان

يتم إشراكهن فى الحادثة مع رجل خارج نطاق دائرتهن العائلية المباشرة ، بفضل تدخل طرف أجنبى كان سلوكهن يتسم بالخجل والتواضع ، بل وحتى بباعث يدفعهن للتراجع والهرب للانضواء تحت جناح المألوف . أن التناقض بين مظهرهن الخارجى العصرى المتصف بالدماثة وحسن التربية وريفيتهن التى لاحياة فيها والتى تبعث على الذعر هو الذى يثير العجب العجاب . وقلة ضئيلة فحسب هى التى تتصف برباطة الجأش والقدرة على بدء حوار ، الأمر الذى يعد السمة المألوفة لفتاة غربية متعلمة ذات مكانة مشابهة ، وإن كان الزواج يضفى صلابة على الشخصية وبالتالى تتصف النساء المتزوجات بصفات عدة . ولكن مازال الانطباع قائماً بأنهن مجموعة من الطيور الجميلة التى كانت سجينة قفصها ولاتزال تفضل بعد إطلاقها حرية التجمع حول أقفاصها المفتوحة لأنهن لسن نسوراً تتطلع إلى الطيران .

ويتعرض عرب الخليج لضغط هائل لحملهم على إنفاق أموالهم . وهو ضغط يبدأ من مستوى الحكومة مع تخصيص عقود للأشغال التى تتطلب رأسمال ، ويستمر على كافة مستويات المجتمع . وهو ضغط ابتدعه البريطانيون حينما كان الحكام يعزلون من مناصبهم إذا ثبت أنهم محافظون وشديدو البخل ويحجمون عن السماح للشركات الأجنبية بدخول بلادهم كما حدث فى أبو ظبى ومسقط . فالبائعون الأجانب من كل الفئات الاجتماعية يحثونهم على استثمار أموالهم وتطوير بلادهم وشراء هذا النوع أو ذاك سواء كان نوعاً جديداً من الطائرات النفاثة أو طريقة لتعليم اللغة الفرنسية . وتجتذب المشروعات المعروضة اهتمام العرب الشديد فى أغلب الأحايين . . فقد أنفق مال كثير على التنمية حيث يقدم ابن البلاد الأرض والمواد واليد العاملة ويقدم الأجنبى التصميم وكفاءات التشييد ويقوم بإدارة المشروع وقد حدثت حالات تثير خيبة الأمل فى هذا المجال أيضاً ، ولكن لم يعلن عنها . ولاشك فى أن مشاعر الطرب والحبور الشديدة التى صاحبت الازدهار التى شهدته السبعينيات تلاشت وأضحى المستثمرون يتوخون قدراً أكبر من الحذر ، وهكذا نال الخليج حظه ممن لايستحقون وضع الثقة فيهم والعاملين ذوى النزاهة الهامشية ليس إلا . ولايبعث على الدهشة قط أن الأغنياء والذين يتمتعون بنفوذ يميلون بصورة مطردة لاعتزال الحياة العامة ، ويصبح

العنصر الشخصى الذى كان السمة المميزة فى يوم من الأيام لجميع المعاملات التجارية عنصراً يخضع للانتقاء بصورة متزايدة . وتنفق أوقات زمنية أطول فى الخارج حيث يمكن التمتع بقدر أكبر من الخصوصية المتحررة من الحاح المعارف المتلهفين على عقد صفقات عمل . كذلك ترحب النساء بالحرية الأكبر التى تتسم بها الحياة الغربية والسرية التى توفرها مدن مثل لندن أو باريس . وهم يدركون متعة الثراء فى عالم يكون فيه الخيار الفردى هو القاعدة فيه بدلا من أن يحصلوا على كل شىء وهم فى أماكنهم كما يحدث فى بلادهم فاستعراض سلع متنوعة رفاهية فى حد ذاتها ، وشهية التجديد تزيد كلما تم إشباعها .

ولم يعد ممثل المبيعات يقابل كبير التجار : ولكنه سوف يقابل مدير الأقسام إذا حالفه الحظ وبناء على نظام مواعيد قد يثبت أو لايثبت فعاليته . وربما يكون الشخص الذى يراه لبنانياً أو هندياً أو فلسطينياً أو بريطانياً ، فهو لن يرى وطنياً من أهالى البلاد يمثل السهولة التى كان يهتم بها هذا اللقاء منذ خمس سنوات مضت . وتتضح صورة التغيير المتأصل فى تطوير مجال الأعمال فى الخليج فى نمو الإدارة وهو أيضاً المجال الذى تنتشر فيه مشاعر خيبة الأمل والإحباط . ويتم فى معظم الأحيان التعبير عن الإحساس بصدمة إزاء حقائق الوضع .

قال لى لبنانيان يديران شركة كبيرة لنقل الشحنات التجارية بقطر باسم عائلة محلية « آه يامدام ، إن الخليج سراب . وإنه لوهم بالنسبة لأى أجنبى يظن أن بوسعه تكوين ثروة له هنا » .

وقد عبر بذلك عن مشاعر ضجر مشوبة بالسخرية تعتمل فى معظم الأحيان بنفوس مديرين من جميع الجنسيات . فالتضخم شديد جداً إلى الدرجة التى يتجاوز عندها رأس المال المطلوب لإنشاء شركة ثلاثة أرباع العاملين فى المنطقة . وفى دبى التى تعتبر أكثر دول الخليج ترحيباً بالمواهب فى مجال المقاولات من أى نوع يحتاج أصغر رجل أعمال إلى ضمان من البنك قدره ١٠٠ ألف درهم حتى يتأتى له تسجيل شركة لدى المجلس البلدى ، ثم عليه أن يواجه بعدها تكاليف تمويل قرض البنك واستئجار المكان وتكاليف معيشته الشخصية . والسواد

الأعظم من المواطنين موظفون وقلة من الأفراد هى التى تتولى أعمالا مهنية أو تعمل فى مجال الاستشارات .

وحتى هؤلاء يتم طردهم بلارحمة مع انتشار الجماعات المهنية المكونة محلياً واستعانتها بأجانب مؤهلين للعمل نيابة عنها . ويتضاءل فى الخليج بصورة مطردة توفر مكان لأجنبى مستقل يعمل لحسابه الشخصى ، إذ أن تكاليف المعيشة المرتفعة تؤدى إلى تآكل الأساس الذى تقوم عليه معيشته كما أن عناصر معينة فى شخصيته من التى تكسبه كياناً لاتلقى ترحيباً بها فى مجتمع لايسمح فيه بالنقد وحيث الطريقة المفضلة للتعامل مع منشق هى طرده .

وليس مبدأ حرية المنطقة فى النظر إلى ملك مقبولا. كما أنه بالتأكيد غير مفهوم أيضاً . وليست هناك سوابق تدل عليه ، لأنه حتى فى ظل لوائح حكومة الهند القديمة كان دخول المنطقة مقيداً ، واحتل الممثلون والعاهرات والصحفيون قائمة غير المرغوب فيهم ولا يسمح لهم بالدخول . قال سير ويليام لوس المندوب السامى البريطانى حينما استقر أول صحفى غربى بمنطقة الخليج عام ١٩٦٦ « إذا لم يكن هناك بد من وجود صحفى غربى فيجب أن يكون هنا فى البحرين تحت نظرى » .

وهاهى الصحافة والعلاقات العامة قد أصبحت اليوم صناعات نامية فى الخليج. وتقوم صحف اقتصادية مثل التايمز و « الفيننانشيال تايمز » بإصدار ملاحق خاصة بصفة منتظمة لتغطية هذه الموضوعات التى تعد خصيصاً للدول العربية . ويقوم بجمع نصوص هذه الوسائل الإعلانية حفنة من الصحفيين المغتربين المقيمين الذين يعملون محلياً فى الخليج ، وهم أشبه برقيق يعملون على ظهر مراكب تسير بالمجداف ويكدحون باستخدام مجداف الصدق الذى يهبط من ثقل ذلك الحشد من الأرقام والتوقعات التى تصدرها وزارات الأعلام وتؤكدها كل دولة . وأحياناً يكون الضغط الشديد المثبط للهمة بالغاً ، وبالتالى فإنهم يتمردون ، وحينذاك يتم إيفاد محررين شبان متحمسين من لندن لبث بعض الجدة فى موضوعات أصبحت متبذلة من كثرة التكرار وخلق الصورة الديناميكية التى يتطلع إليها المشتركون فى الجريدة .

وهناك ما يبعث على اهتمام دارس التاريخ فى السعى للتوصل إلى أوجه الشبه بين أحداث الماضى ومواقف حالية . إذ لايتعين على المرء أن يقضى فترة طويلة فى الخليج قبل أن يبدأ فى عقد قياس بين الفترة الحالية والقرن الثامن المعظم التوسع والهيمنة العربية .

كان شعب الامبراطورية العربية مقسما إلى أربع طبقات اجتماعية خلال الفترة التى شهدت إرساء الخلافة الإسلامية . أعلى هذه الطبقات هى طبقة العائلة الحاكمة والمجموعة الارستقراطية من الفاتحين العرب الذين خرجوا من صحارى وسط شبه الجزيرة العربية . ويلى المسلمون العرب فى الترتيب الطبقى المهتدون الذين أشهروا اسلامهم بالقوة أو بالإقناع أو بناء على مصلحتهم الذاتية ، وبالتالى أصبحوا يتمتعون بالحقوق الكاملة للمواطنة الإسلامية نظرياً وإن لم يكن عملياً . وكان من المفترض إعفاء المسلم من دفع الجزية ولكن الغلو العربى فى التعصب للوطن توصل إلى أن هذا الإعفاء النظرى يطبق بصورة هزيلة ، ولذلك يتعين على جميع ملاك الأراضى فى العهد الأول دفع ضرائب على الرغم من أن تضاؤل دخل الدولة نجم فى النهاية عن التحول إلى الإسلام .

وكانت هذه الطبقة الثانية أو المسلمون « التابعون » يشكلون بطبقة الأدنى بالمجتمع العربى ، وبالتالى عانوا من كل أنواع الامتعاض والاستياء الذى يثيره الوضع عادة . وأمدت ثقافتهم الوطنية غزاتهم بالمواهب المطلوبة وعملت على توسيع آفاقهم الثقافية ، وتمكنوا بهذه الطريقة من التغلغل تدريجياً إلى داخل المجال السياسى حيث عزز من وضعهم زواج العرب من بناتهم ، ولكن على الرغم من أن هذا الامتزاج بين العنصرين أو ما يسمى بالتهجين حقق فائدة على المستوى الثقافى ، فإنه فتح الباب — على المستوى السياسى أمام انقسامات طائفية ومؤامرات ضد السلطة مما ترتب عليه وقوع منازعات لا نهاية لها وإراقة الدماء .

أما الطبقة الثالثة فقد كانت مكونة من أفراد طوائف دينية تلقى تسامحاً هم المسيحيون واليهود وأبناء سبأ الذين يشاركون المسلمون تفاهماً دينياً مشتركاً بعينه . واستمتع « أهل الكتاب » — الذين — استثناهم الرسول محمد على وجه

الخصوص لدى وضعه قواعده الخاصة بسلوك الدولة الإسلامية الجديدة بحرية كبيرة من دفع ضريبة على الأرض والرؤوس . وقد عاشوا — مع تجريدهم من سلاحهم وإرغامهم على دفع جزية كثمن لحماية المسلمين الحاكمين لهم — حياة هادئة داخل حدود مجتمعاتهم ، أحرار من أى تحرش بهم إلا إذا اختلطوا مع العنصر المسلم فى المجتمع . وإذا حدث هذا تصبح مزاياهم المحتملة كأنذاك بغير ذات جدوى لأن كلمة المسلم تفوق وتعلو كلماتهم دائماً .

وقد ظلت عناصر أساسية من هذا النظام سارية المفعول فى نهاية فترة الحكم العثمانى ، ولم يحدث إلا منذ عام ١٩٧١ فقط أن حرم الأجانب فى دول الخليج من المحاكم الخاصة بهم ، وقد أصبحوا الآن مهددين بتطبيق أحكام الشريعة عليهم. التى تتمثل فى القانون القرآنى التقليدى بدلا من ذلك القانون غير المدون على شكل دستور إلى حد كبير والمتوارث عن الإدارة البريطانية .

وأخيراً كانت الفئة الرابعة من المجتمع وأكبرها قاطبة مكونة من عبيد فقد احتفظ الإسلام بمنشأة العبيد السامية القديمة ولكنه عمل على تحسين وضع العبيد . إذ حرم على المسلم استرقاق مسلم مثله ولكنه لم يعد بأى حرية للعبد الأجنبى الذى أشهر إسلامه . وبهذه الطريقة ظلت حرمة نسل القبائل العربية التى يحظى بالتربية — نساؤهم — لا تنتهك وكانت تمثل فى أحيان كثيرة هدفاً للرعاية ذات الصبغة الفروسية من جانب فصائل متحاربة فى الصحراء فى الوقت الذى كانت النسوة الأسيرات فيه من أجناس أخرى غنيمة للمنتصرين لاستخدامها أو اقتنائها أو بيعها .

* * *

الفصل السادس عشر

قطر — فنـدق فاخر — وجـود ريفي — رعـاية سـخية — برناسـوس المتواضـع • تخطيط المدن القصور القديمة — المتحف — المشروعـات الزراعية المشاكل المتعلقة بالامداد من المياه — المزارع التابعة للدولة — القوة البشرية — مشاكل الادارة — عملية اتخاذ القرار — عثرات نظام المشورة — هدية ملكية — التناقضات فى مستويات المعيشة — فصل ادبى •

كان من عادتى أن أنهض من نوى فى ساعة مبكرة من صباح كل يوم ثم الاستحمام فى حوض السباحة الذى صمم على شكل كلية بحديقة الفندق وكنت أقضى وقتاً ممتعاً فى السباحة بمفردى ، إذ لم يكن يوجد سوى عدد قليل من الخدم الذين بدا شكلهم نظيفاً فى ملابسهم البيضاء المغسولة والمكوية وكانوا يقومون بترتيب أثاث حوض الاستحمام ويطوون الفوط وينظفون ويعدون المكان المطل على الحوض لاستقبال الأمهات والأباء من المغتربين بذريتهم البيض البشرة الذين سيملؤونه فى وقت لاحق من النهار .

وكانت الحفارات الهولندية تشق طريقها عند شاطىء البحر حول حافة الميناء الذى يأوى اليخوت ، وكان رجل هولندى أشقر ضخم الجسم وجذعه الأعلى بنى اللون ضارب لحمرة وعارى باستثناء بنطلونه القصير ، يقف أحياناً هناك يتأمل المنظر أمامه فى ضوء الصباح المشرق قبيل الاختفاء داخل زورقه وكان الرجال الهولنديون يقومون بالعمل على الحفارات الماصة وسفنهم تروح وتجىء محدثة جلبة وهى تشق طريقها ببطء نحو الشاطىء فى الوقت الذى تجرى فيه سيارات نقل قلابة صغيرة ذات إطارات سميكة رائحة غادية نحوها على طول أرصفة الميناء وينقل الهواء الهادىء صدى صرخات ودعوات خافتة .

وكانت المدينة البيضاء تتألق فى الساعة السابعة صباحاً وأشعة الشمس

تنعكس على شاطئها الرملى ومياه الخليج الزرقاء وتومض بخفوت تحت سماء صافية شاحبة اللون . وكان الجو صافياً بحيث كان بوسع المرء أن يرى بوضوح عملية تشييد المبانى القائمة على النقطة المقابلة من الأرض وأن تلتقط عيناه منظر مبانى حكومية جديدة تبدو صغيرة الحجم فى مواجهة ذلك الامتداد الكثيف للمنظر .

ورغبت بعد انتهائى من الاستحمام فى السير إلى حافة الحديقة والتطلع عبر الخليج وبدا من خلفى لوحان ضيقان يشبهان علب الكبريت ويمثلان مبانى الفندق وقد أقيما وبينهما زاوية فبديا كقطاع انفصل عن الأرض وسقط الضوء على شرفات خالية ومغلقة اتقاء لوهج الشمس وغالباً ماتمخر سفينة كبيرة عباب المياه متجهة إلى الميناء الذى يقع فى منتصف المسافة .

وبدأ الهدوء يخيم على أرصفته ومظلاته وكراكاته وسط ذلك لامتداد الفسيح لليوم الجديد . وفجأة شاهدت وأنا أرقب المنظر أمامى صفاً من ستة زوارق حراسة بيضاء تظهر من خلف الأرصفة مختلفة ووراء مؤخرتها شريطاً من زبد البحر وتداخلت فى خط رؤيتى كما لو كانت مجموعة من لعب الأطفال مثالية فى تشكيلهما إلى أن غابت عن بصرى عبر المياه الزرقاء الرائعة .

وكانت أحواض الزهور تملأ الحديقة وكان بوسعى الانحناء ومراقبة الجراد والسحالى الصغيرة والفراشات المرتعشة وهى تغفو بين نباتات الأزريون والبطونية والكبسوسين والعابق والقسموس . وكانت هناك طيور أيضاً : عصافير أخذت تغفو وتتشاجر حول الأجمة من نبات الداخلى ونبات الخطمى الوردى السيقان الذى ينمو فى كافة أنحاء الدوحة بحيث يسلم المرء بعد فترة وجيزة بأنه جزء طبيعى من المكان وينسى أن ما يبقيه على قيد الحياة فقط أنظمة ترى معقدة .

كانت النباتات الخطمية الوردية بالفندق عامل زخرفة على وجه الخصوص حيث تزين المداخل ويشاركها حافة الأعشاب بمجموعة شجيرات وردية من نبات الداخلى بحيث أنه حينما يغادر المرء المداخل الفسيحة البللورية يكون أول انطباع لديه هو رؤية مشهد أوراق خضراء نضرة بينها ضوء يتسرب عبر شاشة من النباتات ذات السيقان الطويلة الفارعة وقد اكتست سيقانها الطويلة بزهور حمراء متفتحة تنحنى إلى الأمام برشاقة كما لو كانت تحيى القادمين .

وكان البستانى الذى يرعاها أحد الفلسطينيين المسنين من قطاع غزة وقد لفحت الشمس بلون برونزى . . وقد قال لى أنه أحد خمسة عشر فلسطينياً وجدوا مثل هذا العمل هنا فى قطر وقد كرس مواهبه كفلاح الآن لرعاية النباتات الطبيعية فى هذا المكان الذى لايناسبه .

وكان يرتدى بنطلوناً قصيراً بشعاً كاكى اللون كالذى كان يرتديه أفراد الجيش البريطانى وهو نوع يصل إلى ماتحت ركبته وكان مفلج الأسنان غير حليق الوجه وعيناه الزرقاوان الضيقتان تطلان من وجه تغضن وتشقق بفعل الشمس الحارقة . وقد رأيته وهو يقوم بعمله فى ساعة مبكرة من الصباح بالحديقة الأنيقة وقد انتصبت ساقاه القويتان المشعرتان بعروق كثيرة العقد فوق قدمين عاريتين فجتين .

وبدأ أشبه بشبح أرض قديم حارس لحدائق من الكروم وأشجار الزيتون الفضية اللون تغطى فيها أزهار شقائق النعمان الحمراء والأرجوانية اللون الأرض ببساط وردى كل ربيع أكثر من كونها جزءاً من الأناقة الدولية لفندق فاخر وأعتقد أنهم دأبوا على إبعاده قبل أن يبدأ النشاط الحقيقى لليوم وقصر عمله على العمل الروتينى الخاص بالصيانة بعيداً عن أنظار الضيوف خشية أن يشوه وجوده الريفى تهذيب وكفاءة عملية التريض على حافة حوض السباحة .

قال لى « أن هذا كله راجع إلى طريقة الرى إذ يتعين إزالة الأملاح . . . » ونسب روعة نمو أزهار الحديقة إلى عملية الرى البارعة معبراً عن عدم ثقته فى نظام الرى بالتنقيط الذى أدخله المهندسون متجاهلا وجوده مفضلا عليه الوسائل القديمة والتجربة التى شب عليها . . كذلك بدا عنيداً فيما يتعلق بنباتاته وقال « إنى أحصل على بذورى . . طبعاً أنا أفعل ذلك فمن ذا الذى يرغب فى مواصلة شراء الأشياء ؟ إننى أحصد البذرة بعد تنظيف الأحواض وأحصل على أكثر مما أريد حصاده ويمكنك الحصول على بعض بذورى وتجربتها فى حديقتك . . . » .

وقبل أن أغادر الفندق وصلت غرفتى حقيبة من البلاستيك مملوءة بحقائب ورقية بنية اللون . . وتفحصت ما بداخلها فوجدت أنها ملأى بالبذور . . .

كمية تكفى لزراعة هايد بارك كما بدا لى . . ولم أستطع العثور على عواد كريم لأشكره على هديته ولكنى حملتها معى . . . وهكذا ضمت حقائب سفرى حديقة كاملة من النباتات الحولية وقد وجدت فى دبى موطناً لبعضها بحديقة جديدة كانت بحاجة إلى الزراعة ولكنى عدت بالباقى إلى الوطن ويسعدنى أن أقول أنها جميعاً نبتت .

وقد تلقيت هدايا أخرى فى قطر : نشرات من كتاب مصور أنيق تصدره وزارة الأعلام — وكتاب عن تاريخ قطر بقلم الدكتور العنانى وترجمة لبعض المسرحيات العربية الحديثة المسلية — و ٣٦ من أكبر بيض الدجاج الذى لم أر له مثيلا من قبل . . ولاشك فى أن فترة بقائى كلها فى قطر كانت هدية لأن الدولة متحررة إزاء الكتاب والصحفيين المسافرين وقد أنزلتنى على حسابها فى فندق حديث فخم ، هادىء وأنيق ، ردهاته اللامعة أرضيتها من الرخام المصقول وتفرغ المصاعد الهادئة حمولتها من النزلاء فى الطوابق العليا التى يسودها هدوء شديد .

وشعرت كما لو كنت بسيشة أخرى (وهى فتاة رائعة الجمال وقع كيوبيد فى غرامها) من العصور الوسطى دفعتها أيدى غامضة إلى داخل قصر حامى غير معروف . . واستقبلتنى سيارة وكان سائقها سيد « وهو شاب عدنى طلق المحيا شعره مجعد » يأتى إلى صباح لينتظر أوامرى .

وقلت فى نفسى حينما شاهدت غرفتى : « بوسع المرء أن يكتب رواية هنا » . . فقد كانت ذات طابع الخصوصية الشديد ومنعزلة تماماً عن التوترات . . بل حتى صوت التليفون كان فيها خافتاً .

وكانت هناك أيادى غير مرئية تلبى احتياجاتى على شكل خدمة الغسيل والكى وترتيب الغرفة ، وكانت خادمات رقيقات من جوانا يبدين لى وداً ويقمن بترتيب الحجرة ببراعة مرتين فى اليوم ويستبدلن الفوط فى الحمام الخاص .

وبدأت أشعر بالذنب بعد أن قضيت ثلاثة أيام فى عزلة وهدوء يتسمان بالرفاهية إذ كان يجب على زيارة مضيفى وتقديم نفسى لهم وشكرهم على ما أعدوه لى من ترتيبات تبعث على الإعجاب .

وبدا لى أنهم قد دهشوا تماماً لانشغالى بهذا الأمر إذ ساورنى شعور بأنه كان فى وسع المرء أن يقبع بهدوء فى برجه العاجى ولا يزعجونه قط .

وتعتبر أجهزة الأعلام الحكومية قطاعات هامة بإدارة كل دولة فهى تسيطر على عملية دخول كل الأجانب المسافرين لأداء أى نوع من أنواع العمل الصحفى أو الثقافى . . وتحت إمرتهم عناصر التعبير عن حسن ضيافة الدولة لهذه الفئة من الزوار ويشرف على هذا النشاط فى قطر مجموعه من مثقفين عرب لهم وزنهم . . بعضهم فلسطينى والبعض الآخر سودانى ويخضعون لتوجيه من أحد القطريين . . وهم مسيطرون على خدمات الإذاعة والتليفزيون ويصدرون ، تحت إشراف شخص سودانى صغير القامة مفعم بالحيوية والنشاط ، مجلة أدبية تستثير المراسلة من جميع أنحاء العالم العربى .

وتحتل هذه الأجهزة مبنى متكاملا كبيراً يقع وسط الصحراء المحرقة ، ويحقق هذا الازدهار الثقافى غير المتوقع قفزات وسط مناخ يذكرنا بوضع الإذاعة البريطانية الـ بى.بى.سى . أثناء الحرب . . ولاشك فى أن عدداً كبيراً من العاملين بالإذاعة والتليفزيون من جميع الدول تلقوا تدريبهم فى هذه الإذاعة ويشرب العاملون الشاى ولكن من أقداح صغيرة ، وهو شاى يماثل ذلك الشاى الدافىء الحلو المذاق الذى يشربه العرب الشماليون بكل من الأردن وفلسطين ومصر . . ويجلس الرجال على مكاتبهم والسيجارة التى لامفر منها تنفث دخانها فى الجو الضبابى ويتحدثون بحيوية فى التليفون وتدور أحياناً محادثاتهم فى الغرف ولكن الوضع يأخذ فى معظم الأحيان شكل فحص فردى مركز لنسخة ما من المطبوعات وكل موظف محصور كالجزيرة بين الصوانى التى تقدم عليها طلباته وملفات مكتبه .

ولايكف ساكبو فناجين القهوة وأقداح الشاى عن دخول الحجرات والخروج منها لتقديم الطلبات مثلما يحدث فى جميع الدواوين الحكومية العربية ويتلقى الساعى فنجان القهوة الصينى الصغير فارغاً ويسير به لتلبية النداء الخالد بتنظيفه من بقاياه . ومن ثم ينسكب بعضه فى هرولته لأداء هذه المهمة ، لذلك كانت جميع السجاجيد فى كل مكان ملطخة وقد تركت فيها البقع بصماتها.

وتصورت فى البداية أن المهاجرين الفلسطينيين شخصيات كتلك التى رسمها تشيكوف فى رواياته . . وربما كان الدافع وراء هذا التصور تلك الأقداح من الشاى والسجائر والإحساس بالتشريد والنفى . . لقد قطعت بساتين الكرز فى بيوتهم منذ أمد بعيد . . ولكنى أراهم الآن كمخلوقات عصرية لهم وجود فى الأعمال التى يؤدونها ، وحيث يعدون كل يوم نوعاً من أنواع المسلسلات التى من شأنها أن تنقل إلى الجمهور على نحو من الإقناع إحساساً بالفورية والانغماس من جانب الحكام الذين يقل ظهورهم علناً سواء كان ذلك يرجع إلى ضغط العمل أو لدواعى الأمن أو من المحتمل لمجرد الشعور بالضجر . . ويبدون بصورة مطردة كما لو كانوا صوراً تتلاحق على شاشة وينبغى تأصيلهم فى وجدان الرأى العام بالعرض الدائم المتكرر فى كافة فروع وسائل الأعلام للجوانب المحدودة للغاية فى شخصياتهم . وتفرض تقاليد الحياة العربية سرداً للأنشطة الذى يخضع لعامل انتقاء شديد ، ومن ثم تبدو كلها أنشطة وقورة ورتيبة ومحددة كتلك المألوفة لدينا فى عرضنا للعائلة المالكة وإن كانت روتينية العائلة المالكة العربية لاتخفف منها جوانب لأنشطة مثل تربية الكلاب المدللة والجياد المفضلة والألعاب الرياضية التنافسية وغيرها من الأنشطة غير الرسمية .

لقد زرت قطر من قبل منذ ست سنوات مضت ، وبالتالى كنت معنية بمعرفة الطريقة التى تطورت بها . كان المكان آنذاك عبارة عن قطعة أرض فسيحة قابلة للعمران يقطنها آسيويون يتجولون على نحو من الانبهار فى منطقة تشهد عمراناً متزايداً مع التخطيط لشبكة من الطرق البرية بأرض بنية اللون مشوبة بالرمال الصفراء . . وكان يوجد بالمكان قصر مشهود ، مدخله من القرميد الأخضر ، ويجاور مسجداً على الطراز التركى له قبة منخفضة وعدداً كبيراً جداً من الأشجار الكثيفة الأوراق غرست على طول الطرق التى لم يستكمل شقها بعد .

وقد كبرت هذه الأشجار تماماً الآن ، ولاشك فى أن أقدمها يرجع عمره إلى خمسة عشر عاماً حيث غرست مع بدء تطبيق عملية تخطيط المدينة ، وهى العملية التى يبدو من المحتمل أن تحول الدوحة فى المستقبل إلى أكثر المدن متعة

فى العيش بمنطقة الخليج . ويرجع هذا إلى أن ثمة التزاماً بتنفيذ الخطة التى وضعها فريق من المستشارين العاملين مع لورد لويلين ديفيز بدقة أكبر من التمسك بأى من المشروعات المؤثرة الأخرى التى يقترحها مستشارون دوليون فى أوقات شتى فى كافة أنحاء منطقة الخليج . إذ ترتفع المبانى الخاضعة لتصميم فردى على نحو متناسق مع بعضها البعض ومع مراعاة علاقاتها بالكل إلى حدما . وثمة حدائق فى كل مكان إلى درجة أنه حتى الأسفلت الذى صهرته الشمس وسط المدينة تخفف من وطأته أحواض من النباتات الحولية التى تلقى بظلالها على الشارع ، وتحيط حدائق منمقة وافرة النماء تظللها أشجار بجدران القصور غير المعبرة والصلدة .

وهناك عدد كبير من القصور فى الدوحة ، ذلك لأن هناك عدداً لا يعد ولايحصى من أفراد عائلة الثانى الحاكمة ، من ذرية هذا الحاكم الشهير الذى عاش حياة طويلة متمالكاً لكافة قواه العقلية حتى وفاته فى عام ١٩١٣ عن مائة وأحد عشر عاماً بحيث يمكن للمرء تشكيل فرقة منهم . ويبدو أنهم يتسمون بخاصية الفردية إلى حد ما لأنهم يزينون مبانيهم بلمسة من حيوية شرقية لاتظهر بدول خليجية أخرى . وحينما قمت بجولة بين مشارف هذه المدينة رأيت عبر قفر الصحراء أشكال بناء غريبة مثل منازل تقام على شكل أوراق اللعب ، فالطوابق مطلية بألوان صفراء وخضراء والمداخل الكبيرة الضخمة ترتفع عن الجدران المحيطة بها . وتصطبغ المبانى الضخمة فى هذه البلاد بطابع دخيل أشبه بملتجأ ناء ، وهو طابع واضح على نحو غير متوقع بالأرض الجرداء حيث تتمتع هذه المنازل باستقلالية تفخر بها وهى فى عزلتها عن صخب المناطق المجاورة أو الأماكن السكنية العصرية . وقد تحول أجمل قصور الثان العديدة جميعاً إلى المتحف الوطنى فى الوقت الحاضر . . ولا يبدو أن قطر تشعر بخجل من أصولها على عكس بقية دول الخليج ، وهى تحتفظ بآثار متخلفة عن الماضى فى قصرين صغيرين لونهما أبيض ويقعان وسط المدينة .. أحدهما يقع بالقرب من القصر الرسمى وهو مركز للفن ، وحينما ساقنى الفضول إلى فنائه وجدت طالب فن وهو شاب أنيق يعد فى براعة قالباً لأحد الألواح التجميلية الهندسية التى كانت تستخدم تقليدياً فى مبانى الخليج .

أما الآخر الذى كان مقراً للشيخ قاسم قديماً فأكثر ارتفاعاً ويقع على مقربة من شاطىء البحر . . وهو قصر صغير مكون من طابقين ويحيط سقفه المسطح وشرفاته الفسيحة حاجز من الخيزران مدهون باللون الأزرق الفاتح مما يضفى على المبنى طابع كعكة الزفاف .

ويقوم القصر وسط بناء على شكل أقواس مزروع حالياً بحدائق وأشجار مزو . وقد تم فتح أحد جوانب المبنى وتم إعداده كمتحف صغير حديث يتصل بمستوى أدنى من الأرض أنشئ به حوض لليخوت رست به وحدات معبرة عن السفن المختلفة التى اشتهرت بها منطقة الخليج .

والمجمع كله — القصر وحجرة الدراسة التى كان أبناء آل ثان يجلسون فيها القرفصاء أمام معلم حيث تعلموا القراءة والكتابة بالطريقة التقليدية المستمدة من القرآن ، والجدران ذات الفتحات التى تطلق منها النيران وحجرات الاستقبال الأرابيسك على الطراز العربى فى الزخرفة والدرجات الطينية الضيقة المنحدرة المؤدية إلى الأسطح والشرفات التى تطل على الخارج ، هذا المجمع كله مطلى باللون الأبيض ، ويتميز بالنظافة وحسن الترتيب .

ولا تزال الحجرات داخل القصر على عهدها السابق .. حجرات عملية ومتقشفة مزودة بعدد من الوسائد والسجاجيد وبها أوتاد خشبية لتعليق العباءات والأسلحة عليها .. ويوجد بالمعرض قسم أساس ممتاز على وجه الخصوص يتضمن عرض لملابس وأسلحة وكسوة الجمال وأثاثات الخيام تعززه نصوص موجزة وإن كانت موضحة وعروض بالفوانيس السحرية. وأقيمت خارج الفناء خيمة بدوية كبيرة وأعد المكان داخلها كما لو كانت ستستعمل فهناك المواقد الخاصة بإعداد القهوة وأوانى الطهى والحصير والوسائد.. وأقيم خارج الخيمة حامل خشبى تم دقه فى الأرض وجلس على قاعدته صقر بلا حراك .. واعتقدت أنه محنط إلى أن رأيت عينه تطرف ، عين متوحشة ، وعلمت أنه قد تم إرساله من القصر مما بعث على ذعر مدير المتحف ، وهو رجل مثقف أشيب الشعر من مواطنى سيناء .

وقد فسر لى الأمر بقوله : « لم أستطع التفكير فيما يمكن أن أفعله به . فأنا لا أعرف أى شىء عن الصقور .. إذ أن دراستى جيولوجية . ولكنه موفد من القصر ! .. غير أن الفكرة سرعان ما واتتنى ، إنه حل بطبيعة الحال وهذه اللمسة من الصدق فحسب هى التى تضفى حياة على كل شىء هنا .. » .

وكنت أجلس فى مكتبه أتناول قدحاً من الشاى وهو يوضح لى الصفات البدوية الغربية حينما فتح الباب وقدم إليه مساعده شاباً فلسطينياً طلق المحيا يبدو من مظهره أنه خريج جامعى بقوله : « إنه يمر مروراً عابراً بقطر وشعرت أنك تود لقاءه » .

صاح الدكتور الفارس قائلا : « ألقاه ! . . بالطبع أنا أريد أن ألقاه ! » وقفز من مقعده ودار حول مكتبه مسرعاً ليصافح الزائر بود شديد وقد أصم أذنيه عن أى مطلب له بألا يكلف نفسه أية مشقة .

قال وهو يحملق فيه باهتمام : « يا لك من شاب ! . لم أكن أعتقد أنك بمثل هذا الشباب . ويا له من كرم منك أن تسمح لنا برؤيتك . ألا نقرأ جميعاً قصائدك ؟ » .

وشعرت بالطمأنينة لوجودى فى مكان يعامل فيه الشعراء بمثل هذا التوقير . وبدا أن هذا يضفى كمية أكبر على الثروة البترولية .. وحينما خرجنا من المكتب كان المتحف يغلق أبوابه وأخذ الزوار يتجهون ببطء إلى الخارج . وأبديت إعجابى بالزهور المتناثرة عبر منحنيات الحديقة وبأشجار السرو المنتصبة باستقامة وصلابة فى مواجهة الجدران .

قال لى : « إنى أزمع غرس حديقة صحراوية هنا وأنتزع منها كل هذه النباتات المستوردة ولا أترك سوى هذه النباتات التى تنمو محلياً .. هنا فى شبه الجزيرة العربية ، فى وسط أوضاع مناسبة كهذه ووفرة من المياه وحماية من الرياح لابد وأن تترعرع مثل هذه النباتات . فكرى فى مدى الاهتمام الذى سيبديه المواطنون وهم يرون نباتاتهم ..

واخذت أسير برزانة عبر الطريق الخالى ، وفجأة توقفت سيارة صغيرة من طراز قديم وتطلع رجل لى بتردد . وقلت فى نفسى إن شكله يبدو مألوفاً لى ، ثم تعرفت على الدكتور العنانى ، وهو مؤرخ تبادلت معه حديثاً ممتعاً قبل ذلك ببضعة أيام .

كان الوقت بعد منتصف النهار والشمس تعكس أشعتها المحرقة بلا رحمة على المدينة الخالية فالجميع ذهبوا لتناول طعام الغداء ، ولم تظهر فى الأفق أية سيارة أجرة ولذلك سررت حينما عرض على قيامه بتوصيلى إلى الفندق . ولكن لديه مشواراً صغيراً عليه إنجازه أولا ، ومن ثم فهل يمكن أن أسمح له ببضع دقائق تأخير ؟ .

وكان هذا المشوار هو التوقف لدى سوق الفاكهة وشراء بعض الفاكهة لأسرته . وسوق الدوحة عصرى والفواكة معروضة فيه بطريقة مرتبة بعناية كما لو كانت تخضع لتصميم فولكلورى .. وكانت معظم الحوانيت مغلقة بالفعل ولكننا توقفنا حيث كان رجل بدين يرتدى جلباباً فى انتظارنا ..

قال لى الدكتور العنانى معتذراً : « إننى أشترى فاكهتى من هذا البائع عادة . وأنا لا أفعل ذلك دائماً كما تفهمين ولكن بقدر استطاعتى فهو من الضفة الغربية . رجل بائس تعرض للكثير من المحن » .

وفى طريقنا للعودة حيانا محامى بترحاب حيث كان قادماً لأداء مهمة مشابهة ، وتبادلنا الحديث لبضع دقائق فى الممر الهادىء المقام على هيئة أقواس قبل أن نخطو بأقدامنا إلى حيث وهج الشمس الذى يكاد يغشى الأبصار .

وبدت الدوحة عاصمة متحضرة جداً بطريقتها المتمهلة الناعسة .. أقل حرارة وصخباً من دبى وأنظف من البحرين حيث علب البيرة ملقاة بكل حافة طريق والأرصفة ضيقة جداً وغير مستوية بحيث تشكل مخاطر للمشاة

أمر لى القائم على خدمة الطابق الذى أقيم فيه بالفندق وأصله من جوانا بقوله : « هل تعلمين يا سيدتى أننى كنت أعمل من قبل فى البحرين .. مع السيد كانو ؟ كان رجلا ممتازاً .. ولكن البحرين ياسيدتى تدفع المرء إلى

الإنفاق المفرط وبالتالى لا يمكنه ادخار مبلغ كافٍ . وهكذا تنفق الأموال .. ومن ثم فمن الأفضل حضورى إلى الدوحة فالمكان لطيف جدا . وما على المرء سوى أن يعمل حتى يأتى له إدخار الكثير » ..

قال الشاب الإنجليزى : « إن المقاول اللبنانى يظننى معتوهاً ، إذ لديه دائماً صفقة ما يحاول إثارة اهتمامى بها . فهو يحاول التلاعب على نحو ما فى الأسمنت أو ما شابه ذلك من أشياء . ولا يستطيع فهم سبب عدم استعدادى لمشاركة ما يريده » .

كان الوقت هو نهاية اليوم الذى يبعث على الانقباض وكنت أطوف حول موقع حديقة الحيوان الجديدة بصحبة المهندس المشرف على المشروع وكنت قد عثرت على الموقع بقدر من المشقة . فهو يبعد عن المدينة بحوالى خمسة عشر ميلا ويوجد بالقرب من استاد كرة القدم الجديد الضخم وهو عبارة عن بيت خاص فرنسى الطراز مزخرف ومغلق وهو من ذلك النوع السائد فى القاهرة أو الاسكندرية تحيط به حديقة مهملة تكثر بها أشجار الطرفاء وتحاصرها رمال الصحراء من كل جانب .

قال المهندس الإنجليزى : « لم أتخيل قط حينما جئت إلى هنا أننى سأنفق جزءاً كبيرا من وقتى فى الجدال والحديث والمساومة مع الناس وأنه سيتعين على مراقبة أى تلاعب طيلة الوقت . وكان المقاول معتاداً على الصراخ فى وجهى – فهو عصبى المزاج – ولكنى وضعت حداً لهذا وكان يعمل من قبل فى الإسكان القليل التكاليف فقط ، وهذا عمل ينطوى على مكانة مرموقة لأن أمير البلاد مهتم به وبالتالى فهو خطوة إلى الأمام بالنسبة له . وهو يريد أن يدعم اسمه من خلاله ، ويبدو أنه فهم أخيراً أننى لم أجز عملا لا يتفق مع المواصفات .. » .

كان شاباً جاداً أرسل لحيته ويتعرض لمضايقات ومتاعب ولكنه يتغلب عليها . وكانت زوجته تتمتع بذلك النوع من الجمال الطبيعى المتفتح الذى يرتبط فى ذهن المرء بالعائلات الإنجليزية البسيطة التى تعيش فى الريف وكان

يبدو عليها الاكتئاب ، وأخذت بنتيها الصغيرتين الشقراوتين اللتين تتشبثان بها بصورة تنم على القلق .

قال : « من حسن حظنا أن يكون لدينا كل هذه الأشجار الكبيرة . وهو متنزه حقيقى .. وبه كل هذه المياه . وهم يقولون لنا أن بوسعنا الحصول على أكبر قدر نحتاج إليه .. ولكنى لا أعلم .. فلديهم مشكلات خاصة بالمياه هنا .. انظرى سوف تمتلىء البحيرة بالمياه هنا .. وسوف تظهر الحيوانات بوضوح فى أقفاصها هناك .. وسوف يتمكن الزوار من الانتقال آنذاك إلى المستوى التالى ...»

ومع إشراقة حديثنا أثناء تجوالنا أخذ يتنقل بنا بين الممرات الرملية العريضة المزينة بتعريشة من نباتات البوجنفيلية المتسلق التى تنمو بغير اتساق حتى تصل إلى الرمال . كان ذلك مشروعاً ملائماً .. قائماً على أساس سعة الخيال ومدروس جيداً وهو من ذلك النوع سوف يبذل أى مجلس بلدى فى بلادى قصارى جهده لتحقيقه . وكان مما يسر الخاطر التفكير فى كل تلك المجموعات العائلية التى ستتنزه فى هذا المكان بسياراتها وشاحناتها فى عطلة نهاية الأسبوع وفى العطلات الأخرى وتتمتع بمرأى الأشجار والممرات الظليلة والبحيرة والنافورات . وقد تبدو كل هذه الأشياء فى نظرنا متعة ساذجة ، ولكن نزهة من هذا النوع بالنسبة لأناس مقيمين ببيئة صحراوية وسجناء الحدود الضيقة للمدن ولاسيما بالنسبة للنساء تفتح آفاقاً من المتعة والإثارة لا يمكن تخيلها فى مجتمعنا الأكثر مادية .

وأردف يقول : « هل ترين هذه المنطقة هناك ، إنهم يريدون إنشاء ملاهى فيها . حقاً يريدون لعبة الطرق الملتوية والدب الكبير والمراجيح كل شىء . وتوجد أعداد كبيرة مثلها بالسعودية .. ويبدو أنها البدعة السائدة الآن ..

وحينما عدنا إلى المدخل أبديت ملاحظة تتعلق بعاملين من البنجاب كانا يقيمان بناء من القرميد بهمة ونشاط مركز وسرعة .

وأجابنى باكتئاب : « إنهما يعملان بالقطعة . ولابد أنهما توصلا إلى اتفاق مع المقاول فالآخرون لا يعملون بعد الساعة الثانية ظهراً . وهما يعملان

الساعات الثمانى المحددة ثم يذهب كلا منهما فى طريقه ، وبالتالى تضيع منا كل هذه الفترة المسائية . ولا أرى مبرراً لذلك ، فبوسعهما الحصول على أجر إضافى ..» .

وتصورت أنهما يؤديان وظيفتين على الأرجح شأنهما فى ذلك شأن جميع المهاجرين الآخرين الشرعيين أو غير الشرعيين ، وهما بالتأكيد يؤديان عملا لشخص آخر بضعف الأجر . أو أنهما ضحية عملية ابتزاز يقوم بها كفيل لهما وبالتالى يتعين عليهما دفع نسبة مئوية من أرباحهما ، ولذلك يعملان فى المكان الذى يكون مناسباً . وقلت فى نفسى : ياإلهى ياله من دغل إذ كيف يتأتى لأى إنسان أن يشق طريقه وهو يواجه مواقف كهذه ويتعرض لتعقيدات خاصة بعادات وطبائع لم تدر بخلده قط وهو فى بلاده ؟

وسألت الزوجين وأنا أغادر المكان : «هل ستبرمون غداً عقداً آخر حينما ينتهى هذا العمل ؟ » . كانا يقفان جنباً إلى جنب سوياً فى مجموعتهما العائلية الشقراء وبشرتهما الناعمة ، والمشهد الغريب يضفى فراغاً من حولهما وكان العاملان البنجابيان المهتمان والمشغولان بعملهما هما الوحيدان اللذان يضيفان نفحة من الحياة على الموقع .

وبدا عليهما التفكير ملياً . قال الزوج فى النهاية : « حسناً .. أنت تعلمين حقيقة الوضع فى بلدنا .. ويعتبر هذا النوع من العمل بالنسبة للمهندسين منحة من الله .. وأعنى بذلك أننا محظوظان حينما نجد شيئاً نعمله ..»

قلت بحزم وأنا أستقل السيارة : « يا سعيد ! سوف نذهب اليوم إلى الريف لترى المزرعة التجريبية » .

بدا الاكتئاب على سعيد . كان فتى حسن المنظر منفرج الأسارير وكانت سيارته الأمريكية الفارهة هى مصدر رزقه ، ملكية ثمينة يتعين عليه نفض الغبار عنها ورعايتها وإطراؤها وحمايتها من كل معاملة خشنة .

وكان يكره أن يبتعد عن ضواحى الدوحة ، حتى زيارة مشروع إنشاء حديقة الحيوان كان بالنسبة له مهمة محفوفة بالتوجس شراً . كما لو كنا متجهين إلى أرض ما لم تكتشف تمتلىء بتهديدات مروعة للسيارة الثمينة .

وها قد تجاوزنا الآن المحيط الخارجى المحاط بسياج من الأسلاك الشائكة لوزارة الإعلام وابتعدنا عن الدوحة واتجهنا شمالا ناحية طرف شبه الجزيرة. وكان لايزال أمامنا أكثر من ساعة سيراً بالسيارة بامتداد طريق عريض مستقيم وبعده عبرنا مدينة صغيرة هى مدينة ريان التى أعيد بناؤها ، وهنا ضللنا الطريق لبرهة ثم اتجهنا بعد ذلك إلى أرض صحراوية صخرية خالية من كل شىء مثير للاهتمام إلى أن دل ارتفاع طفيف عن سطح الأرض على يسارنا ونحن نقترب من مقصدنا عن وجود منطقة مرتفعة رئيسية .

وبدأت الآن المزروعات من أشجار حديثة محاطة بسياج متين لحمايتها من قطعان الماشية الضالة تنبت على طول الطريق ، وتضمنت قطاعات منها عدة مئات من الشجيرات التى يرتبط بنظام الرى بالتنقيط . وبدت على امتداد الارتفاع البعيد من الأرض أيكات من الأشجار المنعزلة الكثيفة تحيط بما يمكن أن يحسبه المرء مزارع فحسب .

ويعتبر تحويل قطر إلى دولة تتمتع بالاكتفاء الذاتى فى معظم إحتياجاتها من المواد الغذائية الأساسية هدفاً معلناً من أهداف السياسة الرسمية لقطر . خشية الجزيرة تشكل جزءاً من تلك المساحة المترامية الأطراف من الأرض التى تشغلها السعودية ، وأمكن حفر آبار من المياه المتدفقة يبلغ عددها نحو مائة بئر فى أقصى الجنوب الغربى على مقربة من الحدود السعودية فى أبو سمرة ، وذلك من منبع مصدره السعودية . ويجرى هنا تنفيذ مشروع لتربية الماشية . وسوف يوضع فى حظائر نحو ثلاثة آلاف من الخراف المحلية ذات السيقان الطويلة والسريعة الحركة والقادمة من حدود العراق وسوريا علاوة على ألف خروف مما له لية سمينة من السعودية . وفى هذه الحظائر تطعم الماشية بنبات العضة والذرة مع عدم انطلاقها لترعى . وسوف ينمو طعامها الذى تتغذى عليه فى أرض محاطة بروث الماشية من مزرعة الدولة ، ومن المزمع تطويرها لتطرح دورة من الإنتاج الذى يكفى متطلباتها الذاتية .

وهناك كمية أكبر من المياه الجوفية فى القطاع الشمالى من شبه الجزيرة

ولذلك تتركز التنمية الزراعية بقطر فى هذا القطاع . والحكومة هى المالكة لجميع الأراضى الزراعية . والمزارع كلها تقريباً – سواء المتطورة أم غير المتطورة – ملك لأفراد عائلة آل ثانى ولأصدقائهم المفضلين وهى ضياع خاصة يتم الاحتفاظ بها بغرض المتعة بأكثر من إخضاعها لأى تطبيق جاد لوسائل الزراعة الحديثة . وتوجد الإدارة الفعلية للمزارع عادة فى يد الفلسطينيين أو الإيرانيين أو المصريين الذين إما أنهم مديرون بأجر ويتكفل بهم صاحب الأرض أو مستأجرون ويدفعون إيجاراً سنوياً . وتبلغ نسبة هؤلاء المستأجرين ٣٦ فى المائة من إجمالى عدد الفلاحين بالمزرعة ، وهم يكتسبون عادة شكلا من أشكال وضع المهاجر المقيم .

ولايوجد أى تقليد خاص بزراعة الواحات فى قطر كما حدث لعدة قرون فى مناطق مثل العين بواحة البوريمى بأبو ظبى أو بإقليم الحسا فى السعودية . وقد أنشىء فى أوائل الخمسينات عدد من المزارع الصغيرة على مقربة من الدوحة . وفى القطاع الشمالى ؛ وذلك من خلال ضخ مياه من المستودعات الجوفية الطبيعية . وأصبحت هناك نحو ٤١١ مزرعة بدأ عملها مع حلول عام ١٩٧٠ نظراً لحدوث زيادة كبيرة فى حجم الزراعة المروية خلال فترة الستينيات ، ولكن عدد المزارع تضاءل منذ ذلك الحين إلى ٢٧٠ مزرعة نتيجة زيادة المشكلات الخاصة بمورد المياه والتربة التى نضبت خصوبتها وصعوبات تتعلق بالأيدى العاملة . ويبلغ صافى المساحة المزروعة ٠,١٧ فى المائة فقط من إجمالى مساحة الأراضى بالبلاد ، والقطاع الأكبر منها عبارة عن صحراء .

وتعد زراعة أى شىء فى مثل هذه البيئة المجدبة انتصاراً للإبداع والمثابرة البشرية ؛ ويثير منظر سوق الخضروات بالدوحة ، وقد امتلأ بمنتجات سليمة وطازجة من الطماطم والبطيخ والشمام والخضروات والخضرة وبخاصة الخس، يثير منظره للوهلة الأولى شعوراً بالحبور نتيجة وفرة الإنتاج ونجاح المشروع .

ولكن يمكن أن يكون هذا الشعور خادعاً . إذ ترد المياه من المنبع الرئيسى

لعدسات الطفى . فى الشمال بمعدل يصل إلى ضعف معدل استكمال النقص به من خلال ملئه ثانية ، وتتدهور النوعية بمعدل (٥ فى المائة) سنوياً نتيجة تداخل مياه البحر والتغلغل التصاعدى للمياه المالحة الأعمق ومع تقلص سطح منطقة أو عدسات المياه العذبة .

ويقدر العمر الفعال للمنبع الشمالى حتى بمعدل الاستخراج الحالى للمياه بما يقرب من ٢٥ عاماً إلى ٣٠ عاماً فقط .

ومن العسير على العرب المسنين فهم الفكرة التى تفيد بأن هبة الله سخية يمكن أن تكون محدودة ولذا يتعين الحفاظ عليها . فقد صرح أحد الشيوخ المتقدمين فى السن قائلا : « إذا كان الله قد وهب السعودية بترولا وماء ، ووهب قطر بترولا فلا ريب أنه وهبها أيضاً ماء كالذى وهبه للسعودية » .

وتعتبر وسائل الزراعة المستخدمة فى شبه الجزيرة من الطراز القديم ومبددة للموارد . والمياه واستخدامها الكفء هو المتطلب الأساسى هنا ، وحتى يتحقق هذا فالأمر يحتاج إلى اتباع وسائل تقنية حديثة (التكنولوجيا) فى الإدارة واستخدام آلات على أحدث طراز ، وهو الشىء الذى أهمل ملاك الأراضى توفيره فى حالات عدة . إن جاذبية تطوير الممتلكات العقارية فى المناطق الحضرية مع ما يقترن من استثمار لرأس المال تمثل النمط السائد حتى الآن فى منطقة الخليج . وقد أدى ذلك إلى اعتبار التطوير الزراعى مضيعة للوقت ، وهو مجال يفتقر إلى الانضباط العلمى الذى يجعل من الزراعة الحديثة عملا بحاجة إلى عناية فائقة .

وحينما بلغنا مقصدنا وجدنا أنفسنا نسير وسط شبكة من الطرق البرية التى اصطفت على جانبيها أشجار طويلة ، أشجار التوت وأشجار تين البنغال الضخمة وأشجار الطرفاء . وتخللت هذه الأشجار بساتين فاكهة وحمضيات ونباتات منتجة للحبوب ومنتجات زراعية للتسويق من القرنبيط والخضرة اللازمة للسلاطة ، ومزروعات وفيرة من نبات الغطة الذى يعتبر الغذاء الرئيسى للماشية . وبدا الأمر أشبه بمعجزة من حيث إمكان نمو هذه المزروعات فى

دولة تهطل فيها الأمطار مرتين أو ثلاث مرات فى الشتاء لتحقق بذلك متوسط من الأمطار المتساقطة يبلغ نحو ٥٠ ملليمتراً سنوياً . كما تفرض رياح الصيف اللافحة فيها ضغطاً هائلا على المزروعات ذات القدرة الطبيعية المحدودة على امتصاص المياه بالكمية الضرورية لبقائها . وفى هذا المجال يكتسب العمل الذى يأخذ شكل الأبحاث بالمحطة التجريبية فى الساديات بأبو ظبى أهمية بعينها .

وتوقفنا بعد السير مسافة بالسيارة لنسأل شاباً آسيوياً طويل القامة عن اتجاهات الطرق . وكان هذا الشاب باحثاً زراعياً ببنجلاديش وصل حديثاً من دولته التى يدفع الفقر فيها عدداً مطرداً من مواطنيها إلى السعى وراء رزقهم خارجها .

وقد أعرب بلغته الإنجليزية السليمة والطلقة عن بعض الهواجس التى تنتابه بالنسبة للحياة التى سوف يقضيها خلال فترة سريان عقد عمله .. العزلة المفرطة .. صعوبة الاتصال .. الطبيعة البدائية للبيئة المحيطة به . ولم أستطع منع نفسى من التفكير فى البحار العريضة ببلاده والأبقار وهى تتمرغ على شواطىء النهر ، وتلك الأكمة السامقة من الأشجار التى تلتف حول كل مستوطنة ، والفيضانات والأعاصير .

وحينما عثرنا على مدير المزرعة كان مشغولا فى الإشراف على إصلاح مروحة ببيت زجاجى مزود بتكييف هواء ويشبه تلك البيوت الزجاجية التى شاهدتها فى الساديات . كان شاباً بديناً يرتدى زياً عملياً كاكى اللون ، وهو سورى تدرب كمهندس زراعى فى المجر حيث قضى عدة سنوات بها بناء على منحة مقدمة من دول الكتلة الشرقية . وكان برفقته زميل من مزرعة مجاورة وكانا يفحصان باهتمام إمكانيات آلة ميكانيكية بدائية تحت إمرتهما ويشرحان النظام الرئيسى لعامل مصرى .

وكانوا فى الخارج يضخون المياه ، وملأ الجو صوت الإيقاع الثقيل لماكينة الضخ ، واندفعت المياه على شكل فيضان أسمر اللون مشوب بالصفرة إلى داخل مصارف للمياه بنيت على ضفافها أشجار ظل سامقة . ومن الممتع حقاً أن يشهد المرء مثل هذا النماء والخصوبة ، وأن يرى تلك الصفوف المنظمة

مثل الخوخ والبرقوق والمشمش والكروم تتسلق تعريشتها . ويجلس مجموعات من الرجال القرفصاء على نحو من اللامبالاة على مقربة من البيت الزجاجى وبين مئات من أحواض الزهور وكل مجموعة منهم تقوم برعاية شجرها الصغير وكانت تظلل الرؤوس تعريشة من الخيزران لحماية الشتلات من وهج الشمس الحارقة ، وجلس الرجال فى الظل الرطب وهم ينقلون بأيديهم النحيلة المعروقة النبتة النامية من مكان غرس البذرة إلى أحواض فردية .

وبدا عليهم الضعف الشديد وسوء التغذية على العكس من العرب الشماليين الأصحاء . وأدهشنى صمتهم وجو الاكتئاب الذى يخيم عليهم .. كانوا مجموعة من العمال المستوردين من بنجلاديش ، وذكرونى وهم محتشدون هنا فى هذه الحديقة التى يغلب عليها اللون البنى الجاف بمجموعة من الحيوانات الأليفة التى جمعت سوياً لتحقيق غرض غير مفهوم .. مجموعة يقظة وقلقة مسجونة داخل لغتها وعاداتها الغريبة .

وتمثل القوة البشرية المشكلة الرئيسية لجميع المشروعات بشبه الجزيرة العربية . وكان سكان قطر الوطنيون يسكنون عادة المناطق الساحلية الشمالية وكانوا شعباً يصيد الأسماك ويحب الترحال ولديه اهتماماً بصناعة اللؤلؤ ، وقام البدو فى الجنوب بالسير وفق الأنماط الرعوية القبلية السائدة بين قطر والجزء الداخلى من السعودية . ويبدو أن عدد السكان المستقرين الدائمين فى الفترة السابقة على عصر البترول بلغ نحو ٣٥ ألف نسمة ، ولكن منذ بدء إنتاج البترول عام ١٩٤٨ زاد عدد السكان الأصليين إلى ٥٢ ألف نسمة تقريباً ، وبلغ دخل الدولة عام ١٩٧٦ (١,٧٠٠ مليون دولار) .

ومع هذا يبدو أن إجمالى عدد سكان الدولة يصل إلى ١٣٥ ألف نسمة ، وتتكون الأغلبية من المهاجرين من عرب مغتربين من الشمال أساساً وهنود وإيرانيين وباكستانيين مع وجود تقسيم واضح تماماً للعمل بين الجماعات الوطنية. والانفجار السكانى من جانب المهاجرين هو المسئول عن ذلك الضغط على موارد المياه بالدولة إلى الدرجة التى أصبح من المحتمل عندها نفاد الإمدادات من المياه قبل استهلاك احتياطيات البترول ، إلا إذا تمت صيانتها من خلال

الإدارة ذات المستوى العالى من الكفاءة وحصلت على دفعة من جانب مشروعات باهظة التكاليف لإزالة ملوحة المياه .

ولنوعية اليد العاملة بالمزارع أهمية أيضاً بالنسبة للإنتاجية ، بما أن الغالبية العظمى من المزارع صغيرة الحجم إلى الحد الذى لا يسمح بالتوسع فى استخدام الآلات الزراعية . وقد خلق بنية مجتمع قطر فى هذا الصدد الصعوبات التى تواجهها . فمعظم الفلاحين الذين يستأجرون الأراضى هم من المهاجرين ، وبالتالى فهم عاجزون عن كفالة دخول يد عاملة بمقتضى عقود ذات أجل محدد من أسواق العمالة التقليدية بكل من الهند وباكستان . ونجم عن ذلك أن هناك عملية مزايدة واستقطاب مستمرة للعمال من المزارع التى قام فيها مالك الأرض بدور الكفيل فى عملية هجرة العمال إليه . وترتب على ذلك حدوث تحول شديد فى اتجاهات العمالة ، كما أنه يؤخر أيضاً ويربك تتابع النشاط الزراعى . وكان السواد الأعظم من المهاجرين فى الماضى من رجال قبائل من منطقة شمال غرب باكستان ، فضلا عن كونهم عمال بناء وليسوا عمالا زراعيين . وربما يبرهن الفلاحون القادمون من بنجلاديش الذين يبدو أنهم يدخلون سوق العمالة فى الوقت الحاضر على أنهم عمال أكثر فائدة إذا أمكنهم التكيف مع الصدمة الناجمة عن نزوحهم إلى هذه الأرض الصحراوية الجدباء .

إن تعقيد المشكلات المتأصلة فى إدارة اقتصادهم هو الذى يفرض أكبر الضغوط على العمليات التقليدية لصنع القرار بالنسبة لحاكم خليجى ومستشاريه. وتتطلب التنمية الحديثة تخطيطاً شاملا واستيعاباً لكل العوامل المعنية ودراسة جميع النتائج المحتمل ترتبها . ويحتاج التفكير فى مشكلة ما إلى جهد فكرى مستمر من الصعوبة بمكان فى مجتمعات يتمتع الشباب فيها حديثاً ولتو فقط بتعليم رسمى . وينحدر الحال فى معظم الأحيان بالأفكار والإيحاءات والتطلعات فتتحول إلى نزوات ورفض الاعتراف بالصعوبات المتأصلة فى أى مشروع .

وهناك حاجة إلى الاحتفاظ باحتياجات كبيرة من الصبر حتى يتأتى توصل أى تخطيط بناء على المدى البعيد لخاتمة مثمرة . وهو وضع ينطوى

على اختيار بالنسبة للمستشار الدولى المطلوب منه تقديم المشورة والذى يطرح بعض التوصيات غير المستساغة ويجد نفسه يواجه ، نتيجة لذلك ، فترة غير محددة من الحرمان الفاتر من التمتع بالحظوة . وثمة مفارقة مأساوية تكمن فى وضع يتوارى فيه قدر من عمق التفكير والجسارة فى مفهوم خيالى ، أمام حلول دنيوية قصيرة الأجل يفترضها رجال عازمون بشدة على الاحتفاظ بتألقهم الشخصى وليس لديهم الخبرة ولا الزاد الثقافى الذى يمكنهم من طرح بدائل صلبة معينة .

والرد عند طرح هذا السؤال هو أن ذلك هو القاعدة السائدة فى معظم الأماكن .. مثلما اكتشفت ذلك أليس فى بلاد العجائب وليست شبه الجزيرة العربية مستثناة من ذلك . ولكن الصمت المتعمد يحول دون التساؤل عن مصير اقتراح لم يلق نجاحاً ، ولا يمكن التوصل إلى فكرة عن العوامل التى ساهمت فى وضعه على الرف إلا بطريق غير مباشرفحسب . وهذا المناخ من عدم اليقين هو المسئول عن قدر كبير من الشعور بخيبة الأمل وسأم الروح الذى يستشعره المرء بين أكثر الجاليات الأجنبية فى الخليج ذكاء وحساسية ، ويتضح هذا على نحو أكبر فى مجالات الاستشارة التى تتعامل مع عوامل اجتماعية ـ اقتصادية حيث تلعب القيم الإنسانية دوراً بأكثر مما يتضح فى مجال المشكلات الأقل تعقيدا أو المتعلقة بالتنمية التجارية والصناعية .

اخترقنا فى العودة الطريق المؤدى إلى مزرعة الدواجن التابعة للدولة ، ويعكس هذا جانب آخر من جوانب رغبة قطر فى التمتع بالاكتفاء الذاتى فى مجال متطلبات المواد الغذائية . وكان لزيارتنا للمزرعة فى ذروة حرارة النهار الحارقة وقع المفاجأة على فريق الشبان الأردنيين المسئولين عن المشروع. كان الموقع نائياً ومنعزلا بصورة فريدة .. اتساع فسيح قاحل من الأراضى المحاطة بسياج من الأسلاك ويوجد بالبوابة مكان لإقامة بواب وحارس ، وبالمزرعة مكتب إدارى وسلسلة من حظائر الدجاج الكبيرة مرتبة فى صفوف منتظمة .

وحينما رأوا التعليمات الرسمية المرسلة من الوزارة التى حملها سعيد

معه اطمأنوا وسمحوا لنا بالدخول . ودهش الفلاحون الذين يقومون بتربية الدواجن من اهتمامى بمشروعهم ولكننا شرعنا فى القيام بجولة فى أنحاء المزرعة بسيارة شحن بعد تناولنا شراباً مثلجاً من الثلاجة الكبيرة الموضوعة فى الردهة على سبيل الترحيب بنا . كانوا يقومون بتربية دجاج اللجرن الوافر البيض داخل بيت التدفئة الحديث ، وبدأ الدجاج قوياً ويلقى عناية طيبة . وسألتهم عن حياتهم هنا ونحن ننتقل من حظيرة لأخرى . إنهم فى غاية السرور. قالوا إنهم حينما يحصلون على إجازة بين فترات قصيرة بصفة منتظمة يستطيعون حينذاك السفر إلى عائلاتهم فى الأردن فى غضون ٢٤ ساعة من القيادة السريعة والنوم على قارعة الطريق والمشاركة فى القيادة . وهم يحصلون على أجور مجزية هنا وبوسعهم إدخار أموالهم بما أنه ليس هناك الكثير الذى يمكن إنفاقه عليها هنا . وكانوا جميعاً من العلماء المدربين الجادين أساساً والمهتمين بمشروعهم والفخورين بما يحققون من نتائج . وبدا من الملائم أن يكون كبير العمال لديهم مصرياً ، وهو رجل فى أوسط العمر مرح ودود ، ذلك لأن المصريين مشهورون بأنهم بارعون فى تربية الدواجن ، وبدا هذا المزج بين الخبرة الريفية والإدارة العلمية خليطاً موفقاً .

وحينما بلغنا محطة تغليف البيض حدثونى عن أرقام الإنتاج ونظام التهجين . ثم أخذوا يتشاورون . وحينما تأهبت لتوديعهم قدموا لى بود شديد علبة من البيض تضم ٣٦ بيضة من الحجم البالغ الضخامة .

صحت متعجبة قائلة : « يا إلهى من الذى يأكل كل هذا البيض ، الأمير ؟ » . ولكنهم ضحكوا وقالوا : « لا ، إنها لك » .

وبالتالى وضعنا العلبة بأناة فى المقعد الخلفى ومضينا فى طريقنا وسط الصحراء الصخرية القاحلة تاركين هؤلاء الشباب وراءنا فى محطتهم المنعزلة الفسيحة بمناظرها المقفرة أمامها وما تفتقر إليه من سبل متعة وهم سعداء بحياة العزوبية .

وحينما عدنا إلى الفندق لم أستطع التفكير فيما يجب أن أفعله بهذا البيض. فقد كان البيض ضخماً جداً ، ورغبت فى أن يبدى أحد آخر إعجابه به ،

ومن ثم أعطيته لسعيد واقترحت عليه أن يحمله لعائلته وبدا أن هذا أسعده كثيراً .

ثم ذهبت لتناول الغذاء وانتهيت من تناوله على مائدة حفلت بأطيب الطعام ، ثم جلست برزانة فى ظل بعض نباتات الخنشار المصنوعة من البلاستيك بدقة توشك أن تبعث الحياة فيها وأخذت أنصت لجونى وهو يرتجل برقة مؤلفه الموسيقى « موج » وقال لى إنه بوسعه ارتجال موسيقى شعبية لأية فئة من الزبائن ومن بينها اليابانيون . وقد دأبوا على أن يبعثوا له بملاحظات يطلبون فيها الاستماع إلى المقطوعة الموسيقية « جونى جيتار » أو « وولس لشوبان » ، بل جاء بإحدى هذه الملاحظات ما يلى : « هل يمكننى الاستماع إلى موسيقى لورانس العرب » ؟ .

سألنى الطيب صالح حينما ذهبت للقائه قبيل سفرى إلى لندن مباشرة « كيف قضيت وقتك فى قطر ؟ » .

وكان يجلس خلف مكتبه الرسمى الكبير وهو ينظر لى من خلال نظارته وهو سودانى الأصل ويرأس القسم الذى تكفل بزيارتى ، علاوة على أنه روائى عربى مشهور . وكنت أود التحدث إليه عن عمله .

وكانت هناك ثلاثة أجهزة تليفون موضوعة على منضدة بجوار مرفقه وهى علامة تعكس المكانة والمركز الأدبى لصاحبها ويكون استخدام هذه الأجهزة الثلاثة جميعاً فى وقت واحد فى بعض الأحيان جزءاً من أى لقاء . ومن الصعوبة البالغة إجراء أية محادثة طويلة فى ظل هذه الأوضاع .

وما كدنا نبدأ فى الحديث حتى دق جرس أحدها ، وأمسك بالهاتف بسرعة البرق وعكس وداً عميقاً عبره بصوت مهذب رخيم .

وتحظى روايته « موسم الهجرة إلى الشمال » بأكبر نسبة مبيعات فى العالم العربى وتجرى مناقشتها على نطاق واسع . وموضوعها مناسب للمقام هنا ، ألا وهو تجارب طالب عربى مقيم لفترة فى إنجلترا .

وسألته : هل سيؤلف رواية أخرى عن تجاربه فى الجنوب ؟ . وأجابنى بقوله : « إنى أحب أداء هذه الأعمال . بعد عام أو اثنين فهو عمل متسع ويوسع مدارك المرء ..».

وهو رجل نشط وذكى وحيوى . وجعلنى أفكر فى حشرة اليعسوب فهو يقفز وينقض ويتألق ثقافياً مثل حشرة نحيلة شفافة .

وغمغمت بعد برهة بأنى وجدت عبء الحقائق التى توصلت إليها فى كل منعطف لى فى الخليج ثقيلا ينوء به الكاهل .. وهو يعرقل عملية الإدراك. فكيف نجح هذا الرجل فى التوافق مع هذا الوضع ؟ .

علا صوته وهو يقول – وقد اضطجع فى مقعده وبسط ذراعيه – « الحقائق لا تحدثينى عنها ! إننى أعلم ما تعنين بالضبط إننى كل يوم وطيلة الوقت يشعر المرء أن ..» وفكر فى الكلمة المناسبة ثم فاه بها بتأكيد مظفر قائلا: « يشعر المرء أنه محاصر بالحقائق » !.

ووجدت عزائى فى هذا القول .

* * *

خاتمة

من الخطورة بمكان دائماً التعميم فى القول ، إذ أن للأحداث طريقتها المميزة فى تخطئة أكثر التكهنات اطلاعاً ، ولكن يبدو فى الوقت الحاضر أن شبه الجزيرة العربية ملتزمة ببرنامج من التوسع الصناعى الحديث . وربما عبر المجتمع التجارى خفية عن شكوكه فى حكمة إقامة صناعة فى منطقة ليس بها عدد ثابت من السكان ، ولا سوق محلية حقيقية ، ولا زراعة ، ولكن الأمر أشبه فيها بقصة ملابس الإمبراطور الجديدة . إذ ليس هناك أى منبر لإجراء مناقشة عامة فى أية دولة من الدول ولا يكلف أى أحد نفسه مشقة أن يخبره أنه عارى. . إذا كان عارياً حقاً .

والبنية الأساسية متوافرة من حيث الشوارع والموانىء والمطارات وأحواض السفن الجافة ومصانع إزالة ملوحة الماء والإمدادات من الطاقة ومصانع صهر الألومنيوم وهى كلها مرافق مجهزة للوفاء بأحدث المتطلبات . وتتطلع فعلا فرق الصاعقة التى تحمل لواء التكنولوجيا من مخططين ومهندسين وشركات تشييد عملاقة إلى مناطق مثل جنوب شرق آسيا وأمريكا الجنوبية حيث توجد بها أصول رأسمالية لم تستغل بعد . وقد انتهت بالنسبة لهم حقيقة التجربة فى شبه الجزيرة العربية ، وانتقلت الحدود إلى مكان آخر . وهى فعلا فترة الإشباع ، فترة التعزيز والدعم خلف استراتيجية التغيير العريضة التى بلغت منتهى توسعها ولابد من أن تثبت فعاليتها الآن .

ومن المحتمل أن تصبح الحياة أكثر مشقة حالياً . ومن الجائز مع تطوير وسائل تقنية جديدة أن تصبح احتياطيات من البترول غير مستغلة حتى الآن وأصول أخرى قابلة للإنتاج . ولكن عصر العجائب انتهى وولى . والشىء الذى من المحتمل

أن يعقبه هو الاستفادة – بناء على تخطيط من هذه الأصول ، والتزام أكثر اتزاناً من ذلك التكالب المندفع الأول بالتكنولوجيا . ويتعين على المشكلات الساحرة والقابلة لحل فى النهاية الخاصة بالسيطرة على البيئة واستخلاص موارد شبه الجزيرة أن تسلم القياد الآن للمشكلات الأكثر براعة وإلحاحاً وتتعلق بجعل المجتمع يعمل . وبدون ذلك سيضيع سدى ذلك الإنجاز المادى الذى تحقق طيلة الثلاثة والخمسين عاماً الماضية .

ومن هنا تبدأ المتاعب . إذ أنه حتى التفكير فى سكان شبه الجزيرة على اعتبار أنهم يشكلون وحدة واحدة يمثل خطأ ، وذلك نظراً للانقسام فى صفوفهم نتيجة لاعتبارات الجنس والدين والمكانة الاجتماعية . وهم أفراد فى مجتمع معقد فى تشعب تنوعه الاجتماعى مثله فى ذلك مثل أى مجتمع فى الغرب . وبالنسبة للمجتمعات « الوطنية » الناجمة عن عملية استيلاء داخلى فإن الصفات الشخصية والنمط العائلى للعشائر الحاكمة ينعكس فى سياسات دولهم ، ومن ثم تنزع البحرين والكويت اللتان تشتركان فى تاريخ واحد وفى أصل واحد لحدود يرجع إلى الهجرة الداخلية لقبيلة بنى عتيب فى القرن الثامن عشر ، إلى الاستجابة للمواقف على نحو مشابه ، فى الوقت الذى من المحتمل فيه أن ينتهج حكام آل القواسمى بمنطقة الخليج الأدنى حلولا مغامرة على نحو أكبر واحتمال مناخ مالى أكثر مخاطرة .

وقد بذلت محاولات بتأثير من النفوذ البريطانى لإبعاد أبناء العائلات الحاكمة عن جو الدعة والود والتدليل . . بعيداً عن تملق الرجال وتزلف النساء والأطعمة الشرقية المسببة للسمنة والمناخ الموهن للقوى . . وهى كلها أشياء تحيط بمثل هؤلاء الأبناء فى بيئتهم المحلية . ويجرى إرسالهم إلى المدارس العامة والكليات الحربية الإنجليزية حيث يواجهون ألواناً من الصرامة والمشقة ولايبعث الآن على الدهشة قط أن أحدث جيل من الآباء يفضل إرسال أبنائه إلى سويسرا . وأن المدارس الدولية التى تناسب الأثرياء تفوق المدارس العامة الإنجليزية من حيث كونها الخيار المفضل فى التعليم .

إن مجتمع التجار الثرى هو الذى يدعم حالياً المفاهيم القديمة الخاصة بتشكيل

الشخصية ويلحق أبناؤه بالمدارس الداخلية . ودهشت حينما علمت أن غلاماً قصير القامة بدينا يرتدى سروالا أبيض كنت قد رأيته يجوس فى مكتب والده ، سينتقل من المدرسة الإعدادية فى مدينة سورى بإنجلترا إلى مدرسة جيزويت الشهيرة . وتساءلت وأنا أحملق فى الصبى . كم يدل هذا على مدى تلقيح تهجينى غريب للجنس والثقافة ؟ . وكان يخبرنى بمدى كراهيته لكرة قدم « الرجبى » ، وبالتفاصيل المؤلمة للطمة نالها على عينه من كرة كريكيت .

وأوضح والده باهتمام الوضع بقوله « إن الانضباط هو السبب . . فأنا أريده أن يتعلم الانضباط » . وأضاف يقول للغلام مدللا « تعال ياعزيزى يجب عليك أن تفهم كيفية التسليم بمثل هذه الأمور وقبولها . ولماذا كنت أعمل وأنا فى مثل سنك على قوارب أبى . . . » .

وثمة حاجز غير ملموس قائم بين العائلات الارستقراطية الحاكمة بأسلافها القبليين والمجتمع التجارى ، وهو حاجز نابع عن العرف الاجتماعى . فالتاجر فى مجتمع تقليدى يؤدى عملا مشرفاً يلقى الاحترام وهو متاح لجميع الأجناس والأديان ، ولجميع العائلات الحاكمة أقارب مقسمون فى أعمال تجارية ، تماماً مثلما ينخرط أبناؤنا الشبان فى مجتمعنا فى سلك العمل بالمنطقة التجارية فى لندن . ولكن المكانة نفسها لاتضفى جدارة اجتماعية . على العكس مما يحدث بمجتمعنا ، فقد تطورت الحياة المحلية الداخلية لجماعتين وفقاً – لأنماط مختلفة ، فنمط التجار يتسم بأنه أكثر عالمية وانفتاحاً على الابتكار والإبداع ، ونمط القصور يتسم بالانغماس منذ زمن بعيد فى تحيزات ضيقة على غرار ما كان يحدث فى العصور الوسطى ، وبالتالى فعلى الرغم من أن الثروة والمصالح المشتركة يتحدان للاثمار عن تماثل فى مستويات المعيشة ، فإن أراءهم السياسية لايتفق بعضها مع البعض الآخر بالضرورة ، كذلك فإن ولاءاتهم ليست واحدة .

وقد أبدى أحد الوزراء ملحوظة لى تتعلق بمجتمع التجار فى دولته قائلا : « ثمة نسبة كبيرة من الدماء العراقية تسرى فى عروقهم » وأذهلتنى نبرة التجرد المنفصل فى لهجته كما لو كان يشير إلى جنس ما غريب وليس لأناس تقيم معهم عائلة اتصالات بصفة منتظمة ويعيشون سوياً داخل حدود دولتهم الصغيرة .

وكانت العبارة التى قالها صريحة ، وقد تطوع للتفوه بها مراعاة لفضولى ، ولكن الموضوع ذاته لم يكن ذا أهمية جوهرية بالنسبة له ، وترك لدى انطباعاً غريباً بأنى وصلت إلى طريق مسدود من الناحية الفكرية .

وإذا كانت هناك مثل هذه الحواجز النفسية بين الطبقات المتعلمة فما الذى لايمكن أن يوجد بين الجماهير المنبثقة حديثاً عن مجتمع تقليدى ؟ . إن شبه الجزيرة العربية ليست أرض أفكار بقدر ما هى أرض – تحيزات ، وهذه التحيزات هى التى تقاوم إلى أقصى حد عملية التغيير .

فالشيعيون متحيزون ضد السنيين ، والوهابيون متحيزون ضد الشيعيين والجميع متحيزون ضد المسيحيين واليهود والوثنيين مثل الهندوس . والإيرانيون والعرب مختلفون فى أمزجتهم كالاختلاف بين مزاج القط والكلب . فالجنس الإيرانى فخور بأصوله الفارسية الآرية ، والجنس العربى فخور بأصله السامى . ويتطلع العرب إلى الوراء حيث الانتصارات الحربية التى أحرزوها ، ويتطلع الإيرانيون بالمثل إلى انتصاراتهم المالية حينما قدموا للعالم الشيك المصرفى و كمبيالة الصرف وعلموا غزاتهم العرب كيفية إدارة شئون إمبراطوريتهم .

وتجد هذه التحيزات لنفسها مكاناً على كافة المستويات . . تحيزات للجنس . . للثقافة . . للون . . بل وحتى تحيزات داخل المجتمع الإسلامى على نحو من التحدى لروح الإسلام الموحدة للنفوس والذى كرس أكبر جهد روحى له لنشر مفهوم الأخوة الواحدة فى الدين بصرف النظر عن الجنس أو الطبقة . وليس لدى الغرب – الذى تعتبر منشأته الدينية عناصر تخضع بخنوع للمادية العلمانية – الكثير الذى يمكنه تقديمه فى هذا الإطار ويجد رجال الدين الأمر شاقاً بين جماعات المسيحيين المغتربين فى الخليج ، وذلك نظراً إلى أن الأبرشيات المختلفة تنزع إلى السماح باستقطابها وفقاً لأسس وطنية .

أن إسهام الغرب مستمد من مذهب المنفعة الذى ظهر فى القرن التاسع عشر ، وبالتالى فهو يعانى من أوجه قصوره ، وقد تمحص بالتحالف مع النفعية العربية

عن ذلك المشهد الحالى الذى لايسر والخاص بمجتمع استهلاكى ، وهو مشهد ديك ضخم يقبع فى عش الطير الصحراوى الصغير ويطالب وهو فاغر الفم بتغذيته من الخارج . وفيما عدا اللغة الإنجليزية – تلك اللغة المشتركة التى لاتبارى للمنطقة بأسرها . فإن تلك الفترة الوجيزة لصعود السياسى البريطانى فى منطقة الخليج – والتى لاتكاد تتجاوز ستين عاماً – لم تترك فيما يبدو أثراً وراءها بخلاف ذلك الوجود غير المحبوب الذى تركته وثمة نكوص وارتداد فى المستويات إلى حيث القرن الثامن عشر حينما كان القراصنة والمغامرون من جميع الشعوب يأتون إلى الشمال « لهز شجرة الباجودا المقدسة » ولا يعنيهم كثيراً الطريقة التى هزوها بها . وبدا أن الطابع الرسمى المهيمن للقرن التاسع عشر أفسح الطريق أمام فرد أكثر بدائية عازم بنهم على جمع أموال من خلال الاستغلال المرخص به لحاجة فرد آخر ويحظى بمباركة أجهزته الحكومية فى خطوته هذه . ويكون لهذا وقع المفاجأة أحياناً على أعضاء المهنة الطبية الذين تغريهم مشروعات فخمة من جانب هيئات مهمتها الرئيسية بيع أبنية مستشفيات ومعدات وخدمات وإمدادات ، وتسبب المهمة التى تنبىء بأنهم موجودون هناك لجمع أموال وليس لتقديم خدمة طبية – هؤلاء الأكثر التزاماً برسالة الأخلاق – تسبب لهم الندم على اختيارهم .

والخليج مجتمع أشبه بقرص العسل من حيث تكوينه من وحدات فردية تخضع لتركيبة رأسية حيث يهتم كل مجتمع بشئونه ، وتفصل بين المجتمعات بعضها بالبعض الآخر عوامل اللغة والدين والعادات الاجتماعية . ومع هذا قد يصنفون بعضهم بعضاً ، فالأجانب جميعاً فى نظر العرب كيان واحد ، وهم ليسوا بالمواطنين الذين يستحقون هذا الوصف أساساً وأكثر من ذلك لاجدارة لهم بسبب دينهم وجنسهم . وسرعان ما أفضى استعلاء الإمبراطورية العربية الأولى وما اتسمت به من غلو فى الوطنية إلى فقدان العرب تعاون الشعوب من رعاياها .

وقد فتح الوهابيون فى نجد خلال الربع الأول من القرن الحالى – ونتيجة لاحتقارهم وتجاهلهم للمغتربين من الشام الذين جمعهم ابن سعود حوله فتحوا

الطريق أمام نهب هؤلاء الدخلاء للمملكة السعودية . ونظراً لعدم تشجيعهم على خلق ولاء محلى لهم فقد أخذوا بثأر ضحايا الظلم والاضطهاد وسلبوا مايستطيعون سلبه فى الوقت الذى يحلمون بوسعهم عمل ذلك .

فهل يبرهن السعوديون على أنهم « بوربون » عصرنا من حيث عدم تعلمهم أى شىء وعدم نسيانهم أى شىء أيضاً ؟ . لقد انتهت حروب الغزو الفعلية ولكن يمكن استخدام الثروة بنفس الروح العدوانية التى كان يستخدم فيها السيف . وليس سراً أن السعودية تشعر بأنها مهددة من جانب انتشار نظم الحكم الماركسية فى أفريقيا وآسيا . وينظر إلى الجالية الكبيرة من المغتربين العرب الشماليين المتواجدين فى كافة أرجاء شبه الجزيرة على أنهم أشبه بحصان طروادة الذى يخفى شيئاً لايعلمونه داخله . ولم يعد طابع الانغلاق أو عدم النفاذ أو الانتشار القديم الذى اتسمت به طبيعتها الجغرافية قائماً ، فالثروة البترولية تشبه جوهرة ثمينة تستثير لعاب قطاع الطرق واللصوص . وحولتها عملية تنظيم المجتمع على مستوى محلى إلى ساحة مكشوفة أمام غزو أيديولوجى على الرغم من الرقابة المفروضة . ويقوم صندوق تحرير فلسطين بجمع تبرعات فى كافة أنحاء شبه الجزيرة ، وقد دفعت بامتثال درهماً تبرعاً مثلما فعل جميع المسافرين الآخرين ومعظمهم هنود فى سيارة الأجرة التى استقلتها فى دبى ، وذلك بناء على انطباع أولى بأنى أدفع نوعاً من أنواع الضرائب البلدية إلى أن نظرت إلى الوصل ورأيت اسم الجهة التى تبرعت لها .

ولا تستطيع السعودية إطعام نفسها بالرغم من محل تلك الثروة الهائلة التى تتمتع بها ، وبالتالى يجب أن تتطلع إلى دول مجاورة لتوفير إمداداتها . وكانت أثيوبيا وشعوب المنطقة الساحلية المطلة على البحر الأحمر تقوم تقليديا بتبادل التجارة مع شبه الجزيرة العربية ، وقامت بدور سلة خبز مناسبة للعرب . وقد استثمر رأس المال العربى فى السنوات الأخيرة فى مشروعات تربية ماشية وزراعة محاصيل فى السودان ومنطقة القرن الأفريقى وأبدت اليمن بطبيعتها البرية والبدائية وبمالديها من هضبة مركزية عالية . وهى فى ذلك تعتبر لبنان أخرى . أبدت استعدادها على الفور لأن تصبح منطقة تطور وتنمية بموارد عربية وتكون الفائدة متبادلة

بينهم ، ولكن الأيدلوجية الماركسية سيطرت قبل الآخرين على الوضع فى الجنوب ، وأدت فى الشمال إلى تضاؤل شكل التدخل السعودى كمجرد عملية تبدو ذات طابع سياسى مختل من خلال الأداة المتمثلة فى آلاف اليمنيين العاملين فى السعودية والأموال التى يرسلونها إلى بلادهم .

وأصبح دخول منطقة الخليج والخروج منها على كلا جانبى شبه الجزيرة العربية قاصراً على قنوات ضيقة يصبح من المتعذر بسهولة على السفن استخدامها من خلال بث الألغام فيها . وأصبح المنفذ المباشر الوحيد أمام المنطقة الوسطى من الجزيرة العربية للمحيط الهندى ولتجارتها نظراً لحرمان من هذه الممرات — وهو ذلك المنفذ القائم من خلال السواحل الجنوبية لشبه الجزيرة بالإضافة إلى عدن وميناها وتسهيلات المرفأ المرغوب فيها بشدة . ولكن المنافسات القديمة ، والأيديولوجيات الجديدة بكل من عمان واليمن تعرقل تحقيق أى حل مباشر . وتلصق فى اليمن الشمالية صور الشيخ زايد حاكم أبو ظبى والنصير البارز للقبائل الجنوبية وزعيم الاتحاد الفيدرالى للإمارات العربية الساحلية التعاهدى السابق على نوافذ الحوانيت وداخل أبواب السيارات وعلى صهاريج البترول ورفارف سيارات الأجرة المتسكعة التى تسير عبر أزقة صنعاء الضيقة المتربة التى تمتلىء بالحفر . ويمثل وجود ارتباط قبلى قديم فى المنطقة المحيطة بمأرب التفسير المطروح لهذه الشعبية التى يحظى بها ، ولكن أغلب الظن أن سجل مقاومة عائلة آل نهيان للوجود السعودى فى اتجاه الجنوب هو المسئول عن ظهور الشيخ زايد كمعبود يرمز إلى مصدر بديل للدعم المالى . . وتحد من الجنوب للثروة السعودية التى تمثل قوة باعثة على الوحدة .

ولعل وعى السعودية بضعف جناحها الغربى هو المسئول عن نقل مكاتب الحكومة والتمثيل الدبلوماسى فى الفترة الأخيرة من جده إلى الرياض . . وفى هذا رجوع عن السياسة السعودية السابقة الخاصة بالحفاظ على خلو المناطق المرتفعة من البلاد من وجود الأجانب . وقد أصبح وجودهم قاصراً على المنطقة الساحلية للبحر الأحمر والخليج بجوها المنهك الذى يجعل الجسم يتصبب عرقاً . ولا يمكنهم تنسم هواء الهضبة الجاف الابناء على دعوة . ويتركز النظام العسكرى والدفاع

الجوى الضخم ببعثات التدريب الأمريكية والبريطانية الملحقة به فى قلب المنطقة القديمة التى كان يعيش فيها الوهابيون ويشهد إقليم الحسا الساحلى مشروعات تنمية ضخمة . . إذ تجرى به عمليات حفر وتشييد وتحصين تستهدف فيما يبدو التقليل من الاعتماد على موانى البحر الأحمر ، وجميعها مشروعات تحميها دوريات حراسة ساحلية وغطاء أمنى مشدد وتوجد بالرياض حالياً فنادق تم بناؤها بصورة تتناسب مع استضافة رجل الأعمال الدولى ، ويجرى استدعاء فرق من الخبراء الأجانب للتشاور مع أجهزة الحكومة ، وفى هذا تحول ملحوظ عن السياسة السابقة الخاصة بالانعزال المحلى حيثما كان السعوديون يحرصون على الابتعاد عن الأجنبى بصورة جادة وواضحة . وربما يرى المرء فى هذا انعكاساً لتأثير الفكر العسكرى الذى يوصى به الغرب من خلال كوادر تدريب الجيش والسلاح الجوى السعودى . وتميل القوات المسلحة لأن تصبح فى السعودية — شأنها فى ذلك شأن مثيلاتها فى كل الدول النامية — الأدوات الخاصة بطرح أفكار عن الكفاءة وأساليب التقنية البيروقراطية الحديثة المستمدة من تدريبها ، والتى تفصلهم عن الإدارة المدنية المنبثقة ببطء عن الإدارات السابقة التى تفتقر فى أغلب الأحيان إلى الشكل القاطع للفكر العسكرى الواضح .

ونحن لم نر حتى الآن سوى الفصل الأول من مسرحية عودة الجزيرة العربية إلى دخول المسرح العالمى . ولكن من ذا الذى يمكنه أن يعرف الطريقة التى ستتطور بها الحبكة المسرحية ؟ . إن العرب أنفسهم مسرورون وتسعدهم تلك التحسينات المادية التى يستفيدون منها . وعلى الرغم من أن تهنئتهم أنفسهم على ما حققوه قد تبدو فى نظر مجتمعاتنا المتقدمة قائمة على أساس خيلاء لامبرر لها ، فمن الذى يمكنه أن يجادل فى أن مقدم عهد مواقد البوتاجاز والثلاجات الكهربائية وأجهزة تكييف الهواء بالنسبة لشعب شب على ضوء مصباح الكيروسين وموقد الجاز بريموس ونيران الفحم النباتى يمثل دليلا لا جدال فيه على التقدم ؟ . وقد انتقل استعمال هذه الأجهزة الحديثة الآن من خلال سوق الأدوات المستعملة إلى معظم مستويات المجتمع الحضرى .

ويستند قدر كبير من النجاح الذى حققته السياسات العربية المحلية الراهنة

على أهداف غير طموحة بالمثل . وكانت وصفة هنرى كواتر البسيطة التى قدمها لرخاء مملكته هى « توفير دجاجة فى كل وعاء » ، وهذا هدف سهل التحقيق بالنسبة لقاطنى دول البترول المحظوظين . وما على المرء سوى عقد مقارنة بين أسواق البلدية الحديثة وثلاجات حفظ المواد الغذائية بدول الخليج وبين خط الإنتاج البدائى الذى شاهدته فى مدينة صغيرة تقع شمال اليمن حتى يتأتى له توكيد صحة المنطق الجاف الخاص بحب المنفعة للانسان . ففى هذه المدينة أخذت مجموعة من الجزارين تمارس عملها فى تقطيع كوم غير مرتب من اللحوم وسط طريق مترب . إذ جثمت ثلاث نساء متشحات بالسواد فوق جسم ذبيحة حية انهمكن فى تقطيعها إلى كتل من اللحم ثم وزنها فى ميزان . وأخذ رجلان بجوارهما يكشطان ويلقان جلد ماعز مسلوخ ، وأخذت ماعز وخراف أخرى — صوفها مجعد — ترعى بلا مبالاة فوق كومة من نبات القص الذابل فى ظل جدار قريب . وكان الأطفال يلعبون بين كتل اللحم والجلد المسلوخ ، واستقرت سحابة من ذباب على كل شىء بلا تمييز ، وانتظرت مجموعة هادئة ومركزة من الكلاب الضالة باهتمام وأنوفها عند أقدامها تسعى لالتقاط أية نفاية من لحم أو عظم . وأخذت أرقب أحد الرجال الجبليين فى ردائه القطنى ذى الثنيات وحزامه المزخرف العريض المحشو بخنجر مقوس وهو يشترى بحرص رطلا من اللحم والكلى ثم غادر المكان ومشترواته تتدلى من يده فى حقيبة صغيرة وجديدة من البلاستيك لاتتناسب مع ما اشتراه . ومن المحتمل أن النقود التى أنفقها قد كسبها من العمل فى السعودية ، إذ أن للريال السعودى حولا وصولجاناً فى منطقة الحدود الشمالية حيث من المقرر عماقريب أن يتصل طريق جديد ممتد إلى اليمن ومولته السعودية ببداية الطريق الأسفلتى الموجود حالياً فى « عمرون » شمال صنعاء .

وأصبحت الحدائق والنافورات والمروج الخضراء والأشجار التى كانت منذ ثلاثين عاماً مضت امتيازاً خاصاً قاصراً على أغنى العائلات الحاكمة فقط ، — أصبحت الآن جزءاً من الرصيد المشترك لحياة الحضرية فى المدن . ويقوم الرجال فى المساء — ومعظمهم من أفقر الطبقات المهاجرة — بالتجمع حول حافة النافورات حيث يلطف رذاذ المياه من حرارة الجو ، وفى حدائق البلدية ،

المخصصة للنساء والأطفال يجلس هؤلاء فى جماعات هادئة بين الشجيرات والزهور ومتعتهم كلها تنحصر فى وجودهم بهذا المكان . وقد أصبحت الفكرة القائلة بالحاجة إلى توفير تسهيلات ترفيهية للمواطنين راسخة فى النفوس . . وخصصت مناطق تقع بجوار المدن لتحقيق هذا الغرض حيث يمكن للعائلات أن تتجه إليها للنزهة يوم الجمعة بسياراتها الخاصة وبسيارات النقل . ويتم التعارف سراً فى هذه المناسبات فى وقتنا الحاضر على عدد كبير ممن يحتمل أن يكونوا رفاق الزواج . وتعتبر هذه النزهات البرية حيث الهواء الصحراوى الجاف متعة بالنسبة للنساء والأطفال المحبوسين داخل ساحات دورهم الخانقة وسط الحرارة الساخنة للمدن الساحلية . وهم يستمتعون بالتجول بحثاً عن نبات الكمأة والأعشاب الخضراء خلال موسم الربيع القصير بالصحراء حيث تكمن مياه الأمطار وسط طبقات تعكس السماء لونها الأزرق على سهول ملأى بالحصى وحيث تبدو طبقة لامعة من الحشائش الرائعة والأزهار الصغيرة السريعة الذبول بصورة تشبه المعجزة وسط صحراء قاحلة .

وربما تبدو مثل هذه المتع المتواضعة فى نظرنا شيئاً لايستحق التسجيل ولكن المجتمع الذى أتحدث عنه لم ينفصل كلية عن أصوله فهو وإن كان يستمتع بها فليس فى نفس الظروف التى كان يستمتع فيها آباؤه بين الحين والآخر حيث كانوا وسط أوضاع من المشقة وعدم الأمان .

وربما وضع الأثرياء هذا الأمر خلف ظهورهم ولايستجيبون فقط الآن سوى للمناظر الطبيعية الشمالية وضروب التسلية الغربية ، وذلك على عكس السيدة المتقدمة فى السن التى عادت من رحلتها إلى أوروبا وهى تشعر براحة لعودتها إلى صحراء وطنها بعد السأم من كل هذه الخضرة التى شاهدتها ، أو الأب الذى وصف لى بسعادة كيف يذهب أبناؤه إلى المدرسة يومياً فى الربيع من معسكرهم فى الصحراء ، وهذا أحد الطقوس التى تنم عن الحنين للماضى . . لشىء كان يعتبر فى عصر إحداهم جزءاً طبيعياً من حياة عائلة بإمارة خليجية .

وبالرغم من وجود الأعاجيب التكنولوجية والأدوات العصرية المساعدة فإن مجتمع الخليج يبدو أنه يحتفظ بقدر كبير من عاداته القديمة . فالسكان

لايزالون يتحدثون باللغة العربية ويتناولون طعامهم التقليدى ويتزوجون قريباتهم ، وكلها أنماط من السلوك التى قال عنها علماء الاجتماع إنها آخر شىء يتغير فى كل مجتمع . . وقد يثير شاب الانزعاج لأسرته فى هذا المكان أو ذاك ويرفض الزواج من قريبته ، بل والأدهى من ذلك قد يتزوج أجنبية .

وتضيف الثلاجة المنزلية أو الثلاجة الكبيرة لحفظ المواد الغذائية أنواعاً جديدة وفى غير موسمها إلى وجبة الطعام ، وتتغير مفردات اللغة ويعطى التعليم على نحو متزايد تسهيلات فى الحديث بلغة أخرى ، ولكن العادات القديمة لاتزال قائمة بصفة عامة . . ويكون الشبان أولى صداقاتهم فى نطاق مجموعتهم التى تتضمن أندادهم ، ويعيشون فى مجتمع من الذكور حتى يتزوجوا ، وحينذاك يقعون فى حب زوجاتهم فى معظم الأحيان ويواصلون الحياة الراضية التى تحقق لهم الإشباع كمواطنين مسئولين وآباء لعائلات .

ويتم استيراد أنواع الرياضة والتسلية العصرية ، ويشاهد جميع أفراد العائلة التليفزيون ومع ذلك فإن الحياة القديمة الخاصة بصيد الأسماك والصقور لاتزال مستمرة . . وكذلك القاء شباك للأسماك وركوب الجياد والقيام برحلات حول نيران سعف نخيل وسط الجو البارد بالصحراء أو على أكوام الرمال بجوار شواطىء البحر الهادئة فى الأمسيات التى يرسل فيها ضوء القمر شعاعاً من النور الفضى. وقد انتهى بالنسبة للجيل الصاعد عهد ذلك الكد والكفاح المروع فى الماضى عهد شواطىء البحار التى يكمن اللؤلؤ فى جوفها والرحلة فى موسم الأمطار ، وشبه الموت جوعاً . ويرى المسنون فى هذه البيئة التى ينشأ بها الشبان وتحظى بالحماية خطرا فى بعض الأحيان يتمثل فى نمو جيل غير مسئول أفسده التدليل على طراز المجتمع الغربى .

وهذا الوعى الحاسم بفشل الغرب فيما يتعلق بمجتمعه قد عزز من تصميم العرب على فرض مفاهيمهم عن المعيشة السليمة المعقولة . إن عرب الخليج بحاجة إلى كل عنادهم للحيلولة دون أن يكتسحهم ذلك الفيضان من الأجانب الذى يغمر شواطئهم . وهم يشعرون بذلك الاستياء الذى يصيب رب البيت الذى يحاول ضيفه أو العامل لديه أن ينقل له أسلوبه فى الحياة بوقاحة يزيد

من إثارتها للضيق عامل الانتهازية والأنانية الذى يغلب عليه . والعرب حساسون فى هذا للغاية إلى درجة أن أية ملاحظة يمكن أن تعتبر إهانة وتستفز مشاعر الجماهير .. وتتردد فى أوساط الجاليات الأجنبية حكايات تنطوى على تصرفات خاصة بإنهاء عقد عمل فجأة أو سحب تصريح الإقامة أو الترحيل بسبب ما تعتبره الضحايا أحياناً سوء فهم تافه أو غير مقصود . ويجرى تداول هذه الحكايات كنوع من التحذير فى مجتمع الأجانب . ويمكن أن يسفر هذا فى أوساط المقيمين الموسميين عما يبدو أحياناً كأنه حساسية مبالغ فيها لأى تعليق موضوعى وتصميم ضمنى على الابتعاد عن أى تورط ، ويخلق هذا موقفاً متقلباً له تأثير سلبى فى النهاية .

وليست كيفية معالجة أمر مجتمع مختلط بمشكلة مزيدة من نوعها بالنسبة لدول الخليج ، ولكنها مشكلة تتطلب صفات مهارة وحكماً سليما على الأمور فى معالجة الرجال للموضوع ، وهى صـفات تقليدية مميزة للزعيم العربى . تقول فقرة تم الاستشهاد بها من شعر المتنبى الذى يعتبره البعض أعظم شعراء العرب وعرضت بمتحف قطر « إن للتفكير المتروى الأسبقية على الشجاعة . وله المقام الأول و للشجاعة المقام الثانى . ولكن إذا اجتمعت الصفتان فى عقل حر فإن أصحابها سيحظون بذروة المجد » . أما كيف يمكن التوصل إلى هذا العقل الحر — الذى يتمتع بالموضوعية والذكاء الشديد — بدون التردى فى هاوية تطرف المادية الفظة أو التعصب الدينى الأعمى أو المثالية الثورية المتعصبة ، فهذه مهمة يتعين على الجيل الصاعد أداؤها ، وهو جهد يستهدف التوفيق بين التطور الاجتماعى لشبه الجزيرة وما تشهده من تكنولوجيا .

* * *

المراجع

- مذكرات أغا خان — كيسل ١٩٥٤ .
- مذكرات عن طريق وادى الفرات المؤدى للهند — تأليف و.ب أندرو. و .هـ . إلين ١٨٥٧ .
- سيوف وقدور ومقالى ذهبية — تأليف خوزيه آرنولد — جولانكز ١٩٦٣ .
- تهريب الأسلحة والذخيرة فى الخليج — تأليف البريجادير جنرال أوستن جون مورى ١٩٢٦ .
- الوضع القانونى لدول الخليج العربية — تأليف م. حسين البحارنه — مطبعة جامعة مانشستر ١٩٦٨ .
- تجارة العبيد فى شرق أفريقيا — تأليف ر.و. بيشى — ركس كولينجز ١٩٧٦ . (تجارة العبيد فى شرق أفريقيا — مجموعة وثائق ، ركس لوينجز ١٩٧٦) .
- رأى شخصى — بقلم سير شارلز بيلجريف . مكتبة لبنان ، بيروت ١٩٦٠ .
- مرحباً بكم فى البحرين — تأليف جيمس بيلجريف . مطبعة أوجستين المنامة — البحرين ١٩٧٥ .
- قبائل البدو بوادى الفرات تأليف ليدى آن بلينت . مجلدين — جون مورى ١٨٧٩ .
  (الحج إلى نجد — مجلدين — جون مورى ١٨٨١) .
- أول امتياز بترولى بالكويت — تأليف أ.هـ.ت . شيشولم . فرانك كاس ١٩٧٥ .

- حلب وميدان ديفونشر ، التجار البريطانيين فى الشام فى القرن الثامن عشر – تأليف رالف ديفز – ماكيلان ١٩٦٧ .
- الكويت وجيرانها – تأليف هررب. ديكسون . إلين وانوين ١٩٥٦.
- آخر حرب لجون كبانى – تأليف بربارا أنجليش – كولينز ، ١٩٧١.
- استعراض موجز للحملة فى بلاد ما بين الرافدين : ١٩١٤ –١٩١٨ تأليف الماجور . إيفانز – سيفتون برايد ١٩٢٦ .
- الرحلة فى شبه الجزيرة العربية – تأليف جيرالد دى جورى . هاراب عام ١٩٥٠ .
- بريطانيا والعرب – تأليف سير جون باجوب جلوب – هودر وستوتون عام ١٩٥٩ .
- الصحراء السورية – تأليف كريستينا جرانت . لو مى بلاك ١٩٣٧ .
- لورنس والعرب – تأليف روبرت جريفز – جوناثان كيب ١٩٢٧.
- الإسلام : تأليف لفريد جويلوم . بنجوين ١٩٥٤ .
- تاريخ شرق شبه الجزيرة العربية ١٧٥٠–١٨٠٠ : ظهور وتطور البحرين والكويت – تأليف دكتور أ. م أبو حكيمة . مطبعة الخياط الكاثوليكية بيروت ١٩٦٥ .
- أمراء الزنج : حكام زنجبار . تأليف جينيستا ها ميلتون . هتشنسون عام ١٩٥٧ .
- الإمارات العربية المتحدة – تأليف دونالد هولى . إلين وانوين ١٩٧١
- بن كنديم ، سجل زيارات شرقية – تأليف ذا هون هربرت . هتشنسون ن–د.
- العرب ، تاريخ قصير – بقلم فيليب . ك. هيتى – ماكميلان ١٩٥٠ .
- التغلغل إلى داخل الجزيرة العربية – تأليف د. هوجارت – لندن ١٩٠٤.
- ثلاث صحراوات – تأليف س. إس جارفيس – جون موراى ١٩٣٦ .

- بريطانيا والخليج الفارسى . تأليف ج. ب كيلى . مطبعة جامعة اكسفورد ١٩٦٨ .
- طقطقة الأشواك . تأليف سير اليكس كيركبريد – جون موراى ١٩٥٦.
- العرب فى التاريخ – تأليف برنارد لويس – هتشنسون ١٩٥٠ .
- المعجم الجغرافى لخليج الفارسى . تأليف ج . ج . لوريمر مطبعة الجامعة الإيرلندية ١٩٧٠ .
- رسوم توضيحية لإيران . تأليف سيرجون مالكولم . جون موراى ١٨٤٥ .
- أبو ظبى ، مولد إمارة بترولية . تأليف ماجور كلاريمنى مان . الخياط بيروت ١٩٦٤ .
- الشحنات السوداء – تأليف دانييل ب مانيكس ومالكولم كاولى – لونجمان ١٩٦٢ .
- آبار ابن سعود : تأليف د . فان ديرمبلين – جون موراى ١٩٥٦ .
- لحظة بريطانيا فى الشرق الأوسط ١٩١٤ – ١٩٥٦ – تأليف إلزابيث مونرو – ميثيون ١٩٦٥ . (فيلبى الجزيرة العربية – فابر ١٩٧٣)
- قرصنة ساحل عمان الاتحادى – تأليف هـ . مويس – بارليت – ماكدونالد عام ١٩٦٦ .
- كتيب عن نياسالاند تأليف س . س موراى – كراون ايجينتس ١٩٣٢ .
- تاريخ أدبى للعرب – تأليف رينولد . أ . نيكولسون – تى فيشر أنوين ١٩٠٧ .
- وسط وشرق شبه الجزيرة العربية – تأليف ويليام جيفورد بالجريف ماكميلان ١٨٦٥ .
- رسائل من بلاد ما بين الرافدين ١٩١٥ – ١٩١٦ تأليف روبرت بالمر طبعت لحساب المؤلف الخاص . لندن – ن. د .

– السعودية – تأليف سانت جون ه فيلبي – أرنست بن ١٩٥٥ .

– أوراق واشنطون ، البترول وأمن الشرق الأوسط تأليف ديفيد لين برايس – جامعة جورجتاون – واشنطون ١٩٧٦ فى اليمن العليا تأليف هيو سكوت – جون موراى ١٩٤٢ .

– البرتغاليون قريباً من ساحل السعودية تأليف ر .ب . سيرجنيت مطبعة كلارينلون ، أكسفورد ١٩٦٣ .

– مسافر فى الصحراء : حياة جون لويس بيركباردت تأليف كاترين سيمس جولانكز ١٩٦٩ .

– الحرب العالمية فى إيران تأليف سير كلارمونت سكرين – كونستابل عام ١٩٦٢ .

– المغامر بشبه الجزيرة العربية ، قصة الحاج ويليامسون تأليف و.أ – ستانتون هوب – روبرت هال ١٩٥١ .

– البوابات الجنوبية لشبه الجزيرة العربية تأليف فريا ستارك – جون موراى ١٩٣٦ .

– بابل الجديدة ، صورة للعراق تأليف ديزموند ستيورت وجون هايلوك كولينز ١٩٥٦ .

– دعاة المنفعة البريطانيون والهند تأليف أريك ستوكس – مطبعة كلارينلون أكسفورد ١٩٥٩ .

– واسموسي : لورنس الألمانى تأليف كريستوفر سايكس – لونجمان ١٩٣٦ .

– للملف الخاص بالإمبراطورية تأليف أ.ب. تورنتون – ماكيلان ١٩٦٨ .

– تاريخ المحيط الهندى تأليف أوجستى توسينت – روتليدج وكيجان بول ١٩٦٦ .

– رحلات إلى مدن الخلفاء تأليف ج.ر..ويلستيد – مجلدين – لندن ١٨٤٠ .

– جنوب غرب إيران تأليف سير أرنولد ويلسون– مطبعة جامعة أكسفورد ١٩٤٢ .

– رحلة للهند عبر إيران وبالوشستان تأليف هارى دى ويندت . كابمان وهول ١٨٩١ .

– كابتن شكسبير تأليف فيكتور وينستون – جوناثان كيب ١٩٧٦ .

– قنصل فى الشرق تأليف أسس راتسلو . بلا كوود . أدنبره ١٩٢٤ – شبه الجزيرة العربية ، مهد الإسلام تأليف القس . س.م زيمير . أوليفانت أندرسون وفيرير ١٩٠٠ .

ولابد لى أن أذكر من بين الصحف التى استعنت بها فى كتابى الملاحق الخاصة عن شبه الجزيرة العربية بجريدة التايمز ١٩٧٦ – ١٩٧٨ ومقالات بقلم . ر .سعيد ربوت – الدون روتر – الياهو ابستين بجريدة المجتمع الأسيوى الرئيس الملكى ١٩٢٩ و ١٩٣٨ عن عمان والرق فى شبه الجزيرة العربية والكويت والسعودية .

* * *

المحتويات

الجزء الأول
الدورادو العربية
الفصل الأول

الفصل الثانى

الفصل الثالث

* الدورادو : موطن أسطورى للثروة والرفاهية والبذخ ..

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الجزء الثانى

تدفق التجارة

الفصل السابع

الفصل الثامن

الفصل التاسع

الفصل العاشر

الفصل الحادى عشر

الصفحة

الجزء الثالث

الافتتان بسحر بلاد العرب

الفصل الثانى عشر

الفصل الثالث عشر

الفصل الرابع عشر

الصفحة

الفصل الخامس عشر

الفصل السادس عشر

رقم الايداع ٥٠٩٨ / ١٩٨٠

الترقيم الدولى ٥–٢٧–٧٢٦٤–٩٧٧ ISBN

الهيئة العامة للاستعلامات

مطابع الأهرام التجارية